الأساطير

بين المعتقدات القديمة والتوراة

علي الشوك

الأساطير
بين المعتقدات القديمة والتوراة

الأساطير
بين المعتقدات القديمة والتوراة

علي الشوك

لندن ١٩٨٧

● **علي الشوك:**

ولد في بغداد عام 1929. انهى دراسة الرياضيات (بكالوريوس) في جامعة بيركلي – كاليفورنيا عام 1952. مارس التدريس في العراق. أسهم في تحرير مجلة (المثقف) العراقية (1958 — 1963). نشر مقالات في التراث وغيره في المجلات العراقية والعربية. شارك في ترجمة (الدون الهادىء) لميخائيل شولوخوف. يعنى حالياً بالعلاقة بين الميثولوجيا واللغة، والجذور المشتركة بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوروبية.

● **من مؤلفاته:**

الدادائية بين الأمس واليوم: (بيروت 1970).

الأطروحة الفنطازية: (بغداد 1971).

الموسيقى الالكترونية: (بغداد 1978).

ويقيم حالياً في بودابست، هنغاريا.

© Ali Alshowk 1987

Myths: The old Testament and Ancient Beliefs

Cover Design by D. Azzawi

ISBN 1 870326 01 6

Published in Great Britain by
LAAM Ltd.
1 Cambridge Gate, Regent's Park,
London NW1 4JN, England.

Printed and bound by Unwin Brothers Ltd.,
The Gresham Press, Old Woking, Surrey GU22 9LH
A Member of the Martins Printing Group

مقدمـــة

هذا الكتاب هو تنويعات على كتاب (الأساطير العبرية) لروبرت غريفز ورافائيل باتاي، الصادر في بريطانيا عام 1964[1]. كانت نيتي منعقدة أول الأمر على نقله كما هو إلى العربية، إلا أنني وجدت فيه تفاصيل لا تهم القارىء العربـي غير المتخصص، كما أنه ينتهي في منتصف الطريق، وبالتحديد عند أخبار يوسف بن يعقوب، بدعوى أن ما يلي ذلك يندرج في إطار أشباه الأساطير، مع أن سِيَرَ بقية الرموز الدينية الإسرائيلية لا تقل أسطورية وفانتازية عن الذين تناولهم الكتاب. فرأيت أن يتطرق كتابنا هذا إلى بقية هذه الرموز الدينية، لتبدو اللوحة بذلك أكثر تكاملاً. وأعني بهذه الرموز: موسى الذي يجترح أعمالاً خارقة ترقى إلى مستوى أفعال الآلهة؛ ويشوع الذي يومىء للشمس بالكف عن المغيب ليلة بأكملها لكي يقضي على آخر نفس حية في بلدة جبعون الكنعانية قبل أن يحل فيها الظلام؛ وشمشون وبطولاته الخارقة التي تذكّر بمآثر جلجامش وهرقل؛ وإيليا الذي ترقى ممارساته إلى أعمال السحر، ثم يطير أخيراً في مركبة نارية إلى السماء. ولقد كان أنبياء إسرائيل بين مصلحين وواعظين وأصحاب كرامات ورؤى. فالكلمة العبرية التي تقال للنبـي هي navi، أو nabhi'. ويُظن أن جذرها الاشتقاقي يرجع إلى كلمة نابو nabu الأكدية، وتعني هذه: (يدعو)، (يسمّي). فالنبـي بالعبرية: داعية، أو ناطق باسم الرب. والكلمة، لفظاً ومضموناً، تذكرنا بنيبو Nebo ملهم الكتابة والكلام عند السومريين؛ وكان يرمز له بالوتد، وهو عُطارد في البانثيون البابلي. وكان نيبو السومري هذا ناطقاً باسم الآلهة ايضاً. ولسوف نرى أن كثيراً من المعتقدات الإسرائيلية لها جذور سومرية وبابلية وكنعانية. على سبيل المثال، إن فكرة كبش الفداء الإسرائيلية لها ما يماثلها عند السومريين الذين كانوا ينحرون الخروف ويمسحون الجثة على جدران نيبو Nebo الوسيط المقدس بين الآلهة والبشر. في الطقوس السومرية كان رأس الذبيحة، والجثة يرميان في النهر ليجرفهما التيار بعيداً عن محل إقامة المتعبدين. وعند الإسرائيليين كان كبش الفداء يساق إلى الصحراء ليقذف به من

(1) Robert Graves and Raphael Patai, *Hebrew Myths — The Book of Genesis*, Cassell, London, 1964.

مرتفع. وهذه هي أصل فكرة الكفّارة اليهودية (وبالعبرية كبور، ولا بد أنها ترجع إلى الأكدية: كبارو Kupparu).

وفي أكثر من موضع في التوراة هناك إشارة إلى أن الله اصطفى موسى إلهاً للآخرين (لهارون، ولفرعون)؛ وهذا يذكرنا بالملوك أو القادة «الآلهة» في التراث السومري والفرعوني. كما أن إضفاء صفة الملوكية على الرب، كما جاء في لتوراة، مستعار من التراث الأسطوري الكنعاني، حيث كان (بعل) الإله ملكاً في الوقت نفسه. وفي الأساطير الأوغاريتية كان الملك يصور على أنه ممثل الله بين البشر، وأنه صورة للإنسان الذي جُبل على صورة الله. وهو عين ما تذهب إليه الديانتان اليهودية والمسيحية أيضاً. وقد كان أنبياء إسرائيل يمسحون الملوك عند تسنمهم العرش ليكونوا بذلك ملوكاً مقدسين، على غرار (بعل) الكنعاني الذي كان يكرس ملكاً على جبل صافون. وهناك مفهوم آخر للنبـي في التوراة، هو الرائي، أو صاحب الرؤى والأحلام، وبالعبرية (روئيه) أو (حوزيه). وتصدق هذه الصورة الأخيرة على حزقيال، ودانيال، إلخ. وقد رأينا أن يتطرق كتابنا إليهم أيضاً.

وقارىء التوراة والكتب الدينية اليهودية الأخرى يلمس على نحو واضح انذهال البدو العبريين بالحضارات البابلية والمصرية والكنعانية. وخير مثال على ذلك الصورة الفانتازية التي كونوها عن (الزقورة) في بلاد ما بين النهرين، في قصة برج بابل (انظر سفر التكوين 11: 1 ــ 9). وقصة الطوفان التوراتية مستعارة حتى في تفاصيلها من قصص الطوفان السومرية والبابلية. والظاهر أن هذا التأثر تم في مرحلة سابقة للسبـي البابلي لليهود، فقد عثـر في مجدّو الفلسطينية على ألواح ملحمة جلجامش التي تروي قصة الطوفان.

والميثولوجيا، كما يقول لوكيه *Luquet*، هي الإيمان بقوى فوق طبيعية أو بكائنات تختلف عن البشر وتفوقهم في ما يمارسونه من أعمال تصدر عنهم مباشرة أو من خلال ظواهر طبيعية. أو هي، كما يقول غريفز وباتاي، قصص درامية مسكوبة في إطار ديني، وجدت إمـا لتكريس المؤسسات والتقـاليد والطقوس والمعتقدات القديمة، في الأماكن التي ظهرت فيها، أو لتأكيد مفهوم التغير. وانطلاقاً من هذا فهما يترددان إلى حد ما في اعتبار أخبار التوراة تنطوي على أساطير، لأن سواها من الأساطير، أو معظمها، يتحدث عن الآلهة والإلاهات الذين يتدخلون في شؤون البشر، وينحازون إلى هذا البـطل أو ذاك، بينما لا تعترف التوراة بغير إله واحد للكون.. لكننا سنرى أن الحدود بين الأساطير

حسب المفهوم المتعارف عليه وبين بعض المعتقدات الدينية اليهودية ستبدو واهية، وبالأخص إذا أدركنا أن معظم هذه المعتقدات نشأ من أساطير سابقة.

ويأسف المؤلفان ــ غريفز وباتاي ــ لأن الوثائق الدينية السابقة للتوراة لم تصلنا، لأنها فُقدت، أو أتلفت عمداً. من بين هذه الوثائق: (كتاب حروب يهوة)، و (كتاب يشار)، اللذان يرويان بأسلوب ملحمي قصة تيه الإسرائيليين في الصحراء واحتلالهم أرض كنعان. وقد ألفا بالعبرية، بأسلوب شعري قديم، على نحو ما نلمس من الأمثلة التي نجدها في سفر العدد (21: 14)؛ وسفر يشوع (10: 13)؛ وسفر صموئيل الثاني (1: 18). وهناك كتاب ثالث يقال إنه صنف في سبعة أجزاء بأمر من يشوع، يرد فيه وصف لأرض كنعان ومدنها. (انظر سفر يشوع 18: 9). وفي (كتاب قصة آدم) رواية مفصلة عن الأجيال العشرة الأولى من آدم إلى نوح. أما كتاب يهوة فيبدو أنه مجموعة حكايات على السنة الحيوانات، على غرار كليلة ودمنة. ولا بد أن الكتب الأخرى التي ورد ذكرها في التوراة، مثل (صنائع سليمان)، و (كتاب الأنساب)، و (أيام ملوك يهودا، وملوك إسرائيل، وأبناء لاوي)، تحتوي على معلومات ميثولوجية غزيرة. أما الوثائق الدينية التي دونت بعد التوراة فكثيرة هي الأخرى. ففي بحر السنوات الألف التي تلت ظهور الكتاب المقدس، كتب يهود أوروبا، وآسيا، وافريقيا، بغزارة. وكانت هذه الكتب إما تفسيراً للشريعة الموسوية، أو شروحاً تأريخية، وأخلاقية، وقصصية، ووعظية، لمواضيع التوراة. وفي كلتا الحالتين احتوت على مادة ميثولوجية جمة، لأن الأسطورة تكرس مفهوم القوانين والطقوس والتقاليد الاجتماعية.

ولئن ساد الاعتقاد بأن التوراة كتبت بوحي مقدس، ومن ثم فإن أية إلماعة ترتدي مفهوم الشرك، أي الإيمان بأكثر من إله واحد، كانت تحذف والحالة هذه، فقد كان الموقف من كتب التفاسير الدينية يتّسم بالتساهل. فالعديد من الأساطير التي طمست معالمها، سمح لها بالظهور في المدراشيم[2]، وهي نصوص دينية يُعتدّ بها بين الأوساط اليهودية. على سبيل المثال نقرأ في سفر الخروج أن جياد وعربات وخيّالة الفرعون توغلت في مطاردتها لبني إسرائيل بعيداً في عرض البحر (سفر الخروج 14: 23). واستناداً إلى مدراش ميخليتا، إن الله اتخذ هيئة مهرة اغرت خيول المصريين المستثارة واستدرجتها إلى عرض البحر. وعندما أغرقت الإلاهة ديميتر، التي لها رأس مهرة، عربة الملك بيلوبس Pelops في نهر

(2) جمع (مدراش)، وهي كتب في تفسير التوراة الف معظمها في القرون الوسطى.

(الفيوس) بمثل هذه الطريقة الماكرة، فقد كان سلوكها مسوّغاً في سياق الأساطير الإغريقية؛ أما بالقياس إلى قارىء المدراش الورع، فلم تكن هذه الرواية المماثلة لها، أكثر من تعبير مجازي عن استعداد الرب لحماية شعبه المختار، كما يقول غريفز وباتاي في مقدمتهما لكتابهما الآنف الذكر.

ويقول المؤلفان أيضاً: ولا يكشف لنا الكتاب المقدس إلا القليل من الإلماعات عن المادة الميثولوجية الغزيرة المفقودة. وغالباً ما تكون الإشارة عابرة يصعب ملاحظتها. فقلة، على سبيل المثال، عندما يقرأون: «وبعده جاء شمجر بن عناة الذي قضى على ستمئة من الفلستينيين[3] بمنخز الدواب، وأنقذ إسرائيل» (سفر القضاة 3: 31) يربطون بين أم شمجر وإلاهة الحب الأوغاريتية الكنعانية المتعطشة للدماء، العذراء عناة، التي سميت باسمها (عناتوت) مدينة إرميا المقدسة. كما أن أسطورة حام، أصغر أبناء نوح، حول إخصاء أبيه، هي قصة مطابقة لتآمر زيفس وبوسيدون وهاديس ضد أبيهم كرونوس، حيث جرؤ زيفس، وهو أصغرهم أيضاً، على إخصائه، وتمكن بذلك من احتلال عرش السماء. بيد أن إخصاء حام (أو ابنه كنعان) لنوح حُذف من التوراة قبل عبارة «وصحي نوح من سكره، وأدرك ما فعله به ابنه الصغير». وقد قضى النص المعدل على حام بأن يبقى هو ونسله عبيداً لسام ويافث بسبب جريمة تافهة، هي مشاهدة أبيه عارياً، كما سنرى فيما بعد.

وجاء في مقدمة المؤلفين أيضاً: وفي أساطير التوراة يمثل الأبطال ملوكاً في بعض الأحيان، أو سلالات في أحيان أخرى، أو قبائل أيضاً. إن أبناء يعقوب الاثني عشر، على سبيل المثال، كانوا على ما يبدو قبائل مستقلة اتحدت سوية لتؤلف اتحاد القبائل الإسرائيلية. وقد لا يمتّ آلهتهم المحليون وأفراد القبائل إلى الآراميين بالضرورة، رغم أن كهنة آراميين كانوا يحكمونهم. ويوسف وحده، إلى حد ما، يمكن إيجاد قرين له بين الشخصيات التأريخية. كما أن الزعم بأن كلًّا من هؤلاء «الأبناء» باستثناء يوسف، قد تزوج شقيقتين توأمين، يمكن تفسيره على أن الأرض كانت تورث عن طريق الأم حتى تحت الحكم البطرياركي (الأبوي). ويمكن فهم حالة (دينة)، وهي ابنة يعقوب الوحيدة بلا توأم، كقبيلة شبه أمومية تنتمي لاتحاد القبائل الإسرائيلية. وينبغي أن تفسر رواية التوراة عن اغتصاب شكيم لها، ورواية المدراش عن زواجها بشمعون، في الإطار

(3) سيرد تعريف بهم في (المدخل). وللتفريق بينهم وبين الشعب الفلسطيني سيرد هذا الاسم دائماً بحرف التاء.

السياسي، وليس الشخصي. وهناك إلماعات أخرى عن المجتمع الأمومي القديم في التوراة: مثل حق الأم في تسمية أبنائها، وهو ما يزال سارياً عند العرب، كما يقول المؤلفان؛ والزواج الأمومي (حيث يقيم الزوج مع عشيرة الأم): «وسيترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بزوجته» (سفر التكوين 2: 24)، وقد اتبع شمشون هذا التقليد الفلستيني عندما تزوج دليلة. وتفسر هذه أيضاً كيف أن إبراهيم [الخليل] الشيخ الآرامي الذي دخل فلسطين مع الغزاة الهكسوس في أوائل الألف الثاني ق.م. أمر خادمه لعازر أن يشتري لابنه إسحاق عروساً من أبناء قبيلته البطرياركية (أي ذات النظام الأبوي) في حرّان، بدلاً من أن يدعه يتزوج امرأة كنعانية ويلتحق بعشيرتها. ثم إن إبراهيم طرد أبناءه من محظياته، لئلا يحق لهم أن يكونوا شركاء إسحاق في الإرث. وكان الزواج الأمومي سائداً في الأساطير الإغريقية المبكرة، أيضاً. وقد أشار كتّاب الأساطير إلى أن أول من نقض هذا التقليد هو اوديسيوس الذي أخذ بنيلوب من اسبارطة إلى إيثاكا؛ ثم ما لبثت أن عادت إلى إسبارطة بعد طلاقهما.

وبوسعنا أن نلمس دور الإلاهات في النظام الملكي اليهودي من خلال استنكار إرميا لجماعته الذين عزوا سقوط دولة يهودا لنقضهم العهد مع عناة (الإلاهة) قائلين: «فلنعد إلى عبادة ملكة السماء، كما كان آباؤنا يفعلون من قبل!».

ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤلفين اللذين يتمتعان بقدر كبير من النزاهة العلمية الموضوعية، واللذين لم يتركا كبيرة ولا صغيرة دون أن يتناولاها بالتعليق، اعتصما بالصمت عند تطرقهما للمواعظ ـ التوراتية ـ التي تتحدث عن «أرض الميعاد». لكننا نستطيع أن ندرك إبعاد هذا الصمت عندما نعلم أن هذين الكاتبين لم يترددا في أن يذكّرا قراءهما بأنهما «متزمتان» في عقيدتهما الدينية: غريفز في بروتستانتيته، وباتاي في يهوديته، كما أشارا إلى ذلك في مقدمة كتابهما.

والواقع أن فكرة «أرض الميعاد» تلتقي، في الجوهر، مع مقولتين عرقيتين أخريين، هما(1): إن الرب يهوة هو رب بني إسرائيل وحدهم، و(2) إن بني إسرائيل هم شعب الله المختار. وقد استغل العبريون هذه المزاعم لأجل احتلال أرض كنعان واستعباد شعبها، مستمدين من الهالة الدينية لهذه المقولات عزماً لتحقيق هذه الأهداف العنصرية والتوسعية.

وأخيراً، نود أن نحيط القراء الكرام علماً بأننا اتبعنا الطريقة الآتية في

عرض مادة هذا الكتاب: نورد نص الأسطورة أولاً، ثم مناقشتها من قبل المؤلفين، كما جاء في كتابهما. أما تعقيبنا أو تعليقنا فيلي ذلك، وهو تحت عنوان (على هامش النص). كما أن المدخل إلى الكتاب، والفصول التي تلي موت يوسف بن يعقوب، وهوامش الكتاب كافة، من عندنا.

علـــي الشوك

مـــدخـــل

العبـــريـــون

المعلومات التي وصلتنا عن القرنين الأولين من تأريخ العبريين مستمدة من التوراة فقط. وهي عبارة عن حكايات تندرج في إطار الخرافة يصعب الاعتماد عليها، كما تقول الموسوعة البريطانية (طبعة 1984). أما ما تلا ذلك فثمة قرائن تأريخية تتفق مع بعض ما جاء في التوراة، وتنقض البعض الآخر، أو تختلف معه في التفاصيل والأزمنة والأمكنة.

أما كلمة (عبري) فليس هناك إجماع حول أصلها. بعضهم يرجع بها إلى (عابر) الجد الخامس لإبراهيم الخليل، على نحو ما جاء في التوراة. و (عابر) تفيد معنى العبور، عبور النهر أو سواه؛ وهي كلمة سامية مشتركة. ويتفق معناها اتفاقاً مصطنعاً أو عارضاً مع قصة عبور العبريين نهر الأردن إلى أرض كنعان. ويرى آخرون أن كلمة (عبري) من خابيـرو Khapiru. والخابيـرو أو الهابيرو أو العبيرو قبائل بدوية كانت تجوب المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية، وتعيش في الغالب على النهب والسلب. وهم لا يمثلون جماعة عرقية بعينها؛ إنما الخابيرو تسمية أطلقت على جماعات من الرحّل والأجانب والأشقياء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش لقاء أجر أو بدافع الحصول على الغنائم[1] والخابيرو، حسب قول بريستيد، بدو آراميون ساميون يغيرون على المدن والقرى التماساً للمغانم. ويرى آخرون أن (الابيرو) تفيد معنى المغبر أو المغطى بالغبار. ثم استعمل هذا الاصطلاح بمعنى دال عـلى الأجنبـي أو المهاجر[2]. وقد ورد ذكر الخابيرو في ألواح ماري على الفرات الأوسط في سوريا، وكذلك بنو يامينا، وهؤلاء ليسوا مطابقين لعائلة بنيامين بن يعقوب، بل اسم مشتق من لفظة اليمين (أي اليد اليمنى) أو الجنوب، لأن الجنوب يكون باتجاه اليد اليمنى، إذا واجهنا الشمس عند الشروق. كما يرد في ألواح ماري

(1) حتي: تأريخ سوريا ولبنان وفلسطين 173/1، عن كتاب (بلادنا فلسطين) لمصطفى مراد الدباغ.

(2) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ص 244 ـــ 245. دار الحرية، بغداد 1972.

(في حدود سنة 2000 ق.م.) ذكر لمدينة ناخور، ولعلها تذكّر باسم ناحور أخي إبراهيم على نحو ما جاء في التوراة. وفي ملحمة اللآليء الأوغاريتية (الكنعانية)، تأليف الكاهن الأوغاريتي إيلي ميلكو يرد ذكر العبريين مرة واحدة فقط: «العبرانيون، حدِّدْ حدوداً للعبرانيين»[3]. كما ورد ذكرهم أيضاً في النصوص البابلية وألواح تل العمارنة بمصر (في القرنين الخامس عشر والرابع عشرق.م.) وغيرها. وجاء في الموسوعة البريطانية أن الهابيرو Hapiru أو الآبيرو Apiru كانوا قبائل غازية تعيش على السلب؛ وهي جماعات غير متجانسة، ويرى العديد من المؤرخين أنها أصل العبريين، وأن الإسرائيليين لم يكونوا سوى فخذ منهم.

وجواباً على سؤال حول هوية العبرانيين، يشير ديل ميديكو إلى أنهم دخلوا فلسطين «في زمن تل العمارنة أي حوالي 1400 قبل الميلاد، ويصح أن يكونوا من قبائل الخبيرو التي كانت تقاتل آنئذ الكنعانيين». ويومئذ كان الكنعانيون، والفلستينيون القادمون من البحر، وآخرون، يشكلون سكان أرض كنعان التي سميت فلسطين فيما بعد. وكان الجزء الجنوبي من أرض كنعان خاضعاً للنفوذ المصري يومذاك. وقد تعرض الفلستينيون مع الكنعانيين على حد سواء لغزو قبائل الخابيرو هذه، حيث جاء في رسالة عبدي خيبا ABDI-Khepa والي الفرعون المصري أخناتون على فلسطين: «أخذ الفلستينيون يهاجرون رعباً من فضائع بدو الخابيري»[4].

ويشير ديل ميديكو في تعليقه على نص الملحمة الكنعانية (اللآليء) إلى أن تقاليد العبريين قريبة في ذلك العهد (منتصف القرن الرابع عشرق.م.) من تقاليد الحثيين وشعوب ما بين النهرين. ولما كان إلٓههم يدعى (يه) أو (يهوة)فثمة صلات لغوية وعرقية كانت تربطهم بالحثيين والحويين[5] المقيمين في أرض كنعان. ويميل ديل ميديكو إلى الاعتقاد بأن العبريين يؤلفون بقايا الحثيين الذين اجتاحوا مملكة بابل بتأريخ 1900 قبل الميلاد[6]. ويقول جيمس هنري بريستيد

---

(3) اللآليء، لإيلي ميلكو، ترجمة مفيد عرنوق عن نص ديل ميديكو، منشورات مجلة الفكر 1980.

(4) في النص المترجم: الفلسطينيون.

(5) الحثيون: أسسوا دولة في الاناضول وامتد نفوذهم إلى سوريا الشمالية. ازدهرت حضارتهم في الألف الثاني ق.م. تعتبر لغتهم اقدم لغة هندية ــ اوروبية عُثر على نصوصها حتى الآن. قضى عليهم الآشوريون عام 717ق.م. والحويون: كنعانيون استوطنوا شكيم (نابلس)، وجبعون. تهادنوا مع اليهود وعقدوا صلحاً مع يشوع، ولما حاربهم العموريون خفّ اليهود لنجدتهم. ووفق راي آخر ان الحويين هم الآخيون القادمون من البحر.

(6) اللآليء، ص 157.

في كتابه (احتلال الحضارة)، في معرض كلامه على تمازج الحثيين بالشعوب السامية: «في فلسطين اختلطت شعوب سامية بشعوب منحدرة من المناطق الجبلية الشمالية. وهذه الشعوب، وبنوع خاص الأناضولية القديمة، هي غير سامية ألفت فيما بعد الشعب الحثي Hittites الذي خلف في فلسطين طابعاً أتنولوجياً مميزاً بالنسبة لبقية الأعراق السامية، وهو الأنف المعكوف الذي كان من المعتقد بأنه من المميزات السامية وبنوع خاص اليهودية. بينما هو كما نرى اليوم يعود إلى السلالة الأناضولية. فهو إذن غير سامي انتقل إلى الساميين عن طريق التمازج السلالي»(7).

بيد أن العبريين لم يمتزجوا بالحثيين وحدهم، بل بأقوام أخرى أيضا. ويبدو أن «قبيلة إسرائيل» كانت منذ بدايات تشكيلها تتألف من أجناس شتى؛ فقد تزاوج العبريون القدماء مع مختلف الأقوام، كالعموريين (أو الآموريين في قراءة أخرى)، والحثيين، والكوشيتيين، وغيرهم. والعموريون كانوا شقراً طوال الرأس وطوال القامة، وهم ساميون كان موطنهم شمالي سوريا (واليهم ينتسب حمورابي). وكان الحثيون سُمرا، ولعل ملامحهم كانت مغولية. أما الكوشيتيون فزنوج. وسوف نرى أن زواج إبراهيم بسارة هو في حقيقته اتحاد قبيلة آرامية بطرياركية يرئسها شيخ يتمتع بمنزلة دينية، مع قبيلة أمومية من العرب الأوائل ترئسها أميرة ـــ كاهنة، كما يدل اسمها (سارة في اللغات السامية تعني أميرة، أو سيدة، ومنها سراة القوم). وإبراهيم موضع تنازع بين الساميين، وقاسم مشترك بين اليهود والمسحيين والمسلمين، رغم أن هويته لم تتحدد بعد على نحو قاطع في المصادر التأريخية.

ويبدو أن أقدم تسمية لليهود هي (العبريون)؛ وبالعبرية عفرييم Ivriyyim، ثم عُرفوا بعد ذلك باسم الإسرائيليين Yesre'elim ابتداء من دخولهم أرض فلسطين حتى نهاية السبي البابلي في عام 538ق.م. بعد ذلك أصبح مصطلح (يهودي) يطلق على الجميع، لأن الذين عاشوا بعد السبي (سكان مملكة يهودا السابقين) كانوا الإسرائيليين الوحيدين الذين استرجعوا هويتهم. أما القبائل العشر التي كانت تتألف منهم المملكة الشمالية فقد تشتت شملها بعد الغزو الآشوري في 721 ق.م، وتم ذوبانها مع الأقوام الأخرى تدريجا. (عن الموسوعة البريطانية). وإذا كان من المبتوت فيه أن الطفل الذي يولد من أم يهودية يعتبر يهودياً (لولا ذلك لربما انقرض اليهود، ولعل ذلك

---

(7) المصدر السابق، ص 156.

ـــ أيضاً ـــ امتداد لنظام المجتمع الأمومي)، فإن بعض المفكرين الجادين ينكرون وجود أي أساس علمي لتحديد الهوية اليهودية على أساس إثني Ethnic.

يبدأ تأريخ اليهود، كما ترويه التوراة، بهجرة إبراهيم في حدود 1800ق.م. مع أبيه تارح وزوجته سارة وابن أخيه لوط، من مدينة أور السومرية في جنوب العراق إلى حرّان الآرامية في أعالي الفرات (قرب مدينة أورفة حاليا، وتقع في الأراضي التركية الجنوبية). وفي سفر التكوين (4:24) أن إبراهيم من أصل آرامي. ولم تطل به الإقامة في حرّان، فتركها عندما اجتاحتها المجاعة إلى مصر. وفي مصر تجمعت لديه ثروة كبيرة، لكنه ما لبث أن ترك مصر وما يملك وعاد إلى أرض كنعان ليقيم في حبرون (مدينة الخليل التي سميت باسمه على ما يفترض).

ولما كانت سارة عاقرا، فقد زوّجته بجاريتها هاجر، على مألوف عادة تلك الأيام، لكي تنجب له ولدا، كما تقول التوراة. فولدت هذه له إسماعيل. وفي شيخوخته، ولدت له سارة، بعد أن طعنت في السن، إسحاق، كما جاء في التوراة أيضا. ثم أنجب إسحاق عيسو ويعقوب. وهذا الأخير سُمي إسرائيل فيما بعد، وإليه ينتسب الإسرائيليون، أو إلى أبنائه الاثني عشر المزعومين. و (يعقوب) اسم سامي كان شائعاً بين القبائل السامية، «فمما يذكر أن اثنين من ملوك الهكسوس كانا يحملان اسم (يعقوب ـــ إيل)، و (يعقوب ـــ بعل)، جرياً على العادة المتبعة بإلحاق اسم الاله باسم الملك من قبيل التبرك. وقد وردت كلمة (يعقوب ـــ إيل) أيضاً بصغة اسم لمكان في الكتابات المصرية»(8).

وعندما اجتاحت المجاعة أرض كنعان، نزح يعقوب هو وعائلته إلى مصر في أيام حكم الهكسوس. وعاش نسلهم في مصر زهاء الأربعة قرون. وفي مصر استعبدهم الفراعنة وعاملوهم معاملة قاسية، ولا سيما في عهد رعمسيس الثاني. فكان خروجهم من مصر بقيادة موسى في نحو 1227 ق.م، ميممين وجوههم شطر ارض كنعان. كانوا اثنتي عشرة قبيلة، وهو رقم توراتي رمزي أكثر منه حقيقة، يذكرنا بالأحلاف اليونانية القديمة المؤلفة من 6 أو 12 قبيلة أو مدينة، توحدهم فكرة مهلهلة هي إيمانهم بيهوة. وتروي التوراة أن موسى أرسل 12 جاسوساً (مرة أخرى الرقم 12)، من بينهم يشوع، إلى أرض كنعان ليتحروا عن الوضع

---

(8) احمد سوسة عن: Olmstead, «Palestine» p. 106.

فيها. فأفاد تقرير الجواسيس بأن الأرض تفيض لبناً وعسلاً وثمرا. بيد أن الشعب الموسوي جبن ولم يجرؤ على مقاتلة الكنعانيين. فغضب الله عليهم وقضى بتيههم أربعين عاماً (وهو رقم آخر، مثل الرقم 12 يعود أيضاً لتقاليد شعوب ما بين النهرين، كما يقول ديل ميديكو). أما الصلة بين الآباء الاسرائيليين الاثني عشر وبين قصة الخروج (خروج موسى) فموضع شك إلى حد كبير، كما تقول كاثلين كينيون في كتابها (الكتاب المقدس والتنقيبات الآثارية، ص 24 طبعة 1986 البريطانية).

بعد ذلك حاول موسى دخول أرض كنعان من جنوب فلسطين عن طريق بئر السبع، إلا أنه واجه مقاومة عنيفة من السكان، فاتجه نحو شرق الأردن. لكنه مات في هذه المرحلة، وخلفه يشوع الذي عبر نهر الأردن واحتل أريحا وأعمل السيف في سكانها بلا رحمة. وكان يشوع مصمماً على إفناء الكنعانيين، إلا أنه مات دون أن يتحقق له حلمه هذا. بعد ذلك تمخضت المصاعب التي تعرض لها اليهود عن بروز قادة سُموا بالقضاة، تمكنوا من لم شمل القبائل ومواجهة المحن، لكن في نطاق محلي محدود، وقد اشتهر بين هؤلاء القضاة جدعون، ويفتاح، وشمشون. وهم شخصيات حقيقية أحاطتهم التوراة بهالة من الخرافة والأسطورة.

وقد قادت طائفة من الأنبياء الذين كانوا يرتدون مسوح الرعاة، تكريماً لإله الرعي، أقلية إسرائيلية صغيرة وشديدة المراس، مدركين أن الأمل الوحيد لبني إسرائيل في إقامة دولة مستقلة لهم، يمكن تحقيقه في نظام قائم على الإيمان بإله واحد، كما تقول الموسوعة البريطانية. وقد دام حكم القضاة بين (1200 و 1020 ق.م.) وفي هذه المرحلة تم هضم الحضارة والأفكار الدينية الكنعانية، وتهديد غزاة آخرين كالفلستينيين، وهم شعب إيجي استوطنوا في حدود القرن الثاني عشر ق.م. أو قبله ساحل ما سمي فيما بعد باسمهم (فلسطين)، متحصنين باتحاد من خمس مدن، وباحتكار صناعة الأدوات والأسلحة الحديدية. إلا أن الفلستينيين تمكنوا من الزحف شرقاً إلى أرض كنعان، وإخضاع القبائل الإسرائيلية، مثل قبيلة يهودا وقبيلة دان، الأمر الذي دفع اليهود إلى أن يتوحدوا لأول مرة في تأريخهم تحت حكم ملك واحد هو صموئيل النبي. ثم مسح هذا بالزيت شاؤول، القائد العسكري لقبيلة بنيامين، ملكاً (في حدود 1020 ق.م.)[9]. وانتصر شاؤول على العمونيين (وهم ساميون كانت

(9) مسح الملوك بالزيت عند التتويج عادة كانت متبعة بين الساميين، بمن فيهم الآشوريون. ولفظة (المسيح) تعني الممسوح بالزيت.

عاصمتهم ربة عمّون، وهي عمّان الحالية)، والفلستينيين، والعماليق (أو العمالقة)، في حروب «مقدسة»، وأوقف لأمد زحف الفلستينيين. بيد أن شاؤول وابنه يوناثان ما لبثا أن قُتلا شر قتلة في معركة هُزم فيها اليهود هزيمة منكرة أمام الفلستينيين، في وسط فلسطين.

وكان داود مساعد شاؤول وصهره، لكنه لم يكن على وفاق معه. فاضطر إلى الهرب منه خوفاً من بطشه. وبعد مقتله انقض على ابنه أشبوشت وجلس على العرش. وكان الملك داود (حوالي 1004 ـ 963ق.م.) أشقر الشعر، وسيماً وقوياً بإفراط، كما يقال؛ لكنه كان، على نحو ما يصوره فليشـرز في روايته التأريخية (وادي الأحلام)، فظاً، متعطشاً للدماء، مهووساً جنسيا، إلى حد أنه لم يتورع عن تدبير مكيدة لأحد أبرز قواده (أوريا الحثي) ليتزوج بزوجته الجميلة بيتشبع.

استولى داود أول الأمر، بفضل التحسينات التي أجراها على الجيش الإسرائيلي بعد أن أدخل المركبات الحديدية والآلات الحربية الحديدية، على القسم الجنوبي من فلسطين (يهودا)، ثم أخضع فلسطين كلها تحت حكمه، وأنشأ امبراطورية صغيرة على المناطق المجاورة. واتخذ مدينة حبرون (الخليل) عاصمة له في بادىء الأمر، ثم انتقل إلى أورشليم التي كانت حتى ذلك التأريخ مدينة كنعانية على شكل دويلة، بعد أن فتحها بالقوة، ونقل إليها تابوت العهد[10].

وتحت حكم ابنه سليمان (حوالي 961 ـ 922ق.م.) اصبحت إسرائيل مركزاً تجارياً مهماً في المنطقة، وازدهر فيها العمران. واقرَّ سليمان العبادات الأجنبية بتأثير زوجاته الأجنبيات (كان لديه حريم كبير من الأميرات والجواري). الا أن أيام حكمه الأخيرة اتسمت بالبطش والقسوة وارتفاع الضرائب وفرض أعمال السخرة، أدت إلى تذمر وعصيان في الداخل، وثورات في الخارج (دمشق ـ آرام، وأدوم). وبعد وفاته دب الضعف في أوصال إسرائيل وتقلصت رقعتها. ثم ما لبثت أن انقسمت إلى دولتين، مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهودا في الجنوب. استمرت مملكة إسرائيل في الوجود من عام 923 إلى عام 722 ق.م. حيث كانت نهايتها على يد الآشوريين. أما مملكة يهودا فقد دام

(10) تابوت العهد: صندوق كان اليهود يحفظون فيه شرائعهم، ويحملونه معهم في حلهم وترحالهم.

حكمها من 923 حتى عام 586 ق.م. وهو عام السبي البابلي، بعد أن قضى عليها بختنصر الكلداني ونقل من أهلها زهاء خمسين ألف أسير إلى بابل. ثم كانت عودتهم إلى فلسطين على يد الإمبراطور الفارسي كورش بعد أن غزا بابل عام 539 ق.م.

والعبرية لغة سامية، من مجموعة لغات الوسط الشمالي السامية (أو الوسط الشمالي الغربي)، قريبة الصلة بالفينيقية والمؤآبية، يصنفها اللغويون كفرع من الكنعانية؛ وكانت لغة العبريين قديماً في فلسطين، ثم حلت محلها اللهجة الآرامية الغربية في القرن الثالث ق.م. وفي القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين تم إحياؤها كلغة محكية. هذا ما جاء في الموسوعة البريطانية. ويفهم من التوراة نفسها أن العبريين عند دخولهم أرض كنعان كان لسانهم آراميا، لا تعرف خصائصه على وجه التدقيق لقلة المصادر الكتابية التي تعود إلى ذلك الزمن، لكنهم فيما بعد اقتبسوا الحضارة الكنعانية ومن جملتها اللغة. والعبريون أنفسهم كانوا يسمون لغتهم «شفة كنعان»، أي لغة كنعان، كما ورد في التوراة (أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، ص 24. بيروت، دار النهار، 1980).

أما التوراة فقد تم تدوينها في الفترة الواقعة بين (1200 ــ 200 ق.م.)، إنما كتب معظمها في أثناء السبي البابلي، ثم أعيد النظر فيه في العهد الفارسي (539 ــ 331ق.م.) وأيام الحكم اليوناني (السلوقي والبطلمي).

الكنعانيون

قبل الكنعانيين كانت سوريا ولبنان وفلسطين مأهولة بأناس يمتون إلى عرق البحر المتوسط. وهو عرق أبيض تنتمي إليه جميع الشعوب البيضاء القديمة التي كانت تقيم في شمالي أفريقيا (الشعب المصري الحامي القديم)؛ وجنوب أوروبا، أي شعوب شبه جزيرة إيبريا (إسبانيا والبرتغال)؛ وشعوب فرنسا وإيطاليا واليونان وجزر إيجة، قبل أن تتغلب عليها الأقوام الهندية الأوروبية. وقد عثر على آثار الإنسان الذي ينتمي إلى هذا العرق في وادي النطوف وفي مغارة الوادي قبل 5000 ق.م، وفي تل الجُديدة قبل 4000 ق.م، وفي جبيل 3500 ــ 3250 ق.م. وهذا العرق متقدم على إنسان مغارة الكرمل، وإنسان انطلياس (شمالي بيروت) الذي كان يحتفظ بكثير من السمات الجسمانية البدائية. وقد كان الإنسان الذي عاش في شرقي البحر المتوسط قصير القامة

أو معتدلها، ذا بنية نحيفة، وأحياناً قوية، وساقين طويلتين إذا قيستا بجذع جسمه. وكان رأسه طويلا، وذا شعر يميل لونه إلى السواد، وقلّ أن تجده أصلع. وإلى هذا العرق تنتمي الشعوب السامية؛ ولكنها لم تكن قد ظهرت بعد في هذه المنطقة(11).

وترقى الحضارة في فلسطين إلى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط. أما استيطان المدن فيبدو أنه تم في العصر الحجري الحديث (حوالي 7000 ــ 4000 ق.م.) إذ يُعتقد أن تأريخ مدينة أريحا يرجع إلى ما قبل سبعة آلاف سنة، ولعلها كانت أقدم مدينة في العالم ما زالت باقية. وقد تميز العصر الحجري ــ البرونزي (حوالي 4000 ــ 3000 ق.م.) بصناعة الفخار والنحاس والمساكن المشيدة من الحجر غير المقطّع واللبِن (قوالب الطين المجففة). ثم أحدث استعمال المعادن في أوائل العصر البرونزي (حوالي 3000 ــ 2000 ق.م.) ثورة حضارية تميزت في تقدم النحت وصناعة التعدين وتراجع صناعة الفخار الملون. وفي هذه المرحلة ظهر الكنعانيون. ومنذ العصر البرونزي الأول كانت أغلبية السكان تعيش على الزراعة وتربية المواشي. وكانت الحمير دواب الركوب والحمل الوحيدة المستعملة في هذه المنطقة. وأهم المنتجات الحقلية كان القمح والشعير والعدس. كما كان الحمص واللوبياء يزرعان أيضاً (في تل الدوير، وأريحا). وعن الكنعانيين انتقلت كلمة (قمحو) إلى المملكة القديمة في مصر، وتعني (صنف من الخبز). وربما كانت أشجار اللوز تزرع أيضاً منذ العصر البرونزي الأول، في أريحا. أما الزيتون فمن المؤكد أن استثمار زراعته يرجع إلى ذلك التأريخ، أو ربما أقدم. وكذلك التين. وفي هذا العصر زرع الكرم أيضا. وكان العنب يؤكل طازجاً أو يجفف (زبيباً)، كما كانت تصنع منه الخمرة على نحو ما كانت تصنع في بلاد الرافدين ومصر. وكان الكنعانيون يخمرون صنفاً من أصناف الجعة (البيرة).

وفي حين يرى البعض أن الفينيقيين قدموا إلى هذه المناطق من النقب في الجنوب، يرجح آخرون أن جزءاً من فلسطين استوطنه أقوام قدموا من الشمال القريب في هذه المرحلة.

وفي العصر البرونزي الوسيط (في حدود 2000 ــ 1550 ق.م.) بدأ التأريخ المدون في أرض كنعان. وقد قدّم الكنعانيون للعالم نظام الكتابة الأبجدية بعد أن

---

(11) الدكتور حتي: لبنان في بالتأريخ، الترجمة العربية، ص 73 ــ 74. بيروت 1959.

كان هذا النظام عند السومريين والمصريين مقطعيا. وأصبح الآموريون (أو العموريون) الذين قدموا إلى أرض كنعان من الشمال الغربي أغلبية سكان هذه الديار. كما قدم إليها غزاة آخرون، كالمصريين، والهكسوس، والحوريين (من شمالي فلسطين). وفي العصر البرونزي الأخير (في نحو 1550 ـ 1200 ق.م.) كانت فلسطين تحت سيطرة المصريين، وقد نافسهم في ذلك أيضاً الحثيون القادمون من الأناضول. وفي هذه المرحلة ظهرت قبائل الهابيرو أو الآبيرو الغازية التي يرى العديد من المؤرخين أنها أصل العبريين. وفي نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد زال وجود المصريين، والحثيين أيضا، وذلك في المرحلة الانتقالية بين العصر البرونزي الأخير والعصر الحديدي الأول، أي في حدود 1250ق.م. وفي هذه المرحلة دخل الإسرائيليون أرض كنعان، أقاموا أول الأمر في المناطق التلية في فلسطين الجنوبية. وفي القرن التالي، وقبل ذلك أيضاً بعدة قرون قدم إلى أرض كنعان غزاة آخرون (الفلستينيون القادمون من البحر). لكن الإسرائيليين تمكنوا من القضاء عليهم في عهد الملك داود (القرن العاشر ق.م.).

وكان الكنعانيون يسمون أنفسهم «شعب إيل»؛ وسكان المدن كانوا يُدعَون (ك ر ي ت م) (الكاريتيين، نسبة إلى كارت ملك صيدا). ويعتقد لودز Lods في كتابه (إسرائيل، ص 64) أن لفظة كنعانيين تعني «سكان المدن»[12]. ويشير مصطفى مراد الدباغ في كتابه الموسوعي (بلادنا فلسطين) إلى اختلاف الباحثين في تفسير معنى كلمة (كنعان). فبعضهم يرى أن (كَنَـع) أو (خنع) كلمة سامية تفيد معنى الأرض المنخفضة، وقد سُمي الكنعانيون باسمهم هذا لنزولهم الأراضي السهلية. ثم يعقب قائلاً: «ولكنهم أقاموا في الجبال مثلما استقروا في السهول. وذهب آخرون إلى أنها كلمة حورية (نسبة إلى الحوريين) مشتقة من كلمة Knaggi وتعني صبغة الأرجوان التي اشتهر بها الكنعانيون»[13]. وفي الجزء المخصص لتأريخ فلسطين في العصر البرونزي الوسيط من مؤلفات جامعة كيمبرج في التأريخ القديم جاء: أن أرض كنعان عرفت عند الأكديين باسم كناخنا Kinakhna، وهذه تعني صبغة الأرجوان التي اشتهروا بها[14].

(12) اللآلئ، ص 28.

(13) مصطفى مراد الدباغ: بدنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول، دار الطليعة ـ بيروت. الطبعة الثانية 1983.

(14) Palestine in the Middle bronze Age, p. 12, by Kathleen M. Kenyon.

وجاء في معجم غزينيوس حول المفردات العبرية في الكتاب المقدس أن (كنع) العبرية تعني: يحني الركبة، يقع على ركبته. وبالآرامية جنا gna: ينحني. و (كنع) العربية: تقبّض، انضم. وهناك genu اليونانية؛ وبالألمانية Knie، وبالسنسكريتية ganu، ومرة أخرى باليونانية gonia: تجويف الركبة. ولاحظ التماثل في اللفظ بين الكلمات السامية والهندية الأوروبية. وهناك معان أخرى لمادة (كنع) العبرية، مثل: يطوي؛ يلم؛ يُخْبَط، ويُذَل. و (كنعة): حزمة، رزمة. وفي التوراة ترد لفظة كنعان للدلالة على كنعان أب الكنعانيين، وعلى أرض الكنعانيين. كما تستعمل الكلمة للدلالة على بلاد من مرتبة دنيا (من الجذر كنع بمعنى ذل). ويرد استعمال لفظتي (إيش كنعان) بمعنى الرجل الكنعاني، أو الكنعاني، وبالتالي التاجر، مثلما كان اسم (كشدي) أي كلداني يرمز للمنّجم.

أما جون الليغرو ـــ المختص بالسومريات ـــ فيعتبر البقعة الأرضية الواقعة شرقي البحر المتوسط بمثابة فرج أو مدخل الأرض، وذلك انسجاماً مع نهجة في التفسير الجنسي للتأريخ. وعنده أن كلمة (كنعان) ترجع إلى الصيغة السومرية KI-NA-AN-NA وتعني (سرير الزواج السماوي)، ذلك أن NI-NA تعني (موضع المجامعة)، والجذر الأكدي (نعالو) يعني سرير الزواج. ثم أن الكلمة الأكدية ننارو nannaru تعني (منجل القمر)، ومن هنا اسم إلآهة الهلال بالسومرية NANNAوكذلك INNANA، أي عشتار التي تفيد معنى (الرحم). لكن الكلمة الأكدية (كناخو) تعني صوف أحمر ارجواني[(15)].

وجاء في الأساطير الإغريقية أن أجينور Agenor (وهو كنعان عند اليونانيين) ابن ليبيا من بوسيدون، والتوأم الشقيق لبيلوس (بعل)، ترك مصر ليقيم في أرض كنعان. وهناك تزوج تليفاسا، وتدعى أحياناً أرجيوبة، فأنجبت له قدموس، وفينقس (الذي تنتسب إليه فينيقيا)، وسليكس الذي تنتمي إليه قيلقيا في آسيا الصغرى، وثاسوس، وفينيوس، وابنة واحدة تدعى أوروبا.

والتفسير التاريخي لأسطورة أجينور (كنعان)، كما يقول روبرت غريفز في كتابه (الإلهة البيضاء)، هو أنه في أواخر الألف الثالث ق.م. نزحت مجموعة من القبائل الهندية الأوروبية ـــ وهي طائفة من حشد هائل قدم من آسيا الوسطى، واجتاح آسيا الصغرى كلها، واليونان، وإيطاليا، وشمال بلاد الرافدين ـــ من

---

(15) John M. Allegro: the Sacred Mushroom and the Cross, p. 135. Hodden and Stoughton, London 1970.

أرمينيا إلى سوريا، ثم إلى أرض كنعان، وتحالفوا مع السكان الأصليين حيثما أقاموا. وقد أجبرت هذه المسيرة الضخمة من القبائل التي رافقتها غزوات سامية عبر الأردن، العديد من الشعوب التي كانت تعبد الإلاهة الكبرى تحت أسماء مثل بليلي Belili، ودانية Danae، وفينيقيا (الحمراء بلون الدم)، على الهجرة من سوريا، وأرض كنعان، ودلتا النيل. وقد سلكت جماعة منهم، كانت الكرْمة شعارها الديني، طريق البر أو البحر بمحاذاة الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، وتلبثت حيناً من الزمن في ملياس، الاسم القديم لليسيا (أو لوقيا) Lycia، وغزت اليونان قبل مجيء الآخيين الهنود الأوربيين من الشمال، واحتلت آرغوس في البيلوبونيز، المزار الرئيسي لايو Io، إلآهة القمر ذات القرنين. وبعد ذلك جاء القدمونيون: يبدو أن قبيلة كنعانية كان يطلق عليها اسم القدمونيين (أو القادمين من الشرق) كانت قد احتلت المنطقة الجبلية على مشارف إيونيا وكاريا التي سميت قادميا؛ ومنها عبرت بحر إيجة واحتلت الشريط الساحلي المقابل لـ (إيبويا) التي تعتبر قاعدة جيدة للملاحة، وسميت فيما بعد قادميا[16].

ويرد ذكر (كنعان) في مدونات ايبلا السورية التي ترقى إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد بصيغة (كنانايم) في سياق الكلام على الإله دجن الكنعاني: Dagan Kananaim. وترى الدكتورة يسرى كجك أن كنانايم هذه تقاربها (كنانة) العربية.

• • •

وسيد آلهة الكنعانيين هو إيل El، كان مقره في جبل صافون (الجبل الأقرع حالياً). وهو أبو الآلهة جميعاً. من أبرز ألقابه: الثور، أو الثور ــ إيل، باعتباره رمزاً للقوة؛ فالثور في المجتمعات الرعوية والزراعية يرمز للقوة والإنسال. ويأتي بعده من حيث الأهمية بعل، وغالباً ما كان يعتبر خصم إيل. وكان بعل أحدث من إيل في الميثولوجيا الفينيقية. ولم يظهر قبل مجيئهم إلى ساحل البحر المتوسط من أرض النقب. وبعل هو ابن داجوان إله الحبوب «وله كرس الأوغاريتيون هيكلهم العظيم. وكان له هيكل في اشدود إحدى المدن الفلسطينية الخمس»[17]. وبعل في نصوص راس الشمرا التي اكتشفت في مدينة أوغاريت

---

(16) Robert Graves: the White Goddess, pp. 237-238, Faber and Faber, London 1959.

(17) انيس فريحة: ملاحم وأساطير من أوغاريت، ص 43.

الكنعانية (التي ازدهرت حضارتها في القرن الرابع عشر ق.م) هو (هدد) إله الطقس والغيوم والعاصفة. ومعنى (هدد): المحطم والمهدم، وربما المرعد. وعلى عكس إيل، كبير الآلهة، الذي وُجد قبل بقية الآلهة، فإن لبعل أمّاً، هي أشيرة البحر. وفي فينيقيا، إلى الجنوب من أوغاريت، يدعى هذا الإله بعلاً، أي الزوج والمالك والسيد. ومن ألقاب بعل: راكب السحب، وصوته الرعد، وبهاؤه البرق. وسوف نرى أن يهوه، إله اليهود، سيسمى راكب السحب أيضاً. وفيما بعد لُقب بعل باسم «ادوني»، أي سيدي ومولاي وربي. وهو (أدونيس) عند الإغريق، وقد تم تأليه بعل بعد الانتقال من مرحلة سيادة الأم إلى مرحلة سيادة الأب. وقد اقترن هذا الانتقال في بلاد ما بين النهرين، وسواها، بتمرد زوج الملكة الذي كانت تنتدبه في المهمات التنفيذية، وتسمح له بارتداء ردائها، واستعمال اسمها والأشياء المقدسة الأخرى العائدة لها. وبعل هو الذي جاء ذكره في القرآن: «أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين» (سورة الصافات، آية 125).

وكان (موت) إله الحصاد. وكان يضحّى به لعناة، لكنه لا يلبث أن يستعيد حياته. أما عشتار، وإيلات (وعند العرب هي اللات)، فلا يرد ذكرهما في الواح راس الشمرا إلا قليلاً. وكانت عشتار تمثل الزُهَرة، أجمل الأجرام السماوية. أما إيلات فهي الصيغة المؤنثة لأيل، وابنته من أشيرة. وكانت أشيرة أو أشيرة البحر زوجة إيل كبير الآلهة، وأما لسبعين إلهاً وإلاهة (خمسين إلهاً وعشرين إلاهة). وتلفظ باللغة الأوغاريتية الكنعانية (أ ث ر ت)، وهو اسم مشتق من الجذر (اثر)، بمعنى مشىٰ. وفي العربية (يقفو الأثر). وعندما خلف بعل إيل تزوج أمه أشيرة. وأشيرة في بابل كانت تعرف بـ «اشرتم». وكانت أشيرة تتمتع باستقلال تام عن زوجها إيل، ولها اتباعها مثلما لأيل اتباعه. واتباعها هم الأشيرتم. وكما كان عند العرب اسم عبداللات شائعاً، ففي ديار كنعان كان البعض يسمى عبدي اشيرتا. وفي جنوب الجزيرة العربية كانت تسمى «أثيرة»، وهي زوجة القمر. وكانت عناة إلاهة الحب والحرب، مثل عشتار، وهي أخت وزوجة بعل. وكانت شابة وجميلة، وتلقب بالبتول، أي العذراء. وكانت عناة مشهورة عند الآراميين بخاصة. وفي مصر كانت تصور كالاهة عارية واقفة على ظهر أسد وتحمل أزهاراً بيديها.

وجاء في الأساطير اليونانية أن الألاهة أثينا هي ابنة ايتونوس Itonus (رجل الصفصافة). ويستفاد من ذلك أن أثينا تقترن بعبادة الصفصافة. وهذا يذكرنا بعناة التي تسمى عند اليونانيين Anatha. فقد كانت عناة تعبد في

أورشليم قبل أن يزيحها كهنة يهوة ويدّعون أن الصفصافة، مستنزلة المطر، هي شجرته المقدسة في عيد الخيمة. وفي رأي البعض أن لفظة (اثينا) ليست سوى (عناة) Anatha ملكة السماء السامية، بقلب الحروف[18].

كما كانت (نايث) Neith، إلاهة الحب والمعارك الليبية تدعى أيضاً عناة، وأثينا. وفي مرآة اتروسكية[19] هناك صورة لبروميثيوس بإكليل من الصفصاف، وهي إشارة إلى أنه كان مكرساً لألاهة القمر (عناة) أو نايث، أو أثينا[20].

وكانت عناة تلقب في ملحمة (اللآلىء) لأيلي ميلكو الكاهن الكنعاني، يمامة الشعوب، والخطّابة. ولعلها ترمز لنظام الزواج الأحادي. فعند الكنعانيين كانت العائلة ما تزال في طور الانتقال من النظام التعددي والأمومي إلى النظام الأبوي. ومن أهمية المركز الذي تشغله الإلاهات في الديانة الكنعانية يمكن الاستنتاج بأن النظام الباترياركي لم يحقق السيادة الكاملة بعد في أرض كنعان في المرحلة التي نتحدث عنها. وكدليل على أن مركز المرأة كان ما يزال قوياً عند الكنعانيين، «كان كهنة بعل وعشتروت عند الفينيقيين في أعيادهم يلبسون ملابس النساء ويخضبون وجوههم بالحمرة، ويزججون حواجبهم، ويكحلون عيونهم، ويعرّون أيديهم إلى الكتف، ويحملون بأيديهم سيوفاً أو يتنكبون حراباً، ويتأبطون دفوفاً أو معازف يضربون بها، ويرقصون، ويضجّون، ويدورون على عقب واحد، وينعطفون برأسهم إلى الأرض عند دورانهم فيمرغون شعورهم بالوحول، ويعضون أذرعهم، ويخدشون أجسادهم بسيوف وحراب...»[21].

الفلستينيون

لعل أقدم استعمال لكلمة (الفلستينيين) Philistines، ورد في مصر، إذ كان الـ Purasati أو الـ Pulesati، اتحاداً يضم سوريا، وآسيا الصغرى، ولبنان، هدّد مصر في عهد السلالة العشرين. وكانت المنحوتات المصرية تُظهر

---

(18) Robert Graves, Greek Myths, vol. 1, P. 47.

(19) الاتروسكيون: اقاموا في إيطاليا قبل اللاتين، ويُعتقد ان اولى هجراتهم جاءت من آسيا الوسطى في منتصف العصر الحديدي.

(20) Graves, vol. 2, P. 152.

(21) المطران الدبس: تأريخ سوريا، الجزء الأول، المجلد الاول، ص ٣٦٧ عن كتاب بلادنا فلسطين للدباغ.

الفلستينيين بخوذة في الرأس مزينة بريش على نحو متميز، ومقاتلين بسيوف عريضة، يحملون دروعاً مدورة، على غرار اليونانيين. وكانت ملامحهم أقرب إلى الأوروبيين، وبخاصة الإغريق، منهم إلى الكيليكيين (القيليقيين) أو الحثيين. لكن البوراساتي، بالرجوع إلى المعطيات الآثارية، لم ينحدروا من كريت، على نحو ما هو متعارف عليه، بل من آسيا الصغرى (ليسيا، وكاريا)، ولعلهم أقاموا في كريت حيناً من الزمن. هذا ما جاء في الموسوعة البريطانية. وجاء فيها أيضاً: «إن لفظة فلستين Philistine كانت اسماً يُطلق بعامة على سكان فلسطيا Philistia، وباللغة الآشورية يقال لهم Palashtu، أو Pilishtu؛ وبالمصرية القديمة p-r-s-t». وتحضر في الذهن أيضاً اللفظة العراقية الدارجة (بلشتي)، فهل لها صلة بهذه المادة؟

ونجد في قاموس Originals لمؤلفه Eric Partridge تحت مادة Palestine إنها ترجع إلى اليونانية Palaistine، وهذه من العبرية Palesheth؛ أما المواطنون فكان يقال لهم بالعبرية Palistim، أو Palishtim. والمواطنون، باليونانية، Philistinoi، وباللاتينية المتأخرة Philistini، وبالحرف الواحد: «الفلسطينيون الذين أقاموا في الجنوب الغربي من فلسطين». وجاء في كتاب (بلادنا فلسطين) أن Palaeste بالستا اسم مكان في «ابيروس» في بلاد اليونان[22]. وفي قاموس ويبستر: «إن الفلستينيين بعد أن دوّخوا العبريين عدة قرون بغاراتهم، اندمجوا بالسكان الأصليين». وكان يُنظر إليهم كبرابرة. وأن الفلستيني شخص غير متنور، كاره للفن، والأدب، والفكر. وأول من استعمل لفظة Philistine في فرنسا، تيوفيل غوتييه، عام 1847. وكان ماثيو أرنولد هو الذي أدخل الكلمة إلى اللغة الانكليزية. وهذا النعت للفلستينيين القدماء لم يكن مطابقاً للحقيقة، بل كان حكماً متحاملاً أطلقه اليهود في حقهم لأغراض سياسية. وقد تأثر فيه حتى الكتاب المسلمون، فقد كانوا ينعتون الفلستينيين بالبرابرة، لأنهم أصحاب جالوت الذي قتله داود.

وفي قاموس غزينيوس للمفردات العبرية الواردة في التوراة أن (فَلَشَت) هي فلسطيا (المفترض: بلاد الجوّابين أو التائهين)؛ وتعني «غرباء» أيضاً. والجذر هو فلش (وهو مماثل للفعلين العبريين فلط، وفلت). وبالحبشي فَلَس: يتجول، يهاجر. وإفلس: غريب، جوّال.

---

(22) بلادنا فلسطين: الجزء الأول، القسم الأول، ص 536.

ويقول روبرتسون سميث في كتابه (ديانة الساميين): «كان من الشائع اعتبار الفلستينيين قوماً غير ساميين، بيد أن هذا الرأي بات الآن ضعيفاً، فرغم أنهم قدموا إلى فلسطين من وراء البحر، من كافتور، أي من كريت كما يُظن، فقد كانوا إما من أصل سامي، أو أنهم أصبحوا ساميين بعد هجرتهم، في اللغة والدين على حد سواء».

وجاء في الموسوعة البريطانية أيضاً: «والفلستينيون، حسبما جاء في كتاب العهد القديم، هم بقايا كافتور Caphtor. كما أن لفظة Kaptor، وبالمصرية القديمة K(a)ptor، كانت تعني في عهد البطالسة فينيقيا، مع أن كلمة Keftiu السابقة لها، كان يراد بها (كريت)، وربما أيضاً ساحل الأناضول الجنوبي حتى قيليقيا».

ويبدو أنه نتيجة لزحف قبائل معينة من الهنود الأوروبيين إلى اليونان وجزرها في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد اضطر الإيجيون إلى الفرار، فقطعوا البحر إلى شواطىء سوريا ومصر. لكن الفرعون مرنفتاح تمكن من صدهم في حدود 1225 ق.م. ثم تكررت هجماتهم، إلى أن قضى عليهم رعمسيس الثالث (1189 ـــ 1167ق.م). وكان هؤلاء الإيجيون من شعوب البحر الأبيض المتوسط الذين مرّ ذكرهم آنفاً، ولا صلة لهم باليونانيين الذين حلوا محلهم. وكانت كريت مقر حضارتهم، وعاصمتها كنوسوس. وكانت الحضارة الإيجية التي دامت بين 3000 ـــ 1400 ق.م. متقدمة جداً في زمانها. وعُرف الإيجيون بصنع الفخار على نحو يفوق في إتقانه الفخار المصري. وقد نشأ عن غزو اليونانيين لبلاد إيجة هجرة واسعة النطاق من سكان كريت والجزر الأخرى إلى مختلف شواطىء القسم الشرقي من البحر المتوسط. ومن هذه الجماعات المهاجرية الثكاليون والفلستينيون[23]. والظاهر أن إحدى الموجات افلحت في الوصول إلى الشاطىء الفلسطيني، حيث استقرت مجموعة الثكاليين، أو «ثكر» (ويُظن أنهم من جزيرة صقلية) في (دور ـــ الطنطورا) جنوبي الكرمل، وأسسوا لأنفسهم دويلة مستقلة. ولعلهم تفرقوا واختلطوا مع الكنعانيين القاطنين في الأراضي الممتدة بين بيسان ومرج بني عامر ومجدّو حتى الساحل[24].

على أننا إذا رجعنا إلى ملحمة اللالىء تاليف إيلي ميلكو الكنعاني في حدود (1350ق.م)، وهو تأريخ سابق لتأريخ مجيء الفلستينيين إلى فلسطين على نحو

---

(23) بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول، ص 534.

(24) المصدر السابق، ص 536، عن كتاب (تأريخ مصر إلى الفتح الفارسي).

ما جاء في معظم الروايات، نجد إشارات واضحة إلى هؤلاء الأقوام. ففي معرض حديثه عن الملك الكبير، ملك أوغاريت، جاء ما يلي:

«الفلسطيني أمسكَ به حتى يجعله يسقط
فاختبأ [الملك الكنعاني] هرباً من حصارهم»

وهذا يؤكد ما سوف نتطرق إليه من أن الفلستينيين قدموا إلى شرقي البحر المتوسط في زمن أسبق من التواريخ المتعارف عليها.

واستطاع الفلستينيون أن يكوّنوا اتحاداً من المدن الخمس الآتية: غزة، وعسقلان، واسدود، وعقرون، وجت (عراق المنشية). إنما يبدو أن الكنعانيين هم الذين بنوا هذه المدن قبلهم، وأما الفلستينيون فأقاموا مدينتي اللد وصقلاغ[25].

غير أن كزانثوس Xanthos المؤرخ الليدي القديم يزعم أن مدينة عسقلان (اسكالون) أنشأها اسكالوس Ascalos، كما هو بيِّن من اسمها؛ واسمه يعني (غير محروث)، وهو أخو بيلوبس Pelops. وهذا يمتّ بصلة قربى لأحد أجداد منيلاوس الأبعدين. (ومنيلاوس هو أخو اغاممنون في حرب طروادة). وعندما غزا يشوع — خليفة موسى — أرض كنعان في القرن الثالث عشر ق.م. مَثُلَ بين يديه رجال جبعون (أو جابون في ترجمة التوراة السبعونية، وتعني استُو أخايفون Astu Achaivon، أي مدينة الآخيين) بملابس إغريقية، ليؤكدوا له أنهم ليسوا مواطنين كنعانيين، بل حويون، أي آخيون قادمون من البحر. فاعترف بحقوقهم في بستنة المزارع المكرسة للآلهة، وفي امتياح المياه المكرسة لها (سفر يشوع 9). ويتضح من الأصحاح التاسع هذا أنهم ذكّروا يشوع بتحالف كفتيو، أي كريت، التجاري البحري الذي ترأسه مينوس حاكم كنوسوس الذي كان ينتمي إليه يوماً ما الآخيون وقوم إبراهيم. وحين قال إبراهيم أنه زف أخته سارة إلى «الفرعون» عندما قدم إلى الدلتا (أي مصر) مع ملوك الهكسوس، فقد كان يعني حاكم مدينة «فاروس» الكنوسي، التي أصبحت فيما بعد المركز التجاري الرئيسي للاتحاد[26]. وهي رواية غريبة على أية حال؛ لكنها إن دلت على شيء فإنما تدل على قدم الفلستينيين في أرض كنعان.

كما لا ندري ما هو مقدار صحة الخبر الذي ورد ذكره في سفر التكوين

---

(25) المصدر السابق، ص 537.

(26) Robert Graves, Greek Myths, vol. 2, P. 353.

(26: 1 ـــ 17)، حول اللقاء الذي تم في (جرار) على الحدود الفلسطينية المصرية بين إسحاق بن إبراهيم الخليل، وابيمالك ملك الفلستينيين. في هذا اللقاء يدّعي إسحاق بأن زوجته (رفقة) هي أخته، دارجاً على مثال أبيه إبراهيم الذي زعم للفرعون بأن سارة هي أخته فقط، وليست زوجته أيضاً.

وجاء في كتاب (الأساطير العبرية) أن مهد الفلستينيين الأصلي هو (كافتور) التي لا تشمل جزيرة كريت وحدها (كيفتيو بالمصرية القديمة)، بل كافة المناطق المينوية Minoan، بما في ذلك الجزء الجنوبي من آسيا الصغرى. وترقى الحضارة المينوية أو الكافتورية إلى الألف الثالث ق.م. وأحد الشواهد على تأثيرها المبكر على شرقي البحر المتوسط، وجود الموطن الأول أو المشغل لأله العمارة والفنون الكنعاني كاشر ـــ وخاسس، أو (ك ث ر. وخ س س) كما يرد في النصوص الأوغاريتية، في كافتور (كريت). وقد عُرف إله الفنون والعمارة هذا عند الإغريق في القرن الرابع عشر ق.م. باسم ديدالوس. والكلمة التي تفيد معنى القبعة في التوراة هي (قوبع) (وتقابلها القبعة العربية) مستعارة من اللسان الفلستيني القديم. وفي نُصب تذكاري للفرعون مرنفتاح (أواخر القرن الثالث عشر ق.م.) يرد ذكر اقايواشا Aquaiwasha أو ايكويش Ekwesh من بين أقوام البحر. ويرى ادوارد ميير وآخرون أن هذين الاسمين هما نفس اسم Achiyawa الذي ازدهرت مملكته في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. في بامفيليا (جنوبي آسيا الصغرى)؛ في حين يرى سواهم أن جزيرة رودس هي قاعدتهم الأساسية . وعرف عنهم أن نفوذهم امتد حتى قبرص؛ وهم نفسهم الذين كان يطلق عليهم اسم الآخيين Achaeans (وباللاتينية Achivi)، وهو الاسم الذي يماثل Hivi أو Hivites أي الحويين اللذين يرد ذكرهما في أكثر من موضع في الكتاب المقدس كأحد الأقوام التي وجدت في كنعان قبل الإسرائيليين (27) .

ويبدو أن الصلة بين شرقي البحر المتوسط وبلاد اليونان وجزرها ترجع إلى أزمنة اقدم من ذلك. فهناك إشارة في كتاب روبرت غريفز (الأساطير اليونانية) إلى أن البيلاسغيين (وهم سكان اليونان السابقون للهلينيين) نزحوا إلى اليونان من فلسطين في حدود 3500 ق.م.، وأقاموا في البيلوبونيز (شبه جزيرة في جنوب اليونان) قبل مجيء الهيلاديين المهاجرين إليها من آسيا الصغرى عن طريق سيكلاديس بسبعمئة عام. ويقول سترابو أن الأقوام الذين كانت منازلهم

---

(27) Hebrew Myths, P. 162.

قرب أثينا كانوا يُعرفون بالـ Pelargi (اللقالق)؛ ولعل هذا الطائر كان طوطمهم[28].

ويربط البعض بين اسم (الفلستينيين) واللون الأحمر، على غرار الصلة بين اسم (فينقيا) واللون الأحمر أيضاً، لأن بشرة الفينيقيين في نظر اليونانيين كانت أشد دكنة وحمرة منهم هم، فقالوا أن الفينيقيين Phoinikes من Phoinos (أحمر بلون الدم). كما قيل أيضاً أن Pyrha الآلاهة الأم عند الإغريق، وهي المعادل لعشتار السامية، هي أم الفلستينيين أو الـ Puresati الكريتيين الذين نزحوا إلى فلسطين. ولفظة Pyrha اليونانية تعني (أحمر ناري)، وهي كلمة توصف بها الخمرة[29]. وبهذه الصفة سُمي ايريثروس Erythrus (أحمر)، وفينقس Phoenix (أحمر)[30]، مع أن هذه الكلمة الأخيرة، أي فينقس، تعني أيضاً، نخلة، فيما يقال.

وكان الكنعانيون يسمون أنفسهم «شعب إيل»، ويسمون منطقة فلسطين الشمالية (ميريام)؛ وهذه تذكرنا بجبل موريا الذي يرد ذكره في التوراة[31]. وكانوا يسمون اليهود (يوديم)، وأحياناً (العبريين). كما كانوا يسمون الشعب القادم من البحر فلستينيين. أما تسمية البلاد بفلسطين فقد استعملها لأول مرة، على ما يبدو، هيرودوتس المؤرخ اليوناني في كتابه الأول الذي ألفه عام 450ق.م. وبعد ذلك عمم الرومان اسم فلسطين على البلاد التي عرفت في عهد الانتداب البريطاني في قرننا الحالي باسم فلسطين وشرقي الأردن[32].

ولما كان الفلستينيون غرباء وأقلية، فقد ذابوا بين أبناء المنطقة، وتكنعنوا في فترة قصيرة، على حد قول لودن، في حدود القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وكان الإله الرئيسي الذي يعبدونه هو (داجون)، وهو نفس الإله (داجان)، إله الغلة الذي كان يعبده الكنعانيون.

ومما يذكر أنهم كانوا أول من أدخل الصناعة الحديدية إلى فلسطين، وإليهم يعود الفضل في انتقال الحضارة في هذه المنطقة من العصر البرونزي إلى

---

(28) Greek Myths, vol. 1, P. 296.

(29) المصدر السابق، ج 1 ص 141.

(30) المصدر السابق، ج 1 ص 296.

(31) ينظر في هذا كتاب اللآلىء، ص 28.

(32) بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول، ص 542.

العصر الحديدي، حيث دلت المكتشفات على أن أقدم الآثار الحديدية التي عثر عليها في فلسطين كانت في تل الفارعة، وتل جمة، ومجدّو(33).

على أننا وقفنا على معلومات جديدة وغريبة عن الفلستينيين في كتاب (ساغا اميركا) Saga America الذي يحاول فيه مؤلفه باري فيل Barry Fell البرهنة على أن أميركا إنما تم اكتشافها عن طريق المحيطين الأطلسي والهادي قبل كولومبس بعدة قرون. يشير السيد فيل إلى أن من بين «أقوام البحر» الذين أغاروا على دلتا النيل في حدود 1200 ق.م. جماعة عرفوا بالشاردانا Shardana، أو شيردين Sherden، وهؤلاء تنطبق عليهم نفس أوصاف الفلستينيين. في البداية تم دحرهم قبل تمكنهم من الوصول إلى البر لأنهم لم يكونوا مسلحين بالقسي والرماح. وتراجع المهزومون أبناء البحر أولاء غرباً إلى ليبيا. ثم طواهم النسيان لمدة قرنين. لكن أقوام الشاردانا نهضوا، في غضون ذلك، من كبوتهم، وتعلموا فن القتال بالقسي والرماح، وانتموا إلى جيش الفراعنة من الأسرة الحادية والعشرين التي ما لبث التحلل أن دب فيها. وفي حدود سنة 950ق.م. ثار أحد رؤساء الشاردانا المدعو شيشنق ضد الأسرة المالكة المصرية، وجعل من نفسه فرعوناً في مدينة بوباستس Bubastis، وأصبح مؤسس الأسرة الثانية والعشرين الشهيرة: الأسرة الليبية في مصر وليبيا مجتمعتين كمملكة واحدة قوية. وأصبحت مصر قوة بحرية تحت قيادة الليبيين. وقد اكتشفت اليوم في قبور إسبانيا آنية مرمرية (من حجر الألباستر)، مصدّرة، عليها ختم ملوك الفراعنة الليبيين. كما عثر على نقوش أميركية تحمل اسم شيشنق الذي كان يتسمى به أربعة فراعنة ليبيين على الأقل. إلا أنه لم يُعرف فيما إذا كانت هذه النقوش معاصرة لأولئك الذين يحملون هذا الاسم.

وكانت بشرة الشاردانا وبقية القبائل من أبناء البحر، كما تصورها النقوش المصرية، فاتحة اللون مثل بشرة اليونانيين والحثيين. ولذا، ربما كانوا يتكلمون لغة لها صلة بالفرع الأناضولي من اللغات الهندية الأوروبية، مطعمة بالكثير من المفردات السامية التي تعطي فكرة عن أصل منابعهم الحضارية. وربما كانت لغة البربر مشتقة من هذه اللغة. وفي 750ق.م. طرد المصريون الملوك الليبيين. فعاد هؤلاء إلى ليبيا. وفي غضون ذلك بُدىء بإنشاء مستوطنات التجار الفينيقيين على طول الساحل الافريقي الشمالي.

---

(33) المصدر السابق، ص 538.

وكان يُظن ــ وما يزال هذا الاعتقاد سائداً بصورة خاطئة ــ أن أول هجرة للعرب إلى ليبيا كانت في القرن السابع بعد الميلاد. إلا أن دارسي النقوش الليبية القديمة التي عثر عليها في اميركا وشمالي افريقيا برهنوا، على نحو قاطع، أن اللغة العربية وصلت شمالي افريقيا قبل الإسلام بزمن بعيد. وفي أغلب الاحتمالات أن البعض ممن يدعون بأقوام البحر كانوا عرباً في الواقع. ومن هذه السلالات المختلفة تحدّر سكان شمالي افريقيا الذين يتكلمون باللسان العربي. وأما البربر فهم الآخرون من أقوام عرقية مختلفة، بيد أن أصل لغتهم غير معروف على نحو قاطع، وربما كانت إحدى لغات أقوام البحر.

ولا يسعنا سوى أن نترك رأي السيد فيل Fell، هذا، بلا تعليق، لأن الحجج التي يطرحها في كتابه المشار إليه أعلاه ما تزال موضع نقاش ومثار جدل.

قصة الخليقة في سفر التكوين

عندما قرر الله خلق السماء والأرض لم يجد حوله سوى توهو Tohu، وبوهو Bohu، أي الشوّاش (أو اللاتكون)، والفراغ. في اليوم الأول قال: «ليكن نورا!»، فكان نور، وفي اليوم الثاني أقام قبة ليفصل بين (المياه العليا) و (المياه السفلى)، سماها (السماء). وفي اليوم الثالث جمع المياه السفلى في مكان واحد، فانبثقت منها اليابسة، وسمى هذه اليابسة (الأرض)، وسمىٰ المياه (اليمّ). وأوعز للأرض أن تنبت العشب والبقل والأشجار.

في اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم.
في اليوم الخامس: وحوش اليمّ، والأسماك، والطيور.
في اليوم السادس: وحوش البر، والزواحف والهوام، والبشر.
في اليوم السابع، استراح. (سفر التكوين 1، 2).

إلا أن البعض يزعم أن الله، بعد أن خلق الأرض والسماء، أحاط اليابسة بضباب لينبت العشب والنبات. ثم خلق الجنة في عدن، ورجلاً يدعى آدم، ليكون حارسها؛ وزرعها بالأشجار. ثم خلق الحيوانات، والطيور، والزواحف، وأخيراً المرأة. (سفر التكوين 2: 4 ــ 23).

• • •

طوال العديد من القرون كان معظم رجال اللاهوت اليهود والمسيحيين يعتقدون أن رواية خلق العالم الواردة في سفر التكوين ليست مستقاة من أيما مصدر آخر. بيد أن هذا الرأي المتحجر قد تخلى عنه الجميع خلا السلفيين المتزمتين. فمنذ عام 1876 تم العثور على ملاحم أكدية (أو بابلية آشورية) حول الخليقة، ونشرها. وأطول هذه الملاحم هي ملحمة إينوما إيليش Enuma Elish (حينما في الأعالي)، التي تتألف من سبعة ألواح، يحتوي كل منها على 156 سطراً بالمعدل، ويعتقد أنها كتبت في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. لكن هذا الاكتشاف لم يثر دهشة العلماء المطلعين على ملخص بيروسوس Berossus لأساطير الخلق، المقتبسة عن يوسفوس كاهن قيصرية؛ لأن بيروسوس من مواليد القرن الرابع قبل الميلاد، وكان كاهناً لبعل في بابل.

وقد اكتشفت صيغة أخرى لهذه الملحمة في بلدة سبار Sippar مدونة باللغتين البابلية والسومرية كمقدمة لتعويذة تتلى عند تطهير معبد، في ألواح ترقى إلى القرن السادس ق.م. جاء في هذه الألواح:

قبل أن يوجد البيت المقدس، بيت الآلهة، في المكان المقدس.
لم يوجد القصب، ولم يخلق الشجر
لم يُصنع الآجرّ، ولم يُبنَ بناء
لم تؤسس المنازل، ولم تشيد المدن
لم تشيد المدن، ولم تخلق الكائنات.
...
كانت الأرض كلها بحراً.
ثم كانت هناك حركة في وسط البحر
فظهرت مدينة أريدو، وبُني معبد ايساجل
في وسط الأعماق حيث يقيم الأله لوغال ـــ دو ـــ كودا
ثم بنيت مدينة بابل، وتم بناء معبد ايساجل
وخلق مردوخ الآلهة وأرواح الأرض في وقت معاً
ثم وضع مردوخ قصبة على صفحة الماء
وصنع تراباً وضعه إلى جانب القصبة
ولأجل أن يستريح الآلهة في مساكنهم
خلق البشر
وقد اشتركت معه الآلاهة ارورو في صنع بذرة البشرية
وخلق حيوانات البر والكائنات الحية في الحقل الذي أوجده
وخلق دجلة والفرات وحدد مجراهما
وسماهما على أحسن ما يكون
ثم خلق العشب، واسل المستنقعات، والقصب والغابات
وخلق عشب الحقول الأخضر
والأراضي والمستنقعات والأهوار
والبقرة الوحشية وعجلها، والشاة وحملها
والبساتين والغابات
والتيس ومعزى الجبل... إلخ.

اما ملحمة (حينما في الأعالي) فقد جاء فيها أن ابسو Apsu المذكر اتحد بتيامت أو تعامت الأم بصورة عشوائية وأنجبا طائفة من المخلوقات على هيئة

تنانين. وبعد مضي زمن ظهر جيل جديد من الآلهة. أحد هذه الآلهة، أيا، إله الحكمة، تحدى ابسو وقتله. فتزوجت تيامت ابنها كنغو Kingu، وأنجبت منه مردة لينتقموا من أيا.

بيد أن مردوخ بن أيا كان الأله الوحيد الذي جرؤ على تحدي تيامت. وبالاعتماد على الرياح السبعة، وقوسه ورمحه، وعربة العاصفة، وبعد أن دهن فمه بمعجون أحمر واق من الأمراض، وزنّر خصره بعشب يدفع عنه أذى السموم، وجلل رأسه بألسنة من نار، هجم على تيامت، وقبض عليها بشبكته، وأرسل إحدى الرياح لتمزق أحشاءها، ثم سدد إليها رماحه. وقيد الجثة بالسلاسل ووقف فوقها منتصراً. وقيّد التنانين الأحد عشر أتباع تيامت وزج بهم في السجن، حيث أصبحوا آلهة العالم السفلي. وشطر تيامت إلى شطرين، جعل من أحدهما السماء لتحمي الأرض من المياه العليا، والآخر أساساً للأرض والبحر. ثم خلق الشمس، والقمر، وخمسة كواكب والبروج، وأخيراً خلق الإنسان من دم كنغو Kingu.

إن رواية بيروسوس لا تكاد تختلف عن هذه القصة، سوى أنه استبدل مردوخ ببعل. وفي أسطورة يونانية مماثلة، لعلها من أصل حثي، تخلق الأرض الأم العملاق (تيفون)، فيفر الآلهة إلى مصر، ثم ينبري (زيفس) للقضاء عليه وعلى أخته دلفينة بصاعقته.

وقد ألفت الرواية الأولى لقصة الخليقة التوراتية في أورشليم بُعيد عودة اليهود من المنفى البابلي. وقد أُطلق على الله هنا لفظة إيلوهيم. أما الرواية الثانية فربما ترجع إلى أصل أدومي[1] سابق للمنفى، وفيها يطلق على الله (يهوة). بيد أن محرر التوراة غيّره إلى (يهوة إيلوهيم). وقد حار اليهود والمسيحيون في أمر هذا الاختلاف في الروايتين الواردتين في الإصحاح الأول والإصحاح الثاني. ويظهر الفرق على النحو الآتي:

---

(1) تقع بلاد (ادوم) بين نهر الحسا وخليج العقبة؛ ويرتبط اسم الادوميين بعيساو شقيق يعقوب وابن إسحاق. وفي التوراة أن (عيساو) كان اصهب، اي ذا شعر احمر، وكذلك تعني كلمة ادوم (احمر). ومادة (ادم) السامية تفيد معنى الحمرة، ومنها (الدم) ايضاً، لانه احمر. ولعل البلاد سميت بذلك لأن تربة أرضها حمراء. ومن الآلهة التي كان الأدوميون يعبدونها (كوز) Koze، وهو يذكرنا باسم الصنم (قُزح) العربي. وكان هناك عداء مستحكم بين الادوميين واليهود.

الإصحاح الأول	الإصحاح الثاني
سماء	أرض
أرض	سماء
نور	ضباب
قبة	إنسان
أرض يابسة	أشجار
عشب وشجر	أنهار
نيِّرات	حيوانات وماشية
وحوش بحر	طيور
طيور	مرأة
ماشية، زواحف، وحوش	ـــ
رجل وامرأة	ـــ

والنسق السباعي (الاستراحة في اليوم السابع) مستعار من الفكر البابلي الذي تأثر به اليهود في أيام النفي البابلي، ويعيد إلى الأذهان فكرة الكواكب السبعة أيضاً. كما يذكرنا الإصحاح الأول بقصة خلق الكون البابلية التي تبدأ بانبثاق الأرض من حالة الشواش المائية الأولى، وهي صورة رمزية عن ظهور الطين وجفافه غبَّ الفيضانات الشتائية السنوية لدجلة والفرات. فالخلق هنا يماثل النمو الأول بعد الشواش المائي الأول: أي فصل الربيع، حيث تتسافد الطيور والحيوانات. أما الإصحاح الثاني فيعكس صورة عن الأحوال المناخية والجغرافية الكنعانية: العالم قبل التكوين جاف وقاحل وحار، بفعل حرارة الشمس، لكأنما في أعقاب صيف طويل. وعند حلول الخريف تظهر أولى بشائر المطر على شكل ضباب كثيف أبيض في الوديان[2]، وقصة الخليقة الواردة في الإصحاح الثاني تصور يوماً خريفياً كهذا بالضبط. أما النص المكتوب في أيام السبي البابلي فيصور موسماً ربيعياً في بلاد ما بين النهرين، حيث أصبح الأول من نيسان بداية السنة اليهودية الجديدة. وأما الصيغة الخريفية الأولى ـــ الكنعانية ـــ فمنها جاء اعتبار بداية السنة الجديدة اليوم الأول من تشرين.

(2) من الدلائل على أهمية الطل أو الندى والضباب في البيئة الكنعانية أن إحدى بنات الإله بعل اسمها (طلّية) بنت الندى. ويقول ديل ميديكو عن الكنعانيين: «إنهم يعوّلون على الطل أكثر مما يعولون على المطر من أجل ري حقولهم». وجاء في ملحمة اللآلىء: «كيما يغدو طل الصباح إشارة إلى أن الارض اكتست والسماوات تحفظها». ص 21.

وكانت قصة الخليقة في البدء قائمة على مبدأ الإنجاب، وليس التكوين أو الصنع. كما كانت في جوهرها أمومية الطابع، وفي الأسطورة البيلاسغية[3] انبثقت (يورينومة)، إلاهة جميع الأشياء، عارية، من خاوس Chaos (الشواش)، ثم فصلت البحر عن السماء، ورقصت فوق الأمواج، وهزت الريح، فاتخذت هذه ــ أي الريح ــ هيئة أفعوان هائـل يدعى (اوفيـون) أو (اوفيونيـوس)[4]، وخصّبت يورينومة، التي باضت بيضة العالم.

وعادة قتل الضحايا في أورشليم في الجهة الشمالية من المذبح (سفر اللاويين، 1: 11، إلخ) تشير إلى عبادة قديمة للريح الشمالية، كما كان متبعاً في أثينا.

كما أن حومان ورفرفة روح الله فوق الماء الكوني في الإصحاحين الأول والثاني يرمزان إلى طائر. وفي قصيدة توراتية يُشبَّه الله «بنسر يرفرف بجناحيه فوق فراخه» (سفر تثنية الاشتراع 32: 11). بيد أن كلمة (رواح) التي تترجم إلى (روح) تعني بالأصل (ريح)[5]. وهذه تذكرنا أيضاً بقصة الخليقة الفينيقية التي رواها فيلو الجبيلي، حيث تحرك الريح الشواش. كما أن هناك نصاً بابلياً تحبل فيه Baou، الكيان المؤنث، من الريح. وتماثل الألاهة Baou زوجة كولبيا Colpia إلاهة الريح ــ الألاهة الإغريقية نيكس Nyx (الليل night) ــ التي اعتبرها الشاعر هزيود أم جميع الأشياء. وفي اليونان، في عهد البيلاسغيين، كانت تدعى يورينومة.

وهكذا فإن معظم أساطير الشرق الأدنى عن الخلق ظهرت عندما تخلت المرأة عن جزء من نفوذها (امتيازاتها المقدسة في مرحلة المجتمع الأمومي) إلى الرجل، رفيقها المحارب. وقد انعكست هذه الصورة في ملحمة (حينما في الأعالي)، Enuma Elish التي تروي كيف أن الكون نشأ عن اتحاد بين ابسو Apsu وتعامت Tiamat الأم. وبعد فوز إيل El على تعامت صنعت الألاهة ارورو Aruru الإنسان من دم إيل مجبولاً بالطين.

إن التماثل بين (تيهوم) العبرية و (تعامت) البابلية يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الأولى، أي تيهوم، تقوم مقام إلاهة أم، كنظيرتها البابلية التي انجبت الآلهة الذكور ليتمردوا فيما بعد عليها، وتستسلم لهم بجسدها فتجبل

(3) البيلاسغيون Pelasgians قوم سكنوا اليونان قبل الهيلينيين.
(4) لاحظ الشبه بين لفظة (اوفيون) و (افعوان) أو (افعى) العربية.
(5) وواضحة هي الصلة اللفظية في عربيتنا أيضاً بين (الريح) و (الروح).

منه مادة الكون. وعلى أية حال فقد كان عبريو أيام الكتاب المقدس على معرفة بالآلاهة أشيرة التي كانوا يعبدونها ويسجدون أمام صورها (تثنية الملوك 21: 7). كما كانوا يقدمون فروض الطاعة لعشتارت (عشتار أو عشتروت) إلاهة الفينيقيين والفلستينيين (سفر القضاة 2: 3؛ 10: 6؛ سفر صمموئيل الثاني 31: 10؛ إلخ) وقبل الدمار الذي تعرضت له مملكة يهودا على يد نبوخذ نصر (586ق.م) بأمد غير طويل كانت النسوة اليهوديات يقدمن الكعك لها بصفتها «ملكة السماء» (سفر ارميا 7: 18). وكانت تعرف عندهم باسم (عناة) التي يرد ذكرها في الكتاب المقدس بصيغة (أم شمجر) (سفر القضاة 3: 31؛ 5: 6).

وبدهي أن محرر الفصل المتعلق بنشأة الكون في سفر التكوين، وهو التوحيدي [المؤمن بإله واحد]، لا ينتظر منه أن يعهد بدور لغير الله الواحد الأحد، ولهذا حذف كل العناصر الأخرى التي كانت تشارك في عملية الخلق. ولا تثير أسماء مجردة كالشواش (توهو، وبوهو)، والظلام (هـوشيخ)، والأعماق (تهوم)، شكاً في كونها تصلح رموزاً لعبادة ما. لكن هذه الرموز هي التي حلت محل الآلاهات الأم القديمة.

ومع أن الفكرة الثورية عن وجود إله سرمدي مطلق كلي القدرة ترجع إلى الفرعون أخناتون، وقد اقتبسها العبريون منه هو الذي ربما كان حامياً لهم، أو أنهم ابتكروها مرة ثانية، فإن اسم (ايلوهيم) الذي يرد في الإصحاح الأول هو المقابل العبري لاسم سامي قديم لإله واحد على عدد من الآلهة الآخرين: إيلو Ilu عند الآشوريين والبابليين؛ وإيل El عند الحثيين وفي النقوش الأوغاريتية، وإيل Il أو إيلوم Ilum عند العرب الجنوبيين. وكان El يرئس الآلهة الفينيقية، ويرد ذكره في الأشعار الأوغاريتية (التي ترقى إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد) على هذا النحو: «إيل الثور» الذي يذكرنا بالعجول الذهبية التي صنعها هارون (سفر الخروج 32: 1 ــ 6، 24، 35، إلخ) كرموز عن الإله.

اما ماذا كان (توهو) و (بوهو) يعنيان بالأصل فموضع جدل. ولكن عند إضافة حرف الميم إلى توهو (ت هـ و) يصبح تهوم (ت هـ و م)، وهي التسمية التوراتية لوحش بحري بدائي. و (تهوم)، بصيغة الجمع تصبح تهوموت (ت هـ و م و ت)، وهو الاسم المعادل لبهوموت، في سفر أيوب، الذي يمثل الجزء اليابس لوحش البحر لوياثان.

ويزعم المفسرون الإسرائيليون أن الله خلق، في بادىء الأمر، عوالم عديدة، أجهز عليها الواحد بعد الآخر، لأنه لم يقتنع بها. وكانت كلها تعمر

بالبشر، آلاف من الأجيال تمضي عليها دون أن تترك أثراً (استناداً إلى كتاب مدراشي بعنوان Genesis Rabba، وهو تفسير لسفر التكوين، ألف في القرن الخامس في فلسطين). وبعد ذلك رأي الله أنه لن يقنع بعالم ما لم يقترن وجود الإنسان بوسيلة للتوبة. ولهذا، قبل الإقدام على اجتراح كون جديد، خلق سبعة أشياء، هي: الشريعة، جهنم، جنة عدن، العرش المقدّس، السماء، اسم المسيح، التوبة.

بعد مضي يومين من الأيام السماوية ــ ويعادلان ألفي سنة أرضية ــ سأل الله الشريعة التي أصبحت مستشارته، قائلاً: «هل أخلق عالماً آخر؟». فأجابته الشريعة قائلة: «يا سيد العالم، هل يوجد ملك بلا جيش أو معسكر؟ وأي شرف سيكون له إن لم يوجد ثمة من يسبح بحمده؟». فوافق الله على كلامها.

وفي رواية أخرى أن الشريعة احتجت على الله حين خلق البشر، قائلة: «لا تتركني تحت رحمة الخاطئين الذين يقترفون الآثام وكأنها جرعة ماء يجترعونها!» فأجاب الله قائلاً: «لقد خلقت التوبة علاجاً لذلك؛ العرش المقدس هو كرسي القضاء؛ والسماء لتشهد على ضحايا التكفير؛ وجنة عدن لتكون ثواباً للصالحين؛ وجهنم عقاباً للكافرين؛ وأنت لتحلي في رؤوس البشر، والمسيح ليجمعهم في المنفى».

يعقب مؤلفا الكتاب على هذا الكلام بقولهما: لسنا ندري إن كان اكتشاف المتحجرات (الاحفورات) الذي يعود إلى زمن أقدم بكثير من الأربعة آلاف سنة التي مضت على خلق آدم، قد دوّخ الأحبار. لئن كان الأمر كذلك، فإن رواياتهم عن تجارب الخلق السابقة كانت معقولة أكثر من نظرية علماء الأحياء في العهد الفكتوري، من أمثال فيليب غوس Goss الذي قال: «لقد وضع الله المتحجرات في الصخور ليمتحن إيمان المسيحيين».

وحتى في كتاب العهد الجديد (متى 5: 18) جرى الاعتقاد بأن الشريعة كانت أزلية، وُجدت قبل الخلق.

أما «جهنم»، الجحيم اليهودي، فقد استعير اسمها من (وادي هِنُّوم) في القدس، وهو موضع كانت تقدم فيه الضحايا البشرية للإله ملوخ، أو مولك Meloch، وفيما بعد لحرق قمامة المدينة.

على هامش النص

لا تختلف أسطورة التكوين التوراتية في الجوهر عن الأساطير الأخرى، السابقة والمعاصرة لها. فجميع الأساطير القديمة تبدأ بـالعماء أو الشواش أو حالة الظلام الأولى، حيث المياه الأولى، ومنها تنبثق الأرض والسماء ومظاهر الحياة الأخرى. الأسطورة السومرية تقول: في البدء كانت المياه، وتدعى الألاهة (نموّ)، وهي أنثى، وهذه تنجب (آن) إله السماء، وهو ذكر، و (كي) إلاهة الأرض، ملتصقين غير منفصلين عن أمهما. بعد ذلك يتزوج (آن) بـ (كي)، فيولد من اتحادهما (انليل) إله الهواء. ثم يفصل انليل، بقدرته الخارقة، أباه (آن) عن أمه (كي)، رافعاً الأول إلى السماء، وداحياً الثانية أرضاً، ويبقى هو (الهواء) بينهما. وكان الكون ما يزال مظلماً؛ حتى إذا أنجب انليل إله القمر (نانا)، تنورت السماء والأرض، ثم إن نانا ــ إله القمر ــ ينجب (اوتو) إلـه الشمس. وبعد ذلك يخلق انليل مع بقية الآلهة: الكائنات الحية والبشر.

إن أسباغ دور طليعي للأم في الأسطورة السومرية هذه يذكرنا بسيادة الأم في المجتمع الأمومي الذي كان سابقاً للمجتمع الباترياركي (الأبوي)، ويؤكد في الوقت نفسه عراقة وقدم الأسطورة.

والتكوين البابلي يبدأ، هو الآخر، بالمياه التي تمثل حالة العماء والسكون والتخلف. إلا أننا نجد هذه المرة صنفين من المياه: (أبسو) Apsu إله المياه العذبة ورمز الذكورة ومصدر الحياة والنماء، وتيامت أو تعامت إلاهة المياه المالحة ورمز الأنوثة. ومن امتزاج المياه العذبة (أبسو) بالميـاه المالحة (تيامت) يولد ممو (صخب الأمواج)، وكذلك لخمو، ولخامو، وهذان الأخيران إلهان غامضان لعلهما حيّتان. ومن لخمو ولخامو يولد إنشار المذكر، وكيشار المؤنثة، اللذان يمثلان، كما يُظن، العالمين السماوي والأرضي على التوالي. ولانشـار وكيشار يولد الألهان العظيمان: آنو الجبار، وأيا الداهية، وآلهة أخرى هي الأجيجي Igigi منازلها في السماء، وانوناكه Anunnake التي انتشرت على الأرض وفي العالم السفلي. وسرعان ما أقلق هؤلاء الآلهة الجدد راحة أبسو العجوز فراح يشكو لتيامت ضجره من صخب هذه الآلهة. فألقى أيا الداهية القبض على أبسو وممو. وهنا غضبت تيامت (أم الجميع)، وجمعت حولها عدداً من الآلهة، ثم أنجبت مردة، وتنانين، ووحوش غابة، وكلاباً وحشية، وعقارب بشرية، وأعاصير، وأسماكاً بشرية، وأكباشاً، واختارت لهم قائداً اسمه كنغو Kingu. وفي غضون ذلك خفّ (أيا) إلى أبيه (انشار)، وقال له: «إن تيامت أمنا تناصبنا العداء. وقد حشدت جيشاً جراراً ضدنا». فأرسل انشار، آنو وأيا،

للتصدي لتيامت. إلا أن قلبهما لم يطاوعهما في مواجهة أمهما بالعنف. فأرسل أيا بعل ــ مردوخ، الآله القوي، بعد أن استجاب إلى طلبه بأن يُمنح سلطات مطلقة إذا تغلب على تيامت. فحمل هذا قوساً وسهماً وشبكة؛ كما حمل معه أيضاً سلاحه الرئيسي: الاعصار (وهو عين السلاح الذي سيستعمله يهوة). ويقضي مردوخ على كنغو وتيامت، وبذلك ينتهي عصر سيادة الأم، ليحل محله عصر سيادة الأب. وكان واضحاً أن انتقال المجتمع الأمومي إلى أبوي إنما تم بفضل قوة وعضلات الرجل، وسلاحه الذي استعمله في صيد الحيوانات التي لا تقوى المرأة عليها.

وفي الأساطير المصرية كان نون Nun (أو Nu) يمثل العماء والمياه الأولى أيضاً التي تكمن فيها جذور كل الأشياء والكائنات. وطبقاً لأسطورة مصرية أخرى «إن الأرواح كانت ترفرف فوق البحار، وفي الفضاء، ونفذ روح الإله (آمون) في ذلك الفضاء وخلق الأرض والسماء والبشر وكل شيء»[(6)].

وفي التوراة أيضاً: «وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة. وروح الله يرف على وجه المياه» سفر التكوين 1: 2).

وكان (يم) في الأساطير الكنعانية إله البحر والمياه المتمردة المخربة. ويُرمز لـه بليـوثان، أو (ل ت ن) باللغة الأوغاريتية الكنعانية: الحية المتلويـة ذات الرؤوس السبعة؛ أو بالتنين (ت ن ن).

وهكذا، فإن صراع الآلهة مع التنين الخرافي يتكرر في معظم الأساطير: في الأسطورة السومرية، عندما ينشب صراع بين ننورتا والوحش ازاج؛ والأسطورة البابلية (إينوما إيليش) بني مردوخ وتيامت (تنين البحر)، كما رأينا أعلاه، وفي كتب التفاسير الإسرائيلية أيضاً: إن الله أردى اللوياثان المتمرد صريعاً وأغرق جثته في قعر المحيط.

وفي الأسطورة البيلاسغية: في البدء بعثت يورينومة، إلاهة كل الأشياء، من خاوس (العماء)، وفصلت البحر عن السماء، ثم استدارت نحو الجنوب، وقامت بحركات راقصة، فنشأت الريح من حركاتها، بعد ذلك التفتت نحو الريح التي اصبحت الآن شمالية، وأمسكت بها ثم فركتها بيديها، فنشأ منها الثعبان العظيم أوفيون Ophion. ورقصت أمامه فاستثير، والتف حـول أضلاعهـا المقدسة، ثم التحم بها. وهكذا فإن ريح الشمال صارت تقـرن فيما بعـد

---

(6) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ص 188.

بالاخصاب. ولهذا كان اليونانيون القدامى. وقبلهم البيلاسغيون، يعتقدون أن الفَرَس تدير قائمتيها الخلفيتين للريح لتتلقى اللقاح بلا فحل، كما جاء في الإلياذة... ثم اتخذت يورينومة هيئة حمامة، وباضت البيضة الكونية. وأمرت الثعبان أوفيون أن يلف نفسه سبع مرات حول هذه البيضة، حتى فقست وانشطرت نصفين، فنتج عنها: الشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، والأرض وما عليها من جبال وأنهار وأشجار وأعشاب وكائنات.

شيد يورينومة وأوفيون منزلهما على جبل الأولمب، وهناك أغاض أوفيون يورينومة لادعائها بأنها خالقة الكون. فركلته على رأسه بقدمها، وحطمت أسنانه، ثم رمت به في مغاور الأرض. بعد ذلك عينت يورينومة تيتاناً وتيتانة (جباراً وجبارة) على كل كوكب من الكواكب السبعة. وكان بيلاسغوس Pelasgus أول من وُجد من الرجال، أي أنه بمثابة آدم عند البيلاسغيين، نشأ من تربة أركاديا، وهو الذي علّم أبناء شعبه صناعة القبعات، والأقتيات على البلوط، وخياطة الملابس من جلد الخنزير، كما يفعل فقراء يوبويا وفوسز حتى الآن.

ويقول روبرت غريفز في كتابه (الميثولوجيا الإغريقية) إن يورينومة كانت ترمز للقمر المرئي، وتقابلها بالسومرية (إياهو) Iahu الملقبة بالحمامة السماوية، وهو لقب انتقل فيما بعد إلى (يهوة) الخالق. وكان مردوخ الإله البابلي يشطر الحمامة شطرين في عيد الربيع البابلي.

وكانت الحمامة عند العرب إلاهة الكعبة. وسوف نرى أنها، على عكس الغراب، ستلعب دوراً حميداً في طوفان نوح، عندما تعود بغصن الزيتون في منقارها بشارة بانحسار الطوفان وظهور اليابسة من جديد. أما اوفيون أو بورياس فهو الأفعوان خالق الكون المادي في الأساطير المصرية والعبرية.

وفي أيام البيلاسغيين (سكان اليونان السابقين للهلينيين) لم تكن الآلهة ولا الكهنة قد وجدوا بعد، إنما إلاهة كونية مع كاهناتها الإناث. أما الرجال فكانوا ضحاياها. ولم يُعترف بالأبوة، لأن الحبل كان يُعزى للريح، أو لأكل اللوبياء، أو لازدراد حشرة عن طريق المصادفة. وكان الميراث ينتقل عن طريق الأم.

- والتيتانات (ذكوراً وأناثاً) لهم مُعادلوهم في التنجيم البابلي والفلسطيني القديم، إذ كانوا آلهة تحكم أيام الأسبوع السبعة الفلكية المقدسة؛ ولعلها جاءت إلى البيلاسغيين في اليونان عن طريق إحدى المستعمرات الكنعانية أو الحثية التي استوطنت كورنثيا في أوائل الألف الثاني ق.م.، أو ربما عن طريق

الهيلاديين الأوائل. وفي الأسطورة البابلية كان حكام الأسبوع الفلكيون كلهم ذكوراً، وهم: شماش، سين، نيرجال Nergal، بعل، نينيب، عدا بيلتس Beltis إلاهة الحب. أما الأسبوع الجرماني الذي استعاره الكلتيون من شرقي البحر المتوسط، فإن الأحد، والثلاثاء، والجمعة، كان يحكمها تيتانات إناث، مقابل التيتانات الذكور في بقية الأيام(7).

وكان فيلو الدمشقي (القرن الأول الميلادي)، وهو من أصل فينيقي، يؤمن بأن الميثولوجيا الإغريقية ترجع إلى أصل فينيقي، ومرجع فيلو في ذلك كاتب فينيقي مجهول يدعى سانخونياثون Sanchuniathon. يقول فيلو، استناداً إلى سانخونياثون: في البدء كان الهواء، عاصفاً وكدراً، أو كان نَفَس الريح والعماء المظلم، وبعد عدة قرون وقع الهواء في غرام عناصره، فتمخض عن ذلك خليط سمي الرغبة. فكانت هذه أساس خلق كل الأشياء. بيد أن النفَس لم يعرف كيف خُلق هو. ولدى احتضان ذاته أنجب (موت) Mot، ومنه نشأت بـذور كل المخلوقات. ثم تنور الهواء من سخونة الأرض والبحر، وتكونت الرياح والغيوم. وكان هناك غمر من الماء والطوفان من السماء. وتحت حرارة الشمس انفصلت الأشياء عن بعضها وتركت أماكنها المحددة لها لتتصادم مع بعضها في الهواء، فنجم البرق والرعد نتيجة لذلك. وعلى صوت الرعد أفاقت الحيوانات فزعة وراحت تهيم على وجوهها في الأرض والبحر، ذكوراً وإناثاً.

وهي أسطورة، تعكس مرة أخرى، الواقع الجغرافي لمنطقة شرقي البحر المتوسط: الشمس، والتبخر، والمطر، والزوابع، وكيف تتكون الغيوم نتيجة لتبخر مياه البحر، ثم أن الغيوم تحتك مع بعضها فينشأ البرق والرعد؛ وكيف أن العالم النباتي يستمد حياته ونموه غب المطر، وفي جو مشبع بالرطوبة (الطل والندى). ويبدو أن مجترح هذه الأسطورة يفهم هنا بيسر كيف ينمو النبات من بذرة، بفضل الماء، لكنه لم يجد تفسيراً لنشوء الحيوانات، فاكتفى بأن جعلها تفيق على صوت الرعد، وهي صورة مستوحاة من الطبيعة، حيث تهيم الوحوش عندما تغضب الطبيعة.

وجاء في أسطورة العصور الذهبية الإغريقية أن الأرض أنجبت البشر تلقائياً، بصفتهم خير ثمارها، وبخاصة في تربة أثيكا، وأن الألكو مينيوس كان اول رجل وجد، على شاطىء بحيرة كوبيس في بويوتيا، حتى قبل أن يوجد القمر.

(7) Greek Myths, 1, PP. 28-29.

وكان هؤلاء البشر هم أبناء الجنس الذهبي، وهم رعايا كرونوس، وكانوا يعيشون برخاء وبحبوحة، بلا همّ أو عمل، طعامهم البلوط والفاكهة البرية والعسل الذي يسيل من الأشجار، ويشربون حليب الشياه، والماعز، ولا يشيخون، ويزجون أوقاتهم بالرقص والمرح. ولم يكن هاجس الموت عندهم أكثر مدعاة للقلق من النوم. وقد انقرضوا جميعاً، إلا أن أرواحهم باقية بهيئة جن.

بعدهم جاء الجنس الفضي، أكلة الخبز، وهم كسابقيهم من خلق الآلهة، إلا أن رجالهم كانوا خاضعين تمام الخضوع لأمهاتهم، دون أن يجرؤا على مخالفتهن. وكانوا جهلة وحمقى، ولم يقدموا قرابين لآلهتهم، لكنهم لم يحتربوا مع بعضهم. ثم قضى عليهم زيفس.

بعد ذلك جاء الجنس البرونزي الذي تساقط كالفاكهة من أشجار الدردار. كان أبناء هذا الجنس مسلحين بأسلحة وبلا شفقة. ثم قضى عليهم الطاعون الأسود.

وكان الجنس الرابع من البرونز أيضاً، إلا أنهم أنبل وأكرم من سابقيهم. وقد حاربوا ببسالة في حصار طيبة، وفي حملة الأرغونيين، وحرب طروادة. وكانوا أبطالاً، ومن هنا جاءت تسمية عصرهم بعصر البطولة.

أما الجنس الخامس فهو الجنس الحديدي، وهو الجنس اليوناني المعاصر لكاتب هذه الأسطورة هزيود الشاعر الإغريقي. أبناؤه متحللون، قساة جفاة، ظالمون، حقودون، فاسقون، خونة، ولا يعرفون الطاعة.

يقول روبرت غريفز في كتابه (الميثولوجيا الإغريقية) الذي نقلنا هذه المعلومات عن العصور الذهبية منه: مع أن أسطورة العصر الذهبي ترجع إلى مرحلة تبعية القبائل إلى إلاهة النحل، فإن وحشية حكمها في العصور ما قبل الزراعية كانت قد طواها النسيان في أيام هزيود، ولم يبق من ذكراها سوى الاعتقاد المثالي بأن البشر عاشوا يوماً ما منسجمين كالنحل. كما أن أسطورة العصر الفضي ترمز إلى مرحلة سيادة الأم. والفضة هو معدن إلاهة القمر. أما الجنس الثالث فهم الهلينيون الغزاة الأوائل: أصحاب قطعان العصر البونزي الذين عبدوا إلاهة شجرة الدردار وابنها بوسيدون. وأما الجنس الرابع فهم ملوك العصر الميسيني المحاربون. وأما الخامس فهم دوريو القرن الثاني عشر ق.م. الذين استعملوا الحديد ودمروا الحضارة المسينية(8).

---

(8) Greek Myths, vol. 1, P. 26-27.

وتستند الروايات الإسلامية عن قصة الخليقة إلى الأسطورة الإسرائيلية بصورة عامة. قال ابن عباس: إن أول ما خلق الله عز وجل الماء، وكان عرشه عليه. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع الدخان فوق الماء فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين، في يومين، الأحد والاثنين، وخلق الأرض على حوت، والحوت هو الذي ذكره الله سبحانه في القرآن في قوله تعالى: «ن والقلم وما يسطرون»... فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض، فأرسى الله عليها الجبال فقرّت الأرض... وخلق أقوات أهلها... في يومين، في يوم الثلاثاء والأربعاء... وفي القرآن: «قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً، ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالت أتينا طائعين». فكان ذلك الدخان من نَفَس الماء... ثم فتقها فجعلها سبعاً في يومين، في يوم الخميس والجمعة... وإن الله تعالى أسكن ظهر الأرض ـ لما فرغ من خلقها ـ الجن، قبل آدم، فجعلهم من مارج من نار، وإبليس فيهم(9).

(9) مروج الذهب للمسعودي، ج 2، ص 114 وما بعدها. دار الأندلس ـ بيروت. الطبعة الخامسة 1983.

المياه العليا والمياه السفلى

يقول مفسرو قصة الخليقة أن الله خلق السماوات من نور ردائه. وعندما بسطها مثل قطعة قماش، أخذت تمتد وتمتد من تلقاء ذاتها إلى أن قال لها «كفى!». وخلق الأرض من الثلج الموجود تحت عرشه المقدس: رمى بعضاً منه على المياه، فتجمدت واستحالت ترابا. وظل البحر واليابسة ينبسطان وينبسطان إلى أن قال الله لهما: «كفى!».

ويزعم آخرون أن الله حاك لفتين، إحداهما من نار، والثانية من ثلج، ليخلق منهما الكون؛ واثنتين أخريين من نار وماء، ليخلق منهما السماوات. في حين يزعم آخرون أن السماوات خلقت من ثلج فقط.

ثم وجد الله (المياه العليا) المذكرة، و (المياه السفلى) المؤنثة، مستغرقين في عناق عاطفي. فأنفذ أمره قائلاً: «ليرتفع واحد منكما، ويهبط الآخر!» إلا أنهما ارتفعا سوية، فقال الله: «لماذا ارتفعتما كلاكما؟» أجابا قائلين: «إننا ملتحمان. اتركنا وشأننا في عناقنا الغرامي!» فمد الله خنصره (اصبعه الصغير) وفصلهما عن بعضهما، رافعاً العليا إلى أعلى، وخافضاً السفلى إلى أسفل. وكاد أن يسفعهما بالنار، لولا أنهما تضرعا إليه ملتمسين المغفرة. فعفا عنهما مقابل شرطين: أن ييسرا لبني إسرائيل مهمة المرور دون أن يغمرهم الماء يوم الخروج [من مصر]؛ وأن يمنعا يونس من الهرب بالسفينة إلى ترشيش.

إلا أن الماءين المنفصلين عن بعضهما ما لبثا أن اندفع الواحد باتجاه الآخر، وغمرا قمم الجبال بالطوفان. وعندما ارتطمت (المياه السفلى) بالحافة السفلى لعرش الله، صرخ في وجههما مغضباً، وداس عليهما بقدميه.

وفي اليوم الثالث، عندما عمد الله إلى عزل (المياه المالحة) في مكان واحد ــ لكي تنبثق عنها اليابسة ــ احتجا قائلين: «رغم أننا نغمر العالم بأكمله، فنحن بحاجة إلى مجال أوسع؛ ومع هذا تريد أن تحصرنا في مكان محدود؟» فركل الله سيدهما الأوقيانوس وأرداه قتيلا.

بعد التغلب على هذه الصعوبات، خصص الله مكاناً منعزلاً لكل من المائين.

وقد منع المياه التحترضية العذبة (تهوم) من الارتفاع إلى أعلى، إلا بالتدريج. ولكي يأمن خضوعها وضع شقفة فخار فوقها، نقش عليها اسمه الخالد. ولم يرفع هذا الختم إلا مرة واحدة: عندما اقترفت البشرية الخطيئة في أيام نوح. وعند ذاك اتحدت (تهوم) بالمياه العليا، وغمرا الأرض سوية بالطوفان.

ومنذ ذلك اليوم و (تهوم) مقعية بخضوع تام كحيوان هائل، مفجرة الينابيع لمن يستحقونها، ومغذية جذور الأشجار، وبالرغم من صنيعها هذا الذي يلعب دوراً كبيراً في حياة البشر، إلا أن أحداً لا يزورها.

وتزود (تهوم) الأرض بالماء بثلاثة أضعاف ما يأتيها من المطر. وفي عيد الخيمة عند اليهود، يهرق كهنة المعابد الخمرة والماء تقدمةً في المذابح. وعند ذاك يأمر (ريديا)، وهو ملاك بهيئة عجل عمره ثلاث سنوات بشفة مشقوقة، تهوم قائلاً: «لترتفع ينابيعك!»، كما يأمر المياة العليا قائلاً: «ليهطل المطر!».

ويزعم آخرون أن جوهرة تحمل اسم المسيح ــ ظلت تسبح في الفضاء إلى أن تم بناء مذبح القرابين على جبل صهيون، فاستقرت هناك ــ كانت أول شيء جامد خلقه الله. في حين يزعم غيرهم أيضاً أنها كانت (حجر الأساس) في بنيان مذبحه؛ وعندما منع الله مياه تهوم من الصعود، نقش اسمه الذي يتألف من إثنين وأربعين حرفاً على سطحها، وليس على شقفة الفخار. كما يزعم آخرون أنه رمى (الصخرة) إلى أعماق الماء وبنى اليابسة حولها، مثلما ينمو الجنين من السرة؛ ومن هنا سميت سرة العالم.

وفيما بعد، عندما تساءل آدم كيف يُجترح النور، أعطاه الله حجرين: أحدهما يدعى حجر الظلام، والآخر شبح الموت، وضربهما ببعضهما، فقدحا ناراً، وقال الله: «وهكذا تم اجتراحها».

• • •

يعقب المؤلفان قائلين: في الأساطير الأوغاريتية [الكنعانية]، كما في العبرية، يتخذ الماء دائماً صفة ثنائية: فهناك طوفانان، وأوقيانوسان، وبحران. كما ترد الإشارة أيضاً إلى حب المياه المذكرة للمياه المؤنثة، وعندما بنى كوثر ــ وخاسيس [إله العمارة والفنون الكنعاني] دار إله المطر بعل، مُنع من أن يفتح نافذة أو كوة قد يتطلع منها الأله (يمّ) زير النساء، لمشاهدة زوجتي الإله [بعل] فدرية (ابنة النور)، وطليّة (ابنة الندى).

اما العجول التي عمرها ثلاث سنوات فتذكرنا بعبادة القمر، لأن قرونها

تشبه الهلال، ولأن القمر له ثلاثة أوجه. وفي علم التنجيم البابلي يتحكم القمر بالقوة الفلكية للماء. وفي الشريعة الموسوية يُمزج (ماء العزل) برماد عجلة حمراء من أجل ضمان النظافة التامة. وتضرُّعُ المياه إلى الله بالعفو عنها عندما هدد بلفحها بالنار يذكرنا بالألياذة عندما أشعل هيفاستوس شعلة على ضفتي كزانثوس لتتبخر مياهه إلى أن يستسلم. ولكن يبدو أن هاتين الأسطورتين، اليهودية والهوميرية، مستعارتان من مصدر واحد، هو الشرق الأوسط.

أما القصة المدراشية حول الصخرة، أو الحجر، أو شقفة الفخار، التي وضعها الله فوق (تهوم) ليحول دون ارتفاعها وإغراق الأرض بالطوفان، فترجع إلى أصل سومري. جاء في أسطورة أنكي ــ ننخرساغ أنّ مياه (كور) البدائية، أو المياه الواطئة، ارتفعت بقوة إلى السطح، مانعة المياه العذبة من ري الحقول والبساتين. فوضع ننورتا، إله الريح الجنوبية العاصفة وابن انليل، كومة من الصخر فوق (كور) وأوقف الطوفان.

على هامش النص

مع أن الفكرة القائمة على خلق السماء من النار والثلج قد تنطوي على مفهوم علمي ــ بدائي ــ عن المادة والطاقة الكونيتين، إلا أن الصورة التي تقدمها لنا اللغّة حين تنبسط، تستند إلى نظرة مسطحة عن الأرض والسماء، قائمة على بُعدين فقط (الطول والعرض). ولأن «السماء» تبدو للرائي البدائي أشبه بسقف يعلو الأرض، فقد جاءت صورتها عند كتّاب ومفسري التوراة على شكل سطح منبسط. ولا شك أن فكرة الانبساط بمعنى (الامتداد) مستمدة من سيحان الماء على الأرض عند الري أو الفيضان، وربما كانت فكرة خلق السماوات من ماء ونار مستمدة أيضاً من ظاهرة المطر والبرق اللذين ينداّن عن السماء. والرأي الآخر القائل بأن السماء خلقت من ثلج فقط ربما يستند إلى ظاهرة نزول الثلج من السماء. (اما المطر فإن هو إلا ثلج ذائب).

أما الفكرة القائلة بأن المياه العليا مذكرة، والسفلى مؤنثة فمستعارة، على ما يبدو، من التراث البابلي: المياه العذبة مذكرة، والمالحة مؤنثة. وتفسير ذلك، في رأينا، أن مياه الأنهار ــ العذبة ــ هي التي تصب ــ تدخل ــ في البحار (المياه المالحة)؛ وهذه العملية تذكّر بالإيلاج. هذا إلى أن الأنهار لها شكل طولي. ويصدق هذا أيضاً على الأمطار ــ المياه العليا ــ التي تأتي من عل هاطلة على الأرض والبحر، وبهذا فإن مثلها كمثل الذكر إذ يعتلي الأنثى أو يقذف فيها.

وتعزيزاً لرأي المؤلفين من أن الصفة الثنائية للماء مصدرها الأساطير الأوغاريتية الكنعانية، جاء في ملحمة البعل الأوغاريتية:

ثم إنها توجهت إلى
إيل عند نبع النهرين
وسط مجرى الغمرين...

ومما يجدر ذكره أيضاً أن الماء عند الساميين كانت له قدسية، ربما لأنه أصل الحياة. وكان النهر بمثابة قاضٍ يحكم ببراءة المتهم أو يدينه. فالمجرم حسب شريعة حمورابي كان يُرمى في النهر، فإن كان بريئاً لفظه النهر، وإن كان مذنباً ابتلعه. فالنهر الذي نبعه فوهة تؤدي إلى العالم السفلي، عالم الأموات، قاضٍ (شافاط) بالعبرية، وبالأوغاريتية (ث ف ط. ن ه ر) القاضي نهر، وانتقلت إلى اليونانية sofet. ومن القاب الإله الأوغاريتي (يم): القاضي نهر[10]. وهذه الكلمة تذكرنا بلفظة (شفط) في العراقية الدارجة، وتعني امتص. ولعلها جاءت من ابتلاع النهر لضحاياه.

(10) ملاحم واساطير من اوغاريت، ص 109.

الكائنات السابقة للخلق

في الايام السابقة للخليقة تمرد (رهب) أمير اليمّ على الله. وحين أمره الله قائلاً: «افتح فمك يا أمير اليمّ، وابتلع مياه العالم» أجاب رهب: «يا رب العالم، اتركني في سلام!» فأرداه الله صريعاً واغرق جثته في قعر المحيط، لأن عفونته لا تطاق. (عن بابا باترا: مقالة في التلمود البابلي المؤلف في حدود 500 ميلادية).

وكانت أنياب اللوياثان تورث الرعب والفزع. ومن فمه يخرج لهب ونار، ومن منخريه دخان، ومن عينيه شعاعان من الضوء يعشيان البصر؛ وكان قلبه بلا رحمة. ولا يقوى عليه سلاح من صنع البشر. وكان نزلاء السماء يرهبونه ايضاً. إلا أن الله امسك باللوياثان بشص ورفعه من الأعماق، وشد لسانه بحبل، ثم غرز قصبة في منخريه، وشوكة في فكيه، كما يفعل الصياد مع السمكة. ثم رمىٰ بجثته في بطن قارب، وحمله بعد ذلك وكأنه كان ماضياً به إلى السوق.

ويزعم البعض أن لليوياثان عيوناً بعدد أيام السنة، وحراشف مشعة تفوق أشعة الشمس في بهائها؛ وحين يلوي ذنبه ويعضّ طرفه الأخير بأسنانه، يُلمّ بالبحر المحيط.

• • •

يعقب مؤلفا الكتاب قائلين: يذكرنا اللوياثان بالحوت حيناً، وبالتمساح حيناً آخر. اما لماذا يدعى بـ «روح مصر السماوية»، ولماذا يلقب حزقيا ل (29: 3) الفرعون «بالتمساح الكبير الرابض في وسط أنهاره»، فيمكن الوقوف عليه في قصيدة مديح لتحوتميس الثالث: «بفضل قوتك القاهرة ستشبه [الأقوام المغلوبة] جلالتك بتمساح يخشىٰ بأسه في المياه، ولا يجرؤ امرؤ على الاقتراب منه».

وكانت التماسيح تعبد في كروكو ديلو بولس [مدينة التماسيح]، واومبوس، وقبطوس، وأثريبيس، وطيبة. وتوجد مخلفات منها محنطة في العديد من المقابر المصرية. وكان يُعتقد أن التماسيح تبيض تماماً فوق مستوى الفيضان القادم للنيل، كما يقول بلوتارخ، وهي ظاهرة يستفيد منها الفلاحون. كما كانت التماسيح موجودة في فلسطين، في نهر الزرقاء، حتى بداية هذا القرن.

وأما عفونة اللوياثان فلعلها مستعارة من تيهوم (تيامت)، وهذه تذكرنا بالفعل العربي (تهم) أي فسد، وتقال للحم، وبتهامة، في الجنوب الغربي من ساحل الجزيرة العربية. ولعل الأمواج دفعت يوماً ما بحوت ميت إلى هذه السواحل، فزكمت رائحته الأنوف. وليست هناك رائحة نتنة أقوى منها.

على هامش النص

في بعض النصوص العربية عن قصة الخليقة ترد إشارات للحوت. جاء في كتاب تأريخ الرسل والملوك للطبري: «إن الله خلق الماء على متن الريح، ووضع عليه عرشه، ثم خلق البيت العتيق فوق الماء، ثم قبض قبضة من حجارة، ثم فتح القبضة فتنفس الماء وارتفع دخاناً. وإذا بسبع سماوات؛ في كل سماء ملائكتها... ثم خلق الحوت ودحا الأرض على ظهره». (نقلاً عن كتاب: مغامرة العقل الأولى، ص 30).

والصورة التقليدية للتنين هي أن له جسماً يشبه العظاية أو الحية، وأجنحة كأجنحة الوطواط، وينفث النار من فمه. وكان للتنين البابلي تيامت (أو تعامت) أربع قوائم وأجنحة. ويقال للتنين باليونانية drakon، ومنها جاءت كلمة dragonالإنكليزية. وكانت كلمة (دراكون) تستعمل بالأصل للدلالة على الحية الكبيرة. وكان الإله المصري أبيبي Apepi يصوَّر على شكل حية هائلة ترمز لعالم الظلام. وكان التنين يرمز بصورة عامة للشر. ومع أن اليونانيين والرومان استعاروا الفكرة التي تصور الحية رمزاً للشر من الشرق الأدنى، إلا أن التنين عندهم كان يصور أيضاً كقوة خيرة، وله عيون نفاذة ويسكن باطن الأرض. وانتقلت هذه الصورة عن التنين من اليونان والرومان إلى أوروبا. وفي المسيحية صار التنين رمزاً للخطيئة والوثنية. وغالباً ما يصور تحت أقدام القديسين والشهداء، وقد أصابت رماحهم منه مقتلاً، كالقديس جورجيوس (الذي يُظن أنه المعادل للخضر عند المسلمين) وصراعه مع التنين. وقد استعمل التنين شعاراً في الحروب أيضاً. ففي الألياذة، أن درع الملك أغا ممنون كان عليه صورة حيّة زرقاء بثلاثة رؤوس. وكان النورديون (الاسكندنافيون القدماء) يرسمون صورة التنين على دروعهم وينحتون جؤجؤ سفنهم على شاكلة تنين.

اما في الشرق الأقصى فكان التنين رمزاً للخير، ويسمى بالصينية لونغ Lung ويراد به رمزاً للقوة. وكان شارة الأسرة المالكة عندهم. وباليابانية يدعى tatsu. وكان التنين الياباني قادراً على التكيف حسب إرادته إلى الحد الذي يبدو

فيه لا مرئياً. لكن التنين الصيني والياباني كان بلا أجنحة، مع أنه كائن هوائي[11].

ولم يرد للتنين ذكر متميز في الأدب العربي. إلا أن آدابنا حافلة بالحديث عن الجن والغول والسعلاة. وفي رسالة الغفران صورة جميلة عن جني يُدعى الخيثعور أبا هدرش أحد بني الشيصبان، تذكرنا بتلون التنين الياباني، والتنين الحديث، كما تصوره أفلام الكارتون. يقول الراوي: «يا أبا هدرش، مالي أراك أشيب، وأهل الجنة شباب؟ فيقول: أن الإنس أُكرموا بذلك وأُحرمناه، لأنّا أعطينا الحُولة في الدار الماضية، فكان أحدنا إن شاء صار حية رقشاء، وإن شاء صار عصفوراً، وإن شاء صار حمامة، فمُنعنا التصور في الدار الآخرة، وتُركنا على خلقنا لا نتغير...

«ولقد لقيت من بني آدم شراً، ولقوا مني كذلك. دخلت مرة دار أناس أريد أن أصرع فتاة لهم، فتصورت في صورة عضل [جُرَذ]، فدعوا لي الضياون [القطط]، فلما أرهقتني تحولت صلاً أرقم، ودخلت في قطيل [نخلة مقطوعة] هناك، فلما علموا ذلك كشفوه عني، فلما خفت القتل صرت ريماً هفافة فلحقت بالروافد [خشب السقف]. ونقضوا تلك الخُشُب والأجذال [أصول الحطب العظام] فلم يروا شيئاً. فجعلوا يتفكنون [يتعجبون] ويقولون: ليس ها هنا مكان يمكن أن يستتر فيه، فبينا هم يتذاكرون ذلك عمدت لكعابهم في الكلة، فلما رأتني أصابها الصرْع، واجتمع أهلها من كل أوب، وجمعوا لها الرُقاة، وجاءوا بالأطبّة وبذلوا المنفسات، فما ترك راقٍ رُقية إلاّ عرضها عليّ وأنا لا أجيب، وغبرتْ الأُساة [الأطباء] تسقيها الأشفيَة وأنا سَدِكٌ [لازم] بها لا أزول، فلما أصابها الحِمام طلبتُ لي سواها صاحبةً، ثم كذلك حتى رزق الله الأنابة وأثاب الجزيل، فلا أفتأ من الحامدين:

حمدتُ من حط أوزاري ومزقها ... عني، فأصبح ذنبي اليوم مغفورا
وكنت آلف من أتراب قرطبة ... خوداً، وبالصين أخرى بنت يغبورا[12]
أزور تلك وهذي، غير مكترثٍ ... في ليلة، قبل أن أستوضح النورا
ولا أمرّ بوحشي ولا بشر ... إلا وغادرته ولهانَ مذعورا

---

(11) عن الموسوعة البريطانية، طبعة 1984، تحت مادة dragon.

(12) لقب ملوك الصين.

أروّع الزنـــج إلمــامــاً بنســـوتهـــا والروم والترك والسقلاب والغورا[13]

... فتـارة أنـا صـلّ في نكـارتـه وربمـا أبصرتني العين عصفـورا
تلوح لي الإنس عوراً أو ذوي حولٍ ولم تكن قـط، لا حولاً ولا عـورا

(13) منخفض ما بين القدس وحوران.

سقوط الشيطان

في اليوم الثالث من أيام الخليقة، ظهر في الجنة كبير ملائكة الله، هليل بن شحر [السحَر]، يختال بجسده الناري، ومجوهراته المتلألئة مجزعة بالذهب الخالص. ولحين من الدهر كان ورعاً، إلا أن الغرور ركب رأسه: «سأصعد فوق الغيوم والنجوم، وأجلس على عرش صافون، جبل العرش، لأكون صنواً لله». عند ذاك أنزله الله من جنة عدن إلى الأرض، ومن الأرض إلى «شيول» فاشتعل الشيطان في أثناء سقوطه كالشهاب، واحترق، ثم استحال رماداً.

● ● ●

كان هليل بن شحر في الأصل يمثل الزُهَرة، آخر نيِّرة في السماء مزهوة بنفسها تتحدى الشروق: وهو تعبير عبري مجازي امتزج بإسطورة سقوط فاثون الإغريقية (احترق موتاً عندما قاد بوقاحة عربة الشمس العائدة لأبيه هيليوس). ورغم أن هذه الأسطورة إغريقية في ظاهرها، إلا أنها ترجع إلى أصل بابلي، حيث كانت عربة شمس بلا صاحب، ترمز إلى انتقال العرش، تسير في شوارع المدينة كل عام يقودها غلام بديل يجلس على العرش الملكي يوماً واحداً. وهذا البديل، الأثير لدى الألاهة عشتار (التي تشرف على كوكب الزُهَرة)، يضحَّى به فيما بعد.

وفي المزامير يرد ذكر أبي هليل، السَحر، كإله مجنح. و (شحر) أو بعل بن إيل هو التوأم الشقيق لشالم [أي الكامل] في الميثولوجيا الأوغاريتية. وفي الميثولوجيا الأوغاريتية، ايضاً، يوجد عرش بعل في جبل صافون. وعندما قتله موت Mot، دفنته شقيقته عناة هناك. وصافون، أو زافون، هو جبل الأقرع، وارتفاعه 5800 قدم، كان مقر إيل الإله ـ الثور للأقوام السامية الشمالية. وإبليس كان يدعى في كتاب العهد الجديد: (الشيطان)، وفي الترجوم (سامائيل).

على هامش النص

لم يكن للعفاريت أو «الشياطين» دور بارز في مجمع الآلهة في بلاد الرافدين، كان يُتقى شرهم بالتعاويذ والرُقى. لكنهم غالباً ما كانوا يصوَّرون كمارقين. فقد طُردت العفريتة أو «الشيطانة» لاماشتو من السماء بسبب

تصرفاتها الشريرة. وكانت العفاريت تضمر الشر للبشر وتسبب لهم مختلف الأمراض. ومن هنا منشأ الفكرة البابلية عن الأمراض: الأرواح الشريرة. وكانت تصور كائنات في هيئة ريح أو عاصفة. على أنه، انسجاماً مع الصورة القديمة للعالم كدولة كونية، كان بوسع أي شخص تقديم شكوى إلى المحكمة ضد العفاريت، ملتمساً العون من الإله أوتو Utu (إله الشمس) لينصره عليها.

على أن هناك، في نص بابلي يسبق قصة الشيطان التوراتية اكتشف في تل العمارنة بمصر، حكاية عن إله يذكرنا تصرفه بموقف إبليس إلى حد ما. ومفاد الأسطورة أن الآلهة أقاموا مأدبة، وبعثوا لأختهم (أريشكيجال) المقيمة في العالم السفلي، خبراً بأن ترسل مندوباً عنها ليتسلم نصيبها من المأدبة. فصعد رسولها (نمتار) إلى الآلهة في السماء العليا لتسلم حصتها. ولدن مثوله أمام الآلهة نهضوا جميعاً لتحيته إلا واحداً، هو نرغال Nergal . وعندما بلغ أريشكيجال خبر تمرده، قالت: «إن الإله الذي لم يقف أمام رسولي يجب أن يسلم إليَّ لأقتله». ولما سمع بذلك نرغال ارتعدت فراصه وبكى أمام أبيه (أيا). ثم أن أيا لا يفتأ أن يهدىء روعه، ويزوده بأربعة عشر عفريتاً ليكونوا في عونه عند مواجهة أريشكيجال. وبمعونة هذه العفاريت يقبض نرغال على أريشكيجال، ويهمّ بقتلها. إلا أن هذه تتوسل إليه بالإبقاء على حياتها مقابل أن تكون له زوجة، فيستجيب لعرضها.

وفي الديانة الزرادشتية (القرن السادس قبل الميلاد)، كان أهريمان Ahriman (الروح المدمرة الكاذبة) خصماً ومناهضاً للحقيقة الخالصة، والنور، والحياة، التي تجسدت في أهورا مازدا Ahura Mazda الإله العاقل. ومن هنا فالبشرية في صراع دائم بين الخير والشر.

وفي الديانة المانوية (إيرانية قديمة تالية للزرادشتية، في حدود القرن الثالث بعد الميلاد) كان الشيطان يسمى أمير الظلام، من بين أسماء أخرى. وعند البوذيين يمثل مارا Mara (الشرير) الروح الشريرة التي يتغلب عليها شاكياموني. وكان مارا يمثل الشهوة، والموت، الخصمين التوأمين للنرفانا.

وفي التوراة يصور الشيطان كمدعي عام في محكمة يهوة، كما جاء في سفر أيوب (الإصحاحين 1، 2): لكنه لا يعتبر خصماً لله. وفي المؤلفات الدينية اليهودية والمسيحية التالية للكتاب المقدس يعتبر الشيطان (أمير الأبالسة)، ويتخذ أسماء شتى: بعل زبول (إله الذباب) في إنجيل متى (12: 24 ــ 27)، وبعل زبوب (إله الروث)، ولوسيفر Lucifer (ملاك النور الساقط)، أو ابن

السحر. وفي كتاب العهد الجديد ثمة إشارات أخرى للشيطان: التنين الكبير، والحية القديمة، والشرير، وحاكم هذا العالم (يوحنا 12: 31)[14]. وقد أهان الملك أهازيا (سفر الملوك الثاني، الإصحاح الأول وما يليه) إلهاً أوغاريتياً (كنعانياً) يدعى بعل زبوب أو زبول في عقرون. وبعد ذلك بعدة قرون سيتهم ابناء الجليل عيسى المسيح بالإتجار مع «أمير الأبالسة» هذا[15].

ويقول الكتور أنيس فريحة بهذا الصدد: «ولأن أنبياء اليهود كانوا دوماً يهاجمون ديانة فينيقيا، وطقوس عبادتها، وآلهتها ــ ومنها البعل وأشيرة وعشتروت ــ فإنهم حرفوا تحريفاً مشيناً لفظة (زبول) إلى (زبوب) وتعني الذباب، وصاروا يسمون رئيس الشياطين «بعل ـ زبوب» عوضاً عن «بعل ــ زبول» وذلك استهزاء واحتقارا»[16].

---

(14) الموسوعة البريطانية تحت مادة Devil.

(15) الأساطير العبرية، المقدمة، ص 13.

(16) ملاحم واساطير من اوغاريت، ص 46.

مولد آدم

في اليوم السادس أنجبت الأرض آدم بإيعاز من الله. ومثل المرأة التي تبقى ثلاثة وثلاثين يوماً نفساء غير طاهرة بعد ولادة ولد ذكر، كذلك بقيت الأرض غير طاهرة ثلاثة وثلاثين جيلاً، إلى أن جاء حكم الملك سليمان الذي لم يكن من الممكن بناء هيكل الله، قبل عهده، في أورشليم. (عن كتاب أغورات أغورات). لقد اختلطت عناصر النار، والماء، والهواء، والظلام، في رحم الأرض لتنتج كائنات حية. (عن رابا التكوين، وهو مدراش، أي تفسير لسفر التكوين، كُتب في القرن الخامس في فلسطين؛ وكتاب مدراش أغادا). ورغم أنها حملت بأبنائها جميعاً في اليوم الأول، إلا أن الأعشاب والأشجار ظهرت في اليوم الثالث، وحيوانات البحر والطيور في الخامس، ووحوش البر، والدبابات (الزواحف) والإنسان في اليوم السادس (سفر التكوين 1: 9 ـــ 13؛ 20 — 27).

لم يستعمل الله تراباً لا على التعيين، بل اختار غباراً خالصاً، لأجل أن يكون الإنسان سيد المخلوقات. كان عمله أشبه بعمل امرأة تلتّ الطحين بالماء وتحتفظ بمقدار من العجين للتقدمة: ذلك أنه بلل التراب بضباب، ثم أخذ مقدار قبضة منه ليصنع الإنسان، الذي كان أول تقدمة في الوجود. ولأن الإنسان جُبِلَ من (الأدمة)، فقد سمى نفسه (آدم)، إقراراً بأرومته؛ أو ربما سميت الأرض (أدمة) إكراماً لابنها. وهناك من يشتق الاسم من أدوم adom (احمر)، لأنه صنع من طين أحمر في أرض الخليل قرب مغارة مكفيلة.

ويرى البعض أن الله لم يأخذ التربة من الخليل، فهي أقل قدسية من جبل موريّا، سرة الأرض، حيث أقيم المعبد فيما بعد. وهناك تمت مباركة إبراهيم لاستعداده للتضحية بابنه إسحاق.

ويزعم آخرون أن الله ترفّع عن إحضار تراب آدم بنفسه، فأرسل ملاكاً لينهض بهذه المهمة، إما ميخائيل إلى جبل موريّا، أو جبريل إلى أركان الأرض الأربعة. وعندما رفضت الأرض الاستجابة لطلب الملاك، إيماناً منها بأن آدم سيلعنها، لوّح الله لها بيده.

ويؤكد آخرون أن التراب الذي جُبل منه جذع آدم جيء به من بابل،

والذي جبل منه رأسه من إسرائيل، والذي صنع منه ردفاه من قلعة بابل، أغما Agma، وتراب أضلاعه من أماكن أخرى.

وقد اختلف الرواة كثيراً حول الساعة التي خلق الله فيها روح آدم: أترى كان ذلك في فجر اليوم السادس (وفيما بعد تم خلق جسده)؛ أم في اليوم الخامس، قبل ظهور وحوش البر؛ أم أن هذا الشيء النفيس كان أول ما تمخضت عنه يداه؟ في حين يزعم آخرون أن جسد آدم لم يسبق روحه في الخلق فحسب، بل خلق قبل النور نفسه. زعموا أن الله حين همَّ بنفخ روحه فيه، تريث قائلًا: «لئن جعلت الإنسان يحيا ويقف على قدميه في الحال، ألن يقول قائل فيما بعد إنه شاركني مهماتي... فليبق تراباً إلى أن أتم صنعه!» وفي الغسق، في اليوم السادس سأله الملائكة: «يا رب العالمين، لمَ لمْ تخلق الإنسان بعد؟» فكان جوابه: «لقد تم خلق الإنسان، ولا تنقصه سوى الحياة». ثم نفخ الله في الطين، فاستوى آدم على قدميه، وتم بذلك صنع الخليقة.

لقد صنع الله آدم بحجم هائل، بحيث أنه عندما استلقى كان طوله من نهاية الأرض إلى نهايتها الأخرى، وعندما نهض كان رأسه بمستوى العرش المقدس. ثم أن جماله كان يفوق الوصف. فكما أن أجمل امرأة كانت تبدو كالقردة بالقياس إلى سارة زوجة إبراهيم، وكما أن سارة كانت تبدو كالقردة بالقياس إلى حواء، مع هذا، فإن حواء نفسها بدت كقردة بالقياس إلى آدم، الذي فاق كعبه ــ ناهيكم عن محياه ــ الشمس ببهائه! ورغم ذلك، ومع أن آدم جُبل على صورة الله، إلا أنه كان كقرد بالقياس إلى الله! (عن بابا باثرا).

واقتربت جميع الكائنات الحية، بوجل، من آدم البهي، متوهمة إياه بأنه هو الخالق. وعندما سجدوا عند قدميه، زجرهم قائلًا: «فلنؤدّ صلاة الشكر لله، ولنعبده وننحني ساجدين أمام الله خالقنا...» سُرَّ الله بذلك، وأرسل الملائكة ليقدموا لآدم ولاء الطاعة في الجنة. فسجدوا له، وشووا اللحم وأهرقوا الخمر، إلا أن الشيطان الحسود رفض السجود من دونهم، فطرده الله من حضرته.

على أن البعض يزعم أن الملائكة امتلأت صدورهم حقداً وضغينة على آدم، ظناً منهم بأنه سيكون صنواً لله، وحاولوا كيّه بالنار؛ إلا أن الله بسط يده على آدم وأحلّ السلام بينه وبّينهم.

وقد قيل أن الله لم يقلص جسد آدم، بل خرّم رقاقات لا عدَّ لها من جسده. فاحتج آدم قائلًا: «لماذا تختزلني؟» فأجابه الله: «إن ما آخذه أعطيه فيما

بعد. أجمع تلك القصاصات، وأنشرها بعيداً وفي كل مكان: وأينما رميتها ستستحيل تراباً، وبذلك تملأ بذرتك الأرض».

• • •

لا يميل مؤلفا الكتاب إلى الاعتقاد بوجود صلة أتيمولوجية بين لفظة آدم (إنسان) المذكرة، ولفظة أدمة (الأرض)، المؤنثة. ولعل الصلة بين homo (إنسان) باللاتينية، و humus (أرض) التي كان كونتليان أول من الح إليها، تبدو أكثر قبولاً: يعود بهما اللغويون المعاصرون إلى الجذر الهندي الأوروبي القديم الذي تحدرت منه لفظة Khthon (أرض) الاغريقية و Khamai (على الأرض)، و epikhthonios (إنساني).

إن قصة خلق الإنسان من التراب أو الطين أو الغبار شائعة بين كافة أبناء الأرض. ففي مصر خلق الإله خنوم Khnum أو الإله بتاح Ptah، الإنسان على عجلة فخّاري(17). وفي بابل أيضاً جبلت الإلاهة أرورو، أو الإله أيا، الإنسان من طين. وفي الأساطير اليونانية وضع بروميثيوس طيناً أحمر في بانوبيوس Panopeus، وعلى مر القرون تحوّل إلى بشر.

وفي رواية أخرى أن بروميثيوس نحت، على ضفة نهر، أشكالاً بشرية من طين، ثم نفخت أثينا التي كانت فيما مضى إلاهة ليبية تدعى نايث Neith، فيها الحياة.

على هامش النص

في رواية ابن عباس عن قصة الخليقة، أن الله بعد أن خلق السماء والأرض والجن، بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: «إني أعوذ بالله منك أن تنقصني!» ثم بعث الله ميكائيل، فقالت له مثل ذلك. فبعث الله ملك الموت، فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء؛ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين في الألوان. وسمي آدم لأنه خرم من أديم الأرض، وقيل غير ذلك(18).

---

(17) كلمة (خنوم) تعني المقولب أو الناحت. وكان خنوم يدعى «الفخّاري الذي يشكّل البشر وينحت الآلهة» وهو الذي صور أضلاع أوزيرس. وتقول الأسطورة المصرية انه هو الذي يعطي للأجساد هيئتها وشكلها. (عن موسوعة لاروس الميثولوجية).

(18) مروج الذهب، ج 1، ص 40.

وجاء في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: «وخُلق آدم من طين، ومكث في الشمس أربعين يوماً حتى صار صلصالاً»[19].

وتذكرنا لفظة (آدم) و (آدمة) بكلمة (الدم) أيضاً. فالدم والأدمة من مادة واحدة على ما يبدو لأن لونهما كليهما أحمر. وفي الأساطير الأكدية أن الإلهة أرورو صنعت الإنسان من دم الإله أي مجبولاً بالطين، كما مر بنا أعلاه. على أن لفظة (آدم) قد تكون، أيضاً، تحريفاً لكلمة (أدبا) السومرية التي تشير إلى الإنسان الأول. ولفظت بالميم بدل الباء لاقترانها بلفظة (أدمة). وقد يعاد النظر في الكلام على آدم وحواء في ضوء ما قد تميط اللثام عنه ألواح إيبلا المكتشفة حديثاً في تل ماردیخ بسوريا، ويرقى تأريخها إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد. ففي أحد الألواح يرد ذكر رجل يدعى (آ ــ دا ــ مو) كان حاكماً لإحدى مقاطعات أيبلا. ويحتوي لوح آخر على سجلات تجارية يرد فيها ذكر امرأة تدعى (آ ــ وا) التي يرى المختصون أنها تماثل اسم حواء.

وفي الأساطير السومرية، أن الإنسان خلق من طين أيضاً، وتم صنعه على صورة الآلهة (وفي التوراة: وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا... فخلق الله الإنسان على صورته. سفر التكوين 1: 26، 27) وكان الغرض من خلق البشر ــ في الاسطورة السومرية ــ هو أن يكونوا خدماً يعينون الآلهة في تدبير معاشهم.

قال أنكي لأمه نمّو:

امزجي حفنة طين، من فوق مياه الأعماق
وسيقوم الصناع الإلهيون المهرة بتكثيف الطين (وعجنه)
ثم كوّني أنت له أعضاءه
وستعمل معك ننماخ[20] يداً بيد
وتقف إلى جانبك، عند التكوين، ربات الولادة
ولسوف تقدرين للمولود الجديد، يا أماه، مصيره
وتعلق ننماخ عليه صورة الآلهة
[...] في هيئة الإنسان [...][21]

---

(19) كتاب العين، الجزء السابع، ص 84، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي.
(20) ننماخ هي الأرض الأم في الأساطير السومرية.
(21) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص 37.

وفي الأساطير البابلية أن إلاهة الأمومة «مامي» أو «ننماخ» أو «ننخرساغ» أو «ننتو» تمثل الأرض والتربة الخصبة، وتخلق الإنسان بمعونة إنكي ابنها. تقول مامي:

فليعطني أنكي طيناً أعجنه
فتح أنكي فمه
قائلاً للإلاهة الكبيرة
في الأول والسابع والخامس عشر من الشهر
سأجهز مكانا طهوراً
وسيذبح (هناك) أحد الآلهة
وعندها فليعتمد بقية الآلهة
وبلحمه ودمائه
ستقوم ننتو بعجن الطين
إله وإنسان معاً
سيتحدان في الطين أبداً[22].

وتروي قصة خلق الإنسان في الأساطير الهندية كما يلي: قبل الوجود والعدم كان الخواء المائي المعتم. ثم نشأت جرثومة الحياة بفعل الحرارة. ومن هذا الجوهر نشأت الخليقة. وفي رواية أخرى: كان هناك عملاق في البدء، بشر كوني يدعى بوروش Purush (الذكر). وأضلاعه هي أجزاء العالم كافة.

وفي الأساطير الإيرانية أن الإنسان الأول غايومرت Gayomart، والثور البدائي غوش Gosh، كانا أول كائنين تمخضت عنهما الحياة. ثم قضى عليهما اهريمان (الروح المدمرة). إلا أن بذرة غايومرت بُذرت أربعين عاماً في التربة، ومنها ولد رجل وامرأة: ماشيا وماشيوي. وغني عن القول أن اقتران الثور غوش بالإنسان الأول، يؤكد هنا، وكذلك عند الشعوب الأخرى، كالآشورية، والهندية، والمصرية، والعبرية، على أهمية هذا الحيوان في المجتمعات الرعوية والزراعية. وقد كان للثور مركزه المقدس عند هذه الشعوب.

وفي الأساطير التيوتونية (الجرمانية) أن البشر انبثقوا مباشرة من عالم النبات. هذا ما كان يؤمن به التيوتونيون الشماليون. وتقول الأسطورة: ذات يوم كان الآلهة الثلاثة أودن، وهوينر، ولودر، في سفر على الأرض التي كانت ما تزال

---

(22) المصدر السابق، ص 81-82.

خواء. وفي طريقهم صادفوا شجرتين أغصانهما جرداء لا حياة فيها. فبعث الآلهة فيها الحياة، وأحالوهما إلى رجل وامرأة. سمي الرجل Ask (رماد) (ومنها ash الانكليزية)، والمرأة Embla (كرْم؟).

ويرى تاسيتوس في كتابه (جرمانيا) أن الرجل الأول عند الجرمان الغربيين ـــ أجداد الألمان المعاصرين ـــ كان يدعى مانوس Mannus، وكان أبوه إلهاً أو عملاقاً، ولد من الأرض، واسمه تويستو Tuisto. وتعني هذه الكلمة (زوجين من جنسين اثنين). أما مانوس فتعني (رجل) man[23].

وعند بعض قبائل مونتانا في أميركا: كان في قديم الزمان إله عجوز. في طريق رحلته من الجنوب إلى الشمال صنع الحيوانات والطيور والجبال والأنهار، إلخ. ثم صنع نموذجين من الطين على شكل امرأة وولد صغير هو ابنها، وغطاهما بغطاء ثم تركهما. ولما عاد إليهما في اليوم التالي وجد أنهما تغيرا قليلاً... وهكذا حتى تم تكوينهما في اليوم الرابع. فقال لهما انهضا وامشيا[24].

ومع أن الأساطير الأوقيانوسية (جزر المحيط الهادي) التي تتحدث عن أصل البشر بالغة التنوع في تفاصيلها، إلا أنها تحوم جميعها حول مواضيع أساسية محددة كما جاء في انسكلوبيدية لاروس للميثولوجيا. فعند أقوام الأتا في (مندناو) نشأ البشر من الأعشاب، وعند الايغوروت في لوزون من شجرتي أسل، وفي الفلبين من القذر على الجلد، وعند سكان بورنيو وقبائل أقصى شمال وأقصى جنوب استراليا من الفضلات. أو أنهم نحتوا من الصخر (سكان تورادياس في سيليبس)، أو من جذع شجرة (جزر الادميرال والبانك). وحسب معتقد عدد من القبائل في بورنيو قام آلهة الخلق بعدة محاولات لخلق البشر من مواد مختلفة. بيد أن العديد من الأساطير تشير إلى ان البشر صُنعوا من الطين (ديري بتاك في سومطرة، هالماهيرا، ميناهاسا، الباغوس في مندناو، الهبريديز الجديدة، نيوزيلندة، جزر المجتمع، الماركيز، القبائل الاسترالية القريبة من ملبورن).

وبعد صنع البشر، توهب إليهم الحياة بصور مختلفة. بعضهم بالتعاويذ، وبعضهم الآخر ينفخ الإله فيهم عنصر الحياة، إما من نَفَسه هو، أو من سائل يأتي به الإله من السماء. وفي ميناهاسا، عندما يهب الله الحياة للبشر، ينفخ في آذانهم وعلى رؤوسهم مسحوق الزنجبيل. وحسب اعتقاد سكان البوغوبو يبصق

(23) انسيكلوبيدية لاروس عن الميثولوجيا.
(24) مغامرة العقل الأولى، ص 200.

عليهم، وفي سومبا وعند سكان البيلان في مندناو يسوطهم بالسوط. ولا شك أن هذه الوسائل إنما هي انعكاس لأساليب الناس في استرجاع وعي من يصاب بالإغماء، وهناك طريقة أخرى تدعى رد الفعل السيكولوجي، وهي طريقة الضحك، فحسب معتقدات النارينييري في خليج اينكاونتر (خليج المناوشة) في جنوب استراليا، خلق الله البشر من البراز، ثم دغدهم ليحثهم على الضحك ويمنحهم الحياة.

وهناك أساطير حول نشوء البشر من بيوض الطيور أو السلاحف، ويعتقد في ماليزنيزيا أن البشر نشأوا من كتلة دم، وفي شرقي أندونيسيا من الأرض. وحسب معتقد عدد من القبائل الاسترالية أن طواطم أجدادهم نشأت من الأرض، بعضهم كحيوانات، وبعضهم الآخر بشراً. وحسب عقيدة سكان جزر ساموا وتونغا جاء البشر من دودة متفسخة. وتقول الأسطورة في جزر البانك أن الرجل صنع من طين، والمرأة حيكت كما تحاك السلة[25].

(25) عن انسيكلوبيدية لاروس الميثولوجية.

زوجات آدم

عندما قرر الله أن يمنح آدم قرينة ليخفف عنه هموم الوحدة أوحى له بأن ينام نوماً عميقاً، ثم نزع أحد أضلاعه، وصيَّر منه امرأة، ولأم الجرح. وعندما أفاق آدم من نومه قال: «سيدعى هذا الكائن امرأة»، لأنها صنعت من «المرء».

ويزعم البعض أن الله خلق الرجل والمرأة على صورته في اليوم السادس، وجعلهما سيدي العالم. بيد أن حواء لم تكن قد وجدت بعد. ثم أوحى الله لآدم بأن يسمي الكائنات. وعندما كانت تمر أمامه، أزواجاً، ذكوراً وإناثاً، وكان قد بلغ الآن زهاء العشرين عاماً من عمره، تملكته الغيرة من العلاقة بين الأزواج، وقد همّ بممارسة الفعل الجنسي مع أية من إناث البهائم التي كانت تمر أمامه، إلا أنه لم يجد ذلك قميناً بإرواء ظمأه الجنسي. وتذمر قائلاً: «كل مخلوق، سواي، له عشير!».

عند ذاك خلق الله (ليليت)، المرأة الأولى، بنفس الطريقة التي جبل فيها آدم، سوى أنه استعمل القذر والتفل بدلاً من الطين الخالص. ومن تزاوج آدم مع هذه العفريتة، ومع أخرى، مثلها تدعى (نعمة)، اخت توبال قايين، ولد اسموديوس Asmodeus وعفاريت لا حصر لهم، ما يزالون مصدر بـلاء على البشرية. وبعد عدة أجيال اتخذت ليليت ونعمة مقعدين لهما في مجلس عدل سليمان، متنكرتين كمومستين في أورشليم.

إلا أن آدم وليليت لم يكونا على وئام قط، لأنها كانت ترفض أن تأخذ وضع الاستلقاء، ليعتليها عند الوصال، قائلة: «لماذا يتعين عليَّ أنا أن أستلقي تحتك؟ أنا الأخرى جُبلت من تراب، وبالتالي صنو لك». وعندما حاول آدم استعمال القوة معها، غضبت ونطقت باسم الله، ثم صعدت إلى الفضاء وتركته.

بعد ذلك جرب الله أن يصنع لآدم قرينة ملائمة. وأتاح له أن يرى ما سيصنعه؛ لمَّ عظاماً، وانسجة، وعضلات، ودماً وعصارات، ثم غطاها بجلد، وأضاف لم شعر هنا وهناك. إلا أن هذه العملية أثارت القرف في نفس آدم، برغم جمال حواء. فأدرك الله أنه فشل مرة ثانية، وأبعد حواء هذه، لكن إلى أين، لا أحد يعلم.

ثم حاول للمرة الثالثة، ولكن بمزيد من الاحتراس. أخذ ضلعاً من آدم عندما أخلد إلى النوم، وصيّر منه امرأة، ثم وضع لها شعراً، وزينها كعروس بأربع وعشرين قطعة من المجوهرات، قبل إيقاظه. وعند ذاك فتن بها آدم.

ويزعم آخرون أن أول فكرة طرأت على بال الله هي خلق كائنين بشريين، رجلاً وامرأة، لكنه بدلاً من ذلك صمم كائناً بشرياً واحداً بوجه ذكر من الأمام. ووجه أنثى من الخلف. كما يزعم آخرون أن آدم خُلق في البدء كخنثىً بجسدين، أي ذكر وأنثى، ملتصقين ظهراً لظهر، ولما كان هذا الوضع غير ملائم للحركة والحوار، شطرهما الله شطرين، ووضع لكل منهما مؤخرة. ثم أنزل هذين المخلوقين في جنة عدن على ألّا يتضاجعا.

• • •

الإشارة في هذه الرواية الإسرائيلية إلى رغبة آدم في ممارسة الجنس مع إناث الحيوانات قد تعود إلى عادة مضاجعة الحيوانات المنتشرة بين رعاة الشرق الأوسط، كما يقول مؤلفا الكتاب، التي ما تزال موضع تساهل بالرغم من وجود ثلاثة نصوص في أسفار موسى الخمسة تعتبرها من الكبائر. وفي ملحمة جلجامش الأكدية، إشارة إلى أن انكيدو عاش مع الغزلان وعاشر حيوانات برية أخرى في أماكن السقي، حتى مدّنته كاهنة أورورو. وبعد أن استمتع بعناقها ستة أيام وسبع ليالٍ، عاد الشواق به إلى الحيوانات البرية، إلا أنها فرّت منه[26].

وكان البابليون يعتقدون أن الإنسان البدائي كان خنثوياً. ومن هنا كانت ملامح أنكيدو في ملحمة جلجامش خَنثوية أيضاً: «شعر رأسه مثل شعر امرأة، بخصل مرسلة كضفائر نيسابا، إلاهة الحبوب». على أن الصورة العبرية مستعارة من التراث اليوناني، لأن اللفظتين الواردتين في التفاسير المدراشية التي تصف آدم بأنه ذو طبيعةٍ جنسية ثنائية (خنثوية) هما يونانيتان: androgynos (رجل ــ امرأة)، و diprosopon (ذو وجهين). وزعم فيلو الاسكندراني، الفيلسوف الهيليني المعاصر للمسيح، وأحد شراح الكتاب المقدس، أن الإنسان كان في بادىء أمره خنثوياً. كما أن الغنوصيين قالوا بهذا الراي أيضاً. ولا شك أن هذا الاعتقاد مستعار من أفلاطون. ومع هذا فإن أسطورة التصاق جسمين، ظهراً لظهر، لا بد أن تكون ناجمة عن مشاهدة التوائم السيامية التي تلتصق أحياناً على هذا النحو الغريب.

---

(26) وقد جامع الإله الكنعاني (بعل) عجلة في الحقول فولد له منها ثور.

على أن هذا الاختلاف بين قصتي الخليقة في الإصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين، الذي يتيح لليليت أن تُعتبر الزوجة الأولى لآدم، ناتج عن التوفيق غير المدروس بين التعاليم اليهودانية (نسبة إلى يهودا) القديمة والتعاليم الكهنوتية المتأخرة. والنصوص القديمة هي التي تتطرق إلى قصة الضلع. أما ليليت فتذكّر بالنساء الكنعانيات من عبدة عناة، اللائي كن يمارسن الجنس قبل الزواج.

ولفظة (ليليت) مشتقة على الأغلب من الكلمة الأكدية (ليليتو) Lilitu، في لوح طيني سومري من أور يرقى إلى ٢٠٠٠ سنة قبل المسيح، يروي حكاية جلجامش وشجرة الصفصاف. إذ كان السومريون يعتقدون أنها عفريتة تقيم في جذع شجرة صفصاف تخدمها الالاهة إنانّا Inanna (أي عناة)، على جانبي الفرات. والاشتقاق العبري الشائع لليليت يرجع إلى كلمة (لايل) أي (الليل)، ومن هنا جاء تصورها على شكل هولة طويلة الشعر تظهر في الليل، على نحو ما يرد ذكرها في الفوكلور العربي.

وقد قرنها المؤرخ هيرونيموس (القرن الرابع) بـ (لاميا)، وهي ملكة ليبية هجرها الأله اليوناني زيفس، لكن زوجته الأخرى هيرا خطفت أبناء لاميا، فانتقمت هذه الأخيرة لنفسها باختطاف أطفال النساء. وكان يُعتقد أن لاميا كانت مثل ليليت تُضل الرجال في نومهم، وتمتص دماءهم ثم تفترسهم. وفي نحت هلّيني بارز تظهر لاميا عارية ممتطية رجلاً نائماً على ظهره. ومن المعروف في المجتمعات التي تعامل المرأة كالأثاث أن تتخذ — المرأة — وضع الاستلقاء عند المضاجعة، وهي الوضعية التي تمردت عليها ليليت. ونقلاً عن أبوليوس Apuleius الإغريقي أن الساحرات اليونانيات اللائي كن يتخذن من (هيكاتة) إلاهة، كن يؤثرن وضعية الاعتلاء عند المضاجعة. كما أن هذه الوضعية كانت تظهر في الآثار السومرية القديمة التي تصور الوصال الجنسي. ويقول مالينوفسكي بهذا الصدد أن الفتيات المالينيزيات كن يهزأن بما يسمينه «وضعية المبشرين»، أي الجنس الأبيض.

سقوط الإنسان

أباح الله لآدم وحواء أن يأكلا الفاكهة من أشجار عدن باستثناء شجرة معرفة الخير والشر التي تورث من يذوقها أو يلمسها الفناء. إلا أن الحية قالت لحواء بلسان معسول: «ألم يحظر عليكما الله أكل الفاكهة؟» فأجابتها حواء قائلة: «كلا، بل نصحنا بالابتعاد عن شجرة معينة في وسط الجنة، وإلا كانت عاقبتنا الموت». قالت الحية، أي الشيطان: «إذن فقد خدعكما الله! لأن ثمرها لا يسبب الموت، بل يورث الحكمة: أنه يريد أن يبقيكما في جهل مطبق». وهكذا اقتنعت حواء بأكل الفاكهة، وأقنعت آدم أيضاً. (سفر التكوين 3: 1 ــ 6).

بعد أن تناول آدم وحواء من ثمر المعرفة نظر كل منهما إلى الآخر، فأدركا في الحال أنهما عاريان. عند ذاك قطفا أوراق تين وخاطاه ليصنعا منه لباساً لكل منهما. ثم تناهى إليهما صوت خطوات الله في الجنة، عند الغسق، فاختفيا خلف الأشجار. فنادى الله آدم قائلاً: «آدم، آدم، أين أنت؟» أجابه آدم من مكمنه قائلاً: «ترامى إليّ صوت خطواتك، يا مولاي، فأخفيت عريــي حياءً». لكن الله سأله: «ومن أعلمك بأنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة المحرمة؟» أجابه آدم: «أعطتني حواء من ثمر الشجرة، فأكلت». التفت الله إلى حواء: «واحسرتاه، أيتها المرأة، ماذا فعلت؟» فجرّت حواء حسرة وقالت: «أغرتني الحية». فقال الرب للحية: «لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت، على بطنك تسعين، وتراباً تكلين كل أيام حياتك. واضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه». وقال للمرأة: «تكثيراً أكثّر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك». وقال لآدم: «لأنك سمعت اقوال امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها. لأنك تراب وإلى تراب تعود».

وإذْ كانت المآزر المصنوعة من ورق التين هشة سريعة التلف والتمزق، أشفق الله على آدم وحواء فصنع لهما اقمصة من جلد وألبسهما. وقال الرب الأله: «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر! والآن لعله يمد يده

ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد؟» فأخرجه الرب من جنة عدن، وأقام الكروبيم (= الملائكة) ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة (سفر التكوين 3: 20 ــ 24).

ثم أن الحية دفعت حواء إلى شجرة المعرفة، وقالت: «لم تموتي بعد لمس هذه الشجرة؛ ولن تموتي أيضاً بعد أن تأكلي ثمرها!» وحين لامس كتفا حواء الشجرة، أبصرت الموت يدنو منها، فقالت هلعة: «الآن ستوافيني المنية! ويمنح الله آدم زوجة جديدة! فلأقنعه بأن يأكل من الثمر مثلي، فإذا كتب علينا أن نموت، فلنمت سوية؛ وإلا، عشنا سوية». وقطفت ثمرة وأكلت منها ثم بكت وتضرعت لآدم إلى أن وافق على مشاركتها.

بعد ذلك أقنعت حواء سائر الوحوش والطيور بأن تذوق من الثمر، أو جميعها باستثناء العنقاء المحترسة، التي فازت بالخلود منذئذ.

ثم إن آدم عقدت الدهشة لسانه أمام عري حواء: لأن بشرتها الخارجية المتألقة، وهي غشاء نوراني صقيل كالأظفر، سقطت. ورغم أن جمال جسدها الداخلي الذي كان يشع كاللؤلؤة، بهره، إلا أنه قاوم طوال ثلاث ساعات قبل الإقدام على الأكل والتعرض لنفس مصيرها. إلا أنه قال أخيراً: «إني أفضل الموت، يا حواء، على أن أعيش بمفردي بعدك. لئن اخترمت المنية حياتك، فلن يسلوني الله بامرأة أخرى بمثل فتنتك». ثم أكل الفاكهة، وسقط عنه جلد الضوء الخارجي.

ويزعم البعض أنه عندما أكل آدم الفاكهة، امتلك القدرة على النطق بوحي الله، بيد أنه عندما حاول قطف الأوراق لمئزره، نهرته الأشجار قائلة «اغرب أيها اللص، يا من عصيت خالقك! لن تحظى بشيء منا!» إلا أن شجرة المعرفة أتاحت له أن يأخذ ما يريد. كانت أوراق تين.

ويزعم آخرون أن شجرة المعرفة كانت ساق حنطة هائلة أطول من شجرة الأرز؛ أو شجرة كرْم، أو شجرة اترجّ.

وقد طرد آدم وحواء في الجمعة الأولى، وهو اليوم الذي خلقا فيه واقترفا الخطيئة. وفي السبت الأول استراح آدم وتضرع إلى الله التماساً لغفرانه. وفي نهاية السبت ذهب إلى جيحون الأعلى، أعتى الأنهار، وهناك عاقب نفسه تكفيراً عن الخطيئة، واقفاً وسط التيار، والماء إلى ذقنه، إلى أن أصبح جسده ناعماً كالاسفنج.

بعد ذلك جاء ملاك ليأخذ بيد آدم، وعلمه استعمال ملاقط النار، ومطرقة الحداد؛ وكيف يروّض الثيران، لتعينه في الحراثة.

• • •

بعض عناصر قصة سقوط الإنسان في سفر التكوين قديمة جداً؛ بيد أنها دُونت في مرحلة متأخرة، حتى أن بعض مقاطعها يعكس بصمات إغريقية. وملحمة جلجامش، التي يرقى أقدم نص لها إلى نحو 2000 ق.م.، تروي كيف خلقت إلاهة الحب أرورو Aruru إنساناً نبيلاً لكنه همجي، يدعى انكيدو، كان يرعى بين الغزلان ويطفىء ظمأه مع القطعان البرية، إلى أن أرسل له جلجامش كاهنة علمته أسرار الحب، وسترت عريه بعد أن تخلت له عن بعض ملابسها، وجاءت به إلى مدينة أوروك، وأصبح بمثابة أخ لجلجامش. وفيما بعد ذهب جلجامش سعياً وراء عشب الخلود: دخل نفقاً مظلماً، طوله اثنا عشر فرسخاً، إلى أن وصل فردوساً ثمار أشجاره جواهر، يعود لسدورو Siduru إلاهة الحكمة. وبعد أن رفض الاستجابة لأله الشمس بالبقاء، واصل جلجامش مسيرته إلى أن علم من اوتنا بشتم (نوح السومري) أن العشب المنشود ينمو في أعماق البحر. فربط جلجامش حجرين في قدميه وغاص في الماء ثم عاد بالعشب. إلا أن حية سرقته منه عند وصوله إلى عين ماء عذب.

ومن المصادر الأخرى لقصة سقوط الإنسان الواردة في سفر التكوين، أسطورة أدبا Adapa الأكدية [أم السومرية؟] التي عثر عليها في تل العمارنة عاصمة أخناتون. ومفاد القصة أن أدبا بن أيا Ea الإله البابلي للحكمة، بينما كان يصيد السمك لكهنة أبيه في الخليج العربـي، انقضّ عليه طائر العاصفة، إلا أن أدبا تمكن من كسر جناحه. ثم أن أيا أرسل في طلب أدبا ليوضح له سبب عنفه، ويخبره بأنه أثار حفيظة آنو Anu ملك السماء. وأن الآلهة سيقدّمون طعاماً وشراباً يورث الموت، فعليه أن يمتنع عن تناول شيء. إلا أن آنو قدم خبز وماء الحياة لأدبـا الذي أحجم عن تناولهما استجابة لنصيحة أبيه، فأعاده إلى الأرض بعد أن خسر الخلود. وهذه القصة هي أساس الفكرة التي أوحت بها الحية لحواء بأن الله خدعها بشأن الفاكهة المحرمة.

وهناك أسطورة فارسية قديمة لعلها كانت مصدراً آخر لقصة سقوط الإنسان التوراتية، هي: كان ميشد وميشيانة يقتاتان على الفاكهة في بادىء الأمر، إلا أنهما ما لبثا أن وقعا ضحية خديعة الشيطان أهريمان بإنكار الله. وبذلك خسرا براءتهما، فأخذا يقطعان الشجر، ويقتلان الحيوانات، ويقترفان آثاماً أخرى.

واستناداً إلى أسطورة كريتية اقتبسها أبولودوروس وهيجينوس، وإلى أسطورة ليدية اقتبسها بلينيوس Pliny، كان عشب الخلود بحوزة الحيّات.

ثم إن قصة التوراة التي تؤكد على أن الفلاحة حلت كلعنة على الإنسان بسبب عصيان حواء أوامر الله، إنما تلقي ضوءاً على الموقف من العمل اليدوي في الشرق الأوسط (الذي تم التعبير عنه بحراثة الأرض) حيث يعتبر جهداً كريهاً مضنياً رغم أنه ضرورة لا بد منها. وكانت هذه النظرة للعمل سائدة حتى قبل أن تكتب قصة الخليقة؛ فالفلاح اليوناني المسكين هزيود [الشاعر] كان أول كاتب اعتبر الزراعة شراً فرضته الآلهة القاسية على البشرية. هذا بالرغم من وجود وجهة نظر معاكسة لذلك تماماً في أسطورة تريبتوليموس الإغريقية الذي تكافئه ديمتير إكراماً لأبيه الذي علمه فنون الزراعة.

ولا يرد ذكر الجنة كمنتجع ريفي مريح حيث يعيش الإنسان مطمئن البال بين الوحوش، في قصة أنكيدو فحسب، بل في الأساطير اليونانية واللاتينية عن العصر الذهبي أيضاً، وينبغي تمييزها عن الجنة التي ثمارها جواهر، والتي زارها جلجامش وكذلك هليل على حد قول اشعياء. إن الفردوس الدنيوي يرمز إلى شواق أبناء المدن المنهكين لمباهج الريف البسيطة، أو حنين الكادحين المحبطي الهمة لبراءة الأطفال آكلة الفاكهة، أما الفردوس السماوي فيتم الاستمتاع به في نشوة شيزوفرينية، أما بممارسة الزهد، أو عن طريق الاضطرابات الغُدّية، أو بتناول عقار هلوسي.

وليس من اليسير معرفة أي من هذه الأسباب أدت إلى الرؤيا الباطنية عند حزقيال [في سفر حزقال]، على سبيل المثال، و «اينوش»، وياكوب بومه Boehme، وتوماس تراهيرنة، ووليم بليك [الشاعر]. ومع هذا فإن جنان البهجة الجواهرية تقترن دائماً في الأسطورة بتناول طعام إلهي محرم على الفانين. وقد أشار جلجامش إلى النبق المسهل buckthorn. وهو ثمر كان المتصوفون القدامى يأكلونه ليس كمادة نورانية، بل كمطهّر. ويقال أن السوما، طعام الآلهة الهندي، ما يزال يستعمله البراهمانيون بصورة سرية.

وكانت الجنان في بادىء الأمر تحكمها إلاهات، بيد أن الذكور ما لبثوا أن اغتصبوها منهن في مرحلة الانتقال من مجتمعات الأمومة إلى المجتمعات الباترياركية. وكان التحول التدريجي للنساء من مخلوقات لهن قدسية، إلى إماء، من المواضيع الرئيسية في الميثولوجيا الإغريقية. وعلى غرار ذلك عاقب يهوة حواء لأنها كانت هي السبب وراء سقوط الإنسان.

وللحيّة حضور في جميع الأساطير تقريباً. ففي الأسطورة الإغريقية، كانت جنة الهسبريديس Hesperedise (حوريات الغرب) التي كانت أشجار التفاح فيها تحمل ثماراً ذهبية، تحرسها الحية لادون، وكانت تابعة لهيرا قبل زواجها بزيفس، إلا أن خصمها هرقل قضى فيما بعد على لادون بإذن من زيفس. وكانت الجنة السومرية التي ثمارها جواهر، ملك سيدوري، إلاهة الحكمة، التي عينت شماش، إله الشمس، حارسها؛ وفي نص متأخر أنزل شماش رتبة سيدوري إلى مجرد ساقية تخدم في حانة.

وفي الفردوس المكسيكي الهندي يقف ملاك بيده غصن وهو يبكي من شدة الفرح في مدخل بستان عامر بالأزهار وأشجار فاكهة عجيبة، يُروى من نهر مليء بالأسماك ينبع من فم ضفدع مقدس، يدعى الإله تلالوك Tlaloc، وهذا يذكّر إلى حد ما بدايو نيسوس، الإغريقي الذي عينته أخته خالسيولوثليكو شريكاً لها في الحكم على الفردوس. وخلف الشبح يوجد ثعبان مرقط، أي تلالوك بمظهر آخر. ومثل هذه الرؤيا تأتي من تأثير فطر سام ما يزال البعض يتناولونه في طقوس دينية في عدد من المحافظات في المكسيك.

والفطر الهلاسي (من الهلوسة) معروف في أوروبا وآسيا. وهناك أنواع منه لا تفقد مفعولها السام والمخدر عند الطبخ، يبدو أنها كانت تستعمل في إعداد الفطائر التي كانت تؤكل في بعض الطقوس الدينية الإغريقية والعربية، يؤكد ذلك أن جذر كلمة (فطر) العربية تعني الغاريقون، ولها علاقة بالفطور (خبز التقريب)، والفطير، والفطائر، والإفطار.

اما حوّاء فيقرنها المؤرخون بالإلاهة هيبا Heba، أو هيبات، أو خيبات، أو خيبا، زوجة إله العاصفة عند الحثيين، التي كانت تمتطي، عارية، ظهر أسد، وتظهر بهيئة عشتار في النقوش الحورية (نسبة إلى الحوريين)، وهي هنا تقابل عناة. وكانت خيبا هذه تُعبد في أورشليم أيضاً. ويطلق عليها عند اليونانيين القدماء هيبة Hebe، عروس هرقل. واللقب الذي أطلقه آدم على حواء «أم جميع الأحياء» (سفر التكوين 3: 20). يذكرنا باللقب الذي أُنعم على إلاهة الحب السومرية أرورو، أو عشتار. وفي قصة الخليقة السومرية هناك عبارة نن — تي Nin-ti، وتعني سيدة الضلع.

ويقول روبرت غريفز عن هيبه Hebe عروس هرقل، في كتابه الآخر (الميثولوجيا الإغريقية): قد لا تكون هيبة، عروسُ هرقل، إلاهةَ الشباب، بل الإلاهة التي ورد ذكرها في ترتيلتي أورفيوس الثامنة والأربعين، والتاسعة

والأربعين، باسم هيبتا Hipta أم الأرض. واعتبرها البروفسور كريتشمر صنواً للإلاهة الميتيانية Hepe، أو Hepit، أو Hebe. وكانت هيبتا Hipta معروفة جيداً في الشرق الأوسط. وتظهر في نقش صخري في حاتوشاش (عاصمة الحثيين في الأناضول) ممتطية أسداً وهي تحتفل بالزواج المقدس مع إله العاصفة الحثي. وعند الحثيين كانت تدعى هيباتو Hipatu، ويُظن أنها كلمة حورية. ويعتبرها البروفسور هروزني معادلاً لحواء «أم الكائنات» في سفر التكوين. ويتطرق هرزوني أيضاً إلى ذكر أمير أورشليم الكنعاني (عبدي هيبا)؛ ويشير إلى أن آدم الذي تزوج بحواء كان حارس أورشليم.

وكانت هيبة Hebe في طفولتها تحمل الأقداح للآلهة، أي تسقيهم في الطقوس الأولبية. ثم تزوجت هرقل بعد أن استأثر بمركزها غانيميدس (ساقي وغلام زيفس).

على هامش النص

يرى جون الليغرو في كتابه (الفطر والصليب) إن هناك صلة بين كلمة (عدن)، و (أدون) اللفظة الكنعانية التي اشتق منها اسم أدونيس. وعلى غرار ذلك جاء في كتاب السيد فراس السواح (مغامرة العقل الأولى) إن كلمة (عدن) «ربما كانت تحويراً بسيطاً لاسم الإله (أدون) السوري، رب النبات والخصب والخضرة. وتعبير جنة عدن، ربما كان مشتقاً من جنان آدون المعروفة تماماً في طقوس الخصب السورية القديمة»[27]. ويدعم هذا الرأي قائلاً: «وفي اللغة العربية، نستعمل تعبير جنات عدن وجنات النعيم تبادلياً. وهنا نستطيع أن نلمح تشابهاً بين كلمة (النعيم) وكلمة (النعمان). والنعمان من أسماء أدونيس، وبقي في العربية في أصوله الآرامية، وتسمى به العرب وما زالوا. وعليه تكون جنات عدن (آدون) وجنات النعيم (النعمان) تسميتين لمسمى واحد هو جنات أدونيس»[28].

ومع أن هذا الرأي يبدو مقبولاً، إلا أن المرجح هو أن كلمة (عدن) مشتقة من لفظة (عَدِنو) Edinu الأكدية، وهي مستعارة من لفظة Eden السومرية، وتعني (سهل، أرض منبسطة). يعزز ذلك أن موقع جنة عدن، في التوراة، إلى الشرق من فلسطين، ومن هذه الجنة يجري نهر يتفرع إلى أربعة فروع، هي

(27) مغامرة العقل الاولى، ص 205.

(28) المصدر السابق، ص 205.

فيشون المحيط بأرض الذهب، وجيحون المحيط بأرض كوش، وحداقل (دجلة) الجاري شرقي آشور، والفرات. وجنة عدن عند السومريين تقع جنوب غربي إيران، ويتفق هذا مع الوصف الجغرافي للجنة العبرية.

ويبدو أن اسم (عدنان) الذي تنتسب إليه العرب المستعربة، كما يقول مؤرخونا القدماء، مشتق من لفظة (عدن)؛ وعلى غرار ذلك نستطيع أن نتبين أن اسم (قحطان) الذي تنتسب إليه العرب العاربة، مشتق من لفظة (القحط). ومن هنا يغلب الظن بأن هذين الاسمين مختلقان. لكننا سوف نرى في موضع آخر من هذا الكتاب، أن لفظة قحطان ترد في العهد القديم بصيغة يوكشان، وهي تحريف يقطان اليمني المقابل لقحطان. وجدير بالملاحظة أن النون في آخر الاسم تأتي بمثابة أداة تعريف في اللغات العربية الجنوبية؛ أي أن (عدنان) ربما كان (عدن) معرّفة.

وكانت الجبال وقممها الشاهقة، لدى العديد من الشعوب مسرحاً لآلهتهم، وبالتالي للفردوس أيضاً. فعند الهنود كان جبل ميرو Meru أو سوميرو Sumeru، المقدس، موقع الفردوس. كما كان للصينيين أيضاً جبل مقدس. وفي لبنان جبل صافون. وفي اليونان جبل الأولمب.

وفي تصور آخر، تقع الفردوس على ساحل البحر أو في الجزر التي تكسوها الخضرة، مثل جزيرة سيلان التي يوجد فيها جبل آدم. وفي الأساطير السلتية تقع الجنة في جزيرة خضراء تدعى أفالون Avalon. وهذا يذكرنا بالصورة المصرية واليونانية لفردوس الأليزيوم في «جزر السعادة» المكرسة للصالحين بعد موتهم، ويذكرنا أيضاً بالحُفيض العربية، وهي جزيرة أسطورية تقع إلى الجنوب الغربي من جزيرة العرب؛ وكان العرب يعتقدون أنها عامرة بالقصور وأشجار النخيل والرمان وثيران أسطورية.

واقتران الجنة بالأنهار ـــ مصدر الخضرة ـــ أدى إلى الاعتقاد أيضاً بأنها تقع في منابع الأنهار. فقد كان السومريون والبابليون يعتقدون أن موطن الآلهة والبشر هو الأبسو Apsu أو Absu «المياه العذبة». ولعل هذه الكلمة تذكرنا، كما يقول جوليان فورد، بلفظة أبيسينيا Abissinia (الحبشة) التي تقع إلى الجنوب الشرقي من مصر العليا، قرب منابع النيل، وهو ما ذهب إليه البعض من أن الجنة تقع قرب منابع النيل. ذلك أن المصريين كانوا يعتقدون أن مناطق النيل العليا هي «أرض الله». وفي المأثورات العربية القديمة أن الجنة كانت تقع

قرب منابع النيل، وكان الجغرافيون العرب يسمونها «جبال القمر»[29].

ويتساءل جوليان فورد قائلاً: ترى هل توجد في أفريقيا الشرقية، بالقرب من منابع النيل، بقعة سهلية، أو «جنة» يرويها نهر «له أربعة روافد؟» والجواب على ذلك هو: نعم، يقيناً.

وتقدم لنا كلمة «فردوس» الدليل الأول على ذلك. فالكلمة ترجع إلى لفظة Pardesh الفارسية، وتعني «متنزه ملكي» أو «حديقة مسوّرة»، أي أنها بقعة خصبة محاطة بأسوار أو حيطان عالية[30]. وفي جنوب الجزيرة العربية كان هناك واديان، في أيام السبئيين، يدعيان حديقتي الشمال والجنوب. والحديقة والجنة أو الجنينة لفظتان تفيدان معنى واحداً في العربية. ومن المحتمل، كما يقول جوليان فورد، أن تكون جنة عدن بقعة خصبة تحيط بها مرتفعات أو جبال أربعة. ولما كانت الأساطير، بعامة، تشير إلى أن موطن الله والبشر، الأصلي، يقع في أرض يغمرها الضوء (الشمس)، والدفء، فلا بد أن يكون موقع هذه الأرض في أفريقيا، وهو عين ما أشار إليه دانتي في النشيد الأول (19، 22) حيث قال أن الجنة تقع في موضع قريب من خط الاستواء. وتنطبق هذه الأوصاف على السهول الخصبة في كينيا، التي كانت موطن الإنسان الأول، وتقع بين جبال كليمنجارو الشاهقة، وجبل كينيا. ولعله ليس من قبيل المصادفة أن يوجد جبل في تانزانيا يدعى جبل ميرو Meru الذي يذكرنا بجبل ميرو المقدس في الأساطير الهندية[30A].

ويقول جون غري أن فكرة الجنة تعكس انبهار البدوي العبري بخضرة وادي الرافدين. ولعل الفكرة المؤسسة على طرد آدم من الجنة جاءت انعكاساً للإحساس بالحرمان الذي كان البدوي العبري يعاني منه، ونتيجة للطرد المستمر الذي كان يتعرض له، هو وقطعانه، من سكان الأراضي المزدرعة[30B].

---

(29) Julian Ford, The Story of Paradise, p. 21. Hazell Watson and Viney Ltd, Aylesbury, Bucks. G. Britain.

(30) مما تجدر الإشارة إليه أن من معاني الحائط بالعربية: البستان.

(30A) المصدر السابق، ص 18 وما بعدها.

(30B) John Gray, Near Eastern Mythology — The Haplyn Publication Group Ltd. 1969. London.

ويرى البعض أن «شجرة معرفة الخير والشر» هي شجرة طوطمية، انطلاقاً من كونها شجرة محرّمة، شأن الطوطم. وموقف آدم المتردد يظهر في إصراره على عدم إيقاع الأذى بالطوطم الشجرة. أما شجرة «الحياة» فهي انعكاس للفكرة القائلة «بخلود الحياة». ولما كان البشر، في العصور البدائية، يجهلون أسباب الحمل وإنجاب الأطفال، فقد كانوا يعتقدون أن النبات هو أصل الحياة. وقد اتجه النظر إلى الأشجار دائمة الخضرة لأنها تبدور دائمة الحياة. وتصدق هذه الأوصاف على النخلة في البلاد العربية. كما أن اقتران النخلة بالعنقاءphoenix المعمرة، يلقي ضوء على هذه الحقيقة، أي اعتبار النخلة شجرة الحياة[30C].

وثمة ختم سومري يرقى إلى نحو 3000 ق.م. يصور ملكاً يطعم غزالين من أغصان شجرة الحياة. وفي مقبرة أور الملكية (2500 ــ حوالي 2700) عثر على شجرة حياة يشبّ عليها خروف. وفي ختم آخر، يسقي الملك أورنامّو في أور شجرة الحياة أمام الإله شماش. وفي منحوتة عاجية ترقى إلى القرن الثامن أو السابع ق.م. يسمّد جنّي شجرة الحياة.

وأخيراً هناك نقش سومري يصور رجلاً وامرأة جالسين على مقعدين وبينهما شجرة تدلت منها ثمرتان، أو على ما يبدو عِذقا تمر، واحد باتجاه الرجل، والآخر باتجاه المرأة؛ وقد مدّ الرجل والمرأة يديهما إلى الثمر. وعلى رأس الرجل قلنسوة ذات قرنين، أما المرأة فكأنها حاسرة الرأس؛ وهناك حية واقفة منتصبة تماماً خلف المرأة وكأنها تغريها على أكل الثمر. ولعل الفكرة التوراتية حول إغراء الشيطان لحواء بأكل الثمر مأخوذة من هذا النقش (ينظر بهذا كتاب أحمد سوسة: العرب واليهود في التأريخ، ص 196).

ولم تكن محاولة تقرب الحية أو الشيطان إلى حواء، أي المرأة، دون آدم، من قبيل المصادفة. إن كتّاب قصة الخليقة وسقوط الإنسان حمّلوا المرأة، وليس الرجل، جريرة السقوط. وهو موقف صريح في انحيازه ضد المرأة بعد أن أفل نجمها في المجتمع الأبوي. ومنذ القدم، وحتى يومنا هذا، ارتبط اسم المرأة بإبليس، بصفتها الجنس الهش القابل للإغواء. وصار الجنس وعمل الحب يقترنان بالشيطان، ورمزاً للخطيئة والرذيلة. فالشيطان هو الذي حمل حواء على

(30C) J. Ford, The Story of Paradise, p. 18.

أكل الفاكهة المحرمة، وهو الذي كان وراء اكتساب آدم وحواء المعرفة التي كان أول مظاهرها إدراكهما أنهما عاريان، وما ترتب وراء ذلك من اشتهاء آدم لحواء، وممارسة الجنس. والمثل الشائع يقول: «ما اجتمع رجل بامرأة، إلا كان الشيطان ثالثهما». وجاء في كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي: «قال أحدهم: سمعت أن الشيطان قال للمرأة أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطيء؛ وأنت موضع سري؛ وأنت رسولي في حاجتي»[(30D)]. ويقال أيضاً: «ما آيس الشيطان من شيء إلا أتاه من النساء»!

ومع أن التوراة اعتبرت أكل الفاكهة المحرمة خطيئة، وحمّلت حواء، أي المرأة، جريرة هذا السقوط، إلا أن جوليان فورد يعتبر إقدام حواء، أو المرأة، على أكل هذه الثمرة من الشجرة عملاً تُحمد عليه، لأنها وضعت حداً لهذا التابو، ووفرت لقومها هذا الطعام بعد أن شحّت مصادر القوت عندما أخذت الأمطار الغزيرة تشح في أواخر العصر الميزوليثي في افريقيا. فلقد كان جني الفاكهة وتوفير الطعام النباتي من مهمات المرأة.

والقول بأن الشجرة المحرمة هي شجرة التفاح، أو شجرة التين، هو اجتهاد أوربي. وقد راج هذا الزعم بعد الغزو الجرماني لأوربا في الفترة الممتدة بين القرنين السادس والعاشر الميلاديين. وكانت يومذاك شجرة التفاح مقدسة عند الأوربيين الشماليين، ربما لأسباب طوطمية ، مثلما كانت شجرة البلوط مقدسة عند الغاليين، وشجرة السرو عند الصينيين، والسنط عند العبريين الأوائل، الخ[(30E)].

أما الحية فقد كانت رمزاً للمجتمع الزراعي، وطوطماً لدى العديد من الشعوب البدائية، ورمزاً للحياة الجديدة، أو الحمل. فعند سكان استراليا الأصليين كان حمل المرأة يعزى لحية قوس قزح. وتضع قبيلة التشوكوي في انغولا نحتاً خشبياً لحية تحت سرير العروس، لكي يستدرج حية حقيقية إلى الكوخ، فتحبل المرأة. وفي بعض أنحاء الهند «تتبنىٰ» المرأة حية كوبرا إذا أرادت أن تحبل. وفي الميثولوجيا المصرية كانت الحية اتوم مجترحة الحياة، وكان فراعنة السلالات الأولى يلفّون لباس الرأس «بالكوبرا المقدسة». وفي ليبيا، ثم

(30D) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص 25. دار الرائد العربي، بيروت سنة 1368 هجرية.

(30E) جوليان فورد، قصة الفردوس، ص 93-94.

اليونان، كان الأفعوان أوفيون أبا الكائنات. كما عثر على نقوش كثيرة لأفاع في جنوب الجزيرة العربية[30F].

وهذا هو سر اقتران الحية بحواء، أو المرأة. فقد كانت ــ الحية ــ تقرن بالالاهة الام العظمى، وكانت حواء تدعى أم الكائنات.

(30F) المصدر السابق، ص 127-128.

تمرد سامائيل

يزعم البعض أن الحية التي أغرت حواء بأكل الثمر من شجرة المعرفة كانت الشيطان متنكراً، وبالذات الملاك سامائيل الذي عصى ربه في اليوم السادس، بعد أن تملكته غيرة قاتلة من آدم، الذي فضله الله على نزلاء الجنة كافة، وطلب منهم أن يسجدوا له.

ويقول آخرون أن سامائيل احتج على السجود لآدم لأن الأول خلق من نار، في حين خلق الثاني من طين[31].

وفي جنة عدن خضع آدم أول الأمر لسامائيل الذي خاله هو الله. ثم سحب الله سامائيل إلى أعلى وسأله: «هل ستكون أنت أول من يسمي هذه الكائنات، أم آدم؟» قال: «أنا، لأنني أكبر منه وأرجح عقلاً». فأحضر الله ثيراناً أمامه، وسأله: «كيف تسمي هذه؟» فلم ينبس سامائيل ببنت شفة. وأزاح الله الثيران، ثم أحضر جملا، وبعده حماراً، بيد أن سامائيل لم يحر جواباً هذه المرة أيضاً. عند ذاك غرس الله المعرفة في قلب آدم وخاطبه بعبارات كانت أوائل حروفها تشير إلى اسم الحيوان. وكان آدم يجيب عن كل سؤال.

ويزعم البعض أن الشيطان لم يكن سامائيل، بل أمير الظلام، كالثور خلقةً، عارض إرادة الله في الخلق حتى قبْل أن يقول: «ليكن نور!» وعندما نهره الله قائلاً: «إليك عني! سأخلق عالمي في النور» قال أمير الظلام: «ولماذا لا تخلقه من الظلام؟» فأجابه الله قائلاً: «حذار، وإلا صعقتك بصرخة!» إلا أن أمير الظلام كره أن يعترف بأنه دون الله مقاماً، فتظاهر بالصمم. ثم هزمه الله بصيحة من لدنه. فاختفى سامائيل وملائكته في برج مظلم. وعند قيام الساعة سيعلن أمير الظلام أنه صنو الله، ويدعي بأنه أسهم في عملية الخلق بقوله: «الله اجترح السماء والنور. أما أنا فقد أوجدت الظلام والجحور!». وسيشد ملائكته ازره، إلا أن نار الجحيم ستضع حداً لغطرستهم.

---

(31) وفي هذا قال بشار بن برد:

إبليس افضل من ابيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجّار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار!

يعقب مؤلفا الكتاب على هذه الأسطورة قائلين: مع أن لفظة (سامائيل) تورث انطباعاً بأنها ربما كانت تعني (سُمّ إيل، أي سم الله)، إلا أنها في أغلب الاحتمال ترجع إلى كلمة (شمال):، وهو إله سوري قديم. وفي الأساطير العبرية يشغل سامائيل مركزاً غامضاً، حيث يصبح على حين غفلة «سيد كل الشياطن»، و «أكبر أمراء الجنة»، ويفرض كلمته على عدد من الملائكة، كما تدور أفلاك بأمر منه. و (الشيطان) أي (الخصم) يرمز لهليل، أي «لوسيفر ابن السحر»، وهو ملاك ساقط آخر؛ وللحية التي خططت في جنة عدن لسقوط آدم. ويزعم بعض اليهود أنه حاول خلق عالم آخر، الأمر الذي يجعله شبيهاً «بخالق الكون المادي» الغنوسطي(32). وقد كان أوفيون، خالق الكون المادي الإغريقي، أو أوفيونيوس، هو الآخر، حية.

وبصدد (الشيطان)، هناك مصادر سابقة للتوراة تقرنه بالملاك سامائيل. فقد ظهر للمرة الأولى في التأريخ إلهاً لسامال، وهي مملكة حثية ـــ آرامية صغيرة إلى الشرق من حرّان (أورفة حالياً، جنوبي تركيا).

أما تسمية آدم للحيوانات فهي حكاية لعلها مستعارة من الأسطورة التي تروي قصة اختراع الأبجدية: فالحرفان الأول والثالث من الأبجدية العبرية هي ألف، وجيمل، ويعنيان: ثور، وجمل [ذلك أن الألف كان يعني ثوراً في اللغات السامية].

وأما الاعتقاد بأن الظلام (هوشخ) وجد قبل الخلق بزمن طويل، ليس باعتباره نفياً للضوء، بل ككيان بحد ذاته، فقد كان سائداً بين كافة شعوب الشرق الأوسط والبحر المتوسط. كان الإغريق يتحدثون عن «الليل الأم»؛ والعبريون عن «أمير الظلام» الذي هو عندهم (توهو)، كما مر بنا سابقاً، وذكروا أن موطنه في الشمال. وأما الصرخة التي صعق بها الله الأمير فتذكرنا بصرخة الإله بان Pan عندما قهر تيفون الهولة الذي حجب الشمس بجناحيه، وهو الآخر كان موطنه الشمال، على جبل صافون.

---

(32) الغنوسطية: مذهب العرفان؛ وكذلك مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا بأن المادة شر، وبأن الخلاص يأتي من طريق المعرفة الروحية. قاموس المورد.

مولد قايين وهابيل

يزعم البعض أن سامائيل هو الذي تنكر بهيئة أفعوان، وأقنع حواء بأكل الثمر من شجرة معرفة الخير والشر، وأغواها فأنجبت منه قايين، وبذلك دنست كل نسلها التالي من آدم. ولم ترفع هذه اللعنة إلا بعد أن وقف بنو إسرائيل تحت جبل سيناء وتسلموا الشريعة من يد موسى. وما تزال هذه اللعنة سارية على بقية الشعوب.

واستناداً إلى روايات أخرى، لم ينم سامائيل مع حواء قبل آدم. وكان الله قد عقد النية على أن يجعل سامائيل سيد العالم، بيد أن منظر آدم وحواء عندما كانا يتجامعان عاريين بلا حياء، أثار غيرته، وقال: «لسوف أشوه سمعة آدم، وأتزوج حواء، وأحكم العالم». وبعد أن ضاجع آدم حواء، واستسلم لداعي الكرى، حل محل آدم، فاستجابت له حواء، وحبلت بقايين.

ثم ندمت حواء، وقالت لآدم: «وا أسفاه، يا آدم، لقد ارتكبت خطيئة! أبعدني عن ناظريك. سأذهب إلى الغرب إلى أن توافيني المنية هناك». وبعد ثلاثة أسابيع وصلت حواء شاطىء المحيط، وجمعت بعض الأغصان وبنت منها كوخاً. ثم ما لبث آدم أن التحق بها. وحين ولدت قايين، ولاحظت أن وجهه يشع كالملائكة، أيقنت أن آدم لم يكن أباه، وقالت ببراءة: «لقد أنجبت إنسيّاً من يهوة».

ويزعم البعض أن اسم (قايين) مشتق من (القناة)، أي القصبة، أو العصا (في العبرية: قانيه)، مستندين إلى الأسطورة التي تفيد بأن قايين وقف على رجليه حالاً بعد ولادته، وجرى إلى الحقل ثم عاد لأمه بنبتة [قناة] قمح، فسمته أمه (قايين).

وبعد ذلك ولدت حواء ابناً آخر. سمته هابيل، ويعني النفس، أو العبير، أو الفراغ، أو الزوال، أو الأسى، سلفاً على مصيره القادم (يقتل على يد شقيقه قايين).

ويزعم آخرون أن قايين وهابيل كانا توأمين من آدم، وقد حبلت بهما

وأنجبتهما حواء في نفس اليوم السادس الذي تم فيه خلق آدم وحواء. ففي الساعة الأولى جمع الله تراب آدم؛ وفي الثانية أصبح آدم صلصالاً بلا روح؛ وفي الثالثة ظهرت أضلاعه؛ وفي الرابعة نفخ الله فيه من روحه؛ وفي الخامسة وقف على قدميه؛ وفي السادسة سمى الحيوانات بأسمائها؛ وفي السابعة أعطاه الله حواء؛ وفي الثامنة «نام اثنان سوية، ثم أصبحا أربعة»، ذلك أن قايين وهابيل كانا توأمين؛ وفي التاسعة حظر الله على آدم أكل الفاكهة من شجرة المعرفة؛ وفي العاشرة ارتكب الخطيئة؛ وفي الحادية عشرة نال عقابه؛ وفي الثانية عشرة أخرج من جنة عدن.

في حين يذهب آخرون إلى أن عمل الحب الأول بين آدم وحواء تمخض عنه أربعة أطفال على الأقل: قايين مع شقيقته التوأم، وهابيل مع شقيقته، أو ربما كل منهما مع شقيقتين.

• • •

إن رغبة النساء المزعومة في الحمل من أفعوان مقدس نجدها في عديد من الأساطير. ففي المعابد المصرية كانت تحفظ أفاع مقدسة لتقوم بدور وكلاء الله المنجبين. وفي اليونان أيضاً كانت النساء العاقرات يستلقين ليلة بكاملها على الأرض في معبد أسكليبيوس، يحدوهن الأمل بظهور الله على هيئة أفعى ويحبلهن في أثناء نومهن. وفي الطقوس الفريجية في سابازيوس كانت النساء تتزوج الإله على نحو طقسي، بجعل افعى حقيقية أو مصنوعة من ذهب تنساب بين أثدائهن حتى أفخاذهن.

ولعل هذه الطقوس وجدت عندما كانت الأفاعي تعتبر ممثلة لأرواح الموتى، لأنها تخرج من ثقوب تحت الأرض. وكانت هذه الأرواح تصور كحيات أو أشباه حيات ـــ مثل سيكروبس، وأريختونيوس، وقدمـوس ـــ وتقدس، كما جرى لأسكليبيوس وسابازوس. ويُزعم أن الاسكندر الكبير وُلد على جبل أوليمبيا من زيفس أمون متنكراً بهيئة افعوان. كما كانت النساء العاقرات يستحممن في الأنهار، رجاة أن يحملن من آلهة نهرية أفعوانية. وكانت العرائس الطرواديات يستحممن في نهر سكاماندر، ويهتفن قائلات: «سكاماندر، فض بكارتي!» وكان أيا Ea البابلي، إله الفرات، يظهر بهيئة أفعى، أو ممتطياً أفعى.

والحيض عند الشعوب البدائية جداً، مقدس وغير طاهر، على حد سواء: مقدس، لأنه ينبــيء عن مرحلة الأمومة عند الفتاة؛ وغير طاهر، لأن الرجال ينبغي أن يتجنبوا وصال النساء الحائضات. وتعتقد بعض القبائل أن الطمث

ينجم عن عضة حية؛ بالرغم من أن لدغة الحية مخثرة للدم. ولعل أسطورة دنس حواء من الأفعى جاءت تعبيراً عن أصل الحيض: من أنه يتسبب من أفعوان داعر تجعلها لدغته آهلة للزواج. واستناداً إلى إحدى فقرات التلمود، فإن آلام الحيض من بين اللعنات التي صبها الله على حواء.

على هامش النص

كانت عبادة الحية عادة متبعة عند الكنعانيين. فقد عثر على نُصب لحيّة في قصر بيت مرسم يرجع تأريخه إلى 2000 ــ 1600 ق.م.، نقش على الجزء الأسفل منه إلاهة مرتدية ثوباً طويلاً، وقد التفّت حية كبيرة حول ساقيها. كما كانت أدوات العبادة الكنعانية وأوانيها تزين بصور الثعابين[33].

وهناك شواهد تدل على أن اليهود عبدوا الأفعى في هيكل سليمان حتى أيام حزقيال(حوالي 720 ق.م. وهو من ملوك يهودا)[34].

وفي المصادر الإسلامية أن آدم تاق إلى حواء فغشيها، فاشتملت على ذكر وأنثى؛ سمي الذكر قاين، والأنثى لويذاء. ثم عاود الغشيان فاشتملت حواء أيضاً على ذكر وأنثى؛ سمي الذكر هابيل، والأنثى أقليمياء. ويشير المسعودي إلى الاختلاف في اسم الولد الأول منهما: «فذهب الأكثر من أهل الكتاب وغيرهم أن اسمه قاين، على ما ذكرنا، ومنهم من رأى أن اسمه قابيل، وهو قول فريق من الناس، والأغلب على ما قدّمناه. وقد ذكر عليّ بن الجهم في قصيدته من بدء الخلق والذرء ذلك، قال:

واقتنيا الابن فسمي قاينا   وعاينا من نشئه ما عاينا
فشب هابيل وشب قاين   ولم يكن بينهما تباين[35]

(33) بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول، ص 490.
(34) المصدر السابق، ص 567.
(35) مروج الذهب: ج 1، ص 45.

قتل الأخ

قدّم قايين قرباناً للرب عن بواكير فاكهته، في حين قدم شقيقه هابيل أول نتيجة من غنمه. وعندما تقبّل الله تقدمة هابيل، ورفض الأخرى، اكفهر وجه قايين غضباً. فقال الرب لقايين: «لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك؟» (سفر التكوين 4: 3 ــ 8).

لقد تقبل الرب تقدمة هابيل، ورفض تقدمة قايين لأن هابيل اختار أفضل حملانه، بينما وضع قايين قليلاً من حبوب الكتّان على المذبح، ثم أنه أجاب الرب بصرخة ما يزال صداها يردده الكفار: «ليس هناك قانون ولا قاضٍ!».

ولما التقى بهابيل، بعد ذلك مباشرة، قال له: «ليس هناك آخرة، ولا ثواب للمتقين، ولا قصاص للأشرار. ليست هناك رحمة ولا بركة تسود هذا العالم. لماذا قُبلت تقدمتك في حين رفضت تقدمتي؟» وأجابه هابيل ببساطة: «تقدمتي قبلت لأنني أحب الله؛ بينا رفضت تقدمتك لأنك تمقت الله». ثم إن قايين ما لبث أن قتل هابيل.

ويزعم البعض أن الخصومة بين الشقيقين نشأت بعد أن اقتسما الأرض، وكانت الحقول كلها لقايين، مقابل الطيور والحيوانات والزواحف لهابيل. واتفقا على أن لا يعتدي أحد على ممتلكات الآخر. حتى إذا تم هذا الاتفاق بينهما طلب قايين الذي كان يحرث أحد الحقول، من هابيل أن يبعد قطعانه عنه. وعندما اجابه هابيل بأنها لن تفسد الحرث، تناول قايين سلاحاً وهرع في أثر أخيه يتبعه عبر الحزون والوهاد، إلى أن أدركه وأصاب منه مقتلا. ويزعم آخرون أن قايين قال لهابيل: «الأرض التي تقف عليها تعود لي: قف في الهواء!» فلم يكن من هابيل إلا أن يجيبه قائلاً: «وملابسك من جلود قطعاني؛ اخلعها إذن!».

او أن قايين عرض على هابيل قائلاً:«فلنقسم الأرض إلى ثلاثة أقسام. آخذ أنا، الولد البكر، حصتين؛ وتبقى لك حصة واحدة». وإذْ أبى هابيل إلا أن تكون حصته مساوية له، قال له قايين: «اتفقنا، بيد أن التل الذي تقدم عليه قرابينك يجب أن يكون ضمن حصتي» لأن ذلك كان التل المقدس في أورشليم

الذي سيقام عليه العهد بين إبراهيم والله فيما بعد، وسيبني سليمان معبداً عليه، بيد أن هابيل لم يرَ أن قايين حقيق بهذا الامتياز.

كما يزعم آخرون أن الشقيقين اختصما على حب أول حوّاء، التي خلقها الله لتكون زوجة آدم، ورفضها. أو أن الشقيقين عندما كانا متهيأين للزواج، قال آدم لحواء: «ليأخذ قايين أقليمياء، شقيقة هابيل التوأم، وليأخذ هابيل لويذاء، شقيقة قايين التوأم». بيد أن قايين أراد الزواج بشقيقته التوأم، لأنها كانت اجمل، رغم أن آدم حذره من أن ذلك سيندرج في إطار غشيان المحارم، وطلب ن الشقيقين تقديم قربان للرب قبل الزواج. وعندما رفضت تقدمة قايين، أقنعه الشيطان بقتل هابيل من أجل لويذاء.

ثم انفصلت روح هابيل عن جسده، إلا أنها لم تجد ملاذاً، لا في السماء، التي لم تصعد إليها روح بعد، ولا في الأعماق، التي لم تنزل إليها روح بعد؛ ومن ثم ظلت تحوم قرب مكان الجريمة. وبقي دمه يغلي ويفور في مكانه. وما تزال البقعة جرداء من عشب أو شجر.

بعد ذلك سأل الرب قايين: «اين أخوك هابيل؟» أجابه قايين: «وهل انا مسؤول عن أخي؟ فيم تسألني عنه وأنت من لا يخفى عنه أمر، ما لم تكن قد خططت للجريمة بنفسك؟... هل حذرتني بأنه سيلقى مصرعه عندما أضربه؟ ثم أتحسب أنني لم أفجع بمقتله؟» فلعنه الرب قائلاً: «ماذا فعلت؟ إن دم أخيك سيطالبني بالثأر له من القبر». ومع هذا فإن الرب لم يتدخل لإيقاف النزاع، بل سمح لقايين بالقضاء على هابيل، ومن هنا كانت كلمات هابيل الأخيرة: «إنني أناشدك العدل يا مولاي!».

وإذ لمس الله ما يشبه التوبة في قلب قايين، تركه يحيا، ولكن كخارج على القانون. فحيثما ولى وجهه زلزلت الأرض من تحت قدميه، وارتعدت فرائص الحيوانات. في البداية حاولت افتراسه، بيد انه بكى وتضرع، وفي اثناء ذلك حل السبت، فامتنعت عن التهامه، ويزعم البعض ان الله أنبت قرناً في جبهة قايين، ليحميه من انتقامها. كما يزعم آخرون أن الله ابتلاه بالجذام؛ أو انه ترك علامة على ذراعه: لتحذير الآخرين من الانتقام لهابيل.

إلا أن الله أنزل بقايين سبع عقوبات، كانت أشد نكالاً من الموت، هي: قرن العار الذي أنبته في جبينه؛ وصرخة «قاتل أخيه!» التي رددتها الحزون والوهاد؛ وشلل يرعشه كرجرجة أوراق الحور؛ وجوع لا يسكته طعام؛ وإحباط

لكل رغباته وشهواته؛ وأرق مقيم؛ وقرار بـأن يبقى منبوذاً من الآخـرين، لا يصادقه أحد، ولا يعترض سبيله أحد.

على أن الله أتاح لقايين، بعد أن ولد له ابنه البكر حنوك، أن يستريح ويبني مدينة، سميت حنوك، احتفاء بالمناسبة. وبعد ذلك أنشأ ست مدن أخرى، وأنجبت له زوجته ثلاثة أبناء آخرين.

• • •

العلماء الذين يفسرون هذه الأسطورة في ضوء الصراع بـين البدو والمزارعين في فلسطين، يجدون فيها تناقضاً. فلو كان الأمر كذلك لكان قايين هو الراعي ــ وبالتالي ميالاً لسلب وقتل الفلاح المسالم ــ بينما كان هو فلاحاً، في حين كان هابيل راعياً.

وجاء في سفر التكوين أن قايين تملكته الغيرة لأن تقدمة هابيل قبلت وليس تقدمته. على أنه لما كانت طقوس العبادة تقتضي تقديم الحبوب بالإضافة إلى الذبائح، فإن المفسرين القدامى رأوا إما أن يعطى تفسير لتفضيل تقدمة هابيل أو إيجاد مبرر آخر للجريمة عدا الغيرة. ولم يجدوا من اللائق بأن الله إنما تصرف على نحو اعتباطي: بإهماله الولد البكر، على خلاف ما ينص عليـه الشرع، وتبنيه الولد الأصغر، مثل شيخ القبيلة الذي يؤْثر ابن أجمل نسائه. وهذه تذكرنا بإيثار يعقوب ليوسف، ابنه الأصغر، الأمر الذي حدا بإخوته أن يتآمروا على قتله.

والأبعاد التاريخية لهذه الحكاية يمكن تصورها كما يلي: في أيام المجاعة والجفاف يلجأ الرعاة عادة إلى الأراضي المزروعة التماساً للعمل وكسب لقمة العيش، فيتم إيواؤهم لقاء جزية أو أتاوة. وبعد أن يستقرّ بهم المقام، يطالبون بنصيب في الحكم. ويقدم الطرفان القرابين لآلهة المنطقة. فتُفضَّل تقدمة شيخ الرعاة، مما يثير حفيظة شيخ الفلاحين، فيستعين هذا برعيته في قتل منافسه. ويترتب على هذه الجريمة إبعاد الفلاحين، الذين سيبحثون لهم عن ملاذ آخر. وهذه الظاهرة متبعة في أفريقيا الشرقية منذ عدة قرون.

أما في ضوء الواقع التاريخي لفلسطين فإن أسطورة قايين وهابيل يمكن تفسيرها على النحو الآتي: في البدء عاش في فلسطين أنصاف بدو من رعاة الضأن شبه المستقرين فـي الأرض. ثم وفد بعدهم غزاة من رعاة الإبل. والصراع بين الفئتين اتخذ عند العبريين هذا الطابع الأسطوري بين قايين وهابيل.

وهناك أسطورة فلسطينية قديمة تشبه حكاية قايين وهابيل، وعيساو ويعقوب، وردت في ترجمة فيلو الدمشقي الفينيقي إلى اللغة اليونانية لكتاب سانخونياثون الموسوم بالتأريخ الفينيقي. كان النار (أوسوس) Usous، واللهب هيبسورانيوس Hypsouranius، إبنا البغيين بير Pyr، وفلوكس Phlox، من النور (فوس) Phos، على خلاف دائم. وكان أوسوس الصياد الأول، وهو مبتكر صناعة الملابس من الجلود. فهو هنا يشبه قايين، وعيساو بن إسحاق. أما هيبسورانيوس فهو الاسم الذي جاء به فيلو الدمشقي مقابل ساميمروموس الفينيقي المعادل لـ «شميه ماروم» (السماء العالية أو المرتفعة)[36]، ويقال أنه أول من صنع خيام القصب (أكواخ القصب). وبهذا يشبه يابال (سفر التكوين 4: 20) «الذي كان أباً لساكني الخيام ورعاة المواشي»؛ وهابيل الذي كان راعياً لغنم (سفر التكوين 4: 2)؛ ويعقوب «الإنسان الكامل الذي كان يسكن الخيام» (سفر التكوين 25: 27).

وقد يكون «قايين» و «هابيل» نسخة عن البطلين الأسطوريين أجينور وبيلوس: أجينور هو التسمية الأغريقية لكنعان، وبيلوس المقابل لبعل. وهما ابنا بوسيدون ولاميا، وقد ولدا في مصر، ثم أبعد بيلوس أجينور. وفيما بعد أنجب بيلوس توأمين آخرين هما دانوس Danaus، وإيجبتوس Aegyptus (أو حكفت باللسان الأوغاريتي، أي مصر)، اللذين امتد صراعهما إلى ذريتهما عندما قتلت ابنة دانوس أبناء إيجبتوس.

ومن المحتمل أن تكون ثمة صلة تأريخية بين قايين قاتل أخيه، والقبيلة القينية[37]، وهم من بدو الصحراء أقاموا في جنوب فلسطين. وهذه القبيلة هي واحدة من الأقوام العشرة الذين استوطنوا فلسطين في أيام إبراهيم (سفر التكوين 15: 19). وحسب رأي بلعام النبي الموآبي، كان هؤلاء القينيون الذين كانت منازلهم في الجنوب والشرق، من بين أعداء إسرائيل، وهم موآب، وأدوم، وسعير، وعماليق. ووصفهم بأنهم سكنة الجبال. وظل قينيو آراد Arad أعداءً لإسرائيل عدة أجيال. وتحالفوا مع العماليق ضد الملك شاؤول. ولم يكفوا عن القتال إلا بعد أن كانت الغلبة للملك شاؤول، وبعد أن وعدهم بعدم الاحتكام إلى

---

(36) مادة (مر) في اللغات السامية الغربية تفيد معنى الارتفاع، ومنها اشتق اسم (مريم)، ويعني المرتفعة. وهناك من يرى أن مريم مشتقة من الجذر الذي يفيد معنى المرارة.

(37) القبائل القينية: سكنت ارض مديان بين فلسطين وسيناء وشرقي خليج العقبة. وكان يثرون، حمو موسى، قينياً. وكان القينيون أصحاباً للكنعانيين والعمالقة. عن احمد سوسة: العرب واليهود في التأريخ، هامش ص 25.

السيف بحقهم. وفي عهد الملك داود كانت لهم مدنهم في النقب، من بينها (قيناه)، و (قايين)، إلى الجنوب من يهودا.

ولما كان القينيون في عرف الإسرائيليين بدواً وسكان مدن في وقت معاً، خصوصاً لهم بصورة عامة، فقد اعتبر جدهم الأسطوري قايين أول مقترف جريمة قتل، وأول بدوي، وأول من أسس المدن. واختراعه الأوزان والمقاييس يشير إلى أن المجتمع الزراعي الذي سيطر عليه الرعاة الهابيليون ــ ربما في مرحلة الغزو الهكسوسي ــ له جذور كريتية ومصرية. وفي الأساطير اليونانية تنسب هذه المعرفة ــ بالأوزان والمقاييس ــ إلى بالاميدس، أو هيرمس الذي يقابل (ثوث) المصري.

ويقول الشاعر اليوناني هزيود في أخباره الميثولوجية، عن إبطال العصر الفضي السابق للآريين: «أن آكلي الخبز من المخلوقات التي تم خلقها بعناية إلهية، مرتبطون تمام الارتباط، طوال حياتهم، بأمهاتهم، ولا يقدمون القرابين لآلهتهم، لكنهم مع ذلك لم يحاربوا بعضهم البعض الآخر». وتفسير هذا كما يقول روبرت غريفز: في المجتمعات الزراعية يندر اللجوء إلى الحرب، وتسود عبادة الإلاهات الإناث كقاعدة. وعلى العكس من ذلك تنشأ في المجتمعات الرعوية النزعة إلى الحرب كمهنة. ويتخذ هؤلاء إلهاً سماوياً ذكراً يرمز للثور أو الكبش، لأن الأول يحمي قطعان البقر، والثاني قطعان الضأن، ويستنزل ـ كل منهما ـ الغيث للمراعي ، ويتلقى النذور من أحشاء القرابين التي تقدم له. (عن كتاب الميثولوجيا الأغريقية).

على هامش النص

إن قصة الصراع بين الشقيقين قايين وهابيل ترمز إلى الانتقال من مرحلة الرعي والصيد إلى مرحلة الزراعة. وبدهي أن ينتصر المزارع، هنا، لأنه يمثل مرحلة متقدمة على الراعي. ولهذا، فلا مسوّغ، في رأينا، لاستغراب الكاتبين من انتصار الفلاح على الراعي أو البدوي. وقد عبرت أسطورة أيميش وأنتين السومرية التي يمكن اعتبارها أصلاً لأسطورة قايين وهابيل، عن فكرة الانتقال إلى الطور الزراعي خير تعبير. وعلى الرغم من أن الألواح التي يرد فيها نص هذه الأسطورة لم تصلنا في حالة سليمة إلا أن الفكرة العامة لها يمكن استنتاجها بوضوح: يخلق إله الهواء (أنليل) الأخوين إيميش الراعي، وأنتين الفلاح. ثم ينشب بينهما نزاع، فيذهبان إلى أنليل ليحكم بينهما. فيقف أنليل مع الفلاح، قائلاً:

لقد أجرى «أنتين» ماء الحياة في كل بقاع الأرض
وأنتج للآلهة كل شيء. إنه مزارع الآلهة
فيا إيميش، يا بني، كيف تقارن نفسك بأنتين أخيك
هذه كانت كلمات أنليل المقدسة العميقة المعبرة
فانحنىٰ إيميش وركع أنتين[38].

وهناك أسطورة سومرية أخرى تنسج على منوال سابقتها، وتقدم لنا فكرة عن الانتقال من طور جمع القوت من الغابات إلى طور الرعي والزراعة، هي قصة (لهار) و (أشنان). جاء فيها:

كالبشر لما خلقوا أول مرة
لم يعرف الأنانوكي أكل الخبز
لا ولم يعرفوا لبس الثياب
بل كانوا يأكلون النباتات بأفواههم
ويشربون الماء من الينابيع والجداول
في تلك الأيام في حجرة الخلق
في (دولكوج)؟ بيت الآلهة خلق (لهار) و (أشنان)
ومما أنتج لهار وأشنان
أكل الآلهة الأنوناكي ولكنهم لم يكتفوا.
ومن حظائرهم المقدسة شربوا اللبن
ولكنهم لم يرتووا
لذا، من أجل العناية بطيبات حضائرها
جرى خلق الإنسان[39].

ومرة أخرى ينحاز الأله إلى الفلّاحة أشنان.

(38) مغامرة العقل الأولى، ص 211.
(39) المصدر السابق، ص 211 ــ 212.

مولد شيث

امتنع آدم عن وصال حواء زهاء مئة وثلاثين عاماً مخافة أن تلد له ولداً آخر يلقى مصير هابيل. وفي غضون ذلك كانت السقّوبيات Succubi (وهن شيطانات يجامعن الرجال في أثناء نومهم) يغوين آدم في المنام، ويلدن منه عفاريت. وبالمقابل كانت الشياطين الحاضنة incubi تفسق مع حواء في منامها وتنجب منها عفاريت. ولما كان الله يحب أن يعمر الأرض بالبشر، لا العفاريت، فقد ألهب في قلب آدم الشهوة لحواء. وحتى ذلك الحين كان آدم يؤثر الابتعاد عن حواء من أجل ألّا يتم الوصال بينهما. أما الآن فقد اشتهى حواء رغم بعده عنها، وراح يبحث عنها متذكراً كلمات الله «ليتضاعف نسلك!». وناما سوية، ثم ولدت له شيثاً.

ويزعم البعض أن ملاك الرب أمر آدم بأن ينام مع حواء، إلا أنه ظل ممتنعاً إلى أن أعطي وعداً بولد يدعى (شيث)، أي (سلوان)، ليسلوه عن فقْدِ هابيل. ويزعم آخرون أن حواء قالت: «إن الله قد وضع (أي شاث) لي نسلاً آخر عوضاً عن هابيل» (سفر التكوين 4: 25).

وبعد مولد شيث عاد آدم فامتنع عن وصال حواء، إلا أن سامائيل تنكر بهيئة امرأة فاتنة، متظاهراً بأنه شقيقة حواء، وعرضت على آدم الزواج به. فاستشار آدم ربه، فكشف له الرب في الحال خدعة سامائيل. وبعد مرور سبع سنوات أوعز الله لآدم أن ينام مع حواء، فاستجاب لذلك.

وقبل أن توافي حواء المنية ولدت لآدم ثلاثين توأماً بعد شيث، ولداً وبنتاً في كل بطن. وعاش آدم ثمانمئة عام بعد ولادة شيث (سفر التكوين 5: 4).

• • •

ترمز هذه الأسطورة، مثل الأخرى التي يلقن فيها سامائيل آدم فن اللذة، إلى وجهة نظر الأسينيين(40) الأحرار التي تفيد بأن الامتناع عن أية ممارسة

(40) الأسينيون: طائفة من اليهود المتنسكين القدماء كانوا يعيشون في كومونة. والكلمة من اصل إغريقي.

للجنس قد يترتب عليه نتائج خطيرة. وقد أشار يوسفوس [المؤرخ اليهودي: 37 ــ 100 ميلادية] إلى امتناعهم عن الجماع في المرحلة الأولى من حمل المرأة، وإلى زواجهم التجريبي لمدة ثلاث سنوات لضمان الإنجاب.

وفي سفر العدد (24: 7) يُشار إلى شيث كقوم كانت منازلهم قرب موآب، ولعلهم هم القبائل البدوية التي جاء ذكرها في المدونات الآشورية والبابلية تحت اسم سوتو Sutu.

ويصف يوسفوس شيثاً بأنه رجل صالح من الأخيار، وإن ذريته عاشت في ونام، وكانوا ملمين بعلم الفلك، ويدونون كشوفاتهم على مسلتين، إحداهما كانت قائمة حتى عهده، وفي أحد التعاليم اليهودية المتأخرة اعتبر شيث هو المسيح. وأصبح شيث بطلاً عند الغنوسطيين «الشيثيين»؛ وكذلك عند أتباع ماني[41] في القرن الثالث، الذين كانت أساطيرهم تجمع بين الفارسية والغنوسطية اليهودية. وقد اعتبر ماني، مؤسس الديانة المانوية، قايين وهابيل إبني حواء من الشيطان، إلا أن (شيث) كان عنده رمزاً للنور. لكن سفر التكوين لم يخص (شيث) بأيما مأثرة خاصة.

(41) ماني (215 ــ 276): مؤسس مذهب المانوية القائل بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشر، النور والظلام. وإليه مرجع اليزيدية. ادخل ماني في التصوير الفارسي نسق التصوير الصيني، ورسم الملائكة والشياطين ــ عن قاموس المنجد.

أبناء الله وبنات الإنسان

في الجيل العاشر تكاثر نسل آدم أضعافاً مضاعفة. كما أن الملائكة المعروفين «بأبناء الله» الذين كانوا محرومين من النساء من جنسهم، استطاعوا أن يتخذوا لهم زوجات من بنات البشر الفاتنات. وكان من المفروض أن يرث أبناء هذا الاتحاد الخلود من آبائهم، إلا أن قضاء الله جاء على خلاف ذلك: «لا ينبغي أن تحل روحي في أيما جسد إلى الأبد! ولتكن غاية عمر الإنسان من الآن فصاعداً مئة وعشرين عاماً». وكانت هذه المخلوقات الجديدة من صنف العمالقة، عرفوا «بالساقطين» الذين حملت أعمالهم الشريرة الله على أن يقصي عن وجه المعمورة كل الرجال والنساء مع مفسديهم العمالقة.

أرسل أبناء الله إلى الأرض ليبشروا بالحقيقة والعدل بين البشر، وبالفعل علّموا حنوك بن قايين، طوال ثلاثمئة عام، كل أسرار السماء والأرض. لكنهم، فيما بعد، تهافتوا وراء النساء الغانيات، ودنسوا أنفسهم بممارسة الجنس. ولم يحفظ حنوك تعاليمهم المقدسة فحسب، بل سقطاتهم أيضاً؛ وقبل نهايتهم أشبعوا غرائزهم بالوصال مع العذارى، والمتزوجات، والرجال، والحيوانات.

ويزعم البعض أن شيمهازاي وعزائيل، الملاكين اللذين كانا موضع ثقة الله، قالا للرب: «يا رب العالمين، أو لم ننبه جلالتك في يوم الخلق بأن الإنسان لن يكون جديراً بعالمك الذي خلقته؟» فأجاب الله: «إذا قضيت على الإنسان، فماذا سيحل بعالمي؟» أجاباه: «سنسكنه نحن». فسألهما الله: «ولكن، إذا نزلتما إلى الأرض، ألن ترتكبا الخطيئة على نحو أسوأ من البشر؟». إلا أنهما تضرعا قائلين: «دعنا نُقم هناك بعض الوقت، وسوف نقدس ذكرك!» وأذن الله لهما بالنزول، إلا أنهما سرعان ما وطئا بنات حواء، وأنجبا ابنين هولتين، هما: هيوا، وهيا[42]، كان كل منهما يلتهم في اليوم الواحد ألف جمل، وألف حصان، وألف ثور. وكان عزائيل هو الذي ابتكر مادة التبرج والتزيين للنساء لإغراء الرجال. فأوعدهم الله بانه سيُجري المياه العليا فتقضي على الحرث والنسل. فبكى

(42) حيوا، وحيا؟

شيمهزاي بحرقة خوفاً على أبنائه الذين قد ينجون من الغرق لأنهم طوال. لكنهم قد يهلكون جوعاً.

ولأجل أن يضع الله حداً لشهية «الساقطين» أنزل عليهم أصنافاً شتى من المنّ، لئلا يأكلوا اللحم، الطعام المحرم، متذرعين بقلة البقل على الأرض. إلا أن «الساقطين» رفضوا المنّ، وعادوا إلى سيرتهم الأولى ينحرون البهائم ولا يتورعون حتى عن لحوم البشر، وبذا لوثوا الهواء بروائح الجيف. فعقد الله النية على تنظيف الأرض.

ويزعم آخرون أن (نعمة) و (أجرة) ابنة محلة، وليليت، هن اللائي أغوين شيمهازاي وعزائيل. وفي تلك الأيام كانت هناك عذراء واحدة حافظت على عفافها، هي ايستاهار. وعندما حاول أبناء الله إغواءها، خاطبتهم قائلة: «أعيروني إذن أجنحتكم!» وبعد أن استجابوا لها طارت إلى السماء واتخذت من عرش الله موئلاً لها. فحولها الله إلى العذراء (برج العذراء)، واستناداً إلى روايات أخرى، إلى الثريا. وإذْ فقد الملائكة الساقطون أجنحتهم، جنحوا إلى الأرض، وبعد عدة أجيال، تمكنوا من التسلق على سلّم يعقوب وعادوا إلى منازلهم ثانية. ويزعم البعض أن بنات البشر هن بنات شيث بن آدم. وحتى «أبناء القضاة» جنحوا هم الآخرون، فاغووا بنات الفقراء. فعندما كانت العرائس تزف إلى أزواجهن، كان قاضي أول من يبني بهن ويفض بكارتهن.

ويروى أن جينون (؟)[43] Genun الكنعاني، ابن لامك الأعمى، كان يعمل تحت إمرة عزائيل، وهو الذي اخترع آلات الطرب. وقد تقمصتها روح عزائيل، ومن هنا مصدر الطرب والإغراء. وكان جينون يعمد إلى إقامة مجالس للضاربين على الآلات الموسيقية، فيعزفون على آلاتهم ويذكون الطرب في أنفسهم حتى تستعر شهواتهم كالنار، ويناموا مع بعضهم على نحو داعر، وكان هو أول من خمّر البيرة، وحشّد الحشود في الحانات، وقدم لهم الشراب، وعلمهم صناعة السيوف والرماح، التي كانوا ينهالون بها على الناس، لا على التعيين، عندما يتعتهم السكر.

فأخبر الملائكة ميكائيل وجبرائيل ورافائيل واورئيل، الله بأن شراً كهذا لم تشهده الأرض من قبل. عند ذاك أرسل الله رافائيل ليوثق يدي ورجلي عزائيل، ويلقيه في كهف دودائيل المظلم ثم يضع الصخور على مدخله، ليقيم في

---

(43) لم اهتدِ إلى مقابل له في التوراة.

غيهبه حتى يوم الدينونة. وقضى جبرائيل على «الساقطين» بعد أن حرّض بعضهم على البعض الآخر في حرب أهلية. وألقى ميكائيل بشيمهازاي وأتباعه مقيّدين في كهوف مظلمة لسبعين جيلاً. بيد أن اوريئيل هو الذي أصبح رسول الخلاص، عندما زار نوحاً.

• • •

قد يُعزى تفسير هذه الأسطورة، الذي لا يرتاح له رجال اللاهوت، إلى قدوم رعاة برابرة عبريين طوال القامة إلى فلسطين في أوائل الألف الثاني قبل المسيح، وامتزاجهم بالحضارة الآسيوية. أما «أبناء إيل» فتعني في هذا السياق «الرعاة من عبدة الأله ـــ الثور إيل السامي». أما «بنات آدم» فتعني «بنات الأرض» (الأدمة)، وبالذات عبدة الألاهات المؤنثة، بنات المجتمع الكنعاني الزراعي، المعروفات بفسقهن وفجورهن. وبالتالي فإن هذه تذكرنا بالأسطورة الاوغاريتية [الكنعانية] التي تفيد بأن إيل اغوى امرأتين بشريتين وأنجب منهما ابنين مقدسين، هما شحر (السحر)، وشالم (كامل). أما «أبناء القضاة» فهم (بينه إيلوهيم)، ذلك أن إيلوهيم تعني (الله) و (قاض) في وقت معاً، إذ يؤثر أن القاضي حين ينظر في قضية، فإن روح إيل تتلبسه. وفي المزمور: «لقد قلت، أنتم أبناء الله».

وقد ورد ذكر هذه الأسطورة في الأبوكريفا(44)، وكتاب العهد الجديد، والآباء الكنسيين، والمدراش. وقد فسرها يوسفوس على النحو الآتي: «لقد عاشر العديد من ملائكة اللهنساء، وولد لهم أبناء متغطرسون وفاسدون، ومزهوون بقوتهم. وفي الواقع أن الأفعال التي تنسب لهم تذكرنا بالبطولات الطائشة التي ينسبها اليونانيون للعمالقة. بيد أن نوحاً نصحهم بالتروي والتعقل».

وكان هؤلاء العمالقة اليونانيون أربعة وعشرين ابناً من أبناء الأرض الأم، القساة الداعرين الذين تمردوا على زيفس.

وحتى زمن متأخر، كالقرن الثامن الميلادي، ذكر الرابي لعازر في مدراشه أن «الملائكة الذين سقطوا من السماء شاهدوا بنات قايين في الطرقات كاشفات عن مواضع عفتهن، متكحلات العيون كالبغايا، فانجذبوا إليهن، واتخذوا منهن زوجات لهم». أما الرابي يشوع بن قورها، النصيّ (أي الملتزم بحرفية الأشياء)، فقد شغلت باله مسألة تفصيلية جداً: «ترى هل يمكن للملائكة، المجبولين من

---

(44) الأبوكريفا: اربعة عشر سفراً تلحق احياناً بـ «العهد القديم» من الكتاب المقدس، لكن البروتستانت لا يعترفون بصحتها ـــ قاموس المورد لمنير البعلبكي.

نار، أن يقوموا بعمل الحب دون أن يحرقوا أحشاء عرائسهم؟» إلا أنه حل هذا الإشكال بقوله: «عندما سقط هؤلاء الملائكة من السماء، تحولوا إلى فانين، وتحولت نارهم إلى لحم».

أما (هيوا) و (هيا) فيذكراننا بالنوتية البابليين في هتافهم حين تقترب السفينة من الساحل: «هلني، هيا، هولا، وهيلوك هوليا!».

وأما عزائيل فلعله عزازيل (الله يعزز). وأما دودائيل فلعله محرّف عن بيت حدودو Beth Hadudo، أو حردان Haradan المعاصرة، على بعد ثلاثة أميال من أورشليم، إلى الجنوب الشرقي منها. وأما جينون Genun فيذكر بقينان الذي يرد في سفر التكوين (5: 9) كأحد أبناء أنوش.

ويُظن أن العمالقة (العناقيم) هم المستوطنون الإغريق القادمون من مسينيا الذين ينتسبون إلى اتحاد «أقوام البحر» الذين دوّخوا المصريين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. ويذكر رواة الأساطير الإغريقية من بينهم العملاق عناق (الملك) وابن السماء وأمنا الأرض، الذي حكم أناقطوريا (مليطس) في آسيا الصغرى. ولا بد أن الأنصاب المنحوتة من حجر المغليث التي شاهدها العبريون عند دخولهم أرض كنعان، استنهضت في مخيلتهم فكرة العماليق.

أما «الساقطون» Nefilim فيذكروننا بقبائل مثل الأيميين (الأشداء)، والرفائيين، والجبابرة، والزمزميين، والعناقيين (ذوي الأعناق الطويلة، أو أصحاب القلائد)، والخويين (المدمرين أو الأفاعي).

وكان العمالقة الكنعانيون يُعرفون عند الموآبيين باسم الإيميين (وتعني الرعب، الإرهاب)، وعند العمونيين باسم الزمزوميين أو الزوزيين، وعند الجلعاديين باسم الرفائيين (أي الضعفاء). ويصفهم كتاب (أعياد التحرير) بأن طول الواحد منهم يبلغ زهاء (10 ـ 15) قدماً. وفي الميثولوجيا الأوغاريتية [الكنعانية] يصورون كأشباح. وفي كتاب مصري يرقى تأريخه إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد يرد ذكر عدد من حكام (اليعانق)، من بينهم أبي ـ إمامو Abi-Imamu.

وفي أحد كتب المدارش ثمة إشارة إلى أن طولهم يضاهي أشجار الأرز، بيد أن عبريي ذلك الزمن كانوا مثلهم عمالقة. وإبراهيم نفسه كان طوله، كما جاء في المدراش، سبعين ضعفاً من طول الإنسان الاعتيادي، وكل خطوة من خطواته كانت تساوي ما بين ثلاثة وأربعة أميال؛ وكذلك كان خادمه العازر. وقيل

أن يعقوب، وابنه شمعون، وحفيده منسّى، كانوا عمالقة، وكذلك كان شمشون، وقائد شاؤول، (ابنير) الذي يؤثر عنه أنه قال: «لو أحطت الأرض برجلي لهززتها!» كما يؤثر أيضاً عن أبشالوم بن داود أن شعره حين يقص يزن مئتي شيقل.

على هامش النص

جاء في كتاب روبرت غريفز، الآخر، الموسوم بالأساطير الإغريقية ما يأتي: بعد أن أنجب زيفس، مينوس ورادامانش وساربيدون، في كريت، هجر أوروبا، فتزوجت من استريوس الملك حفيد دورس (إليه ينتسب الدوريون الإغريق) الذي أسس مستوطنة الأيوليين والبيلاسغيين. وتبنى استريوس أبناء أوروبا الثلاثة، مينوس، ورادا منثيس، وساربيدون، وجعلهم ورثته. وعندما شبّ هؤلاء الأشقاء عن الطوق تشاجروا على غلام وسيم يدعى مليطس Melitus ابن أبولو من الحورية آريا. وبعد أن مال قلب مليطس إلى ساربيدون، طرده مينوس من كريت، فأبحر مع أسطول كبير إلى كاريا من أعمال آسيا الصغرى، وهناك أنشأ مدينة ومملكة مليطس. إلا أن هذه البلاد كانت تدعى قبلذاك أناقطوريا (العناقية)، وكانت قبل جيلين من وصول مليطس تحت حكم العملاق أناكس (عناق) بن أورانوس والأرض الأم، وحُكِم ابنه العملاق الآخر استريوس. وقتل مليطس، استريوس، ودفن هذا الأخير في لاده[45].

ويذكرنا حكام أناقطوريا (عناقيا) العمالقة بالعناقيين الوارد ذكرهم في التوراة (يشوع 14: 13) الذين طردهم كالب من معبد الوحي الذي كان تحت سدانة عفرون بن هيث. وعفرون هو الذي سمى حبرون (مدينة الخليل) (سفر التكوين 23: 16). ولعله يذكرنا بفورونيوس الإغريقي. ويبدو أن هؤلاء العناقيين قدموا من اليونان مع أقوام البحر الذين دوخوا المصريين كثيراً في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وتذركنا لاده التي دفن فيها استريوس باللات (الإلاهة السامية)[46].

وكانت تُكتشف في اليونان عظام تفوق الحجم الطبيعي، ويُتبرك بها في اثينا. ويُعتقد أن جنساً من البشر العمالقة ــ الذين تنتسب إليهم طائفة الواتوسي الحامية في إفريقيا الاستوائية ــ عاشوا في أوروبا في العصر الحجري

(45) Robert Graves, Greek Myths, volume 1, P. 292.
(46) Ibid. P. 296.

الحديث، وغالباً ما كان يُعثر حتى في بريطانيا على نماذج من هياكلهم العظمية التي يبلغ طولها سبعة أقدام. وينتسب العناقيون الفلسطينيون، وعناقيو كاريا (من أعمال آسيا الصغرى) إلى هذا الجنس. وإذا كان أوريستيس من آخيي الحرب الطروادية، فقد كان من المتعذر على الأثينيين العثور على هيكله العظمي وقياسه، لأن نبلاء الملحمة الهوميرية كانوا يحرقون جثث موتاهم ولا يلحدونهم في القبور على نحو ما كان متبعاً في العصر الحجري الحديث[47].

وفي كتب التأريخ العربية القديمة أن العمالقة أبناء (عملاق) بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، نزلوا الحجاز وتهامة، ومنهم من سار إلى الشام ومصر (ويزعمون أن الفراعنة منهم) والمغرب. وأن يوشع بن نون ــ خليفة موسى ــ حارب الجبابرة من ملوك العماليق وغيرهم من ملوك الشام، وأول من انتصر عليهم من ملوكهم السميدع بن هوبر ببلاد أيْلة نحو مِدْين. وفي ذلك قال الشاعر (عوف بن سعد الجرهمي):

ألم تر أن العملقي ابن هوبر بأيْلةَ أمسىٰ لحمه قد تمزعا
تداعت عليه من يهود جحافل: ثمانين ألفاً حاسرين ودُرَّعا
فأمست عداداً للعماليق بعده على الأرض مشياً مصعدين وفُزَّعا

ويُعزى ابتكار آلات الطرب الموسيقية في سفر التكوين إلى يوبال، وصناعة لسيوف البرونزية والحديدية إلى أخيه توبال قايين. بيد أن فيلو الدمشقي (الفينقي الأصل) يزعم أن موسى تلقى العلوم وفن الموسيقى عن الكهنة المصريين. ويمكن تفسير هذا أن اليهود نقلوا الآلات الموسيقية من مصر عند نزوحهم منها في القرن الخامس عشر (أو الثالث عشر على أغلب الاحتمال) قبل الميلاد. وبناء على أسطورة لا تختلف عن تلك الواردة في الكتاب المقدس يعزو العرب اختراع الدف والطبل إلى توبال بن لامك، والمعزف لأخته دلال، والعود للامك نفسه. (ينظر في هذا كتاب تاريخ الموسقى الصادر عن دار بليكان باللغة الانكليزية، ص 104، 108).

(47) Ibid. volume 2, P. 82.

مولـــد نـــوح

يُزعم أن قايين وافته المنية بعد عدة أجيال على يد لامك، أحد أحفاده الأبعدين. وكان لامك هذا صياداً ماهراً، وكسائر أبناء قايين تزوج امرأتين. ثم عمي في سنيه الأخيرة. لكنه لم يتخلَّ عن حرفته، مستعيناً ببصر ابنه توبال قايين. وذات مرة لمح ابنه ما توهمه طريدة، فرماها لامك بسهمه، وأصاب منها مقتلاً. ولم يكن القتيل سوى جده الأعلى قايين. وكان هذا قد ظهر له قرن في جبينه! وإذْ أدرك لامك فداحة جرمه، الحق ابنه توبال بقايين أيضاً. ولما عاد إلى بيته خاطب امرأتيه (صلّة) و (عادة) قائلاً: «هلما إلى سريري!» إلا أنهما رفضتا الاستجابة لرغبته بعد أن علمتا بما فعل. ثم مضى بهما إلى آدم الذي كان ما يزال على قيد الحياة؛ ليحتكموا إليه. وبدأت (صلّة) الكلام قائلة: «لقد قتل لامك ابنك قايين، وابني توبال قايين». فقال لامك: «كان القتل في الحالين سهواً، لأنني فاقد البصر». فنصح آدم (عادة) و (صلّة) قائلاً: «عليكما بإطاعة زوجكما». فولدت صلّة ابنا من لامك، جاء مختوناً من بطن أمه، أسماه أبوه نوحاً. وكانت وجنتا نوح أنصع بياضاً من الثلج وأشد حمرة من الوردة؛ وعيناه كشعاع شمس الصباح، وكان شعره طويلاً وجعداً، ووجهه يتوهج نوراً. ولهذا شك فيه أبوه لامك، وظن أنه جاء سفاحاً من أحد «الساقطين». فاحتكما إلى جدهما أنوش الذي قال: «في أيام نوح سيجترح الله عملاً جديداً على الأرض!». وفي اليوم الذي ولد نوح توفي آدم. وازدهرت الحياة، بعد أن كان حصاد القمح نصفه شوك ونصف حسك. أما الآن فقد رُفعت لعنة الله. وفي حين كان العمل فيما مضى باليدين العزلاوين، فقد علّم نوح الناس صناعة المحراث، والمنجل، والفأس، والأدوات الأخرى. بيد أن البعض ينسب عمل الحدادة هذا إلى أخيه القتيل توبال قايين، يعزز ذلك أن كلمة (قايين) تعني (الصانع).

• • •

تذكرنا هذه القصة بأسطورتين إغريقيتين: قتل بيرسيوس غير المتعمد لجده اكريسيوس، وتصوُّر أتاماس أن ليارخس كان أيّلاً أبيض، فأرداه قتيلاً. ومع أن أصل كلمة لامك غير واضح، إلا أن المدراش [التفسير اليهودي للتوراة] يربط بين مقتل شخصين والجذور العربية الآتية: لمح، ولمخ، ولمق. وتعني هذه

الأفعال على التوالي: أبصر بنظر خفيف أو اختلس النـظر، ولطم، وضربـه بكف[48].

وتوبال قايين، في سفر التكوين، حدّاد، وأخواه يابال: راعٍ، ويـوبال: موسيقي. وهذه الأسماء تذكرنا بأسماء عوائل قينية. وفي سفر حزقيال: «يزوّد توبال مدينة صور بآنية نحاسية وعبيد»، وكان يوبال إلهاً كنعانياً للموسيقى.

على هامش النص

جاء في كتاب روبرت غريفز (الأساطير الاغريقية): أن الحديد باللغة الاغريقية كان يقال له خاليبس (Chalybs). و (الخاليبيون) تسمية أخرى للتبريانيين (Tibernians)، أول من صـهر معدن الحديد، وفي سفر التكوين (٢:١٠) كانت بلادهم تدعى توبال (وهي هنا تيبار Tibar)، وتوبال قايين هو المعادل للتبريانيين الذين قدموا من أرمينيا إلى أرض كنعان مع قبـائل الهكسوس.

(48) ووجدنا في القاموس كلمة (لك)، ولكنها تعني: انعم عجن العجين. واللميك: المكحول العينين.

الطوفــان

تزوج نوح بنعمة ابنة أنوش، وكانت هذه هي الفتاة الطاهرة الوحيدة بعد إيستاهار، في ذلك الزمن الذي فسدت فيه خلائق الناس وعمه الفسق والفجور. فولدت له ساماً، وحاماً، ويافثاً. وعندما بلغوا مبلغ الرجال زوّجهم نوح ببنات إيلياكيم بن متوشالح.

ثم حذر الله نوحاً من الطوفان المقبل، فنشر الخبر بين الناس، يعظهم بالتوبة، إلا أن قومه هزئوا به قائلين: «وما هو هذا الطوفان؟ لئن كان طوفاناً من لهب، توقيناه بمادة الأليثا (أشبة بالاسبستوس)؛ ولئن كان طوفاناً من ماء، فلدينا صفائح من حديد تحول دون تقدمه على اليابسة. أما الماء المنهمر من السماء فنستطيع أن نقيه بظلّة». ثم حذرهم نوح قائلاً: «ومع هذا فسيجعل الله المياه تتفجر من تحت أقدامكم!» ومن جديد هزئوا به قائلين: «مهما كان أمر هذا الطوفان، فلن يغمر هاماتنا...».

فأمر الله نوحاً ببناء الفلك من شجر الجفر ليأويه هو وعائلته ونماذج مختارة من الكائنات الأخرى التي تدب على الأرض. وأمضى نوح اثنين وخمسين عاماً في بناء الفلك. لقد تباطأ في عمله هذا رجاة تأجيل انتقام الله.

وقد أشرف الله بنفسه على تصميم الفُلك الذي تم بناؤه بثلاث طبقات، خصص أسفلها للحيوانات الكاسرة والأليفة؛ وأوسطها للطيور؛ أما أعلاها فلكافة الزواحف، وعائلة نوح. كما دخلت الفلك بعض الأرواح الهائمة، وبذلك تم خلاصها، وزوجٌ من المردة الجبارة، تم إنقاذهما رغم انهما كانا أكبر من أن تسعهما حجرة في السفينة، هما ريم الذي ظل يسبح في أثر السفينة وأنفه على مؤخرها، والعملاق عوج. وكان هذا ابن (هيا) من المراة التي تزوجت حاماً فيما بعد وتضرعت إلى نوح بأن يسمح لعوج بالتشبث بسلم من الحبال ليتمكن من رفع راسه فوق مستوى الماء. وأقسم عوج على أن يكون عبداً لنوح؛ لكنه عاد إلى سيرته الشريرة رغم أن نوحاً أشفق عليه واطعمه من كوة في السفينة.

وأنزلت الملائكة سلالاً مليئة بالعلف لكافة الحيوانات التي حشرت في الفُلك. وأمر الله نوحاً بالجلوس عند مدخل السفينة لمراقبة الكائنات حين تدخل.

فمن قرفص تجلّةً لنوح، سمح له بالدخول، أما من بقي منتصباً على قوائمه فقد كان نصيبه الرفض. ويزعم بعض الرواة أن الحيوانات كان يُسمح لها بدخول الفلك إذا كانت ذكورها تعتلي إناثها من نفس جنسها، وبخلاف ذلك كانت تُرفض (ذكوراً و إناثاً). وتفسير ذلك أن الشذوذ لم يكن مقصوراً على البشر وحدهم. إلا ان الحيوانات رفضت أناثها من نفس جنسها: اعتلى الحصان الأتان، والحمار الفرس؛ والكلب الذئبة، والأفعوان السلحفاة؛ وهكذا دواليك، ليس ذلك فحسب، بل إن الإناث غالباً ما كانت تعتلي الذكور. فقضى الله بإبادة الكائنات كائناً ما كانت، خلا التي خضعت لإرادته.

ثم زلزلت الأرض، وارتجت دعائمها، وأظلمت الشمس، وأرعد الرعد، وأبرق البرق، ودوى صوت هائل لم يسمع له مثيل من قبل فوق الحزون والوهاد. ذلك كله لكي يتعظ الأشرار بغضب الرب، ولكن بغيرما طائل. ففجّر الله عيون السماء لتغمر الأرض.

بدأ الطوفان في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني بعد أن بلغ نوح ستمئة عام من العمر. دخل هو وعائلته الفلك وأوصد الله بنفسه الباب خلفهم.

وسرعان ما غمر الطوفان الأرض. فتجمع سبعمائة ألف شرير حول الفلك، وراحوا يصرخون: «افتح الباب، يا نوح، واسمح لنا بالدخول!» إلا أن نوحاً أجابهم قائلاً: «أولم أنصحكم بالتوبة طوال المئتي وعشرين عاماً، ولم تعيروني سمعاً؟» فقالوا: «لكننا نتوب الآن». إلا انه أجابهم: «لقد فات الأوان». فحاولوا كسر الباب، وقلب السفينة. غير أن المئات منهم صارت لقماً سائغة بأفواه الذئاب والأسود والدببة التي كانت هي الأخرى تحاول دخول الفلك، وبذلك صُدُّوا عن السفينة.

وكانت السفينة تستضيء بضوء درّة مدلاة من سقفها. وحين يخفت ضوؤها، يدرك نوح أن الصباح قادم؛ أما عندما يسطع ضوؤها فيعلم أن الليل قد حل، وبذاك لم يفته حساب أيام السبت. ويزعم البعض أن الملاك رافائيل أعطى نوحاً كتاباً مغلفاً بالياقوت الأزرق، يحوي أسرار النجوم، وفن العلاج، وقهر المردة. فسلمه نوح لسام الذي سلمه بدوره لإبراهيم، فيعقوب، فلاوي، فموسى، فيشوع، فسليمان.

وعلى مدى اثني عشر شهراً لم يغمض لنوح وأبنائه جفن، لانشغالهم بما ألقي على كواهلهم من مهمات. ووفق بعض المصادر، كانت طوائف من الكائنات تتناول مأكلها في الساعة الأولى من النهار، وأخرى في الثانية، إلى آخره؛

وكانت كل منها تعتلف بعلفها الخاص بها: الجمل بالعساليج، والحمار بالشعير، والفيل بشطأ الكروم، والنعامة بكسر الزجاج (؟). واستناداً إلى مصادر أخرى، كانت الكائنات كافة: بهائم، وطيوراً، وزواحف، وحتى البشر، تطعم بخبز التين.

وعزل نوح أبناءه عن زوجاتهم، ومنعهم من ممارسة طقوس الحب: لا ينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك والعالم يتعرض إلى دمار كهذا. وقضى بأن يسري هذا الحظر على الكائنات الأخرى كافة، فأطاع الجميع، باستثناء ابنه حام، والكلب، وذكر الغراب. لقد اقترف حام الخطيئة لكي يرفع العار عن زوجته: فعل ذلك لئلا يدخل في حسبان أخويه سام ويافث بأن الطفل الذي حملته في رحمها كان من نسل شيمهازاي الملاك الساقط. فسوّد الله بشرة حام، وعاقب الكلب أيضاً بإبقائه ملتصقاً بأنثاه على نحو معيب بعد تعشيرها، والغراب بتلقيح أنثاه عبر منقاره.

بعد مضي مئة وخمسين يوماً (عند البعض مئة وأربعين) أوصد الله بوابات السماء بنجمتين استعيرتا من كوكبة الدب الأكبر. فأخذ ماء الطوفان بالانحسار تدريجاً. وفي اليوم السابع بعد الشهر السابع على بدء الطوفان رست سفينة نوح على جبل أرارات. وفي اليوم الأول من الشهر العاشر، ظهرت للعيان قمم جبال أخرى. وبعد أربعين يوماً آخر فتح نوح كوة وطلب من الغراب أن يطير ليعود بأخبار العالم الخارجي، فطار، لكنه سرعان ما قفل راجعاً، ثم أرسله ثانية، فعاد أيضاً على الفور، وفي المرة الثالثة تخلف، طمعاً بالجيف المتخلفة بعد الطوفان.

ثم أمر نوح الحمامة باستطلاع أخبار الأرض. إلا أنها ما لبثت أن قفلت عائدة، لأنها لم تجد شجرة تحط عليها. وبعد سبعة أيام أخرى، أرسلها من جديد، فعادت عند انتصاف الليل حاملة بمنقارها غصن زيتون. وبعد سبعة أيام أخرى أرسلها نوح، فلم تعد هذه المرة. وفي مستهل الشهر تطلّع نوح من الكوة حواليه، فلم يرَ سوى بحر شاسع من الطين يغمر الأرض خلا الجبال القصية. وحتى قبر آدم زال من الوجود. ولم تجف الأرض إلا في اليوم السابع والعشرين من الشهر التالي.

حتى إذا وطئت قدماه الأرض، جمع أحجاراً وأقام منها مذبحاً. وتصاعدت إلى عرش الرب رائحة القرابين المشوية، فبارك نوحاً وعائلته ليعمروا الأرض بنسلهم وحرثهم.

• • •

هناك أسطورتان تضاهيان طوفان سفر التكوين: الأولى أكدية، والأخرى

يونانية. الأسطورة الأكدية عن الطوفان يرد ذكرها في ملحمة جلجامش، وكانت معروفة ومتداولة أيضاً عند السومريين، والحوريين، والحثيين. في الأسطورة لأكدية يخبر أيا، إله الحكمة، البطل أوتنابشتم، بأن الآلهة الآخرين وعلى رأسهم انليل الخالق، قد وضعوا خطة الطوفان الشامل، فعليه أن يبني سفينة. ويبدو أن ذريعة أنليل في القضاء على البشرية هي امتناعهم عن تقديم قرابين السنة الجديدة. فيبني أوتنابشتم سفينة بست طبقات على شكل مكعب تام. ويتم بناؤها في سبعة أيام، كان أوتنابشتم في غضون ذلك يقدم لعماله «الخمرة بلا حساب ليشربوها، ولكي يكون ذلك بمثابة الاحتفال بمناسبة العام الجديد». وحين بدأ وابل المطر يهطل بغزارة، دخل السفينة هو وعائلته، والصناع والخدم حاملين كنوزه، مع عدد من الحيوانات والطيور.

وظلت ريح الجنوب تهب طوال يوم بأكمله(49)، فغمرت الجبال واكتسحت البشر. حتى أن الآلهة أنفسهم طاروا فزعين إلى السماء، وأقعوا ثمت مثل الكلاب، واستمر الطوفان ستة أيام بلياليها، ثم توقف في اليوم السابع. عند ذاك فتح أوتنابشتم كوّة وتطلع حواليه. فرأى الطوفان يغمر الأرض كسطح مستوٍ، تحده قمم أربعة عشر جبلاً في البعيد. وقد غرق جميع الناس وغمرهم الطين. ورست السفينة عند جبل نصير، حيث تلبث هناك أوتنابشتم سبعة أيام أخر، ثم أرسل حمامة، سرعان ما عادت لأنها لم تجد موضعاً تحط عليه. وبعد سبعة أيام أخر أرسل سنونواً، ما لبث هو الآخر أن عاد. ثم غراباً، لم يعد لأنه عثر على جيفة أصاب منها مأكلاً، لأن الطوفان كان قد انحسر الآن.

عند ذاك أطلق أوتنابشتم نزلاء السفينة من البشر والحيوانات، وأراق خمراً على قمة الجبل سبع مرات، وأشعل عيداناً طيبة الرائحة: قصباً، وخشب الأرز، وآساً. فشمت الآلهة رائحتها وتجمعت حول الضحية. وأثنت عشتار على أوتنابشتم، ولعنت إنليلاً لأنه كان وراء هذه الكارثة التي لا معنى لها.

أما بطل الطوفان السومري فهو الملك التقي زيو سودرا (الذي سماه بيروسوس: كزيتوروس، في كتابه عن التأريخ البابلي، المؤلف في القرن الثالث ق.م).

وتتألف حكاية سفر التكوين عن الطوفان من ثلاثة عناصر، على الأقل،

---

(49) الرياح الجنوبية الشرقية في العراق غالباً ما تكون واعدة بالمطر.

متباعدة. الأول ذكرى تأريخية لوابل من المطر في جبال أرمينيا فاض على إثره نهرا دجلة والفرات في حدود 3200 ق.م، فغمر الفيضان قرى سومرية تزيد مساحتها على أربعين ألف ميل مربع بعمق ثمانية أقدام من الغرين، استناداً إلى وُولي في كتابه (أور الكلدانيين). ولم تسلم من الدمار سوى بضع مدن مشيدة بالآجرّ. والعنصر الثاني هو عيد صنع الخمرة في بداية السنة الخريفية في بابل وسوريا وفلسطين، حيث كانت السفن تصنع هناك على شاكلة هلال، وتوضع فيها بهائم القرابين. وكان الاحتفال بهذا العيد يجري عند ظهور الهلال في موسم الاعتدال الخريفي بإراقة الخمرة الجديدة لاستنزال مطر الشتاء. وقد أشار يوسفوس نقلاً عن بيروسوس وسواه إلى آثارٍ من حطام السفينة في أرارات (جبل الجودي قرب بحيرة وان)؛ وذكر بيروسوس أن الأكراد من أبناء المنطقة ما يزالون ـــ أي حتى زمانه ـــ يقتطعون القطع من قار السفينة لاستعمالهم الشخصي (؟) ويزعم فريق من الأميركان أنهم عثروا هناك على جذامات خشبية شبه متحجرة يرقى تأريخها إلى ما يقارب 1500 ق.م. ويطلق المؤرخ الأرمني موسى خورينه على هذا المكان المقدس اسم ناخيد شيوان (أي مكان النشوء الأول).

أما (أرارات) فترد في نقش للملك الآشوري شلمنصر الأول (1272-1243 ق.م) بهذه الصورة: أوروواتري Uruatri أو أوراتري Uratri. وفيما بعد أصبحت أورارتو Urartu، وهي مملكة مستقلة تحيط ببحيرة وان، كان يقال لها عند عبريي أيام السبي البابلي: بلاد أرارات.

أما الطوفان اليوناني فيدعى طوفان ديوكاليون Deucalion (الجد المزعوم لليونانيين)[50]. جاء هذا الطوفان نتيجة لغضب زيفس على كفر أبناء لوكاون بن بيلاسغوس، ووحشيتهم، لأنهم كانوا يأكلون أحشاء الأولاد الذين يضحون بهم. فأغرق زيفس الأرض بالطوفان، ولم ينج منه سوى ديوكاليون ملك فثيا (واسمه يعني بحّار الخمرة الجديدة)، وزوجته، مع بضعة أفراد آخرين، بعد أن نبهه بالأمر سلفاً أبوه بروميثيوس التيتان (الجبار) عندما كان الابن في زيارته بالقفقاس. فبنىٰ فُلكاً ولاذ به هو وزوجته (بيرها) Pyrha. وبعد تسعة أيام انحسر ماء الطوفان، فرست السفينة على جبل البرناس، أو جبل اتنا، أو جبل آثوس، أو جبل أوثريس، استناداً إلى روايات مختلفة. ويقال إن ديوكاليون لم يترجل من السفينة إلاّ بعد أن أرسل حمامة لاستطلاع الأمر. وبعد رسو

(50) نقلنا هذه المعلومات عن كتاب روبرت غريفز (الأساطير الإغريقية).

السفينة قدم ديوكاليون وزوجته ضحية لزيفس الأب، وتوجها ليركعا أمام ضريح للإلاهة ثيميس، قرب نهر سيفيسوس. تضرعاً هناك للإلاهة بإعادة الحياة من جديد. فأرسل لهما زيفس هيرمس ليؤكد لهما استجابته لطلباتهما. ثم ظهرت ثيميس بنفسها وقالت لهما: «كفّنا رأسيكما، وارميا عظام أمكما خلفكما!» ولما كان ديوكاليون وبيرها من أمّين مختلفتين، وليستا على قيد الحياة، دخل في روعهما أن ثيميس التيتانة كانت تقصد أمهما الأرض، وعظامها هي الحجارة التي يمكن العثور عليها عند شاطىء النهر. فانحنيا بعد أن كفّنا رأسيهما، التقطا الحجارة، ورمياها من خلف كتفيهما. فكانت هذه الحجارة التي يرميها ديوكاليون تستحيل إلى رجال، والتي كانت ترميها بيرها تستحيل إلى نساء. وبذلك تم استعادة خلق البشرية، ومنذئذ كانت العلاقة بين (الناس) «laos»، و (الحجارة) «laas» في العديد من اللغات.

وكان ديوكاليون أخا اريادنه الكريتية، وأبا أورستيوس الملك الذي غرس عوداً عثر عليه في قارعة الطريق بعد أن بعثرته كلبة بيضاء، فنما شجرة كرْم. ثم استضاف أحد أبنائه الآخرين، دايونيسوس، فكان أول من مزج الخمرة بالماء. بيد أن أكبر وأشهر أبنائه هو هيللن[51] Hellen أبو اليونانيين قاطبة.

ويقول روبرت غريفز أن أسطورة طوفان ديوكاليون نقلها الهيلاديون من آسيا، وتذكرنا بأسطورة نوح التوراتية. وعشتار البالية تقابلها في الأسطورة الاغريقية بيرها، وهي الإلاهة الأم للفلستينيين الذين كانوا يدعون Puresati.

وفي أسطورة ديوكاليون هذه تعيد الإلاهة ثيمس Themis (أي النظام) تجديد المجتمع البشري؛ وربما فعلت عشتار الخالقة، هي الأخرى، شيئاً كهذا في أقدم نص لملحمة جلجامش. وكان هيللن بن ديوكاليون الجد المزعوم لكل اليونانيين، و (ديوكاليون) يعني «بائع الخمرة الجديدة»، من deuco-halieus؛ الذي يذكرنا بنوح، صانع الخمرة. وكان هيللن أخا أريانده Ariande الكريتية التي تزوجت دايونيسوس إله الخمرة. ودايونيسوس، هو الآخر، أبحر في سفينة هلالية الشكل مليئة بالحيوانات، من بينها أسد وحية. وكانت زوجة ديوكاليون تدعى بيرها التي يعني اسمها (أحمر لماع) كالخمر.

ومع أن قوس قزح كبشير لتوقف الطوفان، لا يرد ذكره في أسطورتي الطوفان الإغريقية والرافدانية، إلا أن له حضوراً في الفولكلور الأوروبي

---

(51) لاحظ الفرق بين هيللن المذكر، وهيلن الانثى.

والآسيوي. أما الاعتداء الجنسي فيعتبر حقاً مقصوراً على الذكور في الشرق الأوسط؛ مقابل الاستسلام التام عند المرأة. وقد سحبت التفاسير المدراشية هذه الظاهرة على الحيوانات أيضاً. والاعتقاد بأن طعام النعّام يتألف من كسر الزجاج فقط، بدلاً من الحبوب، يتكرر أكثر من مرة في الأدب المدراشي.

وكانت الغربان مكروهة ومحبوبة عند العبريين على حد سواء. في سفر أيوب (٤١:٢٨) والمزامير (٩:١٤٧) نجدها موضع عطف الرب. لكنها في سفر التثنية (١٤:١٤) تصنف مع الطيور النجسة؛ وفي سفر الأمثال (١٧:٣٠) تقوّر الغربان عيون الموتى الذين لا يطيعون والديهم. ومع هذا، ففي سفر الملوك الأول (٤:١٧ ــ ٦) أطعمت الغربان إيليا رغم اللعنة التي حلت بمناقيرها؛ وفي نشيد الإنشاد (١١:٥) وصف شعر سليمان بأنه حالك كالغراب. ومن المحتمل أن الغراب، وليس حاماً، استحال لونه إلى السواد عقاباً له، في نص أسبق؛ ذلك أن سلالة حام هم الكنعانيون [في التوراة]، وهؤلاء ليسوا زنوجاً. وفي الأسطورة الإغريقية تحول لون الغراب من البياض إلى السواد إما بإرادة أثينا (أي عناة ــ عشتار) لأنه عاد إليها بأخبار سيئة عن موت كاهناتها، أو أبولو (المقابل لأيا السومري) لأنه لم يقوّر عيني خصمه إيسخس Ischis.

على هامش النص

تعني كلمة (نوح) بالعبرية: (راحة، استراحة)، وتقابلها بالأوغاريتية الكنعانية (ن و خ)، وتعني (يستريح) أيضاً، كما أن كلمة (أناخو) الأكدية تعني: يتعب، يكدح، يجهد، يغضب، يغني، يئن. والكلمة موجودة في السريانية أيضاً. وأناخ الجمل، بالعربية: ابركه. والنوخة: الإقامة. قال المتنبي:

فإني أستريح بذا وهذا وأتعب بالإناخة والمقام

والمناخ (بضم الميم): مبرك الإبل: ومنها جاء المعنى الآخر المعروف اليوم، أي ما يدل على حالة الطقس. ويبدو أن اسم (نوح) مشتق من معنى (الاستراحة) ليتفق مع سياق قصة الطوفان.

على أن اقدم أساطير الطوفان جاء من سومر (بلاد الرافدين). وفي الأسطورة السومرية أن زيو سودرا، الذي يقابله نوح التوراتي، سمع صوتاً يقول له: «إننا مرسلون طوفاناً من المطر ليقضي على البشر. ذلك حكم وقضاء من مجمع الآلهة». ثم:

هبت العاصفة كلها دفعة واحدة

ومعها انداحت سيول الطوفان فوق [وجه الأرض]
ولسبعة أيام وسبع ليالٍ
غمرت سيول الأمطار وجه الأرض
ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة
ثم ظهر أوتو [إله الشمس] ناشراً ضوءه في السماء على الأرض
فتح زيو سودرا كوّة من المركب الكبير
تاركاً أشعة البطل تدخل منه
زيو سودرا الملك
خرّ ساجداً أمام أوتو
ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم(52)...

وعلى غرارها يدور موضوع الأساطير الأخرى (البابلية، والتوراتية، واليونانية... إلخ). وتضرب كلها على وتر واحد، هو معاقبة البشر بالطوفان الشامل لأنهم عاثوا في الأرض فساداً. ولأجل إتاحة الفرصة لأجيال جديدة، يستثنى أحد الأتقياء الصالحين من البشر مع زوجته، أو عدد قليل من أقاربه، وعدد من الحيوانات، والبذور، لمواصلة الحياة على الأرض.

وهناك أكثر من نص بابلي عن الطوفان، أوضحها وأطولها ما جاء في ملحمة جلجامش. وهناك نص أقدم منه عثر عليه في خرائب مدينة نيبور بالعراق، ويرقى إلى الدولة البابلية القديمة، لكنه وصلنا ناقصاً وكثير التلف. جاء فيه:

سأقوم بإفلات [المياه]
... سوف يأخذ الناس أجمعين
... قبل أن يحل الطوفان
... سأسبب الخراب والدمار والفناء
... قم ببناء السفينة
... سيكون هيكلها
سفينة عظيمة، وسيكون اسمها حافظة الحياة
... قم بتغطيتها بغطاء متين
وإلى السفينة التي صنعت
اجلب وحوش البر وطيور السماء (المصدر السابق، ص ١٣٥).

وطوفان ملحمة اتراحيسس أكثر وضوحاً رغم أن ألواحه التي وصلتنا

(52) مغامرة العقل الأولى، ص ١٢٦ ــ ١٢٧.

لم تكن سالمة تماماً من التلف. جاء فيها أن الإله انليل يرسل أول الأمر أوبئة إلى الأرض ليقلل من عدد البشر الذين ازداد تكاثرهم وأخذ ضجيجهم يسبب إزعاجاً له. وبعد ذلك يغمر الأرض بالطوفان. والبطل هو اتراحيسس الذي يبني السفينة حسب تعليمات الإله:

إحمل إليها الحبوب والمتاع والمواشي،
زوجك وعائلتك وأقرباءك وأصحاب الحرف...

وفي هذا النص يتكرر الطوفان أكثر من مرة، لأن الجيل الجديد من البشر الجديد يعود إلى إقلاق راحة الإله انليل بضجيجه.

أما قصة الطوفان في ملحمة جلجامش فقد وصلتنا واضحة وأكثر تفصيلاً. وبطلها هو أوتنا بشتم، كما مر بنا آنفاً، أي (الذي فهم الحياة)، وهو الذي يروي لجلجامش قصة الطوفان كاملة، وقد وقفنا قبل قليل على موجز لهذه القصة، التي كانت المرجع الأساسي لطوفان التوراة، على مـا يبدو. فهنـاك متوازيات كثيرة بينها وبين النص التوراتي، تبلغ في بعض الأحيان حد التطابق. من بين نقاط الالتقاء: الغرض من الطوفان، وهو انتقام الآلهة من البشر لأنهم أفسدوا في الأرض؛ وإغراق الجيل السابق من البشر قصاصاً لهم، باستثناء رجل صالح هو وعائلته وعدد من الحيوانات والنباتات والمقتنيات، بما يصلح نواةً للبدء بحياة جديدة؛ وبناء السفينة، ثم لجوء هذه المجموعة المستثناة إليها؛ وإرسال الطيور لاستطلاع خبر الأرض بعد انحسار الطوفان: في النص البابلي يطلق حمامة، وسنونو، وغراب، أما النص التوراتي فيطلق فيه حمامة، وغراب.

وفيما بعد صارت الحمامة وغصن الزيتون في منقارها رمزاً للخير والسلام. وفي الموروث الشعبي ــ في العراق ــ تعتبر الحمامة، على عكس الغراب، بشارة خير أيضاً، فحين يعود من يُرسَل لاستطلاع خبر أو أمر ما، يُسأل على هذا النحو: «حمامة؟ غراب؟»، أي: خير؟ أم شر؟ ولا بد أن هذه النظرة للحمامة والغراب موروثة عن قصة الطوفان. وفي الأمثال العربية: «أبطأ من غراب نوح».

على أن الغراب كان في الأساطير اليونانية طائراً نبوئياً، يُزعم أنه كان يسكن روح الملك المقدس بعد التضحية به.

ولا بد أن الحمامة كانت طوطماً عند بعض القبائل السامية؛ وكذلك الغراب. ويمكن استنتاج ذلك من اسم القبيلة العربية بني حمامة، وذلك على غرار قبيلة أسد وكلب وظبيان وأوس وثور وعقاب وقضاعة وغيرها، مما يعني أن

هذه الحيوانات ربما كانت طوطماً للقبائل التي تسمت باسمها. وفي دراسة للمؤرخ الهولندي جي فلكن Wilken عن المجتمع الأمومي عند العرب، نقلها إلى العربية بندلي جوزي، جاء ما يلي: «إن الحمامة كانت تُعد إلاهة الكعبة، ومثلها الظبي. وبهما تسمت بنو حمام وبنو ظبي...»[53]. وجاء في الهامش أيضاً: «من الشواهد الباقية على عبادة الشعوب السامية سابقاً للحمامة أن السوريين لا يأكلون حتى اليوم لحم الحمامة». إلا أن المترجم بندلي جوزي يعقب قائلاً: «السوريون على ما نعلم ليس فقط يأكلون لحم الحمام بل يفضلونه على غيره من لحوم طيور البرية، إنما يحرمون أكل نوع من الحمام يعرف عندهم بالحمام الرمادي (سكني) اعتقاداً منهم أن الروح القدس هبط على السيد المسيح يوم عماده بصورة هذا الحمام»[54]. لكن العراقيين لا يأكلون كافة أصناف الحمام، لا لأنه مصنف بين الطيور المحظور أو المكروه أكلها، بل لأن له قدسية ما، ولعل ذلك يعود إلى عرف قديم جداً. ومن الدلالة على ما لبعض الطيور من حضور في الميثولوجيا العربية، المثل العربي القائل «أكذب من فاختة».

وهناك طوفان آخر أغرق جزيرة أو قارة (؟) اطلنطا المزعومة، روى خبره أفلاطون بمزيد من التفصيل في كتابيه (طيماوس) و (كريتياس)، نقلاً عن جده الأبعد صولون (ولد في 639 ق.م.) الذي نقل خبر كارثة اطلنطا المزعومة عن كهنة مصر يوم كان في زيارتها.

كان بروميثيوس، خالق البشرية، على نحو ما تقول الأسطورة اليونانية، ابن التيتان (الجبار) يوريميدون، أو ابن يافت من الحورية كليمينة؛ وكان إخوته اطلس، وأبيميثيوس، ومينوتيوس. ويقول أفلاطون: كان أطلس عالماً بأعماق البحر؛ ومينوتيوس. ويقول أفلاطون: كان أطلس عالماً بأعماق البحر؛ وكان يحكم مملكة ذات شاطىء شديد الانحدار، أكبر من إفريقيا وآسيا مجتمعتين [يقصد ليبيا وآسيا الصغرى]. وتقع هذه البلاد التي تدعى اطلنطا Atlantis وراء أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، وكانت تفصلها سلسلة من الجزر عن قارة أبعد ليست متصلة بقارتنا. وقد شق أطلس فيها القنوات والترع. وكان الماء يأتيها من التلال المحيطة بها من جميع الجهات، عدا ثغرة تفضي إلى البحر. وشيد أهلها القصور، والحمامات، والملاعب، والمرافىء، والمعابد؛ وشنوا حروباً إلى

---

(53) بندلي جوزي: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، ص ١٣٠. دار الطليعة ــ بيروت، ١٩٧٧.

(54) المصدر السابق، ص ١٣٠.

الغرب منهم، حتى القارة الأخرى، وإلى الشرق أيضاً حتى مصر وإيطاليا. ويقول المصريون إن أطلس كان ابن بوسيدون. وكان لبوسيدون خمسة أزواج من الأشقاء التوائم أقسموا اليمين بالولاء لأخيهم بدم ثور نحروه ضحية. وقد كانوا في بادىء الأمر رجالاً خيرين، إلا أن الجشع والغلظة ما لبثا أن استبدا بهم، فقضى عليهم الأثينيون، بمشورة زيفس، بعد أن عبروا المحيط بزوارق، فُرادىٰ. وفي الوقت نفسه أغرقهم الله، هم الآخرون، بطوفان غمر كل أطلنطا بليلة ونهار.

ويروي هوميروس أن أطلس ومينوتيوس تمكنا من النجاة، والتحقا بكرونوس والتياتين (الجبابرة) في حربهم التي هُزموا فيها مع آلهة الأولب، حيث أحرق زيفس مينوتيوس بصاعقة، وأرسله إلى أعماق تارتاروس، إلا أنه أبقى على حياة أطلس على أن يرفع السماء على كاهليه إلى أبد الآبدين.

ويقول روبرت غريفز في كتابه (الميثولوجيا الإغريقية): كان أطلس عند كتّاب الأساطير المتأخرين مجرد جبل أطلس في شمال غربي إفريقيا، تسند قمته قبة السماء. بيد أن الأعمدة التي تستند إليها السماء، حسب رأي هوميروس، كانت أبعد من ذلك، في المحيط الاطلنطي الذي سماه هيرودوتس فيما بعد باسمه (أطلس) تكريماً له.

أما الأسطورة المصرية عن اطلنطا المفقودة ــ وهي متداولة أيضاً في القصص الشعبية على طول الساحل الأطلسي، من جبل طارق حتى جزر الهبريديز، وعند قبائل يوروبا في إفريقيا الغربية ــ فلا ينبغي أن ننظر إليها كمجرد شيء من نسج الخيال، ويبدو أنها ترقى إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وأما رواية أفلاطون التي يزعم فيها أن صولون تلقى العلم من أصدقائه الكهنة الليبيين في سايس بالدلتا، فيظهر أنها عُززت بمزيد من الأخبار: كيف أن الكريتيين، الذين امتد سلطانهم حتى مصر وإيطاليا، تمت هزيمتهم على يد الهلينيين بقيادة أثينا، وربما أيضاً كيف غمر الماء المرافىء التي بناها أبناء كيفتيو («أقوام البحر»، أي الكريتيون وحلفاؤهم) على جزيرة فاروس على إثر هزة بحرية، وقد تم اكتشافها مؤخراً بواسطة الغواصين. وكانت هذه المنشآت عبارة عن أحواض خارجية وداخلية، تبلغ مساحتها زهاء خمسين ومئتي فدان. ثم إن الربط بين اطلنطا وفاروس يفسر الأقوال التي تزعم أن أطلس بن أيابيتوس ــ يافث في سفر التكوين، وهو عند العبريين ابن نوح ومؤسس اتحاد أقوام البحر ــ أو ابن بوسيدون، حامي البحارة الإغريق. ونَعْتُ أفلاطون لأطلس بأنه عالم بأعماق البحر ينطبق على الكريتيين، ولا أحد غيرهم. فهم، مثل أطلس، عارفون بأسرار البحر.

إن قصة اطلنطا وموقعها كانت وما تزال مثار جدل عريض، رغم أن آراء أفلاطون تركت بصماتها على المزاعم الشعبية التي تؤمن بأنها في المحيط الأطلسي. وحتى الوقت الراهن، كان يُظن أن السلسلة الأطلسية (الممتدة من ايسلندة إلى جزر الآزور والمنعطفة باتجاه الجنوب الشرقي إلى جزيرة اسنسيون وتريستان داكونها) من بقاياها، بيد أن المسوح الأوقيانوغرافية أظهرت أن السلسلة بكاملها باستثناء هذه الرؤوس كانت تحت الماء منذ ستين مليون سنة على الأقل. غير أن هناك جزيرة كبيرة مأهولة في الأطلسي وصلتنا أنباء اختفائها: الهضبة التي يطلق عليها اليوم ضفة دوجر. على أن العظام والأشياء الأخرى التي تم العثور عليها بواسطة شباك الصيد أظهرت أن هذه الكارثة وقعت في العصر الحجري القديم؛ واحتمال وصول أخبار اختفائها إلى أوروبا عن طريق الناجين الذين دفعتهم المياه أضعف بكثير من تذكّر كارثة أخرى انتقل خبرها إلى شاطىء الاطلنطي من أبناء العصر الحجري الحديث القادمين من ليبيا الأكثر تحضراً منهم بكثير.

كان هؤلاء فلاحين، وقد وصلوا بريطانيا وشيك انتهاء الألف الثالث قبل الميلاد؛ إلا أن هجرتهم الواسعة إلى الغرب عن طريق تونس ومراكش إلى جنوب إسبانيا ثم شمالاً إلى البرتغال وما تلاها، لا تجد تفسيراً لها. أما إذا كان ما رواه الكهنة المصريون لصولون صحيحاً من أن الكارثة وقعت في الغرب البعيد، وأن الناجين انتقلوا إلى ما وراء أعمدة هرقل (جبل طارق)، فمن الممكن تحديد اطلنطا.

إنها بلد الاطلنطيين الذي ذكره ديودوروس الصقليّ، وهو شعب متحضر جداً كانت منازله إلى الغرب من بحيرة تريتونس. ويروى أن الأمازونيات الليبيات، أي القبائل الخاضعة للنظام الأمومي، حاصرن إحدى مدنهم، (سيرنة). ويصعب تحديد زمن أسطورة ديودوروس في ضوء الأبحاث الاركيولوجية، إلا أنها حسب روايته كانت سابقة للغزو الليبي لجزر إيجة وتراقيا، وهو حدث لا يمكن أن يقع بعد الألف الثالث ق.م. وإذا كان الأمر كذلك، فإن اطلنطا تقع غربي ليبيا. أما الطوفان الذي كان وراء اختفائها فلعله كان نتيجة تساقط أمطار غزيرة كالذي كان وراء طوفان ما بين النهرين والطوفان الأوجيجي، أو مد عالٍ رافقته ريح شمالية غربية قوية، كما حدث في هولندة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر يوم تكوّن بحر زويدر، أو بسبب انخفاض الشاطىء تحت سطح الماء. ولعل اطلنطا غرقت عند تكوّن بحيرة تريتونيس[55]

(55) استناداً إلى البيلاسغيين ولدت الإلاهة أثينا قرب بحيرة تريتونس في ليبيا، حيث عثرت عليها الحوريات الليبيات الثلاث اللواتي كن يرتدين جلود الماعز.

التي، على ما يظهر، كانت تغطي بضعة آلاف ميل مربع من الأراضي الليبية المنخفضة؛ وربما امتدت شمالاً إلى خليج (سرْت) الغربـي الذي كان الجغرافي سكولاكس يسميه «خليج تريتونس»، حيث تشير الشعاب الصخرية الخطرة إلى وجود أرخبيل من الجزر لم تبق منه سوى جزيرتي جربة وكيركناهاس. أما الجزيرة المتخلفة في وسط البحيرة التي ذكرها ديودوروس التي كانت ما تزال قائمة في زمنه، فربما كانت (شامبا بو روبا) في الصحراء اليوم(56).

بيد أن هناك من يربط بين الانفجار البركاني الهائل الذي حدث في جزيرة سانتورين في بحر إيجه قبل ما يقرب من 3400 عام أي بين 1500-1450 ق.م.، وبين أسطورة اختفاء اطلنطا، بالاستناد إلى أقرب شهود محتملين لمثل هذا الحدث، وهم اليونانيون والمصريون، والعبريون (الذين كانوا في مصر). فقد ألـمَّ بأرض فرعون (أي مصر) طاعون كان من تدبير يهوه، على نحو ما جاء في سفر الخروج، انقلب فيه النهار إلى ليل، وخيمت على الأرض سحابة من دخان، وأمطرت السماء دماً. وهذا ما يمكن أن يحدث عندما تصل سحب الرماد البركاني إلى مصر. وقد اكتشفت في جزيرة سانتورين آثار هذا البركان المدمر، من بينها طبقة من حجر الخفاف أحمر براق.

وعلى ذكر الطوفان وقارة اطلنطا التي يغلب الظن أنها من نسج مخيلة أفلاطون فقد أثيرت في أوائل القرن السادس عشر من عصرنا الحالي، بعد اكتشاف أميركا، قضية الهنود الحمر: هل هم من صلب آدم وحواء أم لا؟ ثم حسمت المسألة بعد أن قرر التاج الإسباني اعتبارهم «بشراً»، ومع هذا كان لا بد من الوقوف على تفسير لوصولهم إلى العالم الجديد، فلم يجدوا يومذاك سوى قصة أفلاطون «الوثني الطيب» عن هذه القارة العجيبة «اطلنطا».

ومن بين من ناقشوا موضوع الطوفان، من منطلق علمي، أليكساندر كوندراتوف. يؤكد كوندراتوف أن قصص الطوفان ليست مقصورة على شعب من الشعوب. فهي متداولة بين سكان الجزر الشرقية في أوقيانـوسيا (المحيـط الهادي)، واليابانيين، والصينيين، والبورميين، والهنود، والهنود الحمر، فضلاً عن شعوب البحر المتوسط. وهناك طوفانات موضعية تحصل لسبب أو آخر، نتيجة: ذوبان مفاجىء وسريع للثلوج، أو أعاصير مصحوبة بالمطر، أو اجتياح موجي ناجم عن اضطرابات أو اهتزازات في قاع البحر، أو زلازل الأرض

(56) R. Graves, Greek Myths, 1, pp. 143-148.

والبحر، أو انفجارات بركانية، أو ما إلى ذلك. ثم هناك الارتفاع العام في منسوب المحيطات الذي يحصل بعد المراحل الجليدية التي تمر بها الكرة الأرضية. وهذا الأخير يتخذ طابعاً شاملاً. وفي حدود عمر الإنسان المتحضر لم تحصل كارثة ذات بُعد مدمر على صعيد كوني، وإلا لما بقي شهودها على قيد الحياة ليرووا خبرها. كما أن من شأن مثل هذه الكارثة أن تقضي على كافة الكائنات الأرضية، ولا ينجو منها سوى بعض الكائنات التي تحيا في أعماق المحيطات. فلماذا إذن، يقول كوندراتوف، تتواتر حكايات الشعوب عن كوارث فيضانية مدمرة على صعيد كوني، كما تزعم؟ الإجابة على ذلك يمكن إيضاحها في ضوء الحقيقة الآتية: إن أفق العالم المحيط بأي شعب من الشعوب القديمة، محدود بالرقعة التي يوجد فيها أو أوسع منها إلى هذا الحد أو ذاك. فبالقياس إلى ساكن جزيرة، فإن العالم يقتصر على جزيرته فقط أو مجموعة من الجزر المحيطة به. وبالنسبة لسكان وادٍ من الوديان، لا يتجاوز العالم حدود الجبال المحيطة به. وهكذا، فإن حدوث كارثة موضعية، سيترك انطباعاً عند من تطالهم، بأن أركان العالم تتهاوى على أبنائه، لأنهم لا يعرفون شيئاً عن الأصقاع الأخرى.

وحسب رأي المناخيين (الاختصاصيين بعلم المناخ)، والأوقيانوغرافيين (العلماء بالمحيطات)، مرت أرضنا قبل 25 ألف سنة بمرحلة جليدية، غطى الجليد مساحات واسعة من سطحها مثل الأنهار الجليدية التي توجد الآن في غرينلاند والقارة القطبية الجنوبية. وبسبب هذه الكميات الهائلة من المياه المتجمدة، انخفضت مناسيب المياه في المحيطات، واتصلت القارات مع بعضها بجسور أرضية، ومن الأدلة على ذلك انتشار الحيوانات والنباتات في أنحاء المعمورة كافة. كما أن هذه الجسور الأرضية كانت الواسطة التي تم عبرها انتقال الشعوب البدائية إلى العالم الجديد (الأميركتين)، واستراليا، وطسمانيا، وجزر أرخبيل أندونيسيا. ثم ما لبثت هذه الجسور الأرضية أن انغمرت بمياه المحيطات بعد أن ارتفعت مناسيبها بالتدريج، بنسبة متر في القرن. ومن المعتقد أن هذه الظاهرة تمت قبل 17-20 الف سنة. ونحن نشهد الآن دفئاً في أعقاب المرحلة الجليدية الأخيرة. ويعتقد أن قمة الدفء في هذه المرحلة حدثت قبل ستة آلاف سنة، في ما يسمى بالدفء الفلاندري (نسبةً إلى مقاطعة الفلاندر البلجيكية). فقد لمست آثارها في البدء في هذه المقاطعة، ثم اكتشفت آثار أخرى لهذه الظاهرة في ساحل استراليا، وشمال البحر الأسود، وعلى سواحل البحر المتوسط. وقد رافق ذوبان الكتل الجليدية، زلازل، واجتياح موجي، وكوارث أخرى. ومن ثم، فإن الأرض لم تتعرض إلى طوفان «بطيء» اعتيادي يستغرق آلاف السنين، بل إلى طوفان سريع. فهل كان الذوبان الفلاندري هو الطوفان

المقصود؟ هكذا يتساءل كوندراتوف. ويعقب قائلاً: وبالمناسبة، إن أساطير شعوب استراليا الأصليين تتحدث عن أصل عدد من الخلجان والمضايق، ظهر في ضوء الكشف الجيولوجي أنها تكونت قبل ستة آلاف سنة. على أن العلم لم يفسر حتى الآن لماذا تحدث مثل هذه الظواهر غير الاعتيادية من الدفء. بعضهم يعزو ذلك إلى زيادة في الإشعاع الشمسي، التي قد يطول أمدها ألف سنة، وهي غير الدورة المعروفة التي أمدها إحدى عشرة سنة.

نــــوح والخمـــرة

كان نوح أول من غرس الكرْم، وصنع الخمر من عنبها. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه. ولما دخل حام أبو كنعان خيمة أبيه، أبصر عورة أبيه ثم أخبر أخويه بعد أن خرج. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما، ومشيا إلى الوراء شطر الخيمة، وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما أفاق نوح من سكره علم ما فعل به ابنه الصغير (كذا). فقال: «ملعون كنعان. عبدالعبيد يكون لإخوته. ومبارك إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبداً لهم» (سفر التكوين ٩:٢٠ ــ ٢٧).

ويضع البعض رتوشاً لهذه القصة، زاعمين أن نوحاً كان قد حمل معه بذرة الكرْم في السفينة ــ أو نبتة كرْم من جنة عدن ــ غرسها في جبل لوبار، من جبال أرارات. وأثمر كرمه عنباً في نفس اليوم، وجنى منه قبل حلول المساء، وعصره، وصنع منه خمراً، وشرب منه بلا حساب.

ثم دخل سامائيل، الملاك الساقط، على نوح في الصباح، وقال له: «ماذا تفعل؟»

ــ زرعت كرماً.

ــ وما هو هذا الكرم؟

ــ ثمره حلو الطعم، سواء تناولته طازجاً أم مجففاً، وتصنع منه خمرة تبهج القلب.

قال سامائيل: هلم إذن نتقاسم هذا الكرم؛ ولكن لا تتعد على حصتي، وإلا نالك مني سوء.

حتى إذا وافق نوح، نحر سامائيل حَمَلًا ودفنه تحت كرمة؛ ثم فعل الشيء نفسه مع أسد وخنزير وقرد، لكي يرتوي الكرم من دم هذه الحيوانات الأربعة. ومن هنا، فأن المرء يكون مسالماً كالحمل قبل أن يذوق الخمرة، لكنه بعد أن

يشرب القليل منها سيزعم أنه شجاع كالأسد؛ حتى إذا شرب مزيداً منها أصبح كالخنزير، ولوث ملابسه؛ ثم إذا شرب أكثر من ذلك أصبح كالقرد، يترنح على نحو مضحك، ويفقد اتزانه وعقله ويكفر بالله. وهذا ما فعله نوح.

ويزعم آخرون أن كنعان بن حام دخل خيمة جده نوح وهو على ما هو عليه من سكر وعري، وضفر حبلاً على شكل أنشوطة، ثم شده على أعضاء جده التناسلية، حتى أخصاه. وبعد ذلك دخل عليه حام، وأخبر ساماً ويافثاً، وهو يبتسم، بما رأى. ويزعم آخرون أن حاماً نفسه هو الذي أخصى نوحاً. فلعنه أبوه قائلاً: «الآن بات متعذراً عليّ إنجاب ابن رابع كنت أريده أن يقوم على خدمتك أنت وأخويك. فليكن كنعان، ابنك البكر، عبداً لهما. ولأنك حرمتني من ممارسة الفعل الشنيع في سواد الليل، سيولد أبناء كنعان سوداً دميمي الخلقة! وسيكون شعر أحفادك جعداً، وستكون عيونهم قانية، لأنك لويت عنقك لتتطلع إلى عريي؛ ولأن شفتيك ابتسمتا لمصيبتي، فستغلظ شفاه أحفادك؛ ولأنك لم ترعَ حرمة عريي، فسيكتب على أحفادك أن يعيشوا عراة، وستكون أعضاء الذكور منهم طويلة على نحو يثير الاشمئزاز!» وتصدق هذه المواصفات على الزنوج الذين أمرهم جدهم الأعلى كنعان بممارسة السرقة والزنا والاجتراء على الحقيقة.

بيد أن آخرين ينزهون حاماً من مثل هذه الجريمة، ويزعمون أن فقدان نوح لرجولته كان بسبب ضربة من مخلب الأسد عند رسوّ السفينة في أرارات، ليحرمه من ممارسة الجنس.

• • •

كتب الفصل الخاص بهذه الأسطورة في سفر التكوين بإهمال واضح. فلا جناح على حام، في عرف القضاء، إذا وقع بصره على عري أبيه؛ وما كان حرياً بنوح أن يلعن كنعان بن حام البريء، حتى لو كانت هذه الفعلة اللاإرادية خطيئة حام الوحيدة. ويبدو أن في العبارة الآتية: «فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير» نقصاً سدّه كتبة المدارش برواية الأخصاء.

إن الغرض من هذه السطور تبرير استعباد العبريين للكنعانيين. وفي أحد المقاطع المدراشية أضيفت اللواطة إلى خطايا حام. وفي سفر اللاويين يرد تعداد طويل للخطايا الجنسية الكنعانية؛ وفي سفر الملوك الأول (١٤:٢٤) إدانة لرعايا الملك رحُبعام لأنهم «فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام

بني إسرائيل». ويؤكد هذا الكتاب المدراشي على طهر العبرانيين أبناء سام، وعلى رضا الله عن أبناء يافث الذين حذوا حذوهم.

و (يافث) يقابل إيابيتوس Iapetus الإغريقي، أبا بروميثيوس من آسيا، وهو الجد الأعلى للجنس البشري السابق للطوفان. وكان إيابيتوس يُعبد في قيليقيا، الوطن الأول لأقوام البحر (أي الفلستينيين القادمين من البحر) الذين استوطنوا أرض كنعان، وتعلموا اللغة العبرية، وتزاوجوا مع العبريين، في ضوء ما تؤكده قصة شمشون ودليلة (شمشون العبري ودليلة الفلستينية). فإذا اعتبرنا (سام) ممثلاً للعبريين، و (يافث) ممثلاً، والحالة هذه، للفلستينيين، فإن أبناءهما اضطهدوا الكنعانيين ــ أبناء حام ــ واستعبدوهم. وفي ضوء هذه الحقيقة التأريخية يمكن تفسير لعنة نوح على حام. ولكي تكتسب الأسطورة «مصداقية»، فإن لفظة «حام» ينبغي أن يتفق معناها مع سياق القصة. ذلك أن هذه الكلمة ــ أي حام ــ مشتقة من لفظة (كيمي) Kemi[57] (أسود) وهو اسم كان يطلق على مصر. وأما القول بأن يخدم الزنوج أناساً أفتح منهم لوناً، فرأي استعير من مسيحيي القرون الوسطى، بعد حصول نقص كبير في اليد العاملة الرخيصة بسبب الطاعون، الأمر الذي شجع على إصدار مثل هذه الفتوى.

وترجع اسطورة سام وحام ويافث إلى الأسطورة الإغريقية عن الأخوة الخمسة كويوس، وهيبريون، وإيابيتوس، وكريوس، وكرونوس، وكيف أنهم تآمروا على أبيهم أورانوس، وقضى كرونوس على رجولة أبيه أورانوس وحل محله. واستناداً إلى مؤرخ الأساطير البيزنطي Tzetzes، فإن زيفس، هو الآخر، سلك مسلك كرونوس، مستعيناً ببوسيدون، وهاديس.

كما أن كوماربي Kumarbi ابن الإله الأعلى آنو Anu، في الأسطورة الحثية التي ترجع إلى أصل حوري، قطع هو الآخر أعضاء أبيه التناسلية، وعلى غرار ما نسب إلى حام، ابتهج وأغرق في الضحك، إلى أن لعنه أبوه آنو.

واستناداً إلى فيلو الجبيلي (الفينيقي) في روايته المقتبسة عن سانخونياثون أن الإله إيل أخصى أباه أورانوس. وقد أفزعت هذه الفكرة، التي تحوم حول تصرف الابن العاق، محرري سفر التكوين إلى حد أنهم رفضوا إخصاء حام لنوح مثلما رفض الإغريق إخصاء كرونوس، حتى العهد المسيحي؛ فقد أنكر افلاطون في (الجمهورية) و (يوثيفرو) إخصاء أورانوس.

---

(57) الاصح، خيمي Khemi، وهي نفس اللفظة التي اشتقت منها كلمة (الكيمياء).

ومع أن المخصيين لم يعتبروا من جماعة الرب (سفر التثنية 23: 1)، فقد كان من عادة الإسرائيليين الأوائل، في حروبهم، إخصاء أعدائهم من غير المختونين، مثلما كانت هذه العادة متبعة في الحروب المصرية بين القرن الرابع عشر والقرن الثاني عشر ق.م. ضد أقوام البحر. واستناداً إلى سفر صموئيل الأول (18: 25 ــ 27)، فإن داود دفع للملك شاؤول مئتي قلفة فلستينية مهراً أو سياقاً للأميرة ميكال.

وجاء في سفر التكوين (10: 2) أن أبناء يافث هم: جومر، وماجوج، وماداي، وياوان، وماشك، وتيراس[58]. ويُقرن جومر الآن بالسيمريين في الأناضول؛ وماجوج بمملكة جوج الأرمنية (حزقيال، 38وما تلاه) الذي يرد ذكره في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر ق.م. وماداي بميديا؛ وياوان بأيونيا ــ الذي ورد ذكر أبنائه في سفر التكوين (10: 5)[59]، وهم اليشة (المقابل لأبناء ألاشيا القبارصة)؛ وكتّيم، وهم الآخرون قبارصة؛ وترشيش، وهم الترتيشيون من جنوب إسبانيا؛ ودودانيم، وهو تحريف لرودانيم، وهم سكان جزيرة رودس. أما توبال فيذكرنا بتيباريني من الأناضول؛ وأما ماشك، فهم جيرانهم الموشيانيون؛ وأما تيراس، فهم قوم جاء ذكرهم في وثيقة مصرية من القرن الثالث عشر ق.م. تحت اسم تورشا، وهم من اتحاد أقوام البحر، ولعلهم القراصنة التيرسينيون الذين استولى بعضهم على جزيرتي ليمنوس وإمبروس في بحر إيجة حتى القرن السادس ق.م. وهاجر آخرون منهم إلى إيطاليا وأصبحوا الأتروسكيين.

على هامش النص

إن الديانة اليهودية رائدة، ولا شك، بين الديانات التوحيدية، وإن استقت بعض تعاليمها من ديانات وحضارات سابقة ومعاصرة لها. وتعاليم التوراة الأخلاقية لها صداها البعيد في الضمير الإنساني حتى يومنا هذا. كما أن في التوراة صفحات أدبية متألقة، كسفر الجامعة، وسفر أيوب، ونشيد الانشاد، وغيرها. على أن هذا لا يمنعنا من أن نقر بأن شرائعها وتعاليمها إنما جاءت انعكاساً لواقع المرحلة التي ظهرت فيها، وهي طور العصر البرونزي الذي تميز بالانتقال من المجتمع الأمومي إلى المجتمع الأبوي، وكان فيه العبيد يشكلون

---

(58) سقط اسم توبال، ربما سهواً أو نتيجة خطأ مطبعي.

(59) الأصح، (10: 4)، أو هكذا جاء في النسخة العربية.

القـوى الإنتاجية الرئيسية. ومن هنا جاء تكريس فكرة العبودية والعرقية (شعب الله المختار). فما إدانة أجناس وشعوب بأكملها، كالحاميين والكنعانيين الذين نسبوا خطأ إلى هذا الجنس ــ الحامي، مع اعتراضنا على التسمية ــ إلا تعبير عن هذه النزعة العرقية وتبرير لها. وهذا يتنافى من حيث الجوهر مع التعاليم الدينية والإنسانية التي نفهمها اليوم، إذْ لا فرق بين جنس وآخر، ولا فضل لجنس على آخر... ولا نجدنا بحاجة إلى مزيد من التعليق، فقد كفانا المؤلفان مؤونة ذلك.

ومع أن التعاليم اليهودية تتشدد في شرب الخمر، إلا أن حالة السكر التي شوهد فيها نوح، وهو الذي اصطفاه الرب لينجو من الطوفان مع عائلته من دون سائر العباد، لم تكن صورة مشرّفة له، وتتناقض مع طهرانية رجال يفترض أنهم نموذجيون، ولا تتفق واتهام العبريين للكنعانيين بممارسة الإباحية الجنسية والرقص المقدس والعربدة. لكن هذا التساهل إزاء سكر نوح قد يكون متأتياً، أيضاً، عن تأثرهم بمظاهر الحياة في المجتمع الكنعاني الزراعي الذي تعتبر فيه لخمرة طعاماً قبل كل شيء، لأنها مادة غذائية مهمة تحتفظ بقيمتها الغذائية، فضلاً عن مزاياها الأخرى، إذا عتقت. وقد كان شرب الخمرة مألوفاً جداً في بلاد ما بين النهرين وأرض كنعان واليونان، إلى حد أنهم كانوا يقرون بالسكر كظاهرة ملازمة للشرب. فقد طلب دانيال الكنعاني إلى الله أن يرزقه ولداً ليكون وريثاً له وسنداً في شيخوخته «ويأخذ بيده إذا سكر، ويدعوه [إلى بيته] إذا ارتوى خمراً... ويغسل ثيابه يوم تتلوث». وكانت الخمرة طعام الآلهة عند الفينيقيين، تقدم مع الخبز، على مائدة من ذهب. وكانت طعام الشعب أيضاً، مع الخبز، رغم أن السكر مذموم أخلاقياً. ففي أثناء المجاعات كان الشعب يطالب بالخبز والخمر معاً.

وربما كان الماء، وهو السلعة الثمينة في المجتمعات الزراعية، يقدم كتقدمة في طقوس العبادة، وبعد ذلك استعملت سوائل أخرى، كالحليب والعسل، ثم النبيذ فيما بعد، وفي بعض الأديان، البيرة. واستعمال الكحول كتقدمة وشراب يرتبط بمزاياه وتأثيره على الجهاز العصبـي لشاربيه. وكان الكهنة يتعاطون شربه لأنه يفك عقد اللسان ويحقق حالة من النشوة والتخيل تورث انطباعاً بأنها ناجمة عن تأثير قوى غيبية أو آلهة. وكان الخمر الأحمر يعتبر بمثابة دم الحياة. ويعود تأريخ صناعة الخمرة إلى مرحلة ما قبل التأريخ تقريباً، لأن التخمير ظاهرة طبيعية تنجم عن أية مادة سكرية، كالعنب، وكافة أصناف الفاكهة، والتوت، والعليق، والعسل، إذا تركت في محيط دافىء. وربما اكتشف التخمير عرضاً في

طور جمع القوت السابق لمرحلة الزراعة. وأقدم قانون وضع حول شرب الكحول وأماكن الشرب جاء في شريعة حمورابـي في حدود 1770ق. م. كما كان الصيادلة السومريون يصفون البيرة (في حدود 2100ق. م.) علاجاً لبعض الأمراض. وفي برديه مصرية (حوالي 1500 ق.م.) ذكرت وصفة تشتمل على البيرة والنبيذ. وفي ألواح أوغاريت الكنعانية يرد ذكر مسهب لهذا السائل المسكر في طقوسهم وعباداتهم وطعامهم. وفي كتاب العهد القديم ترد إشارة إلى تألق عيون أتباع يهودا بفعل الخمرة التي تبهج قلب الإنسان(60).

وكان البابليون يخمرون زهاء ستة عشر صنفاً مختلفاً من البيرة، بما في ذلك البيرة السوداء، التي كانت شراباً مفضلاً لديهم. وكان الرجال يحتسون الخمرة في الحانات، في غالب الأحيان، وتهيمن على أجواء هذه الحانات حياة اللهو والطرب، ويشرب الرجال حتى السكر التام «فتنتفخ بطونهم ويترنحون»(61).

وكان الكرْم يزرع في الشرق الأدنى منذ 4000 سنة قبل الميلاد، وربما قبل ذلك. وفي المدونات المصرية التي ترقى إلى 2500 ق.م. ثمة ذكر لصناعة الخمر من العنب. وكان للإغريق إله وطقوس للخمر؛ وهم الذين نقلوا الكرم إلى إسبانيا، وبعدهم نقل الرومان العنب إلى منطقة الراين والدانوب. ومما يجدر ذكره أن اللفظة الدالة على الخمر (بالعربية، الوين نوع من الزبيب) مشتركة في عدد كبير من اللغات، بما في ذلك اللغات السامية الحامية، واللغات الهندية الأوروبية، وغيرها.

ومن الطريف، بهذا الصدد، ما رواه السير جيمس فريزر في كتابه الشهير (الغصن الذهبي)، نقلاً عن روبرت سميث في كتابه (ديانة الساميين) حول ما سماه بام العنقود، أنه في عام 1203، أو 1204ميلادية، ألَمَّ بأهل الموصل في العراق مرض مورد للهلاك. قيل إن إحدى نساء الجن تدعى (أم عنقود) فقدت ابنها، وأن من لا يحزن عليه سيُلَمّ به هذا الداء الغريب ويهلكه. ولدرء هذا الوباء راح الناس، رجالاً ونساء، ينوحون ويلطمون على خدودهم، مرددين قائلين: «يا أم عنقود لا تلومينا، لأننا لم نعلم بموت العنقود» ويقول روبرت سميث: يبدو أن النواح على العنقود من بقايا طقوس الاحتفال بالخمرة(62).

---

(60) الموسوعة البريطانية، طبعة 1984، تحت مادة alcohol.

(61) رحلة إلى بابل القديمة، تاليف الدكتورة إيفلين كلينكل برانت، ترجمة الدكتور زهدي الداوودي ــ دار الجليل، دمشق.

(62) الغصن الذهبي، بالإنكليزية، الجزء الثالث، ص 8، طبعة مكملان، لندن 1955.

برج بابل

ارتحل ذرية نوح من بلد إلى آخر، باتجاه الشرق، على مر الأيام، حتى وجدوا موطئاً لهم في أرض شنعار، وقال بعضهم لبعض: «هلم نصنع لبناً ونشويه شياً؛ لنبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض». وسرعان ما شرعوا بالعمل. ونزل الرب لينظر المدينة والبرج وقال: «هوذا شعب واحد، ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض». فكفوا عن بنيان المدينة، وبددهم الرب على وجه كل الأرض. وسمي اسمها بابل، لأن الرب هناك (بلبل) لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض. (سفر التكوين 11: 1 ــ 9).

ويزعم آخرون أن نمرود، الصياد الطائر الصيت، هو الذي بنى برج بابل؛ لكنه لم يكن هو الذي وضع أساساته. وبعد أن أخضع كل ذرية نوح، بنى قلعةعلى صخرة دائرية، وأقام عليها عرشاً عظيماً من خشب الأرز يسند عرشاً آخر عظيماً من الحديد؛ وهذا أيضاً يسنده عرش عظيم من نحاس، وفوقه عرش من فضة، وفوق عرش الفضة عرش من ذهب. وفي قمة هذا الهرم وضع نمرود درة عظيمة جلس عليها بأبهة سماوية، وحكم العالم بالقوة.

وكان نمرود ابن كوش بن حام. وكان حام شغوفاً بكوش، فخصّه بملابس آدم وحواء الجلدية التي صنعها الله لهما، والتي ينبغي أن يرثها سام من نوح، إلا أن حاماً سرقها منه. واحتفظ كوش بالملابس في حرز ثم أورثها إلى نمرود. وعندما بلغ نمرود العشرين من عمره ارتدى تلك الملابس المقدسة، فاكتسب بذلك قوة عظيمة. وأنعم الله عليه بالشجاعة والمهارة في القنص. ولم ينقطع عن تقديم قربان لله كلما أمسك بطريدة.

بعد عشرين عاماً نشب نزاع بين أبناء حام وأبناء يافث، أعدائهم الألداء. وبعد أن كانت الغلبة، في أول الأمر، إلى جانب ابناء يافث، حشد نمرود جيشاً من اربعمئة وستين مقاتلاً من ابناء حام وثمانين مرتزقاً من ابناء سام. وبهذا الجيش تمكن من إحراز نصر مبين على أبناء يافث. وتوّجه ابناء حام ملكاً عليهم،

وعين نمرود حكاماً وقضاة على مملكته المترامية الأطراف. ثم عين (تارح) بن ناحور على رأس جيشه. وأشار عليه مقربوه ببناء عاصمة في الإقليم الشرقي، ففعل، وسمى المدينة شنعار، لأنه قال: «لقد فرق الله شمل أعدائي». وما لبث أن أخضع أبناء سام، فقدموا له الجزية، والطاعة، وأقاموا في شنعار، جنباً إلى جنب مع أبناء حام ويافث، وكانوا كلهم يتكلمون بلسانهم العبري القديم.

ثم إن نمـروداً فاق في طغيانه وتجبره حكام الأرض منذ الطوفان؛ وأقام أصناماً من الصخر والخشب، وفرض عبادتها على العالم أجمع. وكان ابنه ماردون أشد بطشاً وطغياناً، على جري المثل القائل: «الابن على سرّ أبيه».

وبنى نمرود وشعبه برج بابل تحدياً للرب، قائلاً: «لأنتقمنّ منه، لأنه أغرق أجدادي. ولن يجديه طوفان آخر، فبرجي أعلى حتى من أرارات، وسيجعلني في مأمن». وسوّلت لهم أنفسهم بشن حرب على السماء من البرج، ليقضوا على الرب، ويضعوا الأصنام بدله.

وبلغ ارتفاع البرج سبعين ميلاً، وفي جناحه الشرقي توجد سبعة سلالم، كان العمال حملةُ الملاط يصعدون منها، وهناك سبعة أخرى من جهة الغرب، أعدت للنزول. وعندما كان رجال نمرود يرمون السماء بسهامهم، كان الملائكة يمسكون كل سهم، ويعيدونه ملطخاً بالدم ليخدعوهم. فكان رماة السهام يهتفون مستبشرين: «لقد قضينا على نزلاء السماء كافة».

ثم كلم الله الملائكة السبعين المحيطين بعرشه، قائلاً: «لننزل مرة أخرى ونبلبل لسانهم، نجعله سبعين لساناً!» وهذا ما فعل، وفي الحال اختلط الأمر على البنائين، ولم يفهم بعضهم البعض الآخر. إذا قال البناء لعامله «ناولني ملاطاً!» ناوله هذا آجرَّة بدلاً منه، فتثور ثائرة البناء ويقتله بها. وقتل الناس بعضهم بعضاً في البرج، وعلى الأرض، بسبب هذه البلبلة، حتى توقف العمل.

وابتلعت الأرض ثلث البرج، ودمرت السماء ثلثاً آخر بالنار. أما الباقي فما زال قائمـاً حتى يومنا هذا. ورغم ذلك فإن ارتفاعه ما يزال عالياً إلى درجة أن الواقف على قمته بوسعه أن يرى مزارع أريحا كأسراب الجراد؛ وعلى هذا الارتفاع يجف الهواء إلى درجة تخف فيها عقول الناس.

وصار الناس شعوباً يتكلمون لغات شتى. وأسسوا المدن وأنشأوا الأمم. لكنهم لم يؤمنوا بحاكم واحد على العالمين. ثم أرسل الله سبعين ملاكاً ليحرسوا هذه الأمم؛ لكنه قال: «أما أبناء إبراهيم فسأكون أنا حارسهم، وسيتمسكون بلسانهم العبري».

ورغم ذلك استمر نمرود في حكم شنعار، وبنى مدناً أخرى، مثل الوركاء، وأكّد، وكالنه، وعمرها بالناس، وصار امبراطوراً عليهم، واتخذ لنفسه لقب (أمرافَل).

وفي الختام، التقى عيساو بن يعقوب بنمرود، بحكم المصادفة، بينا كانا كلاهما يجوسان الغابة التماساً للطرائد، وقتله، وجرّده من الملابس المقدسة. واكتسب مثله قوة عظيمة، إلى أن سرقها يعقوب من خيمته، قائلاً: «إن أخي ليس حقيقاً بعطية كهذه!» واحتفر حفرةً، ودفنها فيها.

• • •

هذه الرواية اليهودية عن أسطورة برج بابل القديم، التي ترقى إلى القرن الثاني عشر الميلادي، تشبه إلى حد كبير الصورة التي قدمها الكاتب المسيحي أوروسيوس التاراغوني من أبناء القرن الخامس الميلادي، في كتبه السبعة عن لوثنيين.

فأوروسيوس الذي يبدو أنه استقى معلوماته ــ نقلاً عن آخرين ــ من مصادر يهودية، يذكر أن طول البرج خمسة أميال ونصف، ومحيطه عشرة أميال، وله مئة بوّابة برونزية وأربعمئة وثمانون طابقاً. وذكر أيضاً أن نينوس Ninus حفيد نمرود بنى مدينة نينوى، وهو شرف أنعم على آشور في سفر التكوين (10: 11).

ويعتبر هويت Haupt نمرود ابن كوش، وأطلق عليه أيضاً اسم نبرود، أو نبرون، وهو يقابل نازيماراتاس Nazimarattas، أحد ملوك بابل الكشيين من أصل غير سامي (ولا هندي أوروبـي). وهؤلاء الكشيون قدموا من كـوش (كاشو)، كردستان الحالية، المنطقة الجبلية التي تفصل بلاد آشور عن الميديين، وتغلبوا على السلالة الآمورية في بابل، وحكموا من القرن السادس عشر إلى القرن الثاني عشر ق.م. وكان إلههم القومي يدعىٰ (كاشو)، ومن ثم كان ملوكهم ينعتون «بأبناء كوش». وكان هناك إله كشّيٌّ آخر يدعى موروداش، المقابل لننورتا، وهو الاسم الذي ربما اشتق منه (نمرود). ومثل سابقيه ولاحقيه، كان نمرود ينعت بالصياد الجبار، ويصور في النقوش قاتل اسود، وثيران، وأفاعٍ، وهو رمز لطقس التتويج. وربما كانت هذه الأسطورة سجلاً لأمجاد نازيماراتاس الأولى، قبل أن يقهره أدادنيراري الأول، الملك الآشوري من القرن الرابع عشر ق.م. ومع هذا، فثمة كوش أخرى، هي مملكة أثيوبيا في ميروي، يرد ذكرها في سفر اشعياء (18: 1)، ولها صلات قومية مع جنوب الجزيرة العـربية.

أما كوش المذكور في سفر التكوين (10: 8) الذي يجعل من نمرود أبناء لكوش، فالمقصود به الكشيون[63]. وأما الكلمة الأخرى المذكورة في العظة السابقة لها التي تجعل من كوش أباً لأقوام عربية جنوبية، فيجب أن يقصد بها كوشاً الثانية [الأثيوبية][64].

إن عبرنة اسم نمرود (من الفعل «مرد» أي تمرد) تسويغ لتشويه سمعته. وتقترن رواية نمرود، أيضاً بإسطورة سامائيل وتمرده على إيل، وبالأسطورة الحثية عن أوليكومي عملاق كومارب‍ـي الصخري الشاهق الذي حاول شن هجوم على آلهة السماء السبعين، من فوق رأسه. وهناك اسطورة يونانية، لا بد أنها مستقاة من المصدر نفسه، تروي كيف أن الألويديين Aloeids ركموا جبل بيلون فوق جبل أوسا ليشنوا منه حرباً على زيفس في مقره السماوي بالأولمب.

وفي سفر التكوين يرد ذكر أمرافل على أنه ملك شنعار؛ وفي الترجوم، على أنه ملك بابل؛ وفي كتاب يوسفوس (العصور القديمة)، على أنه «أمارا بسيديس، ملك شنعار». ومن المؤكد أنه حمورابي ملك بابل (1728 ــ 1686 ق.م.)، صاحب الشريعة [شريعة حمورابي]، وباني المدينة. ويظن أن شنعار في شنخار الأكدية، وهي دولة تقع إلى الشمال الغربي من بابل.

وقد تعززت هذه الروايات العبرية وزيد عليها، بعد أن أسكن بالقوة الملك بنوخذ نصر الثاني (604 ــ 562 ق.م.)، وهو إداري كبير آخر، المدن التي بناها، جالباً أعداداً غفيرة من اليهود إلى المنفى في بابل. كما أن الملك الآشوري سرجون الثاني (721 ــ 705 ق.م.) كان قبله قد رحّل كل الإسرائيليين الشماليين تقريباً؛ وكانت حاجة بنوخذ نصر لليهود من أجل أن يسهموا في إصلاح الدمار الرهيب الذي أوقعه سنحاريب عام 689 ق.م. ببابل، عندما نهب وأحرق المعابد الشهيرة المعروفة بالزقورات.

وبرج بابل يدعى بالسومرية إيتيمنناكي (بيت دعائم السماء والأرض)، وكان قائماً وسط مجمع المعبد المسمى إيساجيلا Esagila أو (المنزل الذي يدير الرأس).

وبابل بالأكدية هي باب إيلي أو (باب الله). أما التفسير العبري لبابل فمن كلمة بلل balal (يبلبل)، وهو مثال على الاشتقاقات الدارجة [غير الصحيحة].

---

(63) وكوشُ ولدَ نمرودَ الذي ابتدأ يكون جباراً في الارض (سفر التكوين 10: 8).

(64) وبنو كوش، سبا، وحويلة، وسبتة، ورعمة، وسبتكا... (سفر التكوين 10: 7).

ويقرن سانت جيمس، على غرار أوروسيوس، برج بابل ببابل نفسها التي ذكر هيرودوتس أن طول أسوارها الخارجية خمسة وخمسون ميلاً، ومحيط المدينة الملكية في الداخل كان زهاء سبعة أميال (لا يقل كثيراً عن محيط البرج)، وارتفاع أسوارها الداخلية نحو مئة ياردة.

إبــــراهـــيم

جاء في سفر التكوين (11: 10 ــ 30؛ 20: 12) أن:
سام وَلَدَ أرفكشاد بعد الطوفان بعامين.

وأرفكشاد ولد شالح عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين.
وشالح ولد عابر في الثلاثين.
وعابر ولد فالج في الرابعة والثلاثين.
وفالج ولد رعو في الثلاثين.
ورعو ولد سروج في الثانية والثلاثين.
وسروج ولد ناحور الأول في الثلاثين.
وناحور ولد تارح في التاسعة والعشرين.
وتارح ولد إبراهيم، وناحور الثاني، وهاران، في بالسبعين.

في البدء تزوج إبراهيم بسارة اخته غير الشقيقة (أي من أم أخرى). وبعد موت هاران، ترك تارح مسقط رأسه أور، مصطحباً معه ابنه أبرام الذي سيغير الله اسمه فيما بعد إلى إبرايهم، وسارة ولوط، ليقيم في أرض حرّان. أما ناحور الثاني فقد بقي في أور.

ويُزعم أن أور الكلدانية[65] سميت على اسم مؤسسها أور بن كيساد، من سلالة نوح، وهو حاكم شرير وطاغية لأنه فرض عبادة الأصنام على رعيته. وقد تزوج رعو أوراه ابنة أور، وسمى ابنه سروج، اعتقـاداً منه بأنه «سيتجه» نحو الشر[66]. وعلّم سروج ابنه ناحور الأول علوم التنجيم الكلدانية؛ وسمى ناحور ابنه تارح من (الترح) الذي عاناه عندما انهالت أسراب الغربان على الزرع في أور. أما تارح فقد سمىٰ ابنه الذي ولد له من زوجته جسيكا الكلدانية أبرام، إكراماً لذكرى والد زوجته الأخرى عدنة ويدعى أبرام أيضاً.

• • •

(65) هذه تسمية التوراة، والأصح السومرية.

(66) سَرَج بالعربية: كذب. والسرّاج: الكذاب.

إن أسماء آباء الجنس البشري اولاء، الذين جاء ذكرهم في سفر التكوين، ترجع إلى أسماء أماكن وأقوام بشرية لها قرائن تأريخية. فارفكشاد الذي ينعته يوسفوس بالأب الأعلى للكلدانيين قد يكون اسم أرض أرابخا Arrapkha، مع إضافة لفظة (شد) الأكدية، وتعني (جبل)(67). وكانت جبال أرابخا هذه تحيط بمدنية كركوك الحالية [في العراق]. أما شالح فيبدو أنه اسم إله، على غرار ميتوشالح، أي (رجل شالح) (و «مت» لفظة سامية تعني رجل)، مثل إيشبعل الذي يعني هو الآخر (رجل بعل)(68). وعابر، وهو الجد الأعلى لعبريم أو العبريين، قد يرجع إلى أي من الأراضي العديدة التي وصفتها المصادر العبرية والآشورية بأنها بلاد «ما وراء النهر»، وبالحرف الواحد بلاد «عبر النهر»، وباللغة العبرية (إيبر هانّهر) eber hannahar (سفر الملوك الأول 5: 4). أما فالج فاسم مدينة تقع في منطقة الفرات الأوسط، وقد ورد ذكرها في رسائل مدينة أو حضارة ماري السورية على الفرات(69). ورعو اسم علم ورد ذكره في هذه الوثائق أيضاً، وقد يكون قريناً لاسم مدينة راخيلو في المنطقة نفسها. وسروج كان اسم مدينة تدعى ساروجي بين حرّان وكركميش. أما ناحور فهو اسم مدينة تدعى ناخورو، أو تل ناخيري، في رسائل ماري وفي النقوش الآشورية من القرن الثامن عشر حتى القرن الثاني عشر ق.م.، تقع على مقربة من حران. وأما مدينة تارح، أو تل توراحي، كما جاء في النقوش الآشورية في القرن التاسع ق. م. ، فتقع بالقرب من حران أيضاً. وأما حران، وبالآشورية خرّانو = طريق، فقد كانت مدينة تجارية مهمة على الطريق العام بين نينوى وكركميش، في ملتقى الطريق إلى دمشق. وما تزال قائمة على نهر بلخ، على بعد ستين ميلاً غربي تل خلف.

ولما كان الغراب طائراً متوحداً، فلربما كان المقصود بالغربان التي أتلفت زروع سكان ما بين النهرين الزرازير، التي تطير في أسراب كبيرة. أو لعلهم كانوا أفراد قبائل طوطمهم الغراب؛ لعل المقصود بهم المديانيون من بادية

---

(67) (شادو) بالأكدية تعني (جبل)، و (شيدو): قمة. و (اشدود)، أو (اسدود): مدينة منيعة من مدن الفلسطينيين القدامى على البحر المتوسط. وفي العربية هناك لفظة (الشدّة)، وهي الصلابة. وفي الحديث: «لا تبيعوا الحب حتى يشتد»، اي يقوى. وهناك أيضاً الفعل (يستد)، ويفيد المعنى نفسه. قال الشاعر:

أعلّمه الرماية كل يوم ... فلما استدّ ساعده رماني

(68) و (إيش) لفظة سامية تعني (رجل)، يقابلها بالعربية إنس وإنسان.

(69) لعل المقصود بها مدينة الفلّوجة الحالية، الواقعة على الفرات في محافظة الأنبار، غربي بغداد.

الشام، فقد ذكر (غراب) في سفر القضاة (7: 25) كأمير مدياني[70].

والمقصود من شجرة نسب إبراهيم إظهار أجداد الإسرائيليين جميعهم حكماء، وخيرين، وأبناء أبكاراً. وينبغي أن يفهم من مولد هاران الإقامة في مدينة حرّان، مع أن اشتقاق الأسماء لا يتفق مع واقع الحال. ثم أن تكرار اسم (ناحور) يعني أن ناحور هو الابن الأول لتارح ما دام يحمل اسم جده، رغم أن تسلسله يأتي بعد إبراهيم في سفر التكوين (11: 26 ــ 27) الذي يعدد أبناء تارح حسب التسلسل الآتي: أبرام، ناحور الثاني، حران. وهذه العادة ما تزال متبعة في الشرق الأوسط.

وقد تجاهل المفسرون المدراشيون الذين يؤمنون بشرائع اللاويين القائلة بمنع غشيان المحارم، تجاهلوا النص الصريح الوارد في سفر التكوين بصدد زواج إبراهيم باخته (غير الشقيقة) سارة. وتهرباً من هذه الحقيقة جعلوها ابنة أخيه، وهو زواج تقره الشريعة الموسوية. ومع هذا فإن الزواج بالأخت غير الشقيقة كان شائعاً في مصر، وشرعياً في إسرائيل حتى أيام الملك داود.

(70) في النص التوراتي: «وامسكوا اميري المديانيين غراباً وذئباً، وقتلوا غراباً على صخرة غراب، وأما ذئب فقتلوه في معصرة ذئب».

مولد إبراهيم

كان الأمير تارح قائداً على القوات الملكية المسلحة في مملكة نمرود. وذات مساء اجتمع مستشارو الملك نمرود وبطانته والمنجمون في قصره لمنادمته. وحين عادوا إلى منازلهم، وتطلعوا إلى السماء، شاهدوا مذنباً هائلاً يجتاز الأفق من جهة الشرق، ويبتلع أربع نجوم في مواضع متباعدة في السماء. ففي تلك الليلة ولد ابرام بن تارح.

ذُهل المنجمون لأنهم يدركون معنى هذه النبوءة، وراحوا يتهامسون قائلين: «سيكون وليد تارح امبراطوراً تعنو له الجباه. وسيتكاثر نسله ويرثون الأرض إلى أبد الآبدين، يقوضون عروش الملوك، ويحتلون أراضيهم».

وعند الصباح اجتمعوا ثانية وقالوا: لقد أخفينا خبر المذنب عن سيدنا نمرود. لكنه حين يسمع بخبره سيسألنا قائلاً: «لماذا كتمتم خبر هذه المعجزة عني» ويقضي علينا. فلننبئه بخبر هذه المعجزة قبل أن نتعرض إلى غضبه.

وقالوا لنمرود: «ادفع لتارح مكافأة، واقتل الطفل قبل أن ينجب أبناء يقضون على نسل الملك ونسلنا».

فأرسل نمرود في طلب تارح وأمره قائلاً: «بعني ابنك!» فأجابه تارح: «أمر مولاي الملك مطاع». لكنه تضرع لسيده بأن يمهله ثلاثة أيام يخلو فيها إلى نفسه وقومه، ثم يسلم له ابنه بعد ذلك.

في اليوم الثالث قدم تارح للملك نمرود ابن أَمَة وُلد في يوم مولد أبرام، وتلقى مقابله ذهباً وفضة. وقضى نمرود على الطفل، ثم نُسي الأمر.

أخفىٰ تارح إبراهيم في مغارة مع مربية، وصار يزودهما بالطعام كل شهر. وبعد عشر سنوات (أو ثلاث عشرة سنة في رواية أخرى) أذن تارح لإبراهيم بمغادرة الكهف. وحال خروجه نطق باللسان العبري المقدس، وأنكر الأصنام، وآمن بجلال خالقه. وبحث عن جديه نوح وسام، ودرس الشرائع في بيت هذا الأخير تسعاً وثلاثين سنة، وظل أمره طي الكتمان.

وفي رواية أخرى عن مولد إبراهيم الأسطوري، أنه استوى واقفاً على رجليه عند غروب الشمس، في اليوم العاشر بعد مولده، ودلف إلى شاطىء النهر (الفرات على الأرجح)، وشاهد النجوم لأول مرة، ففكر مع نفسه قائلًا: «لعلها آلهة؟» وعند احتجابها بحلول النهار، قال: «كلا، لن أسجد لها، لأن الآلهة لا تغيب». ثم طلعت الشمس بضوئها الساطع، فتساءل: «أهذا إذن هو ربـي الذي يتعين عليّ أن أسبّح بحمده؟» بيد أنها ما لبثت أن غابت في الغسق. فهتف قائلًا: «كلا، لم تكن إلهاً! ولا بد أن الشمس والقمر والنيّرات تسيّرها قوة أعظم منها». وهنا ظهر جبريل، وقال: «السلام عليك!» فأجابه أبرام: «وعليك السلام! من أنت؟» قال: «أنا جبريل، رسول من الله». عند ذاك غسل أبرام وجهه ويديه وقدميه في نبع، وسجد.

بعد بضعة أيام تفقدته أمه أميتلاي، فوجدته عند شاطىء النهر. وأخذتها الدهشة حين أكد لها أنه ابنها مع أنه لم يمضِ عشرون يوماً على مولده. وقال لها: «الله يَرى ولا يُرى! ويتخذ السماء عرشاً له، لكن نوره يعم الأرض! اذهبـي إلى نمرود وأعيدي كلماتي على مسمعه!» وعندما عادت إلى البيت وأخبرت زوجها بالخبر، ذهب تارح إلى الملك وانحنى أمامه، ثم طلب الإذن له بالكلام. قال له نمرود: «ارفع رأسك، وانطق بما تريد أن تسمعنيه!» فروى له تارح كل شيء، مـردداً رسالة أبرام. فشحب وجه نمرود، وسأل كبار حاشيته: «ما العمل؟» قالوا له: «أيها الملك المقدس، هل تهاب طفلًا غريراً؟» إلا أنه أجاب قائلًا: «أي طفل هذا الذي يوجه لي رسالة مع أمه وهو لـمّا يتجاوز العشرين يوماً من عمره، يؤكد فيها على وجود إله في السماء يَرى ولا يُرى، ويعم نوره العالم بأسره؟».

هنا خرّ الشيطان ساجداً أمام الملك، وقال بعد أن اذن له بالكلام: «لماذا تصغي إلى تخريف طفل. اسمع نصيحتي!» قال نمرود: «وما هي نصيحتك؟» أجابه الشيطان: «افتح أبواب مستودعات أسلحتك، ووزع السلاح على كل أمير، ونبيل، ومقاتل، في مملكتك، ليأتوا بالطفل إليك ليقوم في خدمتك».

وهذا ما فعله نمرود. بيد أن أبرام لما رأى الجيش يتقدم نحوه، ناشد الله النجاة، فبسط الله سحابة من الظلام بينه وبين أعدائه. فما كان منهم إلا أن يولوا الأدبار فزعين، وقالوا للملك: «لم يعد لنا مُقام في أور!» فأذن لهم نمرود بذلك، وفرّ هو الآخر إلى بابل.

• • •

جاء ذكر مولد إبراهيم مقتضباً في سفر التكوين (11: 27): «ولد تارح

أبرام وناحور وهاران». أما الأساطير عن مولد إبراهيم الذي يندرج في إطار المعجزات، وهربه من الملك نمرود، فهي من أساطير يهود الشرق الأدنى، وهي حكايات مدراشية ترجع إلى أصل هندي أوروبـي.

وقد ناقش اللورد راغلان Lord Raglan في كتابه (البطل)، أساطير العديد من الأبطال: إغريقاً، ولاتيناً، وفُرساً، وسلتيين، وجرمانيـين، معـدداً مزاياهم المشتركة، كأن تكون أم البطل أميرة في جميع هذه القصص، وأبوه ملكاً ويمتّ بصلة قربـى لها؛ وقصة مولده غير اعتيادية، وغالباً ما يكون ابن إله، وعند مولده غالباً ما يسعىٰ أبوه أو جدّه إلى قتله. وتخفي الأم البطل، ثم ترعاه في مكان بعيد مربية من طبقة دون. ولا يعرف شيء عن طفولته، ثم يعود إلى أهله عندما يبلغ مبلغ الرجال، ويتغلب على الملك، وأحياناً على تنين ايضاً، أو مارد، أو حيوان مفترس، ويتزوج بأميرة، غالباً ما تكون ابنة من يستولي على عرشه، ويصبح هو ملكاً.

وأحياناً تضع الطفل أمُّه في قارب وتتركه يجري مع التيار، كما جرى لموسىٰ ورومولوس؛ أو يُترك على سفح جبل، كما جرى لكورش، وباريس، وأوديب، أو في رواية أخرى ألقي بأوديب في قارب. وتصور هذه الأسطورة طقساً دراماتيكياً على شرف (الطفل المقدس) ممثلاً للروح الخصبة للعام الجديد. ان «قدومه» الذي تلهج باسمه طقوس إيلوسز Eleusis قرب اثينا، يتم الاحتفال به في كهف مقدس، حيث يحمله الرعاة وأصحاب الماشية في ضوء المشاعل. ويهزم روحُ العام الجديد روحَ العام القديم، ويتزوج أميرة الأرض، ويصبح ملكاً، حتى يحل محله آخر في أواخر ملكه.

على أن إبراهيم، شأن جميع الآباء التوراتيين الذين أطاعوا الله، نجا من نهاية رومولوس الشائنة (مزقه الرعاة اشلاء)؛ وكورش (خوزقته ملكة سكوثيا)؛ وباريس (صُرع في طروادة)؛ وأوديب، وجاسون، وثيسيوس (كلهم انتزعت منهم عروشهم ونُفوا). اما موسى، فمع انه حُرم من دخول أرض الميعاد، إلا انه مات بشرف، وشيعت جنازته بتكريم، ودفن بحضور الرب.

وبعض عناصر الروايتين عن مولد إبراهيم الأسطوري قد يكون مستعاراً من مصادر مسيحية، رغم أن قصة كورش، حسب رواية هيرودوتس، شبيهـة بالرواية الأولى: ملك طاغية، ومنجمون، وضحية يستعاض عنها بـآخر. ثم أن كورش أثني عليه في سفر أشعياء، كواحد من عبيد الله اختارته العناية الإلهية ليدمر بابل ويحرر اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر؛ واصبح بطلاً قومياً في إسرائيل حتى بعد أن فشل في تحقيق نبوءات اشعياء.

وفي الرواية الثانية يذكرنا أصبع جبريل اللبني بالحيوانات ــ الذئبات، والدبات، والأفراس، والعنزات، والكلبات ــ المقدسة التي أرسلت لأرضاع الأبطال: أوديب، وروملوس، وهيبوتوس، وبلياس، وباريس، وإيجستوس؛ أما شاطىء النهر، ومقتل الأبرياء فيذكراننا بقصة موسىٰ.

وأما الرضيع الذي يمشي، ويتكلم، وينمو فور ولادته، فنجده في الأسطورة الإغريقية عن هيرمس وآخيل، وفي (هانس تاليسين) أسطورة الطفل المقدس الويلزية. وأما ذكر هاران أخي إبراهيم فيبدو أنه خلط مع ناحور ملك حرّان.

إبراهيم والأصنام

يزعم البعض أن جبريل حمل الصبـي أبرام على كتفيه، وبطرفة عين، طار في الهواء من أور إلى بابل. وفي سوق بابل التقى إبرام بأبيه تارح الذي لجأ إليها مع نمرود. فحذر تارح الملك في الحال بأن ابنه «صانع المعجزات» جاء في أثرهما إلى هذه المدينة؛ بيد أن نمرود أرسل في طلبه، رغم هلعه، فلما حصل أبرام إلى القصر لهج بذكر الله الحي القيوم بصوت عال على مسمع الحاشية، وهز عرش نمرود ناعتاً إياه بالكافر. وتهاوت الأصنام الملكية على وجهها، وكذلك كان حال الملك. وبعد ساعتين ونصف، رفع رأسه وتساءل موهون الصوت: «أكان ذلك صوت ربك الحي القيوم؟» أجابه إبرام: «كلا، صوت إبرام، أحقر عبيده». فلم يكن من نمرود إلا أن يؤمن بسلطان الرب، وأذن لتارح بالرحيل. فهاجر تارح إلى حرّان بصحبة أبرام، وساراي، ولوط.

ويزعم آخرون أن إبرام عاد إلى بابل مزوداً بالحكمة التي تلقاها على يد نوح. وكان أبوه ما يزال قائداً للقوات المسلحة للملك نمرود، ويعبد أصناماً من خشب وصخر: اثني عشر صنماً كبيراً، وعديداً من أخرى صغيرة. فطلب إبرام من أمه اميتلاي أن تنحر حملاً وتطبخه، ثم تقدمه للأصنام، ليرى إن كانت ستأكل منه. وإذْ لم تندّ عن الأصنام حركة، هزأ بها، وقال لأمه: «ألعل الصحن صغير، أو الحمل غير سائغ؟ أتضرع إليك أن تنحري ثلاثة حملان أخرى، وأعدّي منها وجبة شهية!» لكن الأصنام لم تستجب هذه المرة أيضاً.

فجاءه الوحي من الرب، وتناول فأساً، وأجهز عليها كلها، باستثناء أكبرها. وحمل الفأس بيده وخرج. وحين ترامت هذه الأصوات إلى سمع تارح، هرع إلى المكان، ورأى ما فعله ابنه. فأرسل في طلبه وقال له مغضباً: «ما هذا؟» أجابه إبرام: «قدمت الطعام لأصنامك، ولا بد أنها تشاجرت من أجله. الا ترى كيف أن كبيرها حطم الأصغر منه؟».

إلا أن تارح قال له: «لا تخدعني! هذه تماثيل من خشب وصخر، نحتتها يد الإنسان».

أجاب إبرام: «إذا كان الأمر كذلك، فكيف تتناول الطعام الذي تقدمه لها

كل يوم؟ أو كيف تستجيب لصلواتك؟» ونطق باسم الله أمام أبيه، وذكّره بالطوفان الذي عاقب الله به الأشرار، ثم أجهز على الصنم الأخير.

شكى تارح عن إبرام للملك نمرود الذي أمر في الحال بالقائه في السجن. ولكن عندما اعلن المنجمون بأن ابرام سيحل محل الامبراطور، أمر نمرود بأن يوثق هو وأخوه هاران، ويلقى بهما في أتون. فالتهمت النار الاثني عشر رجلاً الذين أوكلت بهم هذه المهمة، وكذلك هاران الذي لم يكن مؤمناً بالله، عدا إبرام الذي لم تمسه ــ النار ــ ولم تحرق ملابسه، رغم أنها أحرقت الحبال التي أوثق بها. فصرخ نمرود في بقية الحرس: «ألقوا بهذا المجرم في الأتون، وإلاّ جعلتكم طعاماً للنار!» لكنهم ناحوا قائلين: «أيرضى الملك لنا بمصير زملائنا؟» وهنا مثل الشيطان أمام نمرود وسجد له وقال: «اعطني خشباً، وحبالاً، وآلات لأصنع بها لسيدي منجنيقاً يرمىٰ به إبرام في آتون النار عن بعد». فوافق نمرود، وتم صنع المنجنيق. وبعد أن جربه بالجلمود، أمسك بإبرام وشد وثاقه من جديد، ثم ألقى به في النار. إلا أن النار كانت برداً وسلاماً بعد أن صلى إبرام للرب. وبإرادة الله أينع الخشب براعم، وازهر، ثم أثمر، وانقلب الأتون إلى حديقة ملكية غنّاء سار في رحابها إبرام هانيء البال بين الملائكة.

فسبّح المنجمون والمستشارون والحاشية بحمد الله، وأهدى نمرود رئيسي عبيده إلى إبرام، وهما عوني والعازر، مع آنية من فضة وذهب وبلور. والتحق ثلاثمئة من رجال نمرود بإبرام في رحلته إلى حرّان.

• • •

لا تستند هذه الأسطورة إلى نص في الكتاب المقدس. ففي سفر التكوين لا يرد سوى ذكر لزواج إبراهيم باخته غير الشقيقة ساراي، وإنَّ تارح ارتحل معهما ولوط من أور الكلدانيين إلى حرّان، التي توفي فيها، والتي أمر الله فيها إبراهيم قائلاً: «اذهب إلى الأرض التي أريك» (سفر التكوين 12: 1).

ولعل الهدف من حكاية أتون النار هو تأكيد التفسير المدراشي «لاور الكاسديم» بأنها تعني «أتون الكلدانيين». وهي مستقاة جزئياً من سفر دانيال (الإصحاح الثالث)، الذي يرد فيه أن دانيال ورفاقه ألقوا في أتون من نار بأمر نبوخذ نصر لامتناعهم عن عبادة الأصنام، ثم نجوا منها دون أن تمسهم النار؛ وجزئياً من (بيل والتنين)، وهي إضافة لسفر دانيال مشكوك في صحتها، يرد فيها أن دانيال فضح عجز أصنام كورش، مؤكداً أن كهنته هم الذين التهموا تقدمات الطعام التي قدمت لتمثال بعل الذهبي، فأذن له كورش بأن يهدّ معبده. وكان جبريل هو الذي أنقذ دانيال، مثلما فعل هنا مع إبراهيم.

على أن كلتا الأسطورتين تستندان إلى نبوءة في سفر أرميا: «خزي كل صائغ من التمثال، لأن مسبوكه كذب ولا روح فيه. هي باطلة صنعة الأضاليل؛ في وقت عقابها تبيد. ليس كهذه نصيب يعقوب لأنه مصور الجميع وقضيب ميراثه رب الجنود اسمه... وأعاقب بيل في بابل وأخرج من فمه ما ابتلعه... لذلك ها أيام تأتي يقول الرب وأعاقب منحوتاتها» (سفر أرميا 51: 17 ــ 19، 44 ــ 52).

إبراهيم في مصر

بعد موت تارح أمر الرب إبرام أن يرحل إلى كنعان، الأرض التي وعده بها، ولعن كل من يقف في وجهه. فشد إبرام رحاله، وكان عمره خمسة وسبعين عاماً، بصحبة ساراي، ولوط، والنفوس التي امتلكها في حران، ومواشيهم، ومقتنياتهم، وسار إلى الجنوب. وفي شكيم (نابلس) ظهر الرب ثانية لابرام، وقال له: «لنسلك أعطي هذه الأرض!» فبنى هناك مذبحاً للرب، ونصب خيمته بين بيت إيل وعاي، وحدثت مجاعة في الأرض، فانحدر إبرام إلى حدود مصر. وقال لساراي امرأته محذراً إياها: «إني قد علمت إنك امرأة حسنة المنظر، فيكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك».

وذهل المصريون بجمال ساراي، بالفعل، ولما ترامى إلى أسماع الفرعون خبرها قرر أن يتخذها محظية له، ويدفع لابرام لقاءها عدداً مجزياً من الثيران، والماشية، والغنم، والعبيد. لكن الرب أنزل على قصر فرعون الطاعون بسبب امرأة إبرام، وعندما علم فرعون بالحقيقة أرسل في طلب أبرام وقال له مغضباً: «ما هذا الذي صنعت بـي. لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ماذا لو أخذتها إلى مخدعي؟» وطرد إبرام من مصر، بعد أن أعاد له زوجته، ولم يسترجع منه الهدايا التي أعطاها إياه.

ويزعم البعض أن إبرام عندما وصل إلى مجرى الماء الفاصل بين مصر وأرض كنعان، ترجلت ساراي لتغسل وجهها، ولما رأى إبرام صورة وجهها الفاتن في الماء، قادها بيده عبر الحدود وأدخلها في قفص ثم اوصد بابه عليها بعد أن ألبسها كل ملابسها. غير أن مسؤول الضرائب في الحدود طلب من إبرام أن يفتح القفص بعد أن لاحظ أنه كان يراوغ في إجاباته. وعندما رأي ساراي في القفص، قال: «إن جمال هذه المرأة لا ينبغي أن يستمتع به رجل غير الفرعون!» وهرع هركانوس، أحد أمراء القصر، ليزف النبأ إلى سيده الذي كافأه بعطية مجزية وأرسل حامية عسكرية لتأتي بساراي.

بكى إبرام وندب حظه طول الليل، وكذلك فعل لوط، وتضرعا إلى الرب أن يحافظ على عفة ساراي. فأرسل الله ملاكاً إلى مخدع الفرعون، حتى إذا حاول

هذا احتضان ساراي تلقى صفعة من يد خفية. وعندما حاول خلع خفها، تلقى ضربة أخرى؛ وحين جرب لمس قميصها، وجه له الملاك صفعة أخرى. وإذْ أبصرت ساراي الملاك، راحت تحرك شفتيها خلسة لتنطق بإيعازات إيمائية غير منطوقة: تارة «انتظر!»، وتارة أخرى «اصفع!» على نحو ما يقتضي الموقف. وهكذا حتى انتهى الليل دون أن يتاح للفرعون أن يفعل شيئاً. وفي الصباح شاهد آثار جذام على سريره ووجوه خصيانه. وعند ذاك اعترفت ساراي قائلة: «إبرام ليس أخي فحسب، بل وزوجي أيضاً».

وكف الفرعون عن الاقتراب منها. ثم أنعم على إبرام بمزيد من العطايا، وخص ساراي بجارية تدعى هاجر، هي ابنة من إحدى محظياته. وعند ذاك زالت آثار الجذام.

وقبل أن يترك إبرام مصر علّم حاشية الفرعون علوم الرياضيات والفلك التي تلقاها من الكلدانيين.

• • •

إن الوقائع التاريخية المطابقة لما ورد في سفر التكوين (الإصحاح الثاني عشر) عن نزوح إبراهيم إلى مصر يمكن تفسيرها في ضوء انتقال القبائل الناطقة بالعبرية من جنوب فلسطين إلى مصر، بين أمشاج من الحثيين، والميتانيين من حرّان، والسوريين والفلستينيين. وكان رؤساؤهم ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر بين 1730 (؟) و 1570 ق.م. وامتد سلطانهم حتى الجزء الأعظم من سوريا. ولا يعرف سوى النزر اليسير عن هؤلاء الملوك البدو، لأن الكتبة المصريين، الذين كانوا يعتبرون الخراف حيوانات نجسة[71]، امتنعوا عن تدوين تأريخهم عندما ثار الولاة على الفرعون الهكسوسي ابوبي Apopi الثاني (1603 ـ 1570 ق.م.) وخلعوه بعد معارك طال أمدها.

كما أن إقامة ابرام القصيرة في كنعان «بسبب المجاعة» تتفق مع الدمار الذي خلفه الهكسوس في فلسطين. لقد تخلف فقط ليبني مذبحاً في شكيم (نابلس)، الذي صار فيما بعد معبداً إسرائيلياً مهماً. وعودته السريعة إلى حد ما يمكن تفسيرها أن بعض القبائل العبرية لم تجد في مصر بلداً يصلح للبدو، فقفلت عائدة إلى فلسطين لتنضم بعد بضعة أجيال إلى ابناء جلدتها تحت لواء يشوع.

---

(71) الظاهر ان الهكسوس أشاعوا أكل لحم الخراف الذي ربما كان مكروهاً عند المصريين.

على أن أسطورة ابرام وساراي والملك الذي طمع فيها، تتكرر مرتين أخريين: في قصة ابرام وساراي وأبيمالك، وفي قصة إسحاق ورفقة وأبيمالك نفسه. وهي مستعارة من (قصة الأخوين) المصرية، التي تنسحب أيضاً على قصة يوسف وزوجة فوطيفار، وتذكرنا قصة ابرام حين أخفى ساراي في القفص بحكايات ألف ليلة وليلة.

والجذام عند الإسرائيليين هو غير الجذام الحقيقي، بل أمراض جلدية مثل القوباء الحلقية، والوضح (وهو مرض جلدي يتميز بظهور بقع بيضاء على البشرة). وحقيقة أن الإسرائيليين أنفسهم أصيبوا «بالجذام» مدونة من قبل كاهن مصري يدعى مانيثو (القرن الرابع ق.م.) يزعم أن هذا كان حال ثمانين ألفاً من الإسرائيليين المصابين بالجرب تمّ عزلهم في بلدة منعزلة، واغرقوا أو سيقوا إلى البرية تحت قيادة موسى.

إبراهيم ولوط

عاد ابرام بقطعانه من مصر إلى الموضع الذي نصب فيه خيمته بين بيت إيل وعاي، ومنه إلى شكيم التي بنى فيها مذبحاً للرب. وكان لوط ابن أخيه برفقته. إلا أن رعاتهم اشتجروا حول المرعى، فاقتسم الشيخان ابرام ولوط الأرض بينهما. اختار لوط الجانب الشرقي، أي سدوم، وهي مدينة في الغور، وكان الجانب الغربي نصيب ابرام. فأقام هذا في حبرون (الخليل).

وحدث في تلك الأيام أن كدرلعومر ملك عيلام شن حرباً بمؤازرة امرافل ملك شنعار، وأريوك ملك الاسار، وتدعال ملك جوييم، على بارع ملك سدوم، وبرشاع ملك عمورة، وشنآب ملك ادْمة، وشمئيبر ملك صبوييم وبالع التي هي صُوغر، الذين ثاروا على كدرلعومر بعد أن كانوا خاضعين لحكمه اثنتي عشرة سنة. وفي طريقهم غزوا قبائل من العماليق: الرفائيين في عشتاروت قرنايم، والزوزيين في هام، والإيميين في شوى قرتايم، وضربوا الحوريين في جبلهم سعير إلى بطمة فاران. ثم كروا راجعين وجاءوا إلى عين مشفاط. وهي حصن عماليقي يدعى الآن قادش. وضربوا كل بلاد العمالقة، والأموريين الساكنين في حَصُّون تامار. فخرج ملك سدوم لاستقباله وحلفائه في عمق السدّيم (البحر الميت).

فلما سمع ابرام، الذي كان مقيماً في حبرون عند بلوطات ممرا الأموري، من أحد الناجين أن لوطاً وعائلته وقعوا في الأسر في سدوم، جرّ ثلاثمئة وثمانية عشر من غلمانه المتمرنين ومضى بهم إلى دان، في إثر جيش كدرلعومر إلى الشمال، واسترجع كل الأملاك، وأنقذ لوطاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب.

وبعد عودته من غزو كدرلعومر خرج ملك سدوم لاستقباله، في وادي شوى، وهناك أيضاً قدم له ملكي صادق ملك شاليم خبزاً وخمراً، وكان كاهناً لله العلي، وباركه وقال له:

مبارك ابرام من الله العلي
مالك السماوات والأرض
ومبارك الله العلي
الذي سلم أعداءك بيدك

واستحساناً لموقف ملكي صادق أعطاه ابرام عُشراً من غنائمه. فقال ملك سدوم لابرام: «اعطني النفوس، وأما الأملاك فخذها لك». فأجابه ابرام: «رفعت يدي إلى الرب الإله العلي مالك السماء والأرض، لا آخذنّ لا خيطاً ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك، لئلا تقول أنا أغنيت ابرام. ليس لي غير الذي أكله الغلمان. وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معي، عانر، وأشكول، وممرا، فهم يأخذون نصيبهم» (سفر التكوين 13: 1 ـــ 18: 14: 1 ـــ 24).

ويزعم آخرون أن كدرلعومر ثار، قبلذاك، على الملك نمرود وأخضعه تحت حكمه. وأن ابرام حين جنّد أتباعه ضد كدرلعومر، قال: «نحن مقدمون على حرب، فلينسحب من جيشي من اقترف إثماً أو خطيئة!» إلا أن جيش ابرام حل به الخور عندما كانوا على مشارف دان. وهنا هتف في رأسه هاتف يقول: «بعد عدة أجيال، سيقيم هنا الملك رحُبعام عابد الأوثان عجلاً من ذهب لاسرائيل ليعبدوه». ثم أن ألعازر خادم ابرام قاتل في ذلك اليوم قتال الصناديد، وأوقع في صفوف العدو هزيمة تضاهي تلك التي أوقعها به بقية المقاتلين الثلاثمئة وسبعة عشر.

ويزعم آخرون أن الكوكب صادق (المشتري) سلّط نوراً خفياً حول ابرام عندما كان يقاتل، فرأى أعداءه بكل وضوح رغم الظلام، كما كانت في عونه ليلى، ملاك الليل. واستحالت سيوف أعدائه تراباً، وسهامهم قشاً، وبعكس ذلك استحال التراب بيد ابرام إلى سهام؛ وقبضة القش إلى رماح.

ويزعم آخرون أن ملكي صادق (ويعرف أيضاً بأدوني صادق)، لم يكن سوى جد ابرام الأبعد سام، وأنه علّم ابرام أصول الكهانة، وبخاصة ما يتعلق بخبز التقدمة وسكب الخمرة وحرق الأضحيات[72]. كما أعطى ابرام الملابس الجلدية التي صنعها الله لآدم وحواء، وسرقها حام، لكنها استعيدت إليه الآن. لقد فعل سام ذلك كله لأن الله اختار ابرام خليفته.

• • •

تذكرنا شنعار التي حكمها امرافل، بشنخار الأكدية؛ وتدعال بتدخاليا، وهو اسم لعدة ملوك حثيين. أما جوييم، مملكة تدعال، فقد تكون اسم علم، أو قد تعني ببساطة «أقوام»، ويظهر أن الاسر هو الإنسرا Ilansra الذي ورد

(72) كان ملكي صادق كاهن وملك اورشليم، ومباركته إبراهيم تدل على انه كان توحيدي المعتقد ايضاً.

ذكره في نقوش ماري في القرن الثامن عشر ق.م. وفيما بعد في الوثائق الحثية كمدينة ملكية بين كركميش وحرّان. أما اسم اريوك فيبدو أنه يعني «المحترم» (ارياكا) بالإيرانية القديمة. وأما عيلام فكانت مملكة قديمة قوية في رأس الخليج العربي. وأما كدرلعومر فلعله أحد الملوك العيلاميين، لأن هناك اسماً شبيهاً به يرد في النصوص المسمارية.

ومع أن سفر التكوين (الإصحاح الرابع عشر) ظل موضع شك في معلوماته التأريخية، إلا أن بعض المؤرخين يعتبرون ما جاء في هذا الإصحاح معلومات تأريخية قديمة، ربما دُونت أول الأمر بالأكدية أو الكنعانية، فوراً بعد الحرب التي يأتي على ذكرها، وبعد ذلك بزمن ترجمت إلى العبرية، ويرجع زمن هذه الحرب إلى القرن العشرين في رواية، والقرن السابع عشر ق.م. في أخرى. وحسب هذه الترجمة الأخيرة التي وصلتنا، فإن الغرض من هذا الإصحاح هو تكريس الاستيلاء على أرض كنعان، وقد غزا كنعان من قادش وإيل ــ فاران (أو إيلات) على خليج العقبة في الجنوب، حتى دان في الشمال، أربعة غزاة، إلا أن ابرام دحرهم على الفور، واستعاد كل الغنائم التي غنموها، وحسب نظام الارث استولى ابرام على كل الأرض التي كانوا يحكمونها. ولهذا، حين خرج أبناء ابرام من مصر لغزو أرض كنعان، إنما جاؤوا ليضعوا يدهم على بلد كان حقاً شرعياً لهم.

وما تزال أسماء مدن الغور وملوكهم مثار خلاف. فبارع ملك سدوم اسم غامض. ويرى البعض أنه صيغة مجتزأة عن اسم مركب مثل بارع ــ بعل الذي يرد في النقوش اللحيانية (شمالي الجزيرة العربية)، وربما يعني «عظمة بعل [أو بعل البارع؟]». وأما برشاع، ملك عمورة، فلم يفسر الاسم بصورة مقنعة، رغم أن البعض يقرنه بكلمة سامية قديمة تعني «برغوث»، ويقال له بالأكدية (بُرشعو)،وما يزال حتى يومنا هذا اسم علم عند العرب.

أما ما هي حدود أرض الميعاد، ولمن وُعدت، ووفق أية شروط، فيمكن الوقوف على ذلك في المقاطع الآتية من التوراة:

(سفر التكوين 12: 7) ــ وُعد إبراهيم بعد خروجه من حرّان ورحيله جنوباً إلى الفرات الأوسط، بالأرض التي يسكنها الكنعانيون، لنسله بصورة عامة، بلا شروط.

(سفر التكوين 13: 11 ــ 18) ــ يتخلى إبراهيم بمحض إرادته عن غور الأردن للوط، جد الموآبيين والعمونيين، إلا أن الرب يكرر وعده لأبراهيم بأنه

سيعطيه الأرض له ولنسله من الموضع الذي هو فيه وعلى مدى ما يرى بصره شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً.

(سفر التكوين 15: 18 ـ 19) ـ قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً بأن يعطي نسله الأرض من نهر مصر (قرب غزة) إلى النهر الكبير نهر الفرات، وهذا يشمل أرض كنعان كلها التي تحددها العظة. 19 من الأصحاح العاشر بين صيدا وغزة والبحر الأحمر.

(سفر التكوين 17: 8 ـ 14) ـ وُعد ابراهيم بأن تعطى كل أرض كنعان ملكاً أبدياً؛ بشرط أن يعبدوا الله وحده وأن يُختن كل ذكر منهم. وسيكون الختان صك استلامهم الأرض.

(سفر التكوين 26: 3 ـ 4) ـ يتكرر هذا الوعد مع إسحاق، ابن ابراهيم، الثاني.

(سفر التكوين 28: 13 ـ 15) ـ يكرر الرب نفس الوعد ليعقوب، ابن إسحاق الأصغر، قبيل مغادرته كنعان إلى أرض ما بين النهرين.

(سفر التكوين 35: 11 ـ 12) ـ لدن عودة يعقوب إلى أرض كنعان، يكرر الرب مرة أخرى وعده في بيت إيل.

(سفر الخروج 23: 31 ـ 33) ـ يعد الرب الإسرائيليين أبناء إسحاق بن يعقوب بنفس التخوم الواسعة [من بحر سُوف إلى بحر فلسطين] شرط أن يطردوا سكانها الأصليين، ولا يقطعوا معهم عهداً.

(سفر العدد 33: 50 ـ 56؛ 34: 1 ـ 15) ـ يأمر الرب الإسرائيليين باحتلال أرض كنعان، وفلسطيا، وجزء من شرقي الأردن.

(سفر التثنية 1: 7 ـ 8) ـ تقع أرض الميعاد بين البرية ولبنان، وبين البحر المتوسط ونهر الفرات، وفي (سفر التثنية 11: 22) يرد شرط آخر مقابل الوعد بالأرض: أن يلتزم الإسرائيليون بوصايا موسى.

ومع أن ملكي صادق، وهو اسم يذكرنا بأدوني صادق ملك أورشليم (سفر أشعياء 10: 1 وما بعدها)، يعني «الرب صادق هو ملكي»، فقد صار يعتبر فيما بعد «رب الصالحين». وكان صادق إله مدينة سالم، وليس إله العبريين، ولم يكن يُعبد وحده. وكان العمونيون يسمونه «صدوق». أما صادق فكان الاسم العبري لكوكب المشتري. ويرد ذكر «الوادي الملكي» في قصة ابشالوم (سفر صموئيل

الثاني 28: 18)، واستناداً إلى يوسفوس، يبعد زهاء ربع الميل عن أورشليم؛ ولعله هو «وادي شابه الملكي» الذي سمي فيما بعد «وادي هِنّوم» (جيهنّا، أو توفة)، وكانت تحرق فيه ضحايا الملك آحاز (سفر الأيام الثاني 28: 3).

حكاية الذبائح

ظهر الرب لابرام في المنام، وقال له: «لا تخف يا ابرام، أنا ترسٌ لك. أجرك كثير جداً!» فقال ابرام: «أيها السيد الرب، أية عطية تسلوني إذا متّ بلا أولاد، ولن يرثني سوى قيّم بيتي العازر؟» فقال له الرب: «أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها. انظر إلى السماء وعدّ النجوم إذا استطعت أن تعدها. هكذا يكون نسلك». لكن ابرام قال له: «أيها السيد الرب، بماذا أعلم أني أرثها؟» فأجابه الرب: «خذ لي عجلة ثلاثية، وعنزة ثلاثية، وكبشاً ثلاثياً، ويمامة وحمامة».

وعند حلول الصباح شق ابرام العجلة والعنزة والكبش، من الوسط، وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه. ونزلت الجوارح على الجثث، لكنه كان يزجرها.

ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على ابرام سبات. وإذا رُعبةٌ مظلمة عظيمة واقعة عليه. وجاءه صوت الرب يقول ثانية: «عندما توافيك المنية في الكبر سيكون نسلك غريباً في أرض ليست لهم، ويُستعبدون لأصحاب تلك الأرض. فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التي يُستعبدون لها، أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة. وفي الجيل الرابع يرجعون إلى ها هنا. لأن ذنب الآموريين ليس إلى الآن كاملاً». ثم غابت الشمس فصارت العتمة. وتنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع من الذبائح، وقال الله: «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات. القينيون والقنزيون والقدمونيون والحثيون والفرزيون والرفائيون والأموريون والكنعانيون والجرجاشيون واليبوسيون سيكونون رعاياهم». (سفر التكوين 15: 1 ــ 21).

ويزعم البعض أن ذبائح ابرام كانت تنذر بالامبراطوريات التي ستضطهد إسرائيل: العجلة، هي بابل بملوكها الثلاثة، نبوخذ نصر، ومروداخ الشرير، وبلشازار؛ والعنزة هي أرض ميديا بملوكها الثلاثة، كورش وداريوس واحشويرش؛ والكبش هو اليونان بملوكها الثلاثة، الاسكندر، وكاليغولا، وانطونيوس. كما أن اليمامة ترمز للاسماعيليين، والحمامة لإسرائيل.

ولو لم يشق ابرام هذه الحيوانات بسيفه، لازداد بأس هذه الامبراطوريات؛ لكنها ما لبثت أن حل بها الضعف.

• • •

في لغة التوراة العبرية، لم «يُقَم» العهد، بل «قُطع» (كاراث بثريت). جاء في سفر التكوين (15: 18): «في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً». أو، كما جاء في سفر التثنية (29: 12): «يدخل في عهد الرب». وفي سفر حزقيال: «ودخلت معكِ في عهد...» ويأتي هذا دليلاً على قدم هذا الطقس الذي ما تزال قبيلتا مالة وباكا تمارسانه في جنوب غربـي أثيوبيا: من «يقطع» عهداً، يلطخ نفسه بدم الذبائح المقطعة. وفي الأعراف العبرية المتأخرة، يُرش على حالفي اليمين دم الحيوانات التي يضحىٰ بها على المذبح «دم العهد» (سفر الخروج 24: 5-8).

ومما هو جدير بالملاحظة أن الحيوانات التي اختارها ابراهيم كـانت مقدسة، هي وإيل الإله الثور: فالعجلة، هي إلاهة القمر عند الكنعانيين، والعنزة هي إلاهة الفلستينيين، وأم زيفس الكريتي التي يطلق عليها اليونانيون اسم أمالثيا، والكبش، هو إله السماء عند السومريين، أو هو آمون الذي رأسه رأس كبش عند المصريين.

أما الحمامة، شعار إسرائيل (سفر هوشع 7: 11؛ 11: 11)، فهي الطائر غير المهاجر الذي يألف الصخور والحفر (سفر إرميا 48: 28، وسفر نشيد الإنشاد 2: 14)، في حين ترمز اليمامة، وهي طائر مهاجر، للإسماعيليين البدو وأقربائهم الآدوميين.

إسماعيـــل

مضى على زواج ابرام بساراي عشر سنوات دون أن تلد له ولداً، فقالت له ساراي: «هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة. ادخل على جاريتي هاجر، لعلي أرزق منها بنين». فسمع ابرام لقول ساراي، وكان عمره الآن خمساً وثمانين سنة. ولما حبلت منه هاجر صغرت مولاتها في عينيها. فشكتها ساراي لابرام لأنها عيّرتها بعقمها. فقال ابرام لها: «هو ذا جاريتك في يدك. افعلي بها ما يحسن في عينيك». فأذلتها ساراي. وهربت هاجر من وجهها.

فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية، في الطريق إلى شور، بين قادش وبارد. وقال: «يا هاجر، جارية ساراي، من أين أتيت وإلى أين تذهبين؟» قالت: «أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي». فقال لها ملاك الرب: «ارجعي إلى مولاتك، واخضعي تحت يديها». ثم أردف قائلاً: «تكثيراً أكثّر نسلك... ها أنت حبلى فتلدين ابناً، وتدعين اسمه اسماعيل، لأن الرب قد (سمع) لمذلتك، وسيعيش في البرية، كحمار وحشي، ويذبّ عن نفسه بقوة السلاح».

فهتفت هاجر قائلة: «لقد رآني الله (إيل رُئي) ». ولذلك دعيت البئر «لحي رُئي». وولدت لابرام ابناً، ودعا ابرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل.

بعد مضي عدة سنوات، أنجبت ساراي إسحاق في شيخوختها. ولما رأت إسماعيل يلاعبه، قالت لابرام: «اطرد هـذه الجاريـة وابنها، لأن إسحـاق هو وريثك، وليس إسماعيل!» فقبح هذا الكلام في عيني إبراهيم، إلا أن الله واساه قائلاً: «لا يقبح في عينيك كلام سارة في هاجر وإسماعيل! في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها؛ لأن أبناء إسحاق سيكونون شعبـي المختار. ومع ذلك، فلأن إسماعيل هو الآخر ابنك، سأجعله أمّة لأنه نسلك».

بكّر ابرام في فجر اليوم التالي وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجّر وصرفها مع ابنها. فمضت، وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة، طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، وجلست مقابله على بعد رمية قوس، لأنها قالت: «لا أتحمل موت الولد». ورفعت صوتها وبكت. فسمع ملاك الرب صوت

الغلام، وقال لها: «لا تخافي يا هاجر! لأن الله قد سمع لصوت الغلام، قومي احملي الغلام وشدي يدك به، لأني سأجعله أمّة عظيمة». وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. ذهبت إليها وملأت القربة ماء، وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام، فكبر، وسكن في برّية فاران. وزوّجته أمه من امرأة مصرية، أو موآبية، في رواية أخرى.

ويزعم البعض أن ساراي اغتاضت على هاجر لوقاحتها، فطردتها عن سرير إبراهيم، وضربت وجهها بالنعل. وأصابتها بالعين، فكان وليدها بنتاً ماتت عند ولادتها. وأقسرت هاجر على حمل الدلاء والمناشف إلى الحمام. ثم أصابت ساراي إسماعيل هو الآخر بالعين، فهزل وذوى إلى حد لم يقوَ على المشي، وعندما طرد ابرام هاجر، حملته على ظهرها، رغم أن عمره كان خمس عشرة سنة، أو ربما خمسة وعشرين.

وينزّه البعض ساراي من الملامة، مُدّعين أن إسماعيل الصبي رمى إسحاق بسهم، لكنه أخطأه، وبنى فيما بعد مذبحاً لغير الرب، وعبد الأصنام، واصطاد الجراد، وعاشر الساقطات، واغتصب العذارى. وكان إسماعيل يهزأ بمن يقول له أن إسحاق سيكون الوريث الأول بعد موت ابرام، قائلاً: «أولست الوليد البكر؟».

ويزعم آخرون أن الله حين فجّر عين الماء في البرية لإنقاذ حياة إسماعيل، احتج عليه ملائكته قائلين: «يا رب العالمين، لماذا تنجّي رجلاً سيترك شعبك المختار يموتون عطشاً؟» إلا أن الله أجابهم قائلاً: «أولا يطيعني الآن؟» قالوا: «بلى، إنه ما يزال رجلاً صالحاً». فقال الله: «إنني أقاضي كل نفس بما هي عليه الآن، وليس بما تكون عليه!».

وينفي آخرون عن إسماعيل عبادته للأوثان وسلوكه الشائن. ويقولون إن ابرام قال لساراي بعد مضي سنوات على طرد هاجر: «لقد استبدّ بي الحنين إلى ابني إسماعيل». فبكت ساراي قائلة: «ابق، يا مولاي، أتضرع إليك!» وإذْ ألفته مصراً على الذهاب، طلبت منه أن يحلف لها بألّا يترجل من جمله عندما يحصل إلى خيمة إسماعيل، لئلا ينصرف قلبه عن إسحاق.

وسار ابرام إلى برّية فاران، وعند الظهر وقع بصره على خيمة إسماعيل، لكنه لم يجد إسماعيل ولا هاجر، بل زوجته مرباح ومعها بضعة أطفال. سألها ابرام: «أين إسماعيل؟» أجابته قائلة: «ذهب للصيد». فالتزم ابرام بوعده

لساراي، ولم يترجل. ثم قال: «اعطني شيئاً أبلّ به ريقي وأسكت جوعي، يا ابنتي». فأجابته مرباح: «لا ماء لدينا ولا خبز». ولم تتحرك قيد أنملة عن الخيمة، وما ألقت على إبراهيم نظرة، أو سألته من يكون، بل أخذت تضرب أبناءها وتلعن إسماعيل الغائب. فاستاء ابرام لذلك كثيراً. وأمر مرباح أن تقترب منه، وقال لها دون أن يترجل من جمله: «عندما يعود زوجك قولي له: قدم إلى هنا شيخ أوصافه كيت وكيت من أرض فلسطين، يبحث عنك. لم أسأله عن اسمه، لكنني أخبرته بأنك غائب. ثم أنه قال لي انصحي زوجك بأن يغير وتد الخيمة بآخر!» ولدى عودة إسماعيل أبلغته مرباح بالرسالة، فأطاع ابرام وطلّق مرباح وتزوج امرأة من جهة أمه تدعى فطومة [؟].

وبعد ثلاث سنوات زار ابرام خيمة إسماعيل ثانية، فهرعت إليه فطومة تحييه، وتقول له: «يؤسفني أن أخبرك أن سيدي إسماعيل ذهب للصيد. هلم، تبلّغ بلقمة، ريثما يعود، فلا بد أنك مجهد بعد طول السفر». أجابها ابرام: «لا أستطيع الترجل؛ لكني أتوسل إليك أن تروي عطشي بجرعة ماء». فقدمت له فطومة ماء، وأشفعته بكسرة خبز. فاستجاب لها بسرور، وبارك إسماعيل وحمد الله، وقال لها: «عندما يعود إسماعيل قولي له: قدم إلى هنا رجل مسن أوصافه كيت وكيت، من أرض فلسطين، يبحث عنك، وقال لي: طمني زوجك بأن وتد الخيمة الجديد على أحسن ما يكون؛ ولا داعي لاستبداله!» وقد فهم إسماعيل من مضمون هذه الرسالة أنها أحسنت إلى حميها، فاصطحبها مع أولاده، وغنمه، وإبله، لزيارة إبراهيم في أرض فلسطين، وحلّوا هناك أياماً. (عن سفر هاياشار).

ولم يلتق إسماعيل بإسحاق سوى مرة ثانية: عندما واريا إبراهيم التراب سوية في مغارة مكفيلة في حبرون (الخليل).

ثم مات إسماعيل عن اثني عشر ولداً، هـم: نابت، وقيدار، وادبيل، ومبسم، ومشمع، ودوما، وددام، ومسّا، وحداد، وتيما، ويطور، ونافش، وقدمه. وصار كل منهم أميراً على قرية.

• • •

هذه الأسطورة تدعم المزاعم الإسرائيلية بالانتساب إلى قوم أرفع مقاماً من الأقارب الجنوبيين الذين أجبرتهم ساراي زوجة أبيهم على النزوح إلى البرية، وأن لم ينحدر نسبهم هذا من الولد البكر. ولفظة (هاجر) تعني باللغة

العربية الجنوبية (قرية)، وهذا يفسر كيف أن أحفادها عاشوا في قراهم الخاصة بهم[73].

أما (لحي رُئي) فالمرجح أن معناها «بئر فك الريم»، وذلك على غرار الآبار الأخرى المسماة بأسماء الحيوانات، مثل «عين جدي»، و «عين عجلايم» (بئر العجلتين). وفي سفر القضاة (17:15 ــ 19) يفجّر الله عين ماء لشمشون، مثل إسماعيل، من بئر تدعى لحي (عظم الفك)[74].

وفي شريعة حمورابي ثمة ما يذكرنا بالعلاقة المعقدة بين أبرام، وساراي، وهاجر: «إذا تزوج رجل بكاهنة ــ ناديتوم (عبدة في خدمة هيكل، أو خادمة معبد، محظور عليها أن تلد أطفالاً) ــ وإذا قدّمت لزوجها جارية لتنجب له أولاداً، وإذا طالبت هذه الأمة فيما بعد بمنزلة مساوية لسيدتها، بذريعة الأولاد الذين أنجبتهم، فلا يحق للكاهنة بيعها، إنما يمكن أن تعود إلى العبودية بين فئة العبيد الذين تنتمي إليهم». أما خلع النعل في أمر الفكاك والمبادلة ــ التجاريين ــ فكان عادة دينية (سفر راعوث 7:4؛ سفر المزامير 10:60). فعندما ألقت سارة النعل بوجه هاجر، كانت ترمي من وراء ذلك أن تذكّرها بأنها خادمة.

وهناك خلط في التوراة حول سلالة إسماعيل. ففي سفر القضاة (24:13) تم إدراج أبناء مديان بين سلالة إسماعيل، في حين يعتبر سفر التكوين (1:25) مديان أخاً غير شقيق لإسماعيل. ويبدو أن أسماء أبناء إسماعيل هي أسماء مناطق وقبائل وآلهة. فمنطقة نابت تقع شرقي البحر الميت، وقيدار شمالي نابت في بادية الشام. وقد قرن البعض نابت خطأً بالأنباط. أما منطقة حداد فغير معروفة؛ بيد أن (هدد) كان إلهاً كنعانياً للرعد. وأما (قدمه) فيعني «القادمين من الشرق»، ربما بادية الشام.

وقد وردت أسماء ادبيل، ومسّا، وتيما في سجلات الملك الآشوري تجلات بلاصر (القرن الثامن قبل الميلاد) على النحو الآتي: ايديبا عيليتس، وماسأ، وتيما (أي تيماء)، وهي قبائل عربية.

---

(73) مادة (هجر)، في عربيتنا، تفيد معاني كثيرة، منها ما جاء اعلاه. فالهاجري: من لزم الحضر. وهناك المثل العربي «مهاجرٌ ليس بإعرابي»، اي حضري ليس إعرابياً. والهاجريّ: البنّاء.

(74) وهي كذلك بالعربية، اي أن (لحي) تعني عظم الفك.

أما سجلات آشور بانيبال (القرن السابع ق.م.) فترد فيها الأسماء الآتية: سو ــ مو ــ عيل، أو اشمايل من أتباع الملك Uate، أو Iaute؛ وقيدار من أتباع الملك امولادي. وقد كلف تجلات ــ بلاصر ايديبعلو من مواطني الجزيرة العربية بمهمة حراسة الحدود المصرية، وبعد غزو الفلسطينيين وإخضاعهم أعطاه خمساً وعشرين مدينة. اما تيما فواحة في شمال الجزيرة العربية تدعى الآن تيماء. وأما دوما فلعلها ادوماتو: واحة وحصن في بادية الشام أخضعها سنحاريب تحت حكمه. وأما مبسم ومشمع فيردان في كتاب العهد القديم ضمن أبناء شمعون، وهذا يعني أن القبيلة الإسرائيلية المنحدرة من شمعون، والتي تمتد منطقة نفوذها إلى الجنوب من يهودا، هضمت جزءاً منهما على الأقل.

وبعد أن أسس داود مملكته متحالفاً مع البدو الآراميين، يبدو أن أبناء إسماعيل أجبروا على التراجع إلى الجنوب واندمجوا مع القبائل العربية المتوطنة. وما يزال العرب يعتبرون القبائل العربية الشمالية، أي العدنانية، متحدرة من إسماعيل. أما اسم هاجر فقد انتقل إلى الهاجريين، وهي قبيلة ورد ذكرها مع يطور ونافش في سفر الأيام الأول (19:5)، ومع الإسماعيليين في المزمور (7:83).

إبراهيم في جرار

في جرار، بين قادش وشور، ادّعى إبراهيم، مرة أخرى، بأن ساراي أخته. وعندما هَمَّ الملك ابيمالك بأن يقضي وطره معها، أنذره الله بالهلاك، فارتدع.

وأنعم الملك ابيمالك على إبراهيم بالثيران، والغنم، والإماء، وألف قطعة من الفضة، ودعاه للإقامة في جرار. فتشفع إبراهيم إلى الله أن يعيد إلى نساء جرار الخصب بعد أن ختم على أرحامهن (سفر التكوين 1:20 ــ 18).

ويزعم البعض أن الملاك ميكائيل هدد ابيمالك بسيف وقال له: «عندما يفد غرباء إلى مدينة ما، يقتضي العرف استضافتهم، والإحجام عن التقرب إلى نسائهم. ولأنك سعيت وراء ساراي، فقد خاف أبرام أن يقتله رجالك، إذا اعترف بأنها زوجته. فالذنب هنا ذنبك!».

ويستطردون قائلين إن الله لم يختم على أرحام نساء جرار فحسب، بل ختم كذلك على فتحاتهن الخفية الأخرى، وعلى فتحات الرجال أيضاً، فاجتمعوا جميعاً في الصباح ولهجوا قائلين: «وحق السماء، لئن طال الأمر ليلة أخرى، لهلكنا!».

• • •

كانت جرار اسماً لمملكة وعاصمتها، وتقع بين غزة وبير سبع على حدود كنعان الجنوبية الغربية التي تفصلها عن مصر. على أن اعتبار ابيمالك ملكاً فلسطينياً (سفر التكوين 33:21 ــ 34؛ 1:26، 8، 18) إنما هو مفارقة تاريخية، لأن مجيء الفلستينيين إلى أرض كنعان تم في حدود 1200 ق.م. وفق معظم التقديرات، بينما عاش إبراهيم في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ق.م. إلا أن هناك عدداً متزايداً من المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد الآن بأن الغزو الفلستيني الذي تم في حدود 1200 ق.م. لم يكن الأول من نوعه (مثلما كان يشوع يعتبر الحلقة الختامية من عملية الهجرة العبرية إلى ارض كنعان). وأن بعض الفلستينيين استوطنوا (جرار) في تأريخ يرقى إلى 1500 ق.م.

مـولـــد إسحـــاق

عندما بلغ أبرام عامه التاسع والتسعين غيّر الله اسمه إلى إبراهيم، الذي يعني «أباً لجمهور من الأمم»؛ ومرة أخرى بشّره بأن نسله سيحكمون أرض كنعان، إلا أنه اشترط هذه المرة مع هذا الوعد أن يُختن كل ولد ذكر في اليوم الثامن لمولده. وبناء على ذلك ختن إبراهيم نفسه وبقية الذكور في عائلته. وغيّر الله اسم (ساراي) إلى (سارة)، التي تعني «أميرة»، واعداً إياها بأنها ستكون أماً لأمم.

فسقط إبراهيم على وجهه وضحك، وقال في دخيلته: «هل يولد لابن مئة سنة، وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة؟» ولكي يطمئن، على الأقل، أن يعيش إسماعيل، قال للرب: «ليت إسماعيل يعيش أمامك». فأجابه الله: «أولم أعدك بأن تنجب لك سارة ولداً؟ ولأنك ضحكت لوعدي، فستدعوه إسحاق. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره، وأكثّره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة؛ ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية». ولما فرغ من الكلام معه، صعد الله عن إبراهيم.

وظهر له الرب عند بلوطات ممرا (أجمة البلوط في ممرا) وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار. فرفع عينيه وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. خف لاستقبالهم راكضاً، ليغسلوا أرجلهم ويتبلغوا بكسرة خبز. وكلف سارة بأن تعد سميذاً وخبز ملّة، ثم ركض هو إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً ليذبح ويطبخ. وقدمه لضيوفه مع الزبدة واللبن. وأكلوا في فيء شجرة، وسألوا عن سارة. فقال: «ها هي في الخيمة». قالوا له: «بعد عام من اليوم ويكون لسارة امرأتك ابن». وضحكت سارة في سرها لأن عادتها الشهرية توقفت منذ زمن. إلا أنهم قالوا: «لماذا ضحكت سارة. هل يستحيل على الرب شيء؟» فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك. قالوا: لا، بل ضحكت!

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وسار إبراهيم معهم ليشيعهم.

وفي العام التالي ولدت سارة ابناً، سماه إبراهيم إسحاق، وختنه في اليوم

الثامن. فقالت سارة: «كل العالم سيضحك عندما يترامى إليهم أنني أرضع ابن إبراهيم». وأولم إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحاق. (سفر التكوين 21:1 ــ 8).

ويزعم البعض أن المنجمين استشاروا خريطة البروج، وقالوا له: «لن يولد لك ولد!» إلا أن الرب وعده قائلاً: «هذا الطالع كان مقطوعاً على أبرام، ولهذا غيرت اسمك إلى إبراهيم لكي يكون لك ولد. كما غيرت اسم ساراي بسبب طالعها».

• • •

تُروىٰ هذه الحكاية بصيغتي المفرد والجمع عندما يشار إلى الله بصيغة ،يلوهيم. ومع أن غونكل وآخرين يرون أن سبب هذا الارتباك في الصياغة يعود إلى أن هناك أكثر من كاتب اشترك في كتابة هذا الإصحاح، إلا أن التغيير يبدو مقصوداً لإظهار قدرة الله على الظهور كثالوث (المقصود بذلك الملائكة الثلاثة)(75).

ويتكرر عقم سارة الطويل مع أسطورة (رفقة) (سفر التكوين، الإصحاح الخامس والعشرون)، وراحيل (سفر التكوين، الإصحاح التاسع والعشرون)، وأم شمشون التي لم يذكر اسمها (سفر القضاة، الإصحاح الثالث والعشرون)، وحنّا أم صموئيل (سفر صموئيل الأول، الإصحاح الأول)، والبطلة البابلية زوجة إيتانا Etana.

وتغيير الله لاسم أبرام إلى إبراهيم لا يبدو، للوهلة الأولى، أنه يستحق الأهمية التي تم التأكيد عليها، ما دام الاسمان صيغتين مختلفتين للقب الملكي ابامرامو، أو أبيرامو، الواردين في الألواح المسمارية ما بين القرن التاسع عشر والقرن السابع عشر ق.م.؛ وكذلك الحال مع أبيرام Abiram، وهو اسم أحد المتآمرين على موسى (سفر العدد 1:16). أما أبيرامو فيعني «الله رام هو أبي»، أو يمكن قراءته على النحو الآتي: «الأب العلي». أما (أب لجمهور من الأمم)، وهو المعنى الذي أعطي لاسم (إبراهيم) في سفر التكوين، فمشتق من كلمة (الرهام) العربية، وتعني «الكثرة»(76). كما أن الاسم المقدس (رام) يرد أيضاً

(75) في التوراة يظهر هذا الاختلاف والارتباك، مرة بصيغة الجمع، واخرى بصيغة المفرد؛ غير ان المؤلفين وحّدا الصيغة.

(76) في القاموس، الرُّهام: العدد الكثير.

في (أدوني رام)، و (يهورام)، و (ملكي ـــ رام)؛ ويستعمل في حالة الجمع عند وصف الكائنات السماوية. وكان أحد ملوك أدوم يدعى في أيام سنحاريب: «ملك ـــ رامو».

وكان تغيير الأسماء عادة متبعة في إسرائيل، في احتفالات التتويج، أو تقلد مناصب رفيعة، مثلما تغير هوشع إلى يشوع، وجدعون إلى يرُبعل، ويديديا إلى سليمان، وألياقيم إلى يهوياقيم، ومتّنيا إلى صدقيا. كما أن تغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل يمكن أن يكون مثالاً آخر على ذلك.

أما (ساراي) فهي الصيغة الأسبق لسارة، وكلتا اللفظتين ترجعان إلى أصل سامي قديم يعني (ملكة) أو (أميرة). وكانت هناك ملكة فينيقية تُعبد في بُصرى من أعمال حوران، تدعى شاريت Sharit أو شارايات Sharayat (وهو اللفظ المقابل لساراي). وهذا يدعو إلى الاعتقاد بأن زواج إبراهيم بسارة يعبّر عن اتحاد قبيلة آرامية باترياركية (أي وفق النظام الأبوي) يرئسها شيخ يتمتع بمنزلة دينية، مع قبيلة عربية أمومية ترئسها أميرة ـــ كاهنة.

على هامش النص

يرجح السيد مصطفى الدباغ في كتابه الموسوعي (بلادنا فلسطين) أن إبراهيم آموري، وبكلماته: «من العرب السوريين الذين حكموا العراق مدة ٢٧٠ سنة وأسسوا فيه الدولة البابلية الأولى... وأما القول بأنه (آرامي) فوهم، لأن الآراميين أخذوا ينزلون مشارف الجزيرة العربية بعد أيام هذا النبي بنحو ثلاثة قرون»[77]. وهناك من يقول بآراميته، من بينهم مؤلفا الكتاب؛ ويعروبته. إلا أن أحداً لا يستطيع ـــ في حدود المعلومات المتوفرة حالياً ـــ أن يأتي بالقول الفصل حول هويته واللغة التي كان يتكلم بها، أهي آرامية، أم بابلية، أم عبرية، أم عربية، أم سامية أم (وان كان هذا الاحتمال الأخير ضعيفاً لأن إبراهيم لم يعش في عصر بالغ القدم). ولا يقتصر الاختلاف على ذلك وحده، بل على المرحلة التي وجد فيها أيضاً. وتتراوح الأرقام التأريخية هنا بين عام 2000 وعام 1500 ق.م. ويزيد الطين بلة ورود اسمه في ألواح ايبلا (ليس اسمه فحسب، بل وأسماء أخرى ترجع إلى تواريخ سابقة ولاحقة)، في حين ترقى هذه الألواح إلى تأريخ أقدم مما ذكرنا، وبالتحديد إلى القرن الرابع والعشرين قبل

(77) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، المجلد الأول، القسم الأول، ص 414.

الميلاد. ومع هذا فلنحاول مناقشة الأسماء التي لها صلة بإبراهيم، والمعلومات المتوفرة عنه وعن عائلته من خلال المعطيات التأريخية وشبه التأريخية ــ الشحيحة ــ التي وصلت إلينا.

باديء بدء، يبدو أن هناك قبيلة أو أكثر، كان رئيسها (تارح) أبا ابراهيم، هاجرت من أور إلى حرّان، مع أبرام ابنه، ولوط بن هاران، وابن آخر لتارح هو ناحور، وزوجاتهم، عُرفت من بينهن ساراي زوجة أبرام. أما متى، فغير معلوم بالضبط. وكانت أور مهداً لعبادة عدد من الآلهة، كبيرها هو نانّا Nanna أو (سين) إله القمر السومري ــ الأكدي. وكانت محطتهم الأولى حرّان التي تقع بين دجلة والفرات في وادي الباليخ قرب الخابور، وهي مركز آخر مهم لعبادة إله القمر سين. إذن فهجرة تارح من أور إلى حرّان لها أبعاد دينية، لأن كلتيهما تقترنان بعبادة القمر. ومما يعزز ذلك أن لفظة (تارح) تعني (القمر) أيضاً، كما سنرى بعد قليل. ولكن، فلننظر في الاحتمالات الأخرى لمعاني الكلمة:

يشتق البعض كلمة (تارح) من الفعل (ترح)، ويعني (حزن، قاسىٰ)، على نحو ما جاء في الكتاب اليوبيلي (الإصحاح 11:1 ــ 15)؛ بيد أن هذا المعنى لا يعنينا هنا، فهو من اشتقاقات العامة. وفي النصوص التأريخية هناك مدينة تدعى (تارح)، أو (تل توراحي)، ورد ذكرها في النقوش الآشورية في القرن التاسع ق.م. وتقع بالقرب من حرّان، كما مر بنا آنفاً. وهناك معنى آخر للكلمة، هو: يبرح، أو يرحل. لكن المعنى المرجح لها، والأكثر اتفاقاً مع القرائن الأخرى هو القمر، لأن مادة (يرح) أو (ترح) السامية تعني القمر. ففي الأوغاريتية الكنعانية يقال للقمر يرح. ومن هذه المادة اشتق اسم مدينة (اريحا) في فلسطين، مثلما يُظن أن سيناء مشتقة من الإله (سين)، إله القمر السومري ــ الأكدي. وفي اللغة العربية الجنوبية يقال للقمر (وَرْخ) أو (يرخ). وتقال هذه الكلمة للشهر أيضاً، الذي كان قمرياً. وفي العربية الشمالية أرخ، ومنها اشتقت كلمة (التأريخ).

وكان (سين) إله القمر السومري ــ الأكدي يشغل مركز الصدارة بين الثالوث السماوي مع ابنه شماش، وابنته عشتار (الزُهَرَة). وكان بهيئته البشرية يعتمر عمامة في راسه، وله لحية طويلة بلون اللازورد.

وكان القمر في الديانات الهندية الأوروبية إلاهة انثى؛ يقال له باليونانية سيلينة Selene، وكذلك سيميلة Semele، وهي أخت هيليوس Helius (الشمس). وقد سادت عبادة القمر في اليونان في مرحلة المجتمع الأمومي. وكانت

هيلين Helen اسماً لإلاهة القمر الإسبارطية. وكانت عبادة القمر تقترن بعبادة الإلاهات الإناث يوم كانت سيميلة إلاهة تعبد في أثينا في احتفال (النساء المتوحشات)، حيث يُقطّع ثور يمثل دايونيسوس، كل عام، تسع قطع ويضحّىٰ به لسيميلة. وكان هيللن بن ديوكاليون (وهذا الأخير بمثابة نوح عند اليونانيين) يعتبر أباً للجنس الهلليني برمته؛ ويرمز اسمه إلى أنه كان ولي عهد للكاهنة هيللة (وتعني ساطعة) أو سيلينة (القمر)(78).

وهكذا، فإن اليونانيين القدامى كانوا يعتبرون أنفسهم منحدرين من القمر. وكان الآيونيون والأيوليون أول موجتين من الهللينيين الذين غزوا اليونان، وتحت تأثير الهيلاديين عبدوا الثالوث المؤلف من ثلاث إلاهات، وغيروا تقاليدهم الاجتماعية تبعاً لذلك، وأصبحوا إغريقاً (تعني كلمة «إغريق» graikoi عَبَدَة الإلاهة الشيباء، أو العجوز). وبعد ذلك تمكن الآخيون والدوريون من إقامة نظام باترياركي، وميراث باترياركي، واعتبروا آخيوس، ودورس، ابنيْ أول جيل من الجد هيللن، الصيغة المذكرة لإلاهة القمر هيللة Helle أو هيلن Helen (79).

إذن، كان في اليونان: ديوكاليون الناجي من الطوفان، واسمه يعني «بحّار الخمرة الجديدة»، ثم هيللن (القمر بصيغته المذكرة)، وهو أبو الجنس الهلليني اليوناني.

بالمقابل: نوح الناجي من الطوفان وغارس الكرمة، ثم تارح (القمر)، ثم إبراهيم أباً للجنس العربي والعبري (العربي عبر إسماعيل، والعبري عبر إسحاق).

فهل يستدل من هذا أن (تارح، أي القمر) كان اسماً رمزياً أكثر منه اسم علم حقيقي؟ وربما حتى إبراهيم، كما يفيد بذلك اسمه، سواء بصيغته الأولى (أبرام) أو الثانية (إبراهيم)؛ وكذلك الحال مع الأسماء الأخرى، فهي أيضاً، لها أبعاد روائية وميثولوجية أكثر منها حقيقية، مثل إسماعيل (يسمع الله)، وإسحاق (يضحك، لأن أمه سارة ضحكت لما علمت أنها ستنجب ولداً رغم انقطاع العادة

---

(78) ولعلنا سنرى فيما بعد، في دراسة لنا عن الجذور الاتيمولوجية لبعض الأسماء الميثولوجية ان هناك صلة بين هذه الألفاظ اليونانية: هيللة، وهيلن، وهيللن، وتفيد معنى (السطوع) و (القمر)، وبين كلمة (الهالة) العربية والسامية، وربما لفظة (الهلال) أيضاً.

(79) ينظر في هذا كتاب (الأساطير اليونانية) لروبرت غريفز الذي سبقت الإشارة إليه، ج 1، ص 142، ص 161.

الشهرية وبلوغها المئة عام من العمر)، ويعقوب من (العقب، على افتراض أن يده كانت قابضة بعقب شقيقه التوأم عيسو وهو في بطن أمه)، وإسرائيل (الله يجاهد)، وعندنا أيضاً هناك عدنان (من عدن)، وقحطان (ربما من القحط).

وبالتالي فإن شخصية إبراهيم التي يتعذر تحديد سيرة حياة واضحة لها حسب المفهوم التقليدي للسيرة، ربما كانت شخصية رمزية تعبر، على الصعيد الديني، عن مرحلة الانتقال من عبادة الأوثان والأجرام السماوية إلى الديانة التوحيدية؛ وعلى الصعيد الاجتماعي، عن الانتقال إلى المجتمع الباتريـاركي بصفته شيخاً لقبيلة ومؤسساً لنظام أبوي (واسمه يحمل مثل هذه الدلالة: أبو رام، أو أبو الرهام، أي الكثرة).

على أن هناك من يرى أن إبراهيم كان ملكاً بابلياً توحيدياً لم يكتب لحركته النجاح في العراق، مثل أخناتون الذي سيحاول توحيد الآلهة بعده بعدة قرون في مصر. ويروى أن العراق كان مسرحاً لنزاعات دينية في حوالي نفس الفترة التي ظهر فيها إبراهيم (القرن التاسع عشر ق.م.؟) وكانت هذه النزاعات تدور حول إله الساميين (سين)، إله القمر. «وتشير النصوص القديمة التي عثر عليها أن سلالة من السلالات السامية البالية حكم فيها أمراء كانوا يتقبلون عقيدة التوحيد، وقد أخذوا بها إلا أن الوثنيين انتزعوا منهم الزعامة وأخرجوهم من البلاد»[80] وجاء في كتاب جون فلبـي (مقومات الإسلام ــ عرض لتـأريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام): «إن الساميين الجنوبيين نقلوا معهم (إلى بابل) الإله القمر الذي كانوا يعبدونه، وقد احتل هذا الإله مكانة رفيعة بين مجموعة الآلهة، ولم ينافسه إلا الإله القمر الذي كان يعبده الآريون الشماليون، وقد انبثقت من هذا النزاع الحساس بذرة فكرة الخالق الأوحد العظيم الذي يسيّر جميع هذا الكون (...) ففي بعض الألواح التي عثر عليها المنقبون في منطقة بابل ما يوضح جلياً أن هناك ثلاثة ملوك يؤلفون سلالة بابلية سامية قد حكموا ما يقرب من قرن كامل في المنطقة الجنوبية من بابل، وهؤلاء نادوا وجاهروا بعقيدة التوحيـد إلا أن الوثنيين أسقـطوا الملك الثالث ونفـوه من البلاد. ولو محصنا بدقة ما ورد في المدونات البابلية وفي كتابات التوراة لوجدنا أدلة كافية على أن هذا الملك إن هو إلا أبراهام الذي غادر بابل وتوجه إلى فلسطين، وذلك بعد سقوط السلالة السامية الموحدة المذكورة»[81].

(80) احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ص 261.

(81) عن كتاب احمد سوسة (العرب واليهود في التاريخ)، ص 261.

ويرى فلبـي أن أسماء هؤلاء الملوك البابليين الثلاثة عربية سامية مقترنة بالإله الواحد، فالأول اسمه (ايلوما ــ ايلوم) ومعناه (الإله هو الإله الواحد)؛ والثاني اسمه (ايتي ــ إيلي ــ نبيـي) Itti-ili-nibi ومعناه (الله هو حسبـي)، وهو اسم مشابه تماماً لأسماء ملوك جنوب الجزيرة العربية. وأما الثـالث، وهو بيت القصيد، فاسمه (يـاثع ــ إيـل) Yathi-il ومعناه، كمـا ترجمـه العلامة Daughty «إلهه الواحد صديق له» و (صديق)، هي المقابل لكلمة (الخليل) كما ترد في الكتابات الإسلامية[82].

ولعل كلمة (ياثع) تذكرنا بمادة (ث ع) أو (ث ع ي) الأوغاريتية التي ترد في أسطورة (كارت)، ويقترح الدكتور أنيس فريحة ترجمتها بكلمة (شريف) أو (نبيل)، تذكرةً باللفظة العربية شيْع القوم[83]. وجاء في موضع آخر من كتاب الدكتور فريحة (ملاحم وأساطير من أوغاريت) ما يلي: «وردت لفظة (ث ع) بمعنى ذبيحة، و (ث ع ي) بمعنى الكاهن الذي يقدم الذبيحة. وقد ترجموا الاسم بلفظة نبيل»[84].

ودلت التنقيبات في منطقة بابل على أن تسمية أبراهام أو أبرام وردت في عديد من الألواح البابلية من زمن سلالة بابـل الأولى بصيغة (أبـا راما) و (أبام راما)، وموضوع هذه الألواح يدور حول عقود ومقاولات تتعلق بمعاملات زراعية وتجارية. كما ورد اسم (أبرام) في وثائق مصرية تعود إلى عهد شيشنق الأول (947 ــ 925 ق.م.) حيث ورد فيها ذكر مزرعة باسم «مزرعة أبرام» في جنوب فلسطين لعلها تقع في جوار حبرون[85]. وإذا كان البعض يرى أن إبراهيم عاش في أوائل القرن التاسع عشر وأواخر القرن الثامن عشر ق.م.، أو قبل ذلك بزهاء قرنين، أي في حدود عام 2000 ق.م.، في ضوء بعض القرائن (أسماء مثل ناحور، وتارح، وحتى بنيامين، وردت في الواح ماري التي ترقى إلى هذه الفترة)، فإن آخرين، ومن بينهم مؤلفا الكتاب، يذهبون إلى أن إبراهيم عاش في عهـد الهكسوس، وارتحـل معهم إلى مصر. (حكم الهكسوس مصر بـين سنة 1785 وسنة 1580 ق.م.؛ وهناك رأي ضعيف يرجع بهذه الفترة إلى زمن أسبق، أي بين القرنين الثالث والعشرين والقرن الثامن عشر ق.م.).

---

(82) المصدر السابق، ص 262.

(83) الدكتور أنيس فريحة: ملاحم وأساطير من أوغاريت، ص 154.

(84) المصدر السابق، ص 263 عن De Langhe.

(85) G. A. Barton, Archeology and the Bible, pp. 316-319; Olmstead, History of Palestine and Syria, p. 83.

وفي المصادر الإسلامية إشارة واضحة إلى إقامة إبراهيم في الحجاز وبنائه الكعبة، هو وابنه إسماعيل. جاء في سورة البقرة: «وإذْ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً. واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود... وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل...»[86].

ومع أن الروايات العبرية لا تشير بمثل هذا الوضوح لذهاب إبراهيم إلى الحجاز، إلا أن الخبر الذي رواه سفر هاياشار[87] عن ذهابه إلى البرية، على صهوة جمل، بحثاً عن ابنه إسماعيل لا يتعارضِ مع الرواية الإسلامية، بل يعززها. فورود الجمل في رحلته يحملنا على الاعتقاد بأن إبراهيم إنما رحل إلى أرض الجزيرة العربية. وحتى ذكر الوتد والخيمة ــ وإن وردا هنا مجازاً ــ إنما يرمز لبناء البيت أيضاً.

ويذكرنا اسم (سارة) بالكلمة الأكدية (شارُو) وتعني (ملك)؛ وبالكلمة العربية (سراة) القوم، أي سادتهم ورؤساؤهم. وهذا يعني أنها من علية القوم. ويستفاد من قصة عقمها وتأخرها في الإنجاب، أنها ربما كانت كاهنة عليا من صنف الكاهنات الأكديات المحظور عليهن الزواج أو على الأقل إنجاب الأطفال، مثل أم الملك الأكدي سرجون. وفي هذه الحالة كان يحق لها أن تهدي لزوجها إحدى جواريها لينام معها من أجل إنجاب طفل يعتبر ابناً للكاهنة العليا. ولعل هذا يفسر سر قصتها مع هاجر وإسماعيل؛ لكنها حين ولدت إسحاق تخلت عن إسماعيل وطالبت بأن يكون ابنها صاحب الحق الأول في الإرث.

ولم يدر في خلد المؤرخين المسلمين أيضاً أن تكون سارة زوجة وأختاً لإبراهيم في وقت معاً. فالمسعودي يحاول التهرب من هذه الحقيقة زاعماً أنها ابنة عم إبراهيم، ويشير بحذر إلى غير ذلك، في قوله: «وكانت سارة أول من آمن بإبراهيم عليه السلام؛ وهي ابنة بتوايل بن ناحور، وهي ابنة عم إبراهيم، وقد قيل غير هذا مما سنورده بعد هذا الموضع»[88]. لكنه لم يورده بعد هذا الموضع.

---

(86) الآيتان 125، 127.

(87) سفر هاياشار كتب باللغة العبرية في الأندلس في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وهو تفسير لسفر التكوين، وبداية سفر الخروج، وسفر العدد، وسفر يشوع.

(88) مروج الذهب، ج 1، ص 57، الطبعة المشار إليها سابقاً.

وسيفزع أيضاً من ظاهرة الزواج بالأخت ريتشارد فاغنر في أوبرا نيبيلونغ في قوله: «هل سُمع يوماً أن الأخ يعانق أخته كأنها زوجته؟» دون أن يعلم أن غشيان المحارم كان متبعاً، وبالتالي أمراً أخلاقياً مشروعاً عند أبناء قومه الجرمان في عهدهم السابق.

وكانت هذه الظاهرة، أعني الزواج بالأخت، متبعة عند معظم شعوب العالم، بما في ذلك الشعوب السامية بلا استثناء. كانت متبعة عند اليهود حتى أيام حزقيال (القرن السادس ق.م.) الذي وبخ بني جنسه على ذلك، وفي التوراة أن أمنون بن داود ضاجع أخته غير الشقيقة تامار، بينما كانت هي تفضل استئذان أبيهما بذلك (أي بالزواج)[89]. وكان مثل هذا الزواج معروفاً عند العرب أيضاً، كما يقول المستشرق فلكن G. Wilken في دراسته عن الأمومة عند العرب، فقد جاء في هذا المعنى في تأريخ ملوك الحيرة، على نحو ما أشار نولدكة إلى ذلك[90]. وجاء عن أنباء مدينة مرباط «أن الإخوة كانوا يتزوجون شقائقهم من دون مانع. والمراد بالشقائق هنا الأخوات من أب واحد وأمهات مختلفة (أبناء العَلّات) »[91]. وإن باتت الشقائق تعني اليوم الإخوة من أم وأب. ويستطرد المستشرق فلكن قائلاً: «فكم من أمير [عربـي] ورثه في وظيفته ولقبه ابن أخته وليس ابنه. وما على المرتاب إلا أن يطالع تأريخ العرب قبل الإسلام لأبـي الفداء». وهذه الظاهرة هي امتداد لسيادة الأم في المجتمع الأمومي، يوم كانت القرابة من جهة الأم تعتبر أقوى من قرابة الأب. ومن بقاياها في عالمنا العربـي، كما يقول فلكن، المكانة التي يشغلها الخال في الأمثلة العربية: «ثلثا الولد على خاله». وكانت عرب الجاهلية تقول: «نزعه عرق الخال»؛ وفي الأمثال أيضاً «الأصيل يخول»[92].

ويشير فريدريك انجلس في كتابه (أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة)

---

(89) جاء في سفر صموئيل الثاني (1:13): «وجرى بعد ذلك انه كان لابشالوم بن داود اخت جميلة اسمها تامار، فأحبها امنون بن داود»، وفي موضع آخر: «وقال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي. فقالت يا اخي لا تذلني، لانه لا يُفعل هكذا في إسرائيل. لا تعمل هذه القباحة. اما انا فأين اذهب بعاري، واما انت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل. والآن كلّم الملك لانه لا يمتنعني عنك» (صموئيل الثاني 11:13 ــ 13).

(90) بندلي صليبا الجوزي: دراسات في اللغة والتأريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، ص 161. دار الطليعة ــ بيروت، سنة 1977.

(91) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(92) المصدر السابق، ص 164 ــ 165.

إلى هذه الظاهرة أيضاً عند اليونانيين القدامى، في قـوله: «إن اليونـانيين لا يعرفون إلا بالميثولوجيا من الأزمنة البطولية طبيعة الصلة الوثيقة بخاصة التي تجمع بين الخال وابن الأخت والتي تعود في أصلها إلى عهد الحق الأمي والتي توجد عند كثير من الشعوب»[93].

(93) فريدريك انجلس: أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، هامش، ص 180 ــ 181، الطبعة المشار إليها سابقاً.

لوط في سدوم

تردد الرب قبل أن يسرّ إبراهيم بقراره القاضي بتدمير سدوم؛ لكنه عقد عزمه أخيراً على ذلك بعد استقباله بحفاوة في ممرا. فقال لإبراهيم: «لقد تناهت إليّ سمعة سدوم وعمورة الشائنة. سأنزل الآن لأرى إن كانت الشائعات صحيحة أم مبالغاً فيها». اقترب إبراهيم منه وقال: «وهل سيحرق مولاي الأخضر واليابس؟ قد يوجد خمسون رجلاً صالحاً في سدوم! أو خمس وأربعون، أو ثلاثون، أو ربما عشرون». وفي كل مرة كان الله يجيب قائلاً: «من أجلهم سأصفح عن المدينة»، ثم مضى مسرعاً.

بعد ذلك أرسل ملاكين شابين إلى سدوم. حين رآهما لوط يقتربان من بوابة المدينة، سجد لهما وقال: «هلّا نزلتما عندي الليلة يا سيديَّ» فاستجابا لدعوته.

تجمهر حشد من رجال سدوم حول منزل لوط مطالبين إياه بهذين الشابين ليقضوا وطرهم معهما! إلا أن لوط أوصد الباب في وجوههم، مفضلاً أن يفترعوا ابنتيه العذراوين على هذا العمل الشنيع، إن كان هذا يسكت سعارهم! لكن صياحهم تعالى قائلين: «دونك يا هذا! كيف تجرؤ على رفع صوتك علينا وأنت طارىء على سدوم...» ثم أزاحوا لوطاً جانباً وهمّوا بالدخول، إلا أن الملاكين أعمياهم، وأنقذا لوطاً، ثم أوصدا الباب من الداخل.

فنصح لوط أقرباءه بمغادرة المدينة لأنها ستتعرض إلى غضب الله، بيد أنهم هزئوا به. ولم يفلح إلا في اصطحاب زوجته وابنتيه.

عند ذاك أحرق الله سدوم وعمورة بالنار والكبريت. بيد أن زوجة لوط التي كانت قد تخلفت في سيرها، تطلعت إلى الوراء، فتحولت إلى عمود ملح. وقد عاقب الله أبناء سدوم وعمورة لأنهم طغوا وتجبروا ولم يكرموا الضيف رغم سعة ثرائهم.

• • •

تذكرنا هذه الأسطورة بما رواه سترابو عن أسطورة حول دمار ثلاث عشرة مدينة مزدهرة تقع على مقربة من قلعة ماسادا إلى الجنوب الغربي من

ساحل البحر الميت، بالزلزال، تفجرت فيها حمم من القار والكبريت، في أثنائها غمرت مياه البحر المنطقة وأغرقت السكان اللائذين بالفرار. ويروي يوسفوس أيضاً: «كانت بحيرة أسفلتاتيوس [البحر الميت] تحد سدوم التي كانت في غابر الزمن بلداً مزدهراً، إلا أنها أصبحت اليوم قاعاً صفصفاً بعد أن دمر الله مدنها بالصاعقة. وما يزال يُرى «ظل» مدن خمس هناك».

وبعد وقوع الزلزال، شوهدت كميات كبيرة من القار طافية على البحر الميت. ذكر هذه الظاهرة ديودورس الصقلي عام 54 ق.م. وقد تكررت مرة أخرى عام 1834 ميلادية، أي في القرن الماضي. وتوجد مستنقعات ملحية إلى الجنوب من الشاطىء تدعى سدّيم يمكن التقاط كتل من القار منها. ومن المعروف أن البحر الميت لم يكن أرضاً جافة يوماً ما. ويبلغ عمق بعض المناطق فيه زهاء 188 قامة (القامة = 6 أقدام). وعندما حفر الإسرائيليون، حديثاً، بئراً، بحثاً عن البترول قرب سدوم (جبل أسدوم)، وجدوا ملحاً على عمق 18 ألف قدم. ومع هذا يصعب تصديق وجود 13 مدينة مزدهرة في هذه المنطقة، كما ذكر سترابو، أو خمس على حد ذكر يوسفوس، لأن المنطقة شديدة الحرارة، بحكم كونها تقع على ارتفاع يقل بمقدار 1300 قدم عن سطح البحر، وبالتالي يصعب أن تكون ملائمة لحياة مزدهرة.

ويتواتر في الأساطير ذكر المدن التي تم تدميرها بأمر رباني عقاباً على موقف أهاليها غير الكريم تجاه الأغراب. يروي السكان العرب المحليون أن بركة رام، قرب بانياس شمالي الجليل، وهي فوهة بركان هامد، كانت قد غمرتها المياه جزاءً وفاقاً على موقف أهلها غير الودي من الأغراب. ويروي فيريسيدس أن ابولو دمر مدينة كورتينا في كريت لطغيانها. ويحدثنا أوفيد Ovid في كتابه (ميتامور فوسيس) كيف أن زيفس استثنى الزوجين الفريجيين فيليمون وبوسيز من العقاب الذي أنزله بجيرانهم، لأنهما أحسنا وفادته.

ويمكن فهم جزء من الأسطورة بسهولة عندما ينحدر المرء من بير سبع ــ إيلات إلى سدوم، وينظر باتجاه اليسار، فيحصل لديه خداع بصر يوحي بوجود سطوح ومنائر عائدة لمدينة خيالية، وهي صخور ملحية في جبل أسدوم؛ وهناك، على مقربة من شاطىء البحر الميت، تظهر زوجة لوط: عموداً ملحياً هائلاً، يشبه امرأة ترتدي صداراً رمادياً، ووجهها ملتفت صوب هذه المدينة الشبحية. وقصة التفاتتها إلى الوراء، ومن ثم فقدانها الأمل بنجاتها، لها ما يوازيها في قصة أفلاطون المعروفة عن يوريديس زوجة أورفيوس. وعلى الشاطىء الأبعد توجد قرية عربية صغيرة هي بلدة صوغر.

ولعل قصة لوط والسدوميين مستوحاة مما كان يجري في معبد هيرابولس، حيث كانت تقام المحارق والاحتفالات السنوية، وتمارس اللواطة بين الكهنة وصبيان المعابد الذين كانوا يرتدون ملابس نسائية، وكانت الفتيات غير المتزوجات يمارسن البغاء المقدس. وقد وردت الإشارة إلى أمثال تلك الممارسات في معابد أورشليم أيضاً، كما جاء في سفر التثنية (الإصحاحين 22، 23): محظور على الرجال ارتداء ملابس نسائية، و «لا تُدخل أجرة زانية ولا ثمن كلب — المقصود بذلك المأبون — إلى بيت الرب». وفي سفر الملوك الثاني (23: 7) إشارة إلى وجود أماكن مخصصة للمأبونين في بيت الرب (الهيكل). وهكذا، فإن لوحة جدارية تظهر هذه الطقوس الجنسية المشروعة في خلفية من دخان مع صورة للإلاهة عناة من جهة، وكاهن يقف عند باب الهيكل من جهة أخرى، فُهمت فيما بعد على أنها رمز للإسفاف السدومي، وتقوى لوط، وانمساخ زوجته، ودمار المدينة.

ويحدثنا ياقوت [الحموي] من أبناء القرن الرابع عشر عن إباحات مدينة مرباط في جنوب الجزيرة العربية، التي تذكرنا بالممارسات الجنسية غير الشرعية في سدوم: «وأهلها عرب، وزيهم زي العرب القديم، وفيهم صلاح مع شراسة في خلقهم، وزعارة وتعصب، وفيهم قلة غيرة، كأنهم اكتسبوها بالعادة، وذلك أنه في كل ليلة تخرج نساؤهم إلى ظاهر مدينتهم ويسامرن الرجال الذين لا حرمة بينهم، ويلاعبنهم ويجالسنهم إلى أن يذهب أكثر الليل، فيجوز الرجل على زوجته واخته وأمه وعمته. وإذا هي تلاعب آخر وتحادثه فيعرض عنها، ويمضي على امرأة غيرها ويجالسها كما فعل بزوجته».

لوط في صوغر

وجد لوط وابنتاه ملاذاً في مغارة قرب صوغر. وإذْ دخل في روع الفتاتين أن الله قضى على البشرية باستثنائهم، قالت الكبرى للصغرى: «أبونا شاخ، وليس على الأرض رجل يدخل علينا كعادة أهل الأرض. هلمي نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه. فنحيي من أبينا نسلاً». وسقتا أباهما خمراً كثيراً في تلك الليلة، واضطجعت البكر معه. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها في اليوم التالي. ومرة أخرى سقتا أباهما الخمر، وفي الليلة التالية اضطجعت الصغرى معه. وحبلت ابنتا لوط من أبيهما. وولدت البكر ابناً دعت اسمه موآب، قائلة: «لأنه جاء من أبي»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ابناً دعت اسمه بَنْ عمّي. وهو أبو بني عمّون إلى اليوم. (سفر التكوين 19: 30 ــ 38).

يعتقد البعض أن للرب اصبعاً في هذا الحدث، لأن العائلة لم تحمل معها خمراً عندما هربت من سدوم. ولو لم يوفر الله كمية كافية من الخمرة في المغارة، لما كان بوسع ابنتي لوط إقناع رجل صالح كلوط بأن ينام معهما.

• • •

رغم أن هذه الأسطورة تهدف إلى تشويه سمعة محبي الحرب، الموآبيين والعمونيين، جيران الإسرائيليين، إلى الجنوب الشرقي منهم، باعتبارهم وُلدوا من غشيان المحارم، فهي تذكرنا بأسطورة الإغريق الأيونيين عن أدونيس أو تموز، الذي سقت أمه سميرنا أباها ثياس ملك آشور، خمراً، ونامت معه اثنتي عشرة ليلة. كما أن النصب الموآبي الشهير (أواخر القرن التاسع ق.م.) الذي دُونت عليه ثورة ميشع ملك موآب، المظفرة، ضد الملك آخاب، وانتصاره على يوهورام بن آخاب (سفر الملوك الثاني 1: 1؛ 3: 4 وما يليها) مكتوبة بلغة قريبة جداً من عبرية التوراة، فقرأ العبريون «من أبي» و «بن عمي» بما يفيد الموآبيين والعمونيين.

ولم يُنحَ باللائمة هنا على ابنتي لوط بسبب غشيانهما المحارم، لأنهما إنما قامتا بعملهما ببراءة، بل أن تفسيراً مدراشياً أفاد بأن الله أوحى لهما بذلك. وهذه تذكرنا أيضاً بأسطورة من جنوب الجزيرة العربية رواها بيرترام توماس:

عن أبــي زيد الهلالي، رئيس عشيرة بني هلال، الذي كان يقذف خارج الرحم عندما كان يضاجع زوجته. ولما كان شيوخ القرية حريصين على أن ينجب أبو زيد وريثاً، طلبوا من اخته أن تزوره ذات ليلة متنكرة بزي زوجته، ووخزته بدبوس في أثناء المضاجعة، فهيجته بذلك، وقذف فيها، ثم حبلت منه، وأنجبت له ولداً سمي «عزيز بن خاله» الذي اشتهر فيما بعد كمقاتل جريء.

التضحية بإسحاق

ظهر الرب لإبراهيم في بئر سبع، وقال له: «خذ ابنك واصعدا سوية الجبل في أرض الموريا التي سأريكها!».

أجاب إبراهيم: ـــ مولاي، عندي ابنان. من منهما المطلوب اصطحابه معي؟

ـــ ابنك الوحيد!

ـــ مولاي، كل منهما وحيد أمه.

ـــ خذ الابن الذي تحبه!

ـــ مولاي، إني احبهما كليهما على حد سواء.

ـــ خذ الابن الذي تحبه اكثر!

ـــ مولاي، ماذا عليّ أن افعل في أرض الموريا؟

ـــ ضع تقدمة مشوية على مذبحي!

وسأله إبراهيم: ـــ وهل أنا كاهن، فأقدم تضحيات؟

قال الرب: ـــ سأرسمك كاهني الأعلى، وسيكون ابنك إسحاق الضحية.

استيقظ ابراهيم باكراً، واسرج حماراً، واحتطب حطباً للقربان، وشده على ظهر الدابة. ثم انطلق شمالاً، مع إسحاق وغلامين. وفي اليوم الثالث أبصر جبل موريا عن بعد، وقال لغلاميه: «ابقيا هنا، مع الحمار، اما انا والولد فسنذهب إلى هناك، لنعبد الله، ثم نعود عما قريب». وحمل الحطب على ظهر إسحاق، بينما حمل هو سكين الضحية وجمراً في وعاء من طين.

فقال إسحاق: «ابتي، عندنا سكين وحطب؛ اين كبش الضحية؟» اجابه إبراهيم: «سيجهزنا به الرب يا ولدي!» وفي أعلى الجبل بنى إبراهيم مذبحاً، وكوم الحطب حوله، ثم قيّد إسحاق جيداً والقى به عليه. حتى إذا مد يده إلى السكين، هتف هاتف من السماء يناديه: «إبراهيم!» فأجاب قائلاً: «أنا هنا، يا مولاي!» وتناهى الصوت من جديد: «إلقِ بالمدية جانباً، ولا تمس الولد بسوء! لقد اقتنعت بأن لك قلباً كبيراً، لانك لم تضنّ عليّ بتضحية غالية كهذه».

ثم التفت إبراهيم فرأى كبشاً بقرنية؛ فضحىٰ به بدلاً من إسحاق، وسمى المكان يهوة يره (الله يرى).

فأقسم الله باسمه بأن يضاعف نسل إبراهيم كنجوم السماء، وكالرمل على شاطىء البحر، لأنه أطاعه بلا تردد. ثم رجع إبراهيم وإسحاق إلى الخادمين، وعادوا جميعاً إلى بئر سبع.

يزعم البعض أن الخادمين كانا إسماعيل، ابن هاجر، وأليعازر الدمشقي [خادم إبراهيم وقيّم بيته]، وأن إسماعيل قال لأليعازر بعد أن ابتعد عنهما إبراهيم وإسحاق: «أما وقد تلقى أبي أمراً بالتضحية بإسحاق، فسأكون أنا وريثه!» إلا أن أليعازر أجابه قائلاً: «أو لم يهجر أبوك هاجراً بطلب من سارة، وبهذا جردك من الأرث؟ يقينا إنه سيورثني كل ماله، فأنا خادمه الأمين منذ أن اصبحت عبداً له».

وعلى قمة جبل الموريا، كان إسحاق صادقاً في تقبله الموت، حيث قال: «مبارك هو الرب الذي اختارني ضحية له اليوم!» بل لقد ناول إبراهيم الحجارة ليرمم المذبح المتداعي، الذي كان آدم قد بناه، واستعمله هابيل، ونوح، وسام. ثم قال: «شدني جيداً، يا ابتي، لئلا أصدّ عن السكين وأفسد تقدمتك أمام الرب! وبعد ذلك خذ الرماد لسارة وقل لها: هذه هي الآثار الطيبة لجسد إسحاق الضحية!».

وأمضى إسحاق السنوات الثلاث التالية في الجنة، أو كما يزعم البعض، في بيت سام وعابر، حيث درس شريعة الله. إلا أنه حضر قبل كل شيء دفن أمه سارة، التي ذهبت إلى حبرون لتتسقط أخباره، فأكد لها سامائيل أن التضحية به قد تمت.

ماتت سارة عن عمر يناهز المئة والسابعة والعشرين عاماً. فاشترى إبراهيم مغارة وحقل مكفيلة من عفرون الحثي، بأربعمئة شاقل فضة، ودفن سارة هناك، وحزن عليها سبعة أيام.

• • •

- كانت التضحية بالابن البكر شائعة في فلسطين القديمة، ولم تقتصر ممارستها على الملك الموآبي ميشع، الذي أحرق ابنه البكر للإله كموش؛ أو على العمونيين الذين كانوا يتقربون بأبنائهم لمولك [الإله الصنم]؛ أو على آراميي سفارين الذين كانوا يعبدون أدرام ــ ملك، وأنا ــ ملك، بل مارسها أيضاً

الملكان العبريان: آحاز، ومنسّىٰ. جاء في سفر الخروج (22: 28 ــ 29): «وأبكار بنيك تعطيني. كذلك تفعل ببقرك وغنمك. سبعة أيام يكون مع أمه، وفي اليوم الثامن تعطيني إياه!» وهو ما وصفه حزقيال فيما بعد «بالفرائض غير الصالحة». بيد أن هذه الشرعة كان يقصد بها التضحية بالأطفال وليس البالغين، ويمكن الاستعاضة عنها بتضحية رمزية، مثل قلفة الابن البكر عند الختان. أما تضحية إسحاق فكانت مما يمارس في المناسبات القومية الخطيرة، كما فعل ميشع، وآحاز، ومنسّىٰ، أو في احتفالات وضع الحجر الأساس، كما فعل حيئيل في أريحا.

وقد أدخل سليمان إلى أورشليم عبادة مولك وكموش، وكان يقدم إليهما الأطفال ليحرقوا في وادي توفة المعروف بجهنم (انظر سفر الملوك الثاني، 23: 10) ويبدو أن بعض هذه الضحايا كانت تقدم كبدائل للملك، الذي يمثل الإله ــ الشمس، في المناسبات السنوية عند استبدال التاج. ثم استنكر ميخا وأرميا وحزقيال هذه العادة، التي استنكرت أيضاً في سفر تثنية الاشتراع وسفر اللاويين. وفي سفر الخروج إشارة إلى استبدال الوليد البكر بحمار، كما يمكن الافتداء بحمل (خروف) أو حمامتين (سفر الخروج 24: 20؛ سفر اللاويين 12: 6 ــ 8).

أما «الكبش في الأجمة» فيبدو أن هذه الصورة مستعارة من أور الكلدانية، حيث عثر في مقبرة ملكية ترقى إلى أواخر الألف الرابع ق.م. على كبشين من الذهب، أحدهما أبيض والآخر لازوردي، يقفان على قوائمهما الخلفية، وقد رُبطا بسلسلة فضية إلى شجيرة ذهبية مزهرة. وهي صورة تتكرر في الفن السومري.

ولمحاولة إبراهيم التضحية بإسحاق قرينة في الأساطير اليونانية: وهي القصة القدمونية عن أثاماس وفريكسوس. ويرجع أصل هؤلاء القدمونيين (وتعني كلمة «قَدِم» العبرية: شرق) إلى أجينور (أي كنعان). ويبدو أن بعضاً منهم هاجر في القرن الحادي عشر ق.م. من فلسطين إلى قدميا في كاريا [الأناضول]، ثم عبروا بحر إيجة وأسسوا مدينة طيبة في بويوتيا. ويطلق على القدمونيين أيضاً «أبناء قدمة» من سلالة إسماعيل. وهذه القرينة تحل ثلاثة إشكالات مهمة أثارها سفر التكوين: الأول، بما أن إبراهيم لم يكن مزمعاً على تأسيس مدينة، فما هو الأمر الجلل الذي دعاه إلى التضحية بابنه؟ الثاني، لماذا لم يجر اختيار ابنه البكر إسماعيل بدلاً من إسحاق؟ والأخير، هل للخصام بين سارة وهاجر حول الأسبقية علاقة بالتضحية؟

وفيما يلي القصة القدمونية: تزوج أثاماس ملك بويوتيا بالملكة نيفيلة من بيلون، فولدت له ولداً اسمه فريكسوس. وبعد ذلك ولد له ولد آخر اسمه مليسرتيس (ملك أرض) من زوجة أخرى تدعى أينو. وحين علمت نيفيلة بذلك لعنت أثاماس ومليسرتيس؛ أما إينو فقد سببت مجاعة بحبس الماء عن البذور المزروعة، ورشت كاهنة أبولو لتصدر فتوى مفادها أن الأرض لن تسترجع خصوبتها إلا بعد أن يضحي أثاماس بوريثه فريكسوس بن نفيلة، على جبل لافيستيوم. ولما أمسك أثاماس بمدية الأضحية أمره هرقل بالكف عن فعلته، قائلاً: «إن أبـي زيفس، ملك السماء، يمقت التضحية البشرية!» ثم ظهر كبش ذهبـي الجزة كان مرسلاً من لدن زيفس؛ وامتطاه فريكسوس وهرب به إلى بلاد كولخس، حيث كتبت له حياة سعيدة.

وتوحي هذه بأن هاجر، في الأسطورة الأصلية، انتقمت لنفسها من سارة متمنية حصول مجاعة في بيت إبراهيم؛ وقد حصلت مجاعة ورد ذكرها في سفر التكوين بعد أن تزوج بسارة، وأخرى يوم كان إسحاق في جرار، ويبدو أنها كانت بالأصل قد رويت عن إبراهم. وتوحي أيضاً بأن التضحية طلبها نبـي كذاب كانت هاجر قد رشته انتقاماً بسبب حرمان اسماعيل من الإرث. وربما كان ذلك ماثلاً في ذهن سامائيل عندما حاول إيقاف التضحية. ومع هذا فإن الخصام بين سارة وهاجر الذي عالجته شريعة حمورابـي يبـدو اكثر إقنـاعاً من سبب الخصومة بين نيفيلة وإينو، ويومىء إلى أن مهد هذه القصة بلاد سومر. ثم أن النص القدموني يوحي بأن هرب هاجر الثاني من بيت إبراهيم تم بعد محاولة التضحية بإسحاق، وليس قبلها. أما «أثاماس» Athamas فقد يرجع إلى الاسم العبري إيثان Ethan، وهو حكيم وشاعر أسطوري قديم يعني اسمه «الخالد» أو «القوي»[94]. كما أن العبارة الغريبة «هيبة إسحـاق» (سفر التكوين 31: 42، 53)تذكرنا باسم فريكسوس الذي يعني (الرعب). والمجاعة في المجتمعات البدوية تعني الجفاف، وما تزال التضحية الكاذبة برجل يرتدي جزة خروف سوداء تتبع على جبل لافيستيوم بين رعاة بويوتيا في موسم الاعتدال الربيعي، وهو طقس لاستنزال المطر.

وهناك أسطورتان أخريان، هما على نحو وثيق الصلة بهذا الموضوع. أقدمهما حول نذر يفتاح إلى الرب بأن يقدم له أول من يخرج من بيته للقائه عند رجوعه بالسلامة بعد حربه مع العمونيين (سفر القضاة 11: 29وما بعدها)؛

(94) وقد لاحظنا أن العاتن، بالعربية، هو الشديد من الرجال.

أما الثانية فهي عن نذر مماثل يتعهد به أيدو منيوس الكريتي لبوسيدون عندما تعرضت سفينته للغرق. ولم يتعرض يفتاح لأيما أذى بعد التضحية بابنته، وهي «عادة متبعة في إسرائيل»؛ أما رجال أيدو منيوس فقد حلَّ بهم الطاعون، وطرد هو من كريت. وقد آثر اليونانيون الذين صار هاجس التضحية البشرية يورث الرعب في نفوسهم، كالعبريين، أن يدخلوا في روعهم، على سبيل المثال، أن إيفيجنيا ابنة أغا ممنون، افتديت بأنثى ظبي قبيل أن تُقتل في عولس، ثم اختطفت إلى تشيرسونيس... كما أن طقوس حرق الأطفال (لهرقل ملك أرض) استمرت عند الفينيقيين بعد أن تخلى عنها العبريون بأمد طويل.

وتحيي طقوس السنة اليهودية الجديدة ذكرى الاستعداد للتضحية بإسحاق. وعندما سئل الرابي أباهو عن تفسير الغرض من النفخ في قرن الكبش، أي «هتاف البوق» كما جاء في سفر اللاويين (23: 23 ــ 25) أجاب قائلاً: «ذلك لأن الله أمر آباءنا بقوله: اهتفوا لي في قرن كبش، لكي أتذكر ساعة أوثق إبراهيم إسحاق؛ وأعتبرها رمزاً عن استعدادكم للتضحية لي!».

وقد استطردت التفاسير المدراشية حول قصة الخروف، وجنح بها الخيال بعيداً. فمنذ اليوم الأول للخليقة أعدّ الرب هذه البهيمة بالذات لهذا الغرض؛ ورماد الخروف صار ملاطاً للهيكل المقدس؛ وقد استعمل الملك داود مصارينه لقيثارته؛ وتدثر إيليا بفروته؛ وفي جبل سيناء نفخ الرب بقرنه الأيسر، وسيُنفخ بقرنه الأيمن في أيام ظهور المسيح لاسترداد كبش إسرائيل الضال من المنفى...

وجبل موريا هو جبل جريزيم (2300 قدم) الذي يشرف على أجمة أشجار البطم في وادي الموريا، حيث قدم إبراهيم ضحيته الأولى، وتغير اسم موريا فيما بعد إلى شكيم، ثم إلى نابلس الحالية. وهناك كان المعبد المقدس عند الإسرائيليين، الذي زاره إبراهيم، وباركه موسى، وفيه قبر يوسف. ثم فقد هذا المعبد اهميته عندما سبى سنحاريب كهنة وقادة المملكة الشمالية. فأصبحت اورشليم بعد ذلك المركز الشرعي الوحيد للعبادة.

أما مغارة مكفيلة فقد اشتراها إبراهيم من عفرون الحثي. كما أن أثاماس، هو الآخر، كان مرتبطاً بالحثيين، بوصفه اخاً لسيزيف ممثل إله الصاعقة الحثي تيشوب Teshub. واما مغارة «عفرون الحثي» فربما كانت مزاراً مقدساً لفورونيوس الذي كان يدعى ابا اجينور (كنعان)، ولا يروى عنه أنه هو مكتشف النار فحسب، بل هو الذي ادخل عبادة هيرا (عناة) عند الإغريق ايضاً.

على هامش النص

ما تزال أسطورة فريكسوس والجزة الذهبية موضع اهتمام المؤرخين والرحالة. والجزة الذهبية هذه هي التي أغرت (جاسون) ذ العين الصافية، والأبطال الذين جمعهم من كل أنحاء اليونان (بينهم هرقل) لاسترجاعها. وفي القصة الأصلية أن فريكسوس امتطى، هو واخته هيلة، ظهر الخروف، إلا أن هيلة تملكها الخوف أثناء طيران الخروف فوق البحر، فأفلتت يدها، وسقطت في البحر، فسمي باسمها بحر هيلة (وهو بحر الدردنيل الحالي). أما فريكسوس فقد وصل شاطىء كولخس على البحر الأسود. وبعد أن شب عن الطوق تزوج ابنة الملك هناك. وأما الكبش فقد ضحى به الملك، تنفيذاً لإرادة الآلهة، وعلق جزته الذهبية على شجرة في أجمة خفية يحرسها ليل نهار تنين ينفث النار من فمه، كما تقول الأسطورة. وتقع كولخس اليوم في جورجيا السوفييتية على البحر الأسود. وكانت كولخس، هذه، هي، وليس أورارتو (أرارات)، مصدر الحديد لكل منطقة البحر المتوسط. ومما تجدر الإشارة إليه أن الذهب كان يستخرج حتى يومنا هذا تقريباً من كولخس، بعد أن تغطس جزة خروف في أنهار الجبال السريعة الجريان، فتعلق ذرات الذهب في الصوف، وتعطي لمعاناً عند تعرضها للشمس. ولعل هذه الطريقة في استخراج الذهب كانت مصدر الأسطورة (عن مجلة سبوتنيك السوفييتية).

أما مليسرتيس، أخو فريكسوس من أم أخرى (إينـو)، كما جـاء في الأسطورة، فكانت القرابين البشرية تقدم له في جزيرة تنيـدوس وربما في كورنثيا أيضاً، على نحو ما كانت تقدم لمولك (سيجيء الكلام عليه بعد قليل) في أورشليم. وكان يُظن أن النار عنصر مقدس يخلد الضحايا.

وعلى العموم كان اليونانيون يضحون بحيوانات عوضاً عن البشر، عدا منطقة أركاديا: في كريت كانوا يضحون بجدي؛ وفي تراقيا، بعجل؛ وعند الأيوليين عُبّاد بوسيدون، بفلو، اما في أركاديا المتخلفة فكان بعض الرعـاة يضحون بأولادهم ويأكلون أحشاءهم في وجبة حساء. ومع أن هذه العادة تروى في إطار الأسطورة، إلا أن لها جذوراً تأريخية. تقول الأسطورة أن لوكاون (واسمه يعني الذئب المضلِّل) كان أول من مدّن أركاديا وفرض عبادة زيفس لوكايوس (ويعني اسمه: شيء عائد للذئبة، أو للضوء)، إلا أنه أثار حفيظة زيفس عندما ضحى له بولد، فمسخه ذئباً. ترامت إلى أولمبيا أنباء الجرائم التي كان أبناء لوكايوس يقترفونها، فزارهم زيفس بنفسه متنكراً بهيئة فقير متسكع. ولما حلّ عندهم

قدموا له حساء من أمعاء أخيهم نوكتيموس (ويعني اسمه الليلي) مخلوطة بأحشاء الضأن. وإذْ لم تجز هذه الحيلة على زيفس، قلب المائدة، فسمي هذا الموضع فيما بعد (الطربيزة) Trapezu (وتعني شكلاً مختلف الأضلاع) ومسخهم جميعاً ذئاباً عدا نوكتيموس الذي أعاد إليه أنسيّته.

وتؤكد هذه الأسطورة أن الأركاديين في اليونان القديمة كانوا يضحون بالأبناء، ويأكلون لحومهم. ومن هنا كان استنكار اليونانيين المعاصرين لهم الأكثر منهم حظاً في الحضارة والتقدم الاجتماعي[95].

وكان زوج الملكة في اليونان ما قبل العصر الهليني، أي في مرحلة المجتمع الأمومي، يحكم مدة محدودة تسمى بالسنة الكبيرة، وعِدَّتها مئة شهر قمري، ثم يضحى به بإحدى الصور الآتية: يقطع أشلاء وهو حي من قبل نساء متوحشات، أو يطعن بالرماح، أو يقتل بفأس، أو يوخز في كعبه بسهم مسموم، أو يلقى به من مرتفع، أو يحرق حتى الموت في محرقة، أو يغرق في بركة ماء، أو يقتل في حادث اصطدام عربتين متعمد. وبعد ذلك استعيض عن الملك بصبي، في مطلع كل عام، أي عند تجديد ملكية الملك طوال حكمه على مدى السنة الكبيرة. وفيما بعد استعيض عن الأولاد بحيوانات.

وقد أبطلت طقوس التضحية بالملوك في اليونان القدديمة في المرحلة التي تم فيها تأليف إلياذة هوميروس، حيث بات بوسع الملوك أن يقولوا: «إننا أفضل حالاً بكثير من آبائنا!».

ويقول فرويد: «لقد تقدم فريزر في مؤلفه الكبير (الغصن الذهبي) بفرضية مؤداها أن الملوك الأوائل للقبائل اللاتينية كانوا أغراباً يؤدون دور إله من الآلهة. وكانت القبائل تضحي بهم بصفتهم الإلهية هذه في طقس احتفالي في يوم عيد معلوم. ويبدو أن التضحية (صيغة بديلة عن التضحية بالذات) السنوية بإله من الآلهة كانت علامة فارقة للديانات السامية»[96].

وكان مولك كبير أصنام العمونيين (وهم ساميون كنعانيون كانت منازلهم في عمّان الحالية التي تنسب إليهم)، وكان مصنوعاً من نحاس، وجالساً على عرش من نحاس أيضاً، ورأسه رأس عجل، وقد مدّ ذراعيه إلى الأمام. وكان العرش والصنم مجوفين. وكانت النار تشعل في التجويف حتى يحمر النحاس، ثم توضع

(95) روبرت غريفز: الأساطير اليونانية، المصدر المشار إليه سابقاً، ج 1، ص 140 وما بعدها.
(96) فرويد: الطوطم والحرام، ص 197. ترجمة جورج طرابيشي. دار الطليعة ـــ بيروت، 1983.

الضحية عليه وتدق الطبول وتتعالى أصوات المرتلين حتى لا يسمع صراخ الضحية وهي تحترق. وكان الفينيقيون يمارسون مثل هذه الطقوس أيضاً في عبادتهم (ملكارت) إله مدينة صور. وقد اقتبس اليهود عبادة (مولك) من العمونيين ومارسوا عبادته في وادي جهنم بالقدس. وسبب التسمية يعود إلى أنهم كانوا يرمون فيه ضحايا مولك وقاذورات بيوتهم، ويشعلون فيه ناراً دائمية منعاً لانتشار العفونة[97].

وكانت طقوس حرق القرابين في هذا الوادي تمارس في أيام الملك سليمان في القرن العاشر ق.م.، والملك منسّىٰ في القرن السابع ق.م.، واستمرت حتى النفي البابلي في القرن السادس ق.م. ثم استعملت جهنم فيما بعد لرمي القمامة بهدف عدم تشجيع حرق القرابين. ثم أوحت هذه لليهود والمسيحيين بفكرة الجحيم لعقاب الأشرار[98].

وجاء في كتاب (بلادنا فلسطين) أن وادي جهنم يشرف على الوادي المذكور اليوم «مقبرة باب الرحمة» بجوار سور الحرم الشرقي[99].

وجاء في كتاب فيلو الفينيقي عن اليهود: «كان من العادات التي درج عليها سكان المدن عندما تلم بهم محنة أو يحيق بهم خطر، أن يضحي الحاكم بولده العزيز لصالح مجموع الشعب، فدية تقدم للشياطن؛ وكان الأطفال يذبحون في طقوس دينية. وكان لكرونوس الذي يسميه الفينيقيون إسرائيل [؟]، ولد وحيد يُدعى يؤود Jeoud (ذلك أن «يؤود» باللسان الفينيقي تعني «الولد الوحيد»)، ألقى عليه رداءً ملكياً، وضحى به في مذبح عندما تعرضت البلاد إلى الخطر في زمن الحرب».

ولا ندري إن كانت هناك صلة بين هذه الكلمة «يؤود» و (الوأد) العربية، أي دفن البنات.

وقيل عن الملك آحاز الذي حكم أورشليم 16 سنة «أنه كان يحرق بخوراً في وادي هِنّوم [جهنم]، وأحرق أولاده بالنار» (تثنية الأيام 28: 3). وجاء في سفر الملوك الثاني (16: 3) أن آحاز «أمر ابنه بأن يمشي على النار».

وجاء في كتاب الغصن الذهبي للسير جيمس فريزر أن ملك السويد (أون)

(97) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول، ص 502.

(98) الموسوعة البريطانية تحت مادة Hell.

(99) بلادنا فلسطين، هامش ص 502.

On أو Aun ضحى بتسعة من أبنائه للإله في أوبسالا Upsala لكي ينجو بنفسه. فبعد أن ضحى بابنه الثاني أجابه الإله بأنه سيحيا تسع سنوات كلما ضحى بابن. وبعد الابن السابع كان ما يزال على قيد الحياة، لكنه كان عاجزاً لا يقوى على المشي، فكان يحمل على كرسي. ثم ضحى بابنه الثامن، وعاش تسع سنوات أخر، وهو طريح الفراش. وبعد ذلك ضحى بابنه التاسع وعاش تسع سنـوات أخـر. لكنـه كان يتنـاول طعـامه، سائلاً، في قرن كالأطفال. وإذْ هَمَّ بأن يضحي بابنه الأخير Odin لم يسمح له السويديون بذلك، فمات ودفن في قمة جبل في أوبسالا[100].

وكانت التضحية بالابن متبعة عند قبائل البوران إلى الجنوب من أثيوبيا، وفي أوغندة. وكان الروس يضحون بأبنائهم الأبكار للإله بيرون Perun. وفي البيرو بأميركا الجنوبية كان الهنود الحمر يضحون بأبنائهم أيضاً.

وبهذه المناسبة، أن لفظة الضحية أو الأضحية العربية تعني: شـاة يُضحى بها، أو الذبيحة؛ وهي مشتقة من (الضحى) ، أي حين تشرق الشمس. ويبدو أن النحر كان يتم عند الضحى. ومن التضحية بالكبش جاء المثل «كبش فداء».

وبصدد جهنم والجحيم، جاء في الموسوعة البريطانية أن الفكرة القائلة بأن الجحيم مثـوى الأشرار في يـوم الدينونـة قال بهـا الزرادشتيون واليهـود والمسيحيون والمسلمون. ففي الديانة الزرادشتية ــ التي جاء بها زرادشت في القرن السادس قبل المسيح ــ أن روح الميت تنتظر بعد الموت ثلاث ليالٍ لتواجه الحساب، وفي اليوم الرابع تمضي إلى جسر الحساب، حيث توزن افعاله. فإذا غلبت كفةُ الخير كفةَ الشر، فإن الروح تعبر هذا الجسر، الذي سيتسع لعبورها، وتدخل الجنة؛ وبخلاف ذلك، يضيق الجسر بالروح فتسقط في جحيم ثلجي منتن الرائحة، لتتعذب حتى يوم البعث.

(100) الغصن الذهبي The Golden Bough. ج 3، ص 160 ــ 161مطبعة مكملان، لندن 1955.

إبراهيم وقطورة

مع أن إبراهيم بلغ الآن مئة وسبعة وثلاثين عاماً من العمر، إلا أنه كان ما يزال فتياً وفي أتم الصحة. وقد توسل إلى الله أن يميز بينه وبين إسحاق، لأن الناس كانوا يخلطون بينهما. فتوج الرب إبراهيم بشعر أبيض كالصوف، مثل شعره هو (أي الرب): وهي أول علامة على الكبر عند البشر أنعم الله بها عليهم، ومظهر على المهابة.

وبعد موت سارة تزوج إبراهيم قطّورة. ويرى بعضهم أن هذا لم يكن سوى لقب لهاجر التي كتب عليها أن تكون «مقطورة» (مقيدة) بخدمة سارة؛ والتي قطرت (ضفرت) إكليلاً من الفضائل العبقة، وبقيت «قيداً» مخلصاً لإبراهيم حتى بعد طردها. ويزعم آخرون أن إبراهيم اختار قطورة، سليلة يافث، لكي يكون له نسل من كافة أبناء نوح عن طريق النساء: ذلك أن هاجر هي سليلة حام، وسارة سليلة سام.

وأنجبت قطورة لإبراهيم: زمران، ويقشان (أبا ددان، وسبأ)، ومدان، ومديان، ويشباق، وشوحاً. وأرسلهم جميعاً إلى الشرق محملين بالهدايا ليستعينوا بها في حلهم وترحالهم. وأنذرهم قائلاً: «احذروا غضب إسحاق!»ثم تفرقوا في أماكن شتى، بما فيها بلاد الكهوف، وسواحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية. وتنتسب الآن من خلالهم أمم قصية إلى إبراهيم، حتى شعب اسبارطة اليوناني. لكن أحداً من أبناء قطورة لم يرع شرعة الله، التي أكد عليها إبراهيم في نصيحته. ومن بين أبناء ددان، أشّوريم الذين اسسوا بلاد آشور؛ ولطوشيم ولأميم. وبنو مدان هم عيفة، وعفر، وحنوك، وأبيداع، والدعة.

ويزعم البعض أن إبراهيم أفشىٰ لأبناء قطورة بأسماء العفاريت السرية، ليعلموهم السحر، وإن كل حكمة الشرق من صنع إبراهيم.

• • •

تتسم هذه الأسطورة بأهمية تأريخية، لأن فيها إشارة إلى أن العبريين المنحدرين من إبراهيم كانوا يحرسون الطرق الصحراوية المؤدية إلى مصر،

وقاموا بدور وكلاء في التجارة مع العديد من القبائل الشرقية. و (مدان) تذكر بالإله اليمني (مدان). كما أن (مديان) من القبائل العربية الشمالية، كان موطنها خليج العقبة وشبه جزيرة سيناء. أما (يشباق) فلعله يرمز إلى (إيا شبوقي)، وهي مملكة صغيرة شمالي سوريا ذكرت في النقوش الآشورية في القرن الثامن قبل الميلاد. وأما (شوح) فهي مملكة شوخو المجاورة لها. وأما (قطورة) فتعني «قطر» القبائل التي لها مصلحة تجارية مشتركة تحت رعاية إبراهيم. وأما (يقشان) فيبدو أنه الاسم المعادل ليقطان، أي سبأ (سفر التكوين 10: 27 ــ 28)، وهو قحطان بالعربية، ويعتبره كتبة الأنساب العرب أباً لكل القبائل العربية الجنوبية. وسبأ هو أبو السبئيين التجار. وددان بن يقشان ــ وهو نفسه الذي ذكر كابن لرعمة الكوشي في سفر التكوين (10: 7)، وفي كتاب يوسفوس (العصور القديمة) ابنا لشوح ــ هو اسم لقبيلة عربية شمالية من تيماء وبوز، كما جاء في سفر أرميا (25: 23). واستناداً إلى سفر حزقيال (27: 15 ــ 20) كانت هذه القبيلة تزود صور بالسروج إلى أن أغار «عيسو» أو «أدوم» على قوافلها (سفر أشعيا 21: 13 ــ 15؛ أرميا 49: 8؛ حزقيال 25: 13) وأجبرها على التقهقر إلى الجنوب.

و (أشور) الذي ورد هنا إبناً لددان، كان الإله الذي استعارت مدينة آشور ــ وفيما بعد عاصمة الآشوريين ــ منه اسمها. وأما الاسمان اشوريم ولطوشيم (أي آشور ولطش) فيردان في النقوش النبطية كاسمي علم لأشخاص. وأما لأميم فلعلها تحريف لكلمة لئوم «الأمم الأخرى»، كما جاء في سفر التكوين (23:25)(101).

كما أن أبناء مديان نزحوا، هم الآخرون، إلى جنوب الجزيرة العربية، أما (عيفة) (جفار في ترجمة التوراة السبعونية) التي جاء ذكرها مع مديان (سفر أشعياء 60: 6) كقبيلة تملك الإبل وتنقل الذهب والبخور من سبأ، فهي خيابا Khayapa في نقوش سرغون الآشوري؛ وهي غوافا الحديثة، شرقي خليج العقبة. وأما (عفر) أو Eperu أو Apuriu في النقوش المصرية، فهم بنو غِفار في الحجاز. وأما ابيداع فلعله إيباديدي Ibadidi المذكور في نقوش سرغون الثاني. وكلا ابيداع وألدعة يردان في النقوش السبئية والمعينية كاسمي علم.

---

(101) فقال لها الرب في بطنك امتان (تكوين 25: 23).

وقد ذكر يوسفوس أن أريوس ملك إسبارطة زعم في رسالة وجهها إلى أونياس الثالث، رئيس كهنة أورشليم، في حدود سنة 183 ق.م. أنه من سلالة إبراهيم، وقد أكد هذا الادعاء يوناثان رئيس كهنة أورشليم، بعد ذلك باثني عشر عاماً. ويذكر أن منيلاوس الاسبرطي أمضى عشرة أعوام في المياه الفلسطينية ــ المصرية، استناداً إلى الأوديسة في أكثر من موضع؛ كما أن الآخيين الإغريق الأوائل أنشأوا مستوطنات في فلسطين. وذكر كزانثوس الليدي أن عسقلان إنما بناها اسكالوس Ascalus، أحد أجداد الاسبرطيين.

وللعدد 12 سحر عند كتبة الأساطير العبرية. فلطالما يقرنون آباء الأسباط باثني عشر إبناً. وبالرغم من أن سفر التكوين لا يذكر لابراهيم إلا ستة أبناء، فإن المدراش يجعله يتفوق على أخيه ناحور الذي أنجب اثني عشر ولداً، وينعم عليه باثني عشر إبناً غير إسماعيل وإسحاق. كما أن إسماعيل، هو الآخر، أنجب اثني عشر إبناً، وكذلك يعقوب، وآرام بن صوبا أخي إبراهيم، الذي أنشأ مدينة آرام ــ صوبا إلى الشمال من دمشق. كما يزعم أن أبناء ناحور الاثني عشر شكلوا اتحاداً من اثنتي عشرة قبيلة، مثل اتحاد إسباط إسرائيل، وقبائل إسماعيل، والأتروسكيين، والاتحاد الامفكتوني الإغريقي، وكلها تذكّر بعدد بروج السماء.

زواج إسحاق

بلغ إبراهيمَ نبأ من حرّان أن الله أنعم على أخيه ناحور باثني عشر ولداً، ثمانية من زوجته ملكة، وهم عوص، وبوز، وقموئيل، وكاسد، وحزو، وفلداش، ويدلاف، وبتوئيل. وأما سُرّيته، واسمها رؤومة، فولدت له طابح، وجاحم، وتاحش، ومعكة. ومن قموئيل وُلد لناحور حفيد هو أرام، وكذلك حفيد وحفيدة من زوجته بتوئيل، هما لابان، ورفقة.

وقال إبراهيم لعبده وقيّم بيته اليعازر: «ضع يدك تحت فخذي، فأستحلفك بالرب إله السماوات أن لا تأخذ زوجة لابني إسحاق من بنات الكنعانيين الذين انا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وعشيرتي [حرّان] تذهب، وتأخذ زوجة له. فلقد تقدم بـي العمر، فلا أقدر أن أقوم بهذا بنفسي. اذهب أنت بدلاً مني واصطحب معك عروساً له إلى حبرون».

فقال له اليعازر: «ربما لا تشاء المرأة أن تتبعني إلى هذه الأرض. هل أصطحب إسحاق ليتزوج بها في حرّان؟».

أجابه إبراهيم: «احترز من أن ترجع بابني إلى هناك. وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأتَ من حلفي هذا. ولكن لا تقلق، فملاك الرب سيكون دليلك».

ثم أخذ العبد عشرة جمال من خيرة جمال إبراهيم، وملأ عدولها جميع خيرات سيده، وتوجه إلى أرام النهرين، إلى مدينة ناحور، مع حاشية كبيرة. وبعد عدة أيام أناخ الجمال في ظاهر المدينة عند بئر الماء، وقت المساء، وقت خروج المستقيات. وقال: «أيها الرب، إله سيدي إبراهيم، يسّر لي اليوم، واصنع لطفاً لسيدي إبراهيم. فليكن أن الفتاة التي أقول لها أميلي جرّتك لأشرب، فتقول اشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً، فهي التي عينتها عروساً لإسحاق».

وكانت أول من وصل البئر من النساء فتاة عذراء حسنة المنظر. نزلت إلى العين وجرّتها على كتفها. وركض العبد للقائها، وقال: «اسقيني قليل ماء من جرتك». فقالت: «اشرب، يا سيدي». وأنزلت جرتها على يدها وسقته. ثم انتظر اليعازر ما ستقول بعد ذلك. فقالت: «سأسقي جمالك أيضاً»، وأفرغت جرتها في

المسقاة، فأيقن أنها هي التي هداه الرب إليها. ثم إنه أخذ خزامة ذهب وزنها نصف شاقل وسوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب، وسألها: «ابنة من أنت؟» فقالت: «أنا بنت بتوئيل بن ملكة التي ولدته لناحور. واسمي رفقة».

ثم سألها اليعازر: «وهل سنجد في منزل أبيك مكاناً لنا؟».

قالت: «نعم، عندنا تبن وعلف كثير، ومكان لتبيتوا أيضاً».

فخرّ الرجل وسجد للرب وشكره لأنه وصل إلى عشيرة إبراهيم، وهرعت الفتاة لتخبر عن وصول اليعازر. وعندما شاهد أخوها لابان الخزامة والسواري على يدي أخته، ركض إلى البئر وقال: «ادخل يا مبارك الرب. لماذا تقف خارجاً وأنا قد هيأت البيت ومكاناً للجمال؟» وأدخل اليعازر وبقية الخدم منزل بتوئيل، وحلّوا عن الجمال وعلفوها، وقدموا ماء لغسل رجليه وأرجل الرجال الذين معه. ووضعوا قدامهم الطعام. إلا أن اليعازر قال: «لا آكل حتى أتكلم كلامي». وأخبر بتوئيل ولابان بالغرض من رحلته، وعن ثروة إبراهيم، ولقائه الميمون برفقة، وختم كلامه قائلاً: «والآن إن كنتم تصنعون معروفاً وأمانة إلى سيدي فأخبروني، وإلا انصرفت».

فأجاب بتوئيل ولابان: «ما دام الأمر قد خرج من عند الرب، فلا نقدر أن نكلمك بخير أو بشر. هو ذا رفقة قدامك، خذها واذهب. فلتكن زوجة إسحاق كما تكلم الرب».

وسجد اليعازر إلى الأرض، وأخرج آنية فضة وآنية ذهب وثياباً، وأعطاها لرفقة. وأعطى هدايا لأخيها لابان ولأمها. وأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا. وفي الصباح قام اليعازر ليشد رحاله، إلا أن أخاها وأمها قالا: «لتمكث الفتاة عندنا أياماً أو عشرة، وبعد ذلك تمضي». فقال لهما: «لا تعوقاني بحق الرب! اصرفاني لأذهب إلى سيدي». فسألا الفتاة: «هل تذهبين مع هذا الرجل؟» حتى إذا كان جوابها «أن نعم»، أذنا لها بالرحيل، وباركاها، وقال لها لابان: «عسى أن تكوني أماً لعشرات الألوف، وليرث نسلك أبواب مدن كل مبغضيهم!».

وذهبت رفقة بصحبة فتياتها ووصيفتها دبورة إلى أرض كنعان، يتبعهن اليعازر. وبعد مضي بضعة أيام وصلوا بئر لحي رُئي الذي فجره الرب لهاجر. ترجلت رفقة من جملها وقالت: «من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا؟» حتى إذا أجاب اليعازر قائلاً: «هو ابن سيدي»، تناولت الخمار وتحجبت. ثم حدث العبد إسحاق بكل الأمور التي صنع، فأدخلها إسحاق إلى خباء سارة، أمه. وفي تلك الليلة دخل عليها، فصارت له زوجة، وتعزّى بها عن موت أمه.

يزعم البعض أن إبراهيم كان قد عقد النية في بادىء الأمر على أن يختار لإسحاق زوجة من بنات أصدقائه الصالحين: عنر، واشقول، وعمرا، رغم أنهم كنعانيون. غير أن الله أخبره في جبل موريا بأن عروس ابنه ستكون حفيدة ناحور. الحديثة الولادة، لأن لأعمام إسحاق حقاً في مصاهرته.

وإذْ كان محظوراً على إبراهيم اختيار زوجة كنعانية لإسحاق، عرض اليعازر على سيده ابنته. إلا أن إبراهيم أجابه قائلاً: «أنت يا أليعازر عبد، وأما إسحاق فحر: فهل يجتمع الملعونون مع المباركين!».

ويزعم البعض أن من عادة الآراميين أن يفتض الأب بكارة ابنته العذراء قبل زفافها؛ وأن بتوئيل همَّ بافتراع ابنته رفقة، لولا أن المنية وافته على حين غرة. ويزعم آخرون أن بتوئيل، بصفته ملك حرّان، كان يتمتع وحده بحق افتراع العرائس. وعندما خطبت رفقة، اجتمع أمراء البلاد، وقالوا: «إن لم يفعل بتوئيل مع ابنته مثلما فعل مع بناتنا، فسنقتلهما سوية!».

ووفقاً لرواية أخرى أن لابان حين شاهد الهدايا الثمينة التي كانت رفقة تحملها وهي عائدة من البئر، تربص بأليعازر، إلا أن خوفه من مظهره العملاق ومرافقيه العديدين المسلحين، صدّه عن ذلك، فاصطنع موقفاً ودياً، ودسّ لأليعازر السم في طبق الطعام. إلا أن الملاك جبرائيل دلف دون أن يراه أحد، واستبدل الصحن بصحن بتوئيل، الذي فارق الحياة على الفور.

ولدى اقتراب القافلة من حبرون، شاهدت رفقة إسحاق عائداً من الفردوس، يمشي على يديه، مثلما يفعل الموتى. فذعرت وسقطت من على ظهر الجمل، وأصابها خدش بعود في موضع عفتها. واستقبلها إبراهيم في مدخل الخيمة، لكنه قال لإسحاق: «العبيد لا يؤتمنون. قُدْ هذه المرأة إلى خيمتك، ودُسَّ اصبعك فيها لتكون على بينة من أنها ما تزال عذراء بعد هذه الرحلة الطويلة بصحبة أليعازر!» فأطاعه إسحاق، وحين وجد رفقة فاقدة العذرة، سألها مغضباً كيف حدث ذلك، أجابته قائلة: «مولاي، أفزعني منظرك، فسقطت على الأرض، ودخل عود بين فخذي».

ــ كلا، لا بد أن أليعازر هو الذي دنّسك.

فأقسمت رفقة بالرب الحي القيوم أن أحداً لم يمسها، وأرته العود الذي كان ما يزال رطباً من أثر دم عذرتها، فصدقها أخيراً.

أما أليعازر الأمين، الذي كاد يفقد حياته بسبب هذه الظنّة، فقد رفعه الرب حياً إلى الجنة.

• • •

إن عدم سماح إبراهيم بزواج ابنه إسحاق من امرأة كنعانية (سفر التكوين 2: 24) يمكن تفسيره في ضوء ما يأتي: يقضي العرف في المجتمع الأمومي بأن يترك الزوج بيته ويسكن مع أهل زوجته، ولهذا فضل إبراهيم أن يختار له زوجة من بني أقاربه في حرّان، وقد كان نظامهم باترياركياً. وغني عن القول أنه كان يفضل إحدى ابنتي لوط حليفه وابن أخيه، لولا أنهما مارستا عملاً يندرج في أطار غشيان المحارم (مع أبيهما لوط). وفيما بعد أيضاً رفض إسحاق ورفقة السماح لابنهما يعقوب بالزواج بامرأة كنعانية أو حثية. كما كان الزواج على الطريقة الأمومية سائداً في اليونان الميسينية، ويقال أن بنيلوب، زوجة أوديسيوس، كانت أول امرأة تزوجت على طريقة الزواج الباترياركي، حيث تحجبت حين توجهت إلى إيثاكا، على نحو يذكّر بما فعلته رفقة زوجة إسحاق.

والرتوش التي أضافتها التفاسير المدراشية على أسطورة رفقة ترمز إلى عدد من التقاليد القديمة. فقد كان الآباء العبريون يقيمون وزناً لعذره العروس، وما يزال العريس في العديد من بلدان الشرقين الأدنى والأوسط يعمد للتأكد من بكارة عروسه ليلة العرس بأصبعه. وكانت النساء الكنعانيات يمارسن الجنس قبل الزواج، كما جرت العادة في المجتمعات الأمومية في شرقي البحر المتوسط.

وإن «حق الليلة الأولى» عند القبائل البدائية، كان يقوم به في بعض الحالات أبو الفتاة، وفي حالات أخرى شيخ القبيلة. وقد أشار هيرودوتس إلى هذه العادة عند الأدرماخيديين، وهم من ليبيا، ولعل المفسر المدراشي كان على علم بها. ويذكُرُ لابان كلمة «عشور» [عشرة] يشير إلى أن رواية سفر التكوين تستند إلى مصدر عبري ــ مصري، لأن «العشور» هو الأسبوع المصري المؤلف من عشرة أيام.

ولقد هاجر بعض من أبناء ناحور الثمانية من ملكة (أي الملكة)، فيما بعد، من الصحراء المجاورة إلى شمالي الجزيرة العربية. وثلاثة من أبناء رؤومة الأربعة هي أسماء لأماكن في جنوب سوريا وشمال شرقي الأردن، مما يؤكد على أن اتحاداً من قبائل سامية غربية تحت لواء ناحور وجد قبل الغزو الآرامي.

أما طلب إبراهيم من خادمه بقوله: «ضع يدك تحت فخذي»، فهو تعبير

مجازي مفاده «أمسك أعضائي التناسلية»، وهو كناية عن القسم الرفيع الذي يراد به تذكيره بطقس الختان الذي أداه إبراهيم وعائلته. وقد لجأ يعقوب إلى نفس الطريقة هذه مع ابنه يوسف. وما تزال هذه العادة متبعة عند قبيلة (رُلى) البدوية في بادية الشام.

على هامش النص

جاء في (مروج الذهب) للمسعودي أن رجلاً من جديس يقال له ماشق افترق عن امرأته هُزيلة بنت مازن، وأراد قبض ولده منها، فشكته هُزيلة عند عملوق ملك طسم. فأمر الملك أن يؤخذ الولد منهما ويُجعل في غلمانه؛ فقالت هزيلة في ذلك:

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا فأبرم حكماً في هزيلة ظالما
لعمري لقد حُكِّمت لا متورعاً ولا فهَماً عند الحكومة عالما
ندمت فلم أقدر على متزحزح وأصبح زوجي حائر الرأي نادما

فبلغَ الملكَ قولُ هزيلة، وامر أن لا تتزوج امرأة من جديس لتزف إلى زوجها حتى تحمل إليه، فيفترعها قبل زوجها. ولقوا من ذلك ذلاً طويلاً. ولم تزل تلك حالتهم حتى تزوجت عفيرة، وقيل الشموس بنت غفار الجديسي (وفي نسخة الطسمي)... فوطئها عملوق على عادته وخلى سبيلها، فخرجت عفيرة على قومها في دمائها شاقة جيبها عن قبلها ودبرها، وهي تقول:

لا أحد أذلّ من جديس أهكذا يُفعل بالعروس؟

وقيل ثار الجديسيون على عملوق وقتلوه[102].

وفي أوروبا الإقطاعية في القرون الوسطى كانت هذه العادة معروفة أيضاً. يقول فردريك انجلس: «حتى عام 1486 كانت القنانة تسود بأبشع مظاهرها في أراغون [إسبانيا] حتى قرار فرديناند الكاثوليكي في عام 1486: إننا نقرر ونعلن أن السادة المذكورين أعلاه (Sengors، البارونات)... لا يملكون كذلك الحق في قضاء الليلة الأولى مع المرأة التي يتزوجها الفلاح، ولا الحق في القفز، في ليلة العرس، كدليل على سيادته، فوق المرأة، أو فوق السرير بعد أن تضطجع المرأة؛

---

(102) مروج الذهب، ج 2، ص 114 وما بعدها؛ الطبعة المشار إليها سابقاً.

كذلك لا يملك السادة المذكورون أعلاه الحق في استخدام ابنة الفلاح أو ابنه رغماً عنهما، سواء بأجر أو بدون أجر»[103].

وبصدد القسم وإمساك الأعضاء التناسلية، أشار فليشرز في روايته التأريخية (وادي الأحلام) إلى الصلة بين لفظتي Testimony (شهادة) و Testicles (الخصيتين) بما يفيد أن الشهادة والقسم كانا يقترنان قديماً بإمساك الأعضاء التناسلية.

أما رفقة فلا أدري لماذا سميت كذلك في الترجمة العربية للتوراة، مع أن الأصل هو ربقة؛ وهذه تعني بالعبرية والعربية على حد سواء: «حبل فيه عرى، وكل عروة فيه ربقة». والتسمية هنا مجازية، أي أنها لشدة جمالها تأسر رقاب الناظرين.

(103) أصل العائلة، ص 65، الترجمة العربية، المشار إليها سابقاً.

إسحاق في جرار

كانت نية إسحاق منعقدة على الذهاب إلى مصر عندما حلت المجاعة في أرضه؛ إلا أن الرب نصحه بالعدول عن ذلك عند تجديد البركة التي أنعم بها على إبراهيم، فذهب إلى جرار، ونزل ضيفاً على أبـي مالك، ملك الفلستينيين. وهنا، أيضاً، لجأ إسحاق إلى كذبة إبراهيم، مدعياً بأن رفقة الفاتنة أخته. وذات يوم اتفق أن الملك كان يتطلع من نافذة قصره، فشاهد إسحاق ورفقة يمارسان عمل الأزواج. فأنحىٰ على إسحاق بالملامة قائلاً: «لماذا خدعتني؟ كان من الممكن أن يقضي أحد رجال حاشيتي وطره مع زوجتك، دون أن يؤنبه ضميره في ذلك». فقال إسحاق: «في هذه الحالة أفضّل أن تلوث سمعتي على أن يقتلني رجل تأكله الغيرة!».

وأقطع إسحاق أرضاً في جرار، جنى منها محصولاً وفيراً. وعندما امتلأت صدور الفلستينيين ضغناً عليه، بعد أن جمع ثروة، نصحه أبـي مالك عند انتهاء المجاعة بالرحيل.

• • •

هذه هي المرة الثالثة التي تتكرر فيها استعارة القصة المصرية (حكاية الأخوين)؛ على أن الملك هنا، لم يكن بحاجة إلى المساومة مع الضيف، لأنه لم يحاول إغواء زوجته، كما أن إسحاق يكذب هنا عامداً دون أن يلجأ إلى نصف كذبة كما فعل إبراهيم.

وهذه الأسطورة تردم الهوة بين شباب إسحاق وشيخوخته، وتبرر اللجوء إلى الخديعة عندما يتعرض الإسرائيليون للخطر في أسفارهم، وتصور عناية الرب بجدهم. وأحد كتب التفسير اليهودية يشط بعيداً في مبالغته بثروة إسحاق، فيذكر المثل الآتي: «روث بغاله، ولا ذهب وفضة أبـي ملك!» وجاء في كتاب آخر أنه ما أن رحل إسحاق عن جرار حتى زال عنها الرخاء الذي عم عليها بمجيئه: فقد نهب قطاع الطرق القصر الملكي، وأصيب أبـي ملك بالجذام، وجفّت الآبار، وامحلت الأرض.

مولد عيسو ويعقوب

سمع الله دعاء إسحاق فحملت رفقة بتوأمين بعد عقم دام عشرين عاماً. وسرعان ما راح التوأمان يتصارعان داخل رحمها بشدة إلى درجة أنها استعذبت الموت، بيد أن الله طمنها قائلاً:

«في رحمك أمتان
سيخرج منه شعبان
أحدهما سيكون قوياً:
وسيخدم الأكبر الأصغر!»

كان عيسو أول من خرج من بطن أمه، أصهب الشعر أشعثه، أما الثاني فقد سمته يعقوب لأن يده كانت قابضة على عقب أخيه. وشب عيسو عن الطوق صياداً ماهراً، وخبر حياة البراري، في حين عاش يعقوب حياة متطامنة يسكن الخيام.

ويزعم البعض أن لون شعر عيسو ينم عن نزعات أجرامية؛ وأن الحبل بيعقوب تم قبله؛ لأنك إذا أدخلت لؤلؤتين في قارورة ضيقة، فالتي أدخلت قبل الثانية تخرج بعدها.

وعندما كانت رفقة، في فترة حملها، تمر أمام مزار كنعاني، كان عيسو ينافح من أجل أن يخرج؛ وعندما كانت تمر منزل أحد الأولياء الصالحين، كان يعقوب يفعل المثل. وكان يخاطب شقيقه عيسو في الرحم قائلاً: «إن عالم الجسد، يا شقيقي، غير عالم الروح. في الأول قصف [أكل وشرب] وزواج وإنسال؛ وفي الثاني لا شيء من هذا. فلنقتسم هذين العالمين بيننا. وخذ ما يناسبك!» فلم يتردد عيسو في اختيار عالم الجسد.

ويزعم البعض أن سامائيل كان نصير عيسو في صراعهما عند الولادة؛ في حين كان ميكائيل نصير يعقوب؛ وأن الله تدخل لصالح يعقوب، منقذاً إياه من الموت. ومع هذا كانت ضربات عيسو من الشدة إلى درجة أن رحم أمه تمزق، فحرمها من الحبل ثانية. وإلّا لأنعم الله على إسحاق ما أنعم على يعقوب.

وقد وُلد يعقوب مختوناً من بطن أمه، على غرار أثني عشر قديساً آخرين،

هم: آدم، وشيث، وأنوش، ونوح، وسام، وتارح، ويوسف، وموسى، وصموئيل، وداود، وأشعيا، وأرميا، ويضيف آخرون إليهم، أيوب، وبلعام، ويُربعل. وختن إسحاق عيسو في اليوم الثامن، لكنه فيما بعد أجرى لنفسه عملية جعلته يبدو وكأنه لم يختن من قبل.

وفي البدء كان الفارق بين التوأمين كالفرق بين شطأ الآس وفرع الشوك. وفيما بعد تلقى يعقوب علوم الشريعة، في حين أخذ عيسو يختلف إلى مزارات الكنعانيين ويمارس أعمال العنف. وقبل أن يبلغ العشرين من عمره اقترف جريمة قتل، واغتصاب، وسرقة، ولواطة. ولأجل ذلك أعمىٰ الله بصيرة إسحاق: لكي يوقر عليه الحرج أمام الجيران.

• • •

مثل سارة، أنجبت رفقة مرة واحدة فقط، بعد عقم دام عدة سنوات. وكذلك كان الحال مع أم صموئيل، وحنة اللاوية (سفر صموئيل الأول، الإصحاح الأول). وقد ظلت راحيل سنوات عديدة عاقراً قبل أن تحبل بيوسف، وانتظرت سنوات أخر قبل أن تحبل ببنيامين وتوافيها المنية عند ولادته. ولم تنجب هؤلاء النسوة بنات، وفي كل حالة كان الوليد مباركاً من لدن الرب على نحو استثنائي. فهل ترمز هذه إلى ما كان يُتطلب من كاهنات المعابد عدم الإنجاب لأمدٍ معين من السنين، كما كان الحال مع عذراوات فيستا الرومانيات؟

وهناك رواية أخرى عن الصراع بين التوأمين في رحم أمهما، هي ما حدث لفارص وزارح (سفر التكوين 38: 27 ـــ 30) ابني يهوذا من ثامار كنته [التي نامت معه متنكرة]. وهناك قصة أخرى نظيرة لهاتين القصتين العبريتين، في الأساطير اليونانية، عن صراع برويتوس Proetus واكريسيوس Acrisius في رحم الملكة أغلايا (أي المنيرة)، الذي تمخضت عنه عداوة مريرة حول عرش (أرجيف). وبعد موت أبيهما تم الاتفاق بينهما على الحكم بالتناوب، إلا أن بروتيوس أغوى دانايا ابنة أكريسيوس، فنفي من المملكة، وهرب عبر البحار، ثم تزوج بابنة ملك ليديا وعاد إلى أرغوليس على رأس جيش جرار. وبعد معركة حامية اتفق التوأمان على اقتسام المملكة. ولم يكن أكريسيوس الذي ادعى أنه سليل بيلوس (بعل) الشقيق التوأم لأجينور (كنعان)، لم يكن فقط جد بيرسيوس Perseus الذي تألقت السماء في ضوء مآثره في فلسطين بخمسة بروج هي: المرأة المسلسلة، وذات الكرسي، وقيفاوس، وكوكبة التينين، وبيرسيوس، بل كان إلى جانب ذلك الجد الأعلى للملكين الآخيين منيلاوس واسكالوس [وهذا الأخير

هو الذي أنشأ مدينة عسقلان طبق إحدى الروايات]. ولعل هؤلاء الآخيين الذين قدموا إلى سوريا، وورد ذكرهم في الكتاب المقدس تحت اسم الحُويين، هم الذين نقلوا معهم أسطورة الصراع بين التوأمين، التي استعيرت في قصة تقسيم إرث إبراهيم بين إسرائيل (يعقوب) وأدوم (عيسو). ولعل الفكرة نفسها استعيرت أيضاً في أسطورة فارص وزارح التي تضرب على وتر تقسيم يهودا. وربما كان عيسو إله الصيد الأشعث أوسوس Usous من أوسو Usu (صور القديمة)، الذي ورد ذكره في كتاب سانخونياثن (تأريخ الفينيقيين) على أنه أخو سميراميس. بيد أن «غزارة شعره» قد تلقي ضوءاً على الاحتلال الأدومي لجبل (سعير) الذي يعني «الأشعث» أو بعبارة أخرى «المشجر». ثم إن شعره الأصهب (الأحمر) صفة مشتقة من اسمه إيدوم Edom المنحوت من كلمة adom (أحمر)، على نحو ما سلف ذكره[104].

على أن الأدوميين الذين كانوا في مرحلة ما يدفعون الجزية لإسرائيل، رغم انهم أسبق منهم في فلسطين، احتلوا جزءاً من جنوب يهودا بعد سقوط أورشليم على يد نبوخذ نصر، بما في ذلك حبرون (الخليل).. لا إن يهودا المكابي دمر حبرون والقرى المتاخمة لها. ومن ثم تم دحر الأدوميين، وأجبرهم هركانوس، فيما بعد، على اعتناق الديانة اليهودية، وبعد ذلك بجيلين أصبح هيرود الأدومي ملكاً على اليهود، فقتل آخر أمراء المكابيين. واعترف الرومان بحكمه، ومع أنه أقرّ الشريعة الموسوية رسمياً، وأعاد بناء هيكل الرب في أورشليم، إلى أنه بنىٰ عدة مزارات وثنية أيضاً. ومن هنا فإن الصورة المدراشية عن عيسو تجمع بين هيرود وأبنائه المترومنين ارخيليوس، وهيرود انتيباس، وهيرود فيليب. وعدم ختان عيسو يرمز إلى «أبناء أدوم»، أولاء وزملائهم الذين مارسوا على أنفسهم عمليات القطع لكي يشاركوا في المباريات الرياضية التي تتطلب من المسهمين فيها أن يكونوا عراة. أما تصوير عيسو إنساناً شريراً فهو مدراشي، ولم يرد في الكتاب المقدس.

وأما الشريعة التي أنزلت على موسى في جبل سيناء فيزعم أنها وجدت قبل الخليقة، وكان سام بن نوح المعروف باسم ملكي صادق يدرّسها على طريقة

---

(104) وفي كتاب روبرت غريفز (الأساطير الإغريقية) ج 1، ص 243: «وفي الاسطورة الاوغاريتية الفلسطينية [والصواب الكنعانية] يتصارع التوامان (موت) و (عليان) حول امراة، مثل كريسيوس وبروتيوس، ومثل غوين وغويثور في الأسطورة الكلتية، اللذين يتبارزان عشية شهر أيار من كل عام حتى نهاية العالم لخطب ود كريديلاد ابنة لير (كورديليا ابنة الملك لير). وهذه المراة، في جميع الحالات، كاهنة قمرية، من يتزوج بها يكتسب حق الملك.

الفريسيين. كما أن إضافة ثلاثة أسماء إلى القديسين الاثني عشر الذين وُلدوا مختونين تجعل العدد خمسة عشر، ربما تذكرةً بدرجات الصعود الخمس عشرة المقدسة في الهيكل.

ويندرج اشتقاق اسم يعقوب في التوراة من «ذلك الذي يقبض على العقب» (سفر التكوين 25: 26) أو من «التعقب» (سفر التكوين 27: 36) في إطار اشتقاقات العامة، أو لعله تلاعب لفظي في الاسم، مثل كلمة أرميا: «لأن كل أخ يعقب عقباً» (أشعيا 9: 4). ولعله في الأصل من الأسماء الدينية المركبة، وأما الصيغة التامة فهي يعقوب ــ إيل، وتعني «الله يحافظ». وهناك تحويرات شتى على هذا الاسم وردت في المصادر اليهودية: «يعقوبها، عقبهايا، عقبها، اكيبا، إلخ)، ومن الأقطار المجاورة: (يعقوب ــ هار، عقب ــ ايلاها، إلخ).

مــوت إبــراهيم

مات إبراهيم عن عمر يناهز المئة والخامسة والسبعين عاماً، ودفنه ابناه إسحاق وإسماعيل جوار زوجته سارة في مغارة مكفيلة. وكان هو الذي اختار قبره هذا: فيوم زاره الملائكة الثلاثة في ممرا، وهرع لينحر لهم عجلاً، هرب العجل إلى داخل المغارة المظلمة، فتبعه إبـراهيم، وهناك وجـد آدم وحواء مستلقيين جنباً إلى جنب، وكأنهما نائمان، وفوقهما شموع مشعلة، والمكان يعبق برائحة زكية.

وقبيل وفاة إبراهيم احتفل إسحاق وإسماعيل معه في حبرون بعيد بواكير الفاكهة، وقدموا ضحايا على المذبح الذي بناه هناك. وخبزت رفقة كعكاً من القمح المحصود حديثاً، وحمله يعقوب إلى إبراهيم الذي شكر الرب عندما أصاب منه. وبارك يعقوب، وحذره بأن لا يتزوج بكنعانية، وأورثه بيتاً بالقرب من دمشق، وما يزال معروفاً بـ «بيت إبراهيم». بعد ذلك استلقى، وأدنى منه يعقوب وطبع على جبينه سبع قبل؛ ثم أفرد اثنين من أصابع يعقوب ليغمض عينيه، وسحب عليه غطاء، وتمدد جيداً، ولفظ أنفاسه بهدوء. ونام يعقوب في حضن إبراهيم، ولم يفق إلا بعد ساعات، فوجده بارداً كالثلج ثم أخبر إسحاق ورفقة وإسماعيل بموته، فبكوه بصوت عالٍ، ودفنوه في المغارة، وحزنوا عليه أربعين يوماً. وقد اختزل الله خمس سنوات من عمر إبراهيم لكي يموت قبل أن يسمع بأفعال عيسو الشريرة.

على أن هناك من يزعم أن إبراهيم صارع الموت مثلما فعل موسى فيما بعد. فحين وافاه ميكائيل ليقبض روحه، أصرّ على أن يطوف العالم أولاً، فأمر الله ميكائيل بأن يتيح لإبراهيم الجلوس في عربة في السماء يجرها الكـروبيون [ملائكة]، ومع هذا لم يكتف إبراهيم بذلك. فاستدعى الله ملاك الموت وقال له: «هلم، أيها الموت، أنت أيها الجافي، اخف قسوتك وقذارتك، وتنكر بمظهر الشباب والبهاء وإيتِ لي بخليلي إبراهيم!» فشك إبراهيم في أمر هذا الشاب الوسيم، وطلب منه أن يكشف عن حقيقته، ففعل. عند ذاك ارتعدت فرائص إبراهيم وطلب من الملاك باسم الرب أن يستعيد صورته التي تنكر فيها. فأطاعه هذا

وقال له: «هلم، يا صديقي، شدّ على يدي، لتعود إليك القوة والحياة من جديد!» وأمسك بأصابع إبراهيم، ومنها انتزع روحه، ولفها بمنديل مقدس ومضى بها إلى السماء.

• • •

إن قصة صراع إبراهيم، ثم موسى، مع الموت، تروى أيضاً عن سيزيف ملك كورنث. فسيزيف يخدع الموت مرتين، بعد أن يرسله زيفس ليقبض روحه. طلب من الموت أولاً كيف تفعل فعلها أصفاد الجحيم، ثم أطبقها على رسغي الموت في الحال. وفي المرة الثانية أمر زوجته ألّا تدفنه، وحين نقل عبر نهر الجحيم Styx أقنع بيرسيفونة، ملكة العالم السفلي، بأن حضوره هناك مخالف للأصول، ولذا ينبغي أن يعود لمدة ثلاثة أيام ليرتب جنازة لائقة به. فاغتنم الفرصة واختفى، إلى أن جرجره هيرمس (نظير ميكائيل) بالقوة. وكما مر بنا سابقاً، كان سيزيف يمثل إله العاصفة الحثي تيشوب، ومن هنا لعل أسطورة صراع إبراهيم مع ملاك الموت حثية الأصل أيضاً، رغم أنها حُورت لتتفق مع مناقبية سفر التكوين، التي لا يظهر فيها الرب غاضباً على إبراهيم؛ كما أن إبراهيم يعارض الموت، دون أن يخدعه، ثم إن روحه رفعت إلى الجنة، وليس إلى أعماق تارتاروس.

وعند موت إبراهيم جلس يعقوب في حضنه. ومن هنا جاء المثل الآرامي: «استراح في حضن إبراهيم». وقد استشهد به عيسىٰ المسيح بصدد لعازر كما جاء في إنجيل لوقا (22:16). أما «بيت إبراهيم» فقد ذكره يوسفوس على أنه كان وما يزال قائماً في زمانه قرب دمشق [37 ـــ 100 ميلادية].

صفقـــة البكـوريـــة

ذات يوم كان يعقوب يطهو عدساً أحمر خارج كوخه. فمر به عيسو قادماً من البرية، جلداً على عظم من شدة هزاله، وقال له: «اطعمني من هذا الأحمر، لأني قد أعييت!».

أجابه يعقوب: «أصب من هذا الطعام، يا أحمر، إنما شرط أن تبيعني بكوريتك».

قال عيسو: «ها أنا ماض إلى الموت، فما جدوى البكورية؟».

وقَبِلَ أن يعطيه يعقوب خبزاً وعدساً بعد أن انتزع منه اعترافاً ببيع حقه بقسم. وأكل وشرب، ثم قام ومضى لحال سبيله. فضحك إسحاق وقال في سره: «أخي يستهين ببكوريته!».

يجد البعض عذراً ليعقوب على تجرده الصارخ من مشـاعر الأخـوة والإنسانية، زاعمين أنه كان يعلم بأن عيسو كان قد تربص بالملك نمرود ـــ الذي كان ما يزال على قيد الحياة عن عمر يناهز المئتين وخمسين عاماً ـــ وقتله؛ فتملكته الغيرة منه، لأن عيسو ونمرود كانا يتنافسان على مكانة أمهر صياد. ثم إن يعقوب اشترى بكورية عيسو بموافقة الرب، لأنه قبل إقامة (خيمة الاجتماع) في البرية الذي تم بعد عدة قرون، كان من حق الولد البكر فقط، من كل عائلة، تقديم الأضاحي؛ ولهذا قال يعقوب: «وهل يكون فاعل الشر، هذا الذي يقف أمام مذبح الرب، أهلاً لبركته؟» وفضلاً عن هذا إن عيسو لم يتردد في بيع بكوريته لئلا يهلك جوعاً عند المذبح مستهيناً بفكرة البعث بعد الموت.

ويزعم آخرون أن عيسو أخذ من يعقوب مبلغاً كبيراً من المال لأن بكوريته تضمن له إرثاً إضافياً من طرف الكنعانيين؛ وكان بوسعه أن يتنصل من البيع لو لم يطلب منه يعقوب أداء اليمين؛ ولو لم يكن ميكائيل وجبريل شاهدين على إمضائه على العقد.

وكان عيسو يكنّ حباً جماً لإسحاق: يأتي له بطريدة كل يوم، ولا يدخل عليه الخيمة إلا بملابس فاخرة. ولهذا كوفىء عندما فتح يشوع أرض كنعان

وحظر الله على أبناء إسرائيل الاعتداء على أبناء عمومتهم الأدوميين، قائلاً: «ذلك لأنني لا أنسىٰ التكريم الذي كان يشمل به أباه!» ولهذا عاش عيسو في رغد طوال عمره.

• • •

إن توق عيسو للعدس الأحمر يرمز للون شعره (الأصهب). وقد تكررت الإشارة في سفر التكوين إلى أنه كان (أدومياً) «أي أحمر»، أو على الأقل أبا أدوم. كما وُصف بأنه كان (سعيراً) أي مشعراً؛ وفي الأسفار المتأخرة (سفر العدد 18:24؛ والأيام 11:25) استعملت كلمتا «أدم» و «سعير» الواحدة بمعنى الأخرى. ومع هذا فإن أبناء سعير كان المقصود بهم في مواضع أخرى الحوريين: «هؤلاء بنو سعير الحوري، سكان الأرض...» (سفر التكوين 20:36)، وفي سفر التثنية (12:2) أن الحوريين أقاموا في البداية في سعير، ثم طردهم بنو عيسو واحتلوا أرضهم.

وكانت دولة الحوريين الذين كانت لغتهم غريبة عن السومرية، والسامية، والهندية الأوروبية، على مشارف بلاد أكّد الشمالية، وازدهرت حضارتهم في أواخر الألف الثالث ق.م. وكانت منازلهم في شمالي سوريا وشرقي الأناضول؛ ومع أن الحفريات لم تكشف النقاب حتى الآن عن وجود أثر لهم في بلاد أدوم، فليس هناك داع للشك في شهادة سفر التكوين، إلا إذا كان المقصود بالحوريين، «حوري» أو سكنة الكهوف (راجع سفر أيوب 6:30)[105] الذين كانوا يعتبرون من بين أبناء قطورة. أما السعيريون فهم قوم مزارعون لا ساميون من أبناء العصر البرونزي، أقاموا في هذه الأرجاء في حدود سنة 2000 ق.م.، ويرد اسمهم في مسلة أقامها رعمسيس الثاني، المصري، بعد ذلك بسبعة قرون. أما «أدوم» فقد ذكرت للمرة الأولى في قائمة من البردي أعدت لسيتي الثاني حوالي 1215 ق.م. وقد دامت دولة الأدوميين الذين استوعبوا السعيريين والحوريين، إلى أن قضى عليهم داود حوالي 994 ق.م.

وجاءت أسطورة مقايضة عيسو على البكورية تبريراً للغزو الذي تعرض له بنو أدوم فيما بعد على يد بني إسرائيل أخيه الأصغر (سفر العدد 14:20)[106] الذين كانوا يتكلمون نفس اللغة، ولم يجدوا الجرأة على مهاجمتهم قبل ذلك.

---

(105) «للسكن في أودية مرعبة وثقوب التراب والصخور» (ايوب 6:30).

(106) «وارسل موسى رسلاً من قادش إلى ملك ادوم. وهكذا يقول إسرائيل قد عرفت كل المشقة التي اصابتنا» (العدد 14:20).

المبـاركـــة المســروقـــة

حدث لما شاخ إسحاق بعد أن بلغ من العمر مئة وثلاثة وعشرين عاماً، وكلّت عيناه عن النظر، أنه شعر بدنو الموت، فدعا ابنه البكر، عيسو، إلى خيمته وقال له: «يا ابني، خذ عدتك وقوسك واخرج إلى البرية، وتصيد لي صيداً. واصنع لي منه طعاماً كما أحب، وأتني به لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت».

وإذْ سمعت رفقة كلمات إسحاق، استدعت يعقوب حال ابتعاد عيسو، وقال له: «أبوك يزمع أن يمنح عيسو بركته. ولا ينبغي لهذا أن يكون، لأنك الآن ابنه البكر! إذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى، فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب. وسيظنهما طريدتين». لكن يعقوب قال لأمه: «هو ذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس! ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة». إلا أن رفقة أكدت له قائلة «لعنتك عليّ يا ابني. إسمع لقولي فقط، وجئني بالجديين!».

وأحضر يعقوب الجديين، وصنعت أمه منهما أطعمة على هوى إسحاق. وأخذت ثياب عيسو ابنها الأكبر، الفاخرة التي كانت عندها في البيت، وألبست يعقوب ابنها الأصغر. وألبست يديه وعنقه جلود جديي المعزى. ودخل خيمة إسحاق حاملاً الأطعمة والخبز في يده. ودار بينهما الحوار الآتي:

— ها أنذا يا أبي.

— من أنت يا بنيّ؟

— ألا تعرفني، أنا ابنك البكر. قم اجلس، وكل من صيدي، لتباركني!

— كيف جئت بها بهذه السرعة يا بني؟

— إن الرب إلهك قد يسّر لي.

— تقدم لأجسك يا ابني. أأنت هو ابني عيسو أم لا؟

وجسّه إسحاق بأصابعه، ثم قال:

ـــ الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو. هل أنت عيسو يا ولدي؟

ـــ نعم، أنا هو.

ـــ إذن قدم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي.

وقدم له الطبق، وأحضر له خمراً معه. وبعد أن أكل إسحاق وشرب قال:

ـــ تقدم وقبلني يا ابني.

عندما انحنى يعقوب شم إسحاق رائحة ثيابه وباركه، وقال انظر:

رائحة ابن كرائحة حقل
قد باركه الرب
فليعطك الله
من ندى السماء
ومن وسم الأرض
وكثرة حنطة وخمر!
لتخدمك شعوب
وتسجد لك قبائل
كن سيداً لإخوتك
وليسجد لك بنو أمك
ليكن لاعنوك ملعونين
ومباركوك مباركين!

وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب أن عيسو أتى من صيده بطريدة. فطبخها ودخل بها إلى أبيه وقال له: «ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك». فقال له إسحاق: «من أنت؟» أجابه عيسو: «ألا تعرف ابنك البكر عيسو؟» فارتعد إسحاق ارتعاداً عظيماً، وقال: «فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ فأكلت قبل أن تجيء، وباركته؟ نعم وسيكون مباركاً. لا بد أنه شقيقك يعقوب الذي خدعني وسرق مباركتك!».

عندما سمع عيسو كلمات أبيه صرخ صرخة عظيمة وبكى بكاء مراً، وقال: «ألم يكن اسمه يعقوب عن حق؟ لقد تعقبني مرتين. أخذ بكوريتي، وهو ذا الآن قد أخذ بركتي! أما أبقيت بركة لابنك عيسو؟».

فقال إسحاق: «إني قد جعلته سيداً لك، ودفعت إليه عبيداً، وعضدته بحنطة وخمر. فماذا أصنع لك يا ابني؟».

بكى عيسو، وقال: «ألك بركة واحدة فقط يا أبـي؟ باركني أنا أيضاً».

ثم قال له إسحاق:

هو ذا بلا وسم
تكون الأرض مسكنك
وبلا ندى السماء من فوق!
وبسيفك تعيش
وتكون عبداً لأخيك
إلى أن يحين الوقت
لتكسر نيره من عنقك!

فحقد عيسو على يعقوب لنفاقه، وحلف مع ذات نفسه: «عندما يموت أبـي وأفرغ من المناحة عليه، سأقتل يعقوب!».

يزعم البعض أن الرب أرسل ملاكاً ليؤخر عيسو في البرية، عندما كانت رفقة تطهو الطعام لإسحاق. فكلما كان عيسو يرمي بسهمه على غزالة، يترك جثتها، ويمضي في أثر أخرى، فيحيـي الملاك الطريدة ويطلقها. وكلما صاد عيسو طيراً، قص جناحيه، ومضى يواصل الصيد، بيد أن الملاك كان يعيد له جناحيه ويطلقه ليطير، وهكذا، لم يتمكن في الأخير سوى أن يأتي لإسحاق بلحم أشبه بلحم الكلاب.

ويزعم آخرون أن يعقوب بالرغم من انه أطاع أمه التزاماً بالوصية الخامسة، إلا انه كره هذه الخديعة، فسالت الدموع من عينيه، وتضرع إلى الرب في سره بأن يغفر له هذه الإساءة، فأرسل الرب له ملاكين ليشدا من أزره. أما رفقة، فقد كانت على قناعة، بوصفها نبية، بأن على يعقوب أن يتحمل هذه المحنة، وقالت له: «تشجع يا بني! ألم تحل اللعنة على الأرض، وعلى آدم، عندما ارتكب المعصية؟ إذا كان ولا بد، سأخبر أباك بأنني إنما تصرفت على هذا النحو إيماناً مني بأن عيسو الشرير لا يستحق البركة». ومع هذا فإن يعقوب لم يكذب على إسحاق، لأنه قال: «أنا ابنك البكر»، وهو حق، ما دام قد اشترى بكورية عيسو.

ويزعم آخرون أيضاً أن ملابس عيسو التي أعطتها رفقة ليعقوب، وهي

التي صنعها الله لآدم وحواء، انتقلت الآن عن حق إلى يعقوب، وقد تعرف إسحاق على رائحتها الفردوسية.

• • •

إن التوامين المتخاصمين، وأمهما، وأباهما المحتضر، ذلك كله جاء تعزيزاً لأهمية بركته الأخيرة، التي ستكرس مستقبل إسرائيل، أكثر من كونها مجرد وعد. وتكمن أهمية هذه المباركة في حق الملكية. فبعد أن أنعم إسحاق على يعقوب بالأرض الخصبة المباركة، وهي فلسطين الغربية الخصبة، التي تروى بالندى من السماء، لم يبق لعيسو من مملكة إبراهيم سوى (ادوميا)، أي أدوم، الفقيرة، بحيث يتعين على أبنائه أشباه البُداة أن يستعينوا، لكسب قوتهم، بالسيف أيضاً، بالإغارة على القبائل الأخرى، وفرض الحماية والاتاوة على القبائل وقرى الحدود العائدة للشعوب المجاورة.

ورغم أن المفسرين المدراشيين اعترفوا بأهمية مباركة إسحاق، إلا أنهم كانوا على علم بأن النبي هوشع (سفر هوشع 3:12 ــ 13) كان قد أوعد «يعقوب» بقصاص على أعماله الطالحة، من بينها أنه قبض على عقب عيسو عند الولادة، وأنه استغل قوته ليجعل من نفسه أميراً. أي أنه كان يلجأ إلى الخديعة، ولهذا هرب إلى سوريا خوفاً من غضب عيسو. وهناك عبارة تدين يعقوب على سرقته مباركة شقيقه، حذفها أحد المحررين القدامى، واستبدلها بالعظتين (4، 5)[من سفر هوشع، الإصحاح الثاني عشر] اللتين تثنيان على مأثرة صراعه في بيت إيل [سيرد ذكر هذا الصراع بين يعقوب وملاك الرب في فصل لاحق]. واشعياء يقر (في سفر أشعياء 27:43 ــ 28) بأن خطيئة يعقوب تم التكفير عنها على الأقل في النفي البابلي: «أبوك الأول أخطأ... ودفعتُ يعقوبَ إلى اللعن».

وقد ترسخت هذه الأسطورة ــ التي تذكرنا في جزئها الأول بأخرى إغريقية من أصل كنعاني ــ في التراث العبري مُذ كان اللجوء إلى الخديعة والاحتيال يعد مفخرة، على غرار أوديسيوس الغادر القاسي. وإنه ليمكن، والحق يقال، مقارنة يعقوب بأوتوليكوس، شيخ اللصوص اليونانيين، وجدّ أوديسيوس. ومع هذا فإن الشرائع التي يقرها اليهود الذين يخشون الله، لم تتساهل مع الكذب والسرقة. (ففي سفر اللاويين 11:19 جاء: «لا تسرقوا، ولا تكذبوا، ولا تغدروا أحدكم بصاحبه») الأمر الذي ترك اليهود في حيرة من أمرهم. فهم يذهبون إلى أن مصير الكون كان معلقاً على استقامة يعقوب، بصفته الوريث الشرعي لأرض الميعاد. فهل يكتمون أسطورة عيسو ــ يعقوب، وبالتالي

يخسرون مباركة إسحاق؟ أم يعتبرون رفض تقديم الطعام لإنسان أشرف على الهلاك جوعاً، وسرقة الأخ، وخداع أب أعمى، أعمالاً مبررة إذا كان المرء يراهن من أجل صفقة كبيرة؟ وإذْ أعياهم الأمر لجأوا إلى القصة الآتية: كان يعقوب ملتزماً بإطاعة أمه؛ فنفذ ما أجبرته عليه مكرهاً، رغم أن لجوءه إلى الكذب الصريح أمضّه. ولأن عيسو تزوج بنساء حثيات وثنيات، الأمر الذي أزعج رفقة، فقد ساووه بمملكة روما الشريرة، المسموح بخداع موظفيها وعملائها، واعتبروا يعقوب نموذجاً لمن ينجو بجلده وسط عالم معاد.

زيجـــات عيســـو

عندما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجتين حثيتين، هما يهوديت ابنة بيري الحثي ــ وقيل في رواية أخرى، أهوليبامة الحُوية ــ وبسمة أو أداح ابنة ايلون الحثي. فكانتا مرارة في نفس إسحاق ورفقة، لأنهما وثنيتان. ولأجل إرضائهما تزوج بثالثة تخاف الله، تدعى بسمة، أو مَحْلة بنت عمه إسماعيل بن إبراهيم.

ويزعم البعض أن حب عيسو لإسحاق ورفقة انقلب حقداً بعد أن غفرا ليعقوب سرقته. فقال في ذات نفسه: «سأتزوج بإحدى بنات إسماعيل، وأجبره على إلغاء بيع حق بكوريتي. وإذا رفض إسحاق ذلك، فسيقتله إسماعيل، وانتقاماً لأبـي، سأقتل إسماعيل بعد ذلك؛ وبذلك أرث ثروتهما جميعاً». لكنه لم يقل لإسماعيل سوى: «لقد أورث إبراهيم كل ماله لأخيك الصغير إسحاق، وألقي بك في البرية لتهلك. وها هو إسحاق يفعل الشيء ذاته معي. فلتنتقم أنت من أخيك الغاضب، ولأنتقم أنا أيضاً» لكن إسماعيل قال له: «ولماذا أقتل أباكَ إسحاق، ما دامت إساءته موجهة إليك؟» فأجابه عيسو: «لقد قتل قايين أخاه هابيل؛ ولم يحدث أن يقتل ابن أباه» لكن الله، إذْ قرأ أفكار عيسو الشريرة قال: «سأكشف أفكارك للملأ!».

ومات إسماعيل بعد خطبة بسمة؛ فأعطاها ابنه البكر نبايوت لعيسو. لكن إسماعيل كان قد سمى بسمة محلة لكي يميز بينها وبين زوجة عيسو الحثية، وبأمل أن يغفر الله لعيسو بعد هذا الزواج؛ لكن زوجتيه الحثيتين أفسدتا محلة، لأنه لم يطردهما من بيته. وتزاوج كل أبنائها مع الحوريين والسعيريين الوثنيين.

وفيما يلي أسماء القبائل الأدومية، وهم مواليد عيسو أبـي أدوم في جبل سعير: تيمان، وأومار، وصفو، وجعثام، وقناز، أبناء أليفاز بن عدا زوجة عيسو؛ ونحث، وزارح، وشمّة، ومزّة، وهم أبنـاء رعوئيـل بن بسمة امـرأة عيسو؛ وعماليق بن أليفاز من سُرّيته تمناع؛ ويعوش، ويعلام، وقُورح، أبناء أهوليبامة امرأة عيسو.

• • •

إن أسماء سلالة أدوم التي أوردها مؤرخو سفر التكوين مصدرها السماع. و «بسمة» قد تعني «شميم». أما «أهوليبامة» فتعني «خيمتي في العلاء»؛ و «عدا» تعني «تجمُّع». وأما «أهوليبامة الحوية» فربما كان المقصود بها «الحورية» [من الحوريين].

ويعدد سفر التكوين أبناءعيسو عن طريق الأم، على غرار ما جاء بصدد أبناء يعقوب.

و «يهوديت» تعني «المجد للرب»، وهي الصيغة المؤنثة ليهودا. وقد تضاعف عدد أفراد قبيلة يهودا منذ زمن مبكر، بعد أن التحق بها القنزيون أبناء أدوم (سفر العدد 12:32، وسفر القضاة 13:1)، والقينيون (سفر القضاة 16:1)، الذين كانوا يشملون الكالبيين ويقطنون في أراضي العماليق (صموئيل الأول 6:25).

ويؤكد سفر التكوين على الصراع الدائم بين القبائل الباترياركية وجيرانهم ذوي الانتساب الأمومي. ولما كان عيسو قد وفق بين هذين النظامين [الباترياركي والأمومي]، فقد أباح المفسرون المدراشيون لأنفسهم الحرية في رسم أسوأ صيغة لشجرة نسب له من خلال مصاهرته مع قبيلة إسماعيل الباترياركية.

يعقوب في بيت إيل

دعت رفقة يعقوب وقالت له: «هو ذا عيسو أخوك مزمع على قتلك، وسينتقم إسماعيل لمقتلك. ولكن لماذا يتعين عليّ أن أفقد ابنين في يوم واحد؟ فالآن، يا ابني، إسمع لقولي وقم اهرب إلى أخي لابان في فدان ـــ أرام، وأقم عنده أياماً قليلة حتى يرتد سخط أخيك». وقالت لإسحاق: «مللت حياتي من أجل بنات حث [الحثيات]. إن كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حث الوثنيات فسيجللني العار». فأوصى إسحاق يعقوب قائلاً: «يا بني، لا تأخذ زوجة من بنات كنعان! قم إذهب إلى فدّان ـــ أرام، وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخي أمك» وتنبأ له قائلاً:

والله القدير يباركك
ويجعلك مثمراً ويكثرك
فتكون جمهوراً من الشعوب!
ويعطيك بركة إبراهيم
لك ولنسلك معك
لتحرث أرض غربتك
التي أعطاها الله لإبراهيم!

وكان عمر يعقوب وعيسو ثلاثة وستين عاماً يومذاك. ويزعم البعض أن رفقة، عندما أظهرت تذمرها من زوجات عيسو، لم تذكر أسماءهن، بل تمخطت بعصبية وألقت بالمخاط من أصابعها على الأرض. وإن عيسو أرسل ابنه اليفاز في أثر يعقوب لما هرب، ليقتله ويسلبه، فاصطحب اليفاز، البارع في رمي السهام، عشرة من أخواله، وتعقبوا يعقوب، حتى أدركوه في شكيم (نابلس). فتضرع إليهم يعقوب قائلاً: «خذوا كل ما أملك، مقابل حياتي، وسيغضّ الله النظر عن سلبكم». عند ذاك جرده أليفاز من ملابسه وعاد بالغنائم إلى البيت؛ بيد أن موقفه المتساهل هذا أثار غضب عيسو.

وخشية أن يتعقبه عيسو نفسه، جنح يعقوب عن طريق شكيم، وحصل إلى لوز عند غروب الشمس. ولأنه كان عارياً، لم يدخل المدينة من أبوابها؛ ولخلو

ذات يده من بردعة، اتخذ من أحد الأحجار وسادة له. وفي تلك الليلة شاهد في لمنام سلّماً يصل بين الأرض والسماء، وملائكة الرب تصعد وتنزل على درجاته. ثم ترامى إليه صوت قائلاً: «أنا الرب إله أبيك إسحاق، وأبيه إبراهيم. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك! ويكون نسلك كتراب الأرض. وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً. ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض، لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به».

استيقظ يعقوب من نومه وقال فزعاً: «حقاً إن الرب في هذا المكان، وأنا لم أعلم. ما هذا إلا بيت الله، وهذا باب السماء!».

بكّر يعقوب في صباح اليوم التالي، وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه، وأقامه عموداً، وصب زيتاً على رأسه ودعا ذلك المكان «بيت إيل». ونذر نذراً، قائلاً: «إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه، وأعطاني خبزاً لآكل، وثياباً لألبس، ورجعت بسلام إلى بيت أبـي، يكون الرب لي إلهاً. وها الحجر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله، وكل ما تعطيني فإني أعشره لك».

يزعم البعض أن مدينة لُوز تقع عند سفح جبل موريا، الذي رأى يعقوب عليه منامه. وإن وسادته كانت مؤلفة من اثني عشر حجراً مختلفاً، هي بقايا مذبح بناه آدم، وأعاد بناءه إبراهيم؛ ولأن يعقوب اختار واحداً منها، راحت بقية الأحجار تتضرع هاتفة: «أنم رأسك الصالح عليّ!» وبمعجزة اتحدت في حجر واحد. فقال الله: «تلك هي علامة على أن أبناءك الأتقياء الذين سأنعم عليك بهم سيشكلون أمة واحدة! أو ليست هناك اثنتا عشرة علامة في دائرة البروج، واثنتا عشرة ساعة في النهار، واثنتا عشرة ساعة في الليل، واثنا عشر شهراً في السنة؟ يقينا، والحالة هذه، سيكون لإسرائيل اثنا عشر سبطاً!».

ويزعم آخرون أن الله عندما خلق الملائكة سبحوا بحمده قائلين: «مبارك هو الرب، إله إسرائيل، من الأزل إلى الأبد!» وعندما خلق آدم تساءلوا قائلين: «أيها الرب، أهذا الإنسان يتعين علينا أن نمجده؟» أجاب الله قائلاً: «كلا، إن هذا الرجل لص؛ سوف يأكل الفاكهة المحرمة». وعندما ولد نوح، تساءلوا قائلين: «أهذا هو إذن؟» أجاب الله: «كلا، هذا سكير.» وعندما ولد إبراهيم، تساءلوا مرة أخرى: «أهذا هو إذن؟» ثم إن الله أجاب: «كلا، هذا مهتدٍ حديثاً، ولم يُختن في طفولته.» وعندما ولد إسحاق تساءلوا: «أهذا هو إذن؟» أجاب الله: «كلا، هذا الرجل يحب ابناً بكراً يحمل لي ضغناً.» ولكن عندما ولد يعقوب، وكرروا السؤال

نفسه، هتف الله قائلاً: «نعم، هو بحق! وسيتغير اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، وسيمجده كل أبنائه!».

وقد اختير يعقوب نموذجاً للملاك بوجه آدمي في عربة الرب التي رآها حزقيال في رؤياه، كما انطبعت صورته الوسيمة، ومحياه الخالي من الشعر، على القمر.

وعندما مسح يعقوب عموده بالزيت الذي نزل إليه من السماء، داس عليه الرب بقوة ليغرسه عميقاً في الأرض، ومن هنا أطلق عليه «حجر الأساس»: وإنما هو سُرة الأرض، التي أقيم عليها هيكل سليمان.

• • •

يقع بيت إيل الذي كان مزاراً كنعانياً قبل الباترياركيين العبريين بزمن طويل، على بعد عشرة أميال شمالي أورشليم، وحوالي الميل شرقي مدينة لوز. واسمه بالعربية اليوم بتّين. وقد كشفت الحفريات الاركيولوجية النقاب عن وجود استيطان مستمر تقريباً لهذه البقعة منذ القرن الحادي والعشرين ق.م. حتى القرن الأول الميلادي. وقد تعززت قداسة بيت إيل بأسطورة تضحية إبراهيم في طريق رحلته إلى مصر، وعودته، في موضع بين بيت إيل وعاي. وفي أيام القضاة [الإسرائيليين] شبه التأريخية نصبت هناك خيمة المجمع التي حفظ فيها تابوت العهد. وظل بيت إيل يعتبر مقاماً دينياً مقدساً حتى حكم صموئيل (سفر صموئيل الأول 3:10، و 4:13)، ومع أنه فقد هذه الأهمية بعض الشيء، بعد أن بنىٰ سليمان الهيكل في القدس، إلا أنه استعاد مجده حين اقتسم رحُبعام ويرُبعام الامبراطورية بينهما، واختارت المملكة الشمالية بيت إيل معبداً رئيسياً لها (سفر الملوك الأول 29:12 ــ 33).

إن الكلمة اليونانية (بايتيلوس) baetylos تعني عموداً منشوري الشكل، يمسح دورياً بالزيت، أو الخمر، أو الدم، وفيه يقيم الرب، وكان يقال إنه يسقط من السماء، مثل حجر الصاعقة المقدس عند الرب تيرمينوس في روما، أو البالاديوم في طروادة. ولما كان اليونانيون قد جسدوا «بايتيلوس» بصفته ابن أورانوس إله السماء وغايا الأرض الأم؛ ولما كان إيل، الذي يعتبره فيلو الجبيلي، بالاستناد إلى سانخونياتون، مقابلاً لكرونوس، وقد ولد بنفس اليوم، فإن «بايتيلوس» من المرجح أن يكون مستعاراً من اللغة الفينيقية أو العبرية «بيت إيل»، الذي يعني «بيت الإله إيل». ويروي هسيخيوس أيضاً أن الحجر الذي وضع بدلاً من زيفس بعد ولادته، ليلتهمه أورانوس فيما بعد، عرض في

دلفي وسمي «بايتيلوس»؛ وكان الكهنة يزيتونه كل يوم، واستناداً إلى بوزانياس، كانوا يلفونه بالصوف الخام في المناسبات الدينية. وذكر فوتيـوس، المؤرخ البيزنطي من القرن التاسع، أن هناك عدة «بايتيلات» على جبل لبنان، كانت تروى عنها حكايات عجيبة. كما أن الكلمة كانت تنعت بها إلاهات إناث أيضاً: فهناك إلاهة تدعى «عناة ــ بايتيل».

وأما أن الآباء الاثني عشر كانوا أتقياء، فيتضارب على نحو سافر مع سفر التكوين. فالكل، باستثناء رأوبين والطفل بنيامين، تآمروا لاغتيال أخيهم يوسف، ثم باعوه عبداً وادعوا أن حيواناً من الأوابد افترسه. ورأوبين أغوى زوجة يعقوب، ونال لعنته (سفر التكوين 22:35؛ 4:49) كما لُعن لاوي وشمعون لأنهما قتلا كل ذكر في شكيم (سفر التكوين 5:34 ــ 31 وكذلك 5:49 ــ 7)؛ ووصف بنيامين بأنه ذئب يفترس، في الصباح يأكل غنيمة، وعند المساء يقسم نهباً (سفر التكوين 27:49). ومع هذا فإن الابوكريفا (الأسفار الأربعة عشر التي تلحق بكتاب العهد القديم) تظهر كل واحد منهم كينبوع للتقوى والحكمة.

زيجات يعقوب

ذهب يعقوب إلى فدان ـــ أرام، ونظر، وإذا في الحقل بئر، وهناك ثلاثة قطعان غنم رابضة عندها. فقال للرعاة: «هل تعرفون لابان بن ناحور؟» قالوا: «نعرفه، وانظر، هي ذي راحيل ابنته آتية مع الغنم!».

ثم قال لهم: ـــ لماذا لا تسقون غنمكم؟

قالوا: ـــ لا نقدر، حتى تجتمع جميع القطعان، ليساعدونا في دحرجة الحجر عند فم البئر، ثم نسقي الغنم.

وإذ أبصر يعقوب راحيل بنت خاله لابان قادمة ترعى بغنم أبيها، تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى الغنم بدلاً منها. ويزعم البعض أن الماء ارتفع بمعجزة وظل على نفس المستوى طوال بقائه. ثم عرّف نفسه لراحيل، وقبلها، ورفع صوته وبكى. ويزعم البعض أن الخراف جعلت تثغو فيما بينها غيرة من يعقوب عندما قبلها قبلة القرابة. وركضت راحيل وأخبرت أباها بمقدم يعقوب، فركض أبوها للقاء يعقوب وعانقه وأتى به إلى بيته. وكان لابان يطمع بعطايا أثمن من التي أتى بها اليعازر، ومع أن يعقوب قَدِمَ إليهم راجلاً على القدمين وخالي الوفاض، إلا أن لابان كان يتصور أنه يخفي ذهباً تحت ملابسه. وعند عناقهما تلمسه لابان فلم يجد حزاماً، ثم قبله على فمه ليتبين إن كان فيه لآلىء. فقال يعقوب بصراحة: «خالي، لن تجد ثروة مخفية عندي: لا أحمل لك سوى سلامي، فلقد سلبني في الطريق اليفاز بن شقيقي عيسو».

فقال لابان مع نفسه: «جاء صفر اليدين، ليأكل ويشرب على مائدتنا شهراً بكامله، أو ما أدراني، قد يبقى سنة!» وذهب مغضباً ليستشير الترافيم(107).

كان آراميو حرّان يصنعون أصناماً تقوم بدور العرافة، على النحو الآتي: يقتلون ابنهم البكر، ويضعون رأسه في ماء ملح، وزيت، وتوابل، ثم يرتلون التعاويذ، ويضعون تحت اللسان قرصاً ذهبياً نقش عليه اسم عفريت،

---

(107) أصنام منزلية صغيرة.

ويجصصون الرأس في جدار، ويشعلون قناديل، ثم يسجدون له، ويوجهون له أسئلة تأتيهم الأجوبة عليها همساً. ولديهم صنف آخر من الترافيم: مصنوعة من ذهب وفضة، مصنفة قطعةً قطعة، كل واحدة مكرسة لساعة معينة، وهي مؤزّرة بوحي من النجوم لقراءة الطالع. وكان لدى لابان، المنجم الشهير، مثل هذه الترافيم في منزله. سجد لها وقال: «ماذا أصنع بهذا الضيف الذي حل في بيتي يأكل خبزه بلا مقابل؟» همست الترافيم قائلة: «احذر من مناوءة رجل سعده طالع! والله سيبارك أي شيء تفعله في البيت أو الحقل، إكراماً له». فتساءل لابان مع ذات نفسه: «ولكن ماذا لو طلب مني يعقوب أجراً عالياً إذا طلبت منه أن يلتحق في خدمتي؟» فقرأت الترافيم أفكاره وهمست قائلة: «ليكن أجره امرأة، لن يطلب سوى النساء. وكلما لوّح يعقوب بالعودة إلى بيته، قدم له امرأة أخرى، وعند ذاك سيبقى». (عن يلقوت رئوبني: مجموعة من التعليقات القَبَلانية(108) على أسفار موسى الخمسة، جمعها ر. روبين بن هوشكة كوهين، توفي عام 1673 في براغ).

بعد انقضاء شهر سأل لابان يعقوب: «أي أجر تطلب؟» أجابه يعقوب: «دعني أخدمك سبع سنوات لقاء ابنتك راحيل» فهتف لابان قائلاً: «إن أعطيتك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر. أقم عندي» وتمت الصفقة. (سفر التكوين 29: 14 ــ 19).

يزعم البعض أن راحيل وشقيقتها التوأم ليئة كانتا على حظ واحد من الجمال في بادىء الأمر؛ وعندما ترامى إلى ليئة من الآخرين أن ابني رفقة التوأمين سيتزوجان بابنتي لابان التوأمين، على أن تكون الكبرى للأكبر، والصغرى للأصغر، تساءلت: «وماذا يشاع عن عيسو بن رفقة، الأكبر؟» قيل لها: «شرير، وقاطع طرق»، «وماذا يشاع عن يعقوب؟»، «صالح، ويرعى غنم أبيه» فبكت ليئة وقالت: «أرجو من الله أن يعصمني من الزواج بعيسو»، وأتلف البكاء المستمر عينيها، في حين ازدهت راحيل حسناً، لأنها لم تسمع سوى الكلمة الحسنة عن يعقوب.

ثم أن يعقوب، إدراكاً منه بأن البنت الكبرى ينبغي أن تتزوج قبل أخواتها، قال مع ذات نفسه: «لا شك أنني أوغرت صدر عيسو حقداً عليّ لأنني خدعته بصفقتَيْ البكورية والمباركة، يحسن بي إذن أن أتزوج راحيل [الصغرى]، وإلا قتلني».

---

(108) القبلانية: فلسفة دينية سرية، عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط، مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً ــ قاموس المورد.

وحذرته راحيل قائلة: «لا تأمن مكائد أبـي!» لكن يعقوب أجابها متفاخراً: «سأبزه بمكائدي» فقالت: «وهل يحق للصالحين تـدبير المكـائد؟» قـال لها: «بوسعهم الكيد للكائد. خبريني بماذا يفكر أبوك من مكيدة لي؟» قالت راحيل: «أخشى أن يأمر ليئة بأن تشغل مكاني في ظلام غرفة العرس، وهو أمر يمكن القيام به هنا بسهولة، في الشرق، حيث لا يستمتع الرجل بزوجته في ضوء النهار أو القنديل. وقد قيل أن الأمر يختلف في الغرب».

قال يعقوب: «إذن فلنتفق على إشارة. سأستجيب للمرأة التي تبدأ بلمس إبهام قدمي اليمين، وبعد ذلك إبهام كفي اليمين، وأخيراً شحمة أذني اليمنى».

قالت راحيل: «سأحفظ هذه الإشارات».

ثم أن يعقوب قال للابان: «لا يخفى عليّ أنكم، معشر الشرقيين، لكم باع طويلة في الحيل. اصغ إليّ إذن. سأخدم سبع سنوات من أجل راحيل ابنتك الصغرى؛ وليس ليئة ابنتك الكبرى ذات العينين الكليلتين، ولا لقاء أية امرأة أخرى تدعى راحيل تأتي بها من السوق!».

أجابه لابان قائلًا: «لا إشكال في ذلك يا ابن أختي».

وخدم يعقوب لابان سبع سنوات كانت في عينيه أياماً قليلة بسبب محبته لراحيل. وعند انتهاء المدة قال للابان: «اعطني امرأتي لأن أيامي قد كملت، فأدخل عليها». فأولم لابان وليمة لأهل فدان ــ أرام في بيته، وفي المساء أخذ ليئة ابنته وأتى بها إليه. ولم يكتشف يعقوب الخدعة إلا عند الصباح! ذلك أن راحيل، رغم أنها كانت تحب يعقوب حباً جماً، إلا أنها كانت تحب ليئة أيضاً، وقالت مع نفسها: «أخشى أن يجلل العار أختي بسبب جهلهـا الإشارات، فلأخبرها بها إذن».

وما أن طرّ ضوء الفجر حتى وبخ يعقوب ليئة قائلًا بغضب: «محتالة ابنة محتال!» غير أن ليئة ابتسمت وقالت: «ما من تلميذ إلا وله معلم: فلقد سمعتك بنفسي تقول كيف أن خالي الأعمى إسحاق ناداك (عيسو)، وكيف أنك تصنعت صوت عيسو، فتلقيتُ الدرس منك». فيما بعد أثاب الله راحيل على موقفها النبيل من أختها، بأحفاد لها مثل شمشون، ويشوع، والملك شاؤول.

ثم أن يعقوب قال للابان: «ما هذا الذي صنعت بـي؟ براحيل خدمت عندك سبع سنوات. فلماذا خدعتني؟» وأجابه لابان بلطف: «لا يُفعل هكذا في مكاننا، أن تُعطى الصغيرة قبـل البكر. لا تغضب، وعلم نسلك عـلى طاعة

الشريعة، واشكرني لأنني دللتك إلى سواء السبيل، أكمل أسبوع زواجك، فنعطيك راحيل أيضاً بالخدمة التي تخدمني أيضاً سبع سنين أخره».

وافق يعقوب. واستجابة لنصيحة الترافيم أعطاه لابان امرأتين أخريين فضلاً عن ليئة وراحيل، هما ابنته زلفة وهي جارية ليئة، والأخرى بلهة جارية راحيل. وكانت زلفة وبلهة ابنتي لابان من سُرِّيتين. وكانت أربعتهن تحت يعقوب.

• • •

ما يزال تعدد الزوجات سارياً بصورة شرعية في الشرق الأوسط عند المسلمين واليهود على حد سواء، إلا أنه نادراً ما يمارس. ورغم أن الزواج بأختين محرم عند اللاويين (سفر اللاويين 18: 18)، إلا أنه كان مسموحاً به حتى القرن السادس ق.م. لأن أرميا (3: 6 وما تلاها) وحزقيال (23) تحدثا بصورة رمزية عن زفاف الله على الشقيقين إسرائيل ويهودا، أو (اهولاه) و (أهوليباه).

أما «الشرقيون» الذين كانوا يصرون على أن تكون غرفة العرس مظلمة، فهم الحرّانيون، والفرس، والميديون. وكان يعقوب متهماً بخلاعة الغربيين: كما فعل أبشالوم عندما ضاجع حريم أبيه تحت ظلة أمام أبصار الإسرائيليين (سفر صموئيل الثاني 16: 22)[109].

ومع أن الترافيم التي كان لابان، وداود، وميخا، يحتفظون بها، «منحوتات» من الصنف الذي أدانته الوصية الثانية، إلا أنها كانت مستعملة على نطاق عام. وقد كتب هوشع (سفر هوشع 3: 4) في القرن الثامن ق.م. مؤكداً أن الدين يهلك لولا الترافيم والذبائح، والتماثيل، والأفود [السواري المقدسة]. وكانت [الترافيم] آلهة منزلية أو قروية، من المعدن، أو الخشب، أو الطين النضيج، وكانت تطلب منها المشورة حتى أيام يهودا المكابي الذي كان رجاله يحملون الترافيم تحت ملابسهم.

أما الكلال في عيني ليئة فلعله من التراخوما، وهو مرض معدٍ ينقله الذباب، لم يكتشف التلقيح ضده إلا حديثاً.

(109) «فنصبوا لابشالوم الخيمة على السطح ودخل ابشالوم إلى سراري ابيه امام جميع إسرائيل».

مولد الآباء الإسرائيليين الاثني عشر

كان يعقوب يؤثر راحيل على ليئة، لأن لابان فرض هذه الأخيرة عليه. إلا أن الله أشفق على ليئة، فحبلت بولد، دعت اسمه رأوبين، لأنها قالت أن الرب قد «رأى» مذلتي؛ وسمت ابنها الثاني «شمعون»، لأن «الله سمع صلاتي فأعطاني هذا أيضاً»؛ وابنها الثالث «لاوي» قائلة «الآن هذه المرة يقترن بي رجلي، لأني ولدت له ثلاثة بنين»؛ أما ابنها الرابع فأسمته يهودا، قائلة «هذه المرة أحمد الرب!» وعند ذلك كف يعقوب عن النوم مع ليئة مؤقتاً، استجابة لراحيل التي كانت ما تزال عاقراً، بقولها: «هب لي بنيناً، وإلا فأنا أموت». فحمي غضب يعقوب على راحيل وقال: «العلي مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن؟» فقالت: «أستحلفك أن تتضرع لله من أجلي، مثلما تضرع إبراهيم من أجل سارة».

قال لها: «ولكن هل ستفعلين ما فعلته سارة، فتأتين لك بندّ في فراشي؟».

قالت: خذ جاريتي بلهة، فارزق أيضاً منها بنيناً». فدخل يعقوب على بلهة. وعندما ولدت له ولداً قالت راحيل: «قد قضى لي الله وسمع أيضاً لصوتي!» «وأسمت الوليد داناً(110). وحبلت بلهة بابن ثانٍ؛ فقالت راحيل: «لقد صارعت أختي وربحت المباراة مع الله!» ودعت اسمه نفتالي.

ولما رأت ليئة أنها توقفت عن الولادة، أخذت زلفة جاريتها وأعطتها ليعقوب سُرّية. وعندما ولدت زلفة ليعقوب ولداً، قالت ليئة: « يا للسعد!» ودعت اسمه «جاد»(111). ثم ولدت زلفة ولداً آخر، فقالت ليئة: «الآن ستغبطني كل البنات!» ودعت اسمه «أشير». وبعد ذلك انقطع يعقوب إلى راحيل فقط، فأثار ذلك حفيظة ليئة.

وفي موسم حصاد القمح، بينا كان رأوبين بن ليئة يرعى حمار أبيه يعقوب، رأى لفّاحاً [نبات اليبروح] في الحقل. كانت جذوره العجيبة تشبه

---

(110) دان: باللغات السامية تفيد معنى القضاء، ومنها دان يدين العربية.

(111) الجَد، والجُد، بالعربية: الحظ.

أعضاء الإنسان التحتانية؛ وزهرته بلون اللهب، وفي الغسق يندّ عنها شعاع كالبرق. ومن خصائص هذه النبتة أنها لا تزيد وجد الرجال بزوجاتهم فحسب، بل وتشفيهن من عقمهن أيضاً. كما أن من خصائصها أنها تنافح بقوة ضد اليد التي تقتطفها، إلى أن يسكب عليها دم الحيض أو ماء المرأة، ويتعرض لاقطها للموت ما لم تكن السيقان في وضع عمودي. ويحفر لاقطو اللفاح حفرة حول جذره، ثم يشدونه بحبل تطوق نهايته الأخرى رقبة كلب، وحين يبتعدون عن النبتة، ويتبعهم الكلب، سيشد عليها، ويصرع في الحال، وبذلك يشبع روح الانتقام عند اللفّاح.

ربط رأوبين الحمار إلى هذه النبتة ومضى، جاهلاً أمرها. حتى إذا سحب الحمار اللفاح الذي ندّت عنه صرخة مروعة، هوى في الحال ميتاً. فحمل رأوبين النبتة إلى أمه ليئة ليريها كيف قتلت الحمار؛ إلا أن راحيل صادفته في الطريق، وخطفت اللفاح من بين يديه. فبكى رأوبين، وهرعت إليه أمه ليئة وخطفت هي الأخرى اللفاح من أختها وضرتها. إلا أن راحيل تضرعت إليها قائلة: «اعطني هذا اليبروح، سأدع يعقوب ينام معك الليلة».

لم ترفض ليئة هذا العرض. وعندما بلغ سمعها نهيق حمار يعقوب عائداً من الحقل، هرعت إلى زوجها، وقالت له: «إليّ تجيء، لأني قد استأجرتك بلفّاح ابني». فاضطجع معها تلك الليلة كارهاً. وحبلت منه ليئة بولد خامس اسمته يسّاكر، لأن «الله قد أعطاني أجرتي!» وقال يعقوب إن أبناء يسّاكر سيلمّون بعلوم الأنواء والفلك.

وبَشُـرَت راحيل اللفـاح، ثم أكلته. فحبلت أخيـراً، ثم أنجبت ولداً أسمته (يوسف)[112]، قائلة: «قد نزع الله عاري. فزادني الرب ابناً آخر» (سفر التكوين 30: 14 ــ 24).

وحبلت ليئة أيضاً، وولدت ابناً سادساً ليعقوب أسمته زبولون، قائلة: «قد وهبني الله هبة حسنة، الآن يساكنني رجلي لأنني ولدت له ستة بنين!» (سفر التكوين 30: 19 ــ 20).

ثم وُلد بنيامين بعد ذلك بعدة سنوات، أي لدن عودة يعقوب من فدّان — أرام. فبينا كان يعقوب عائداً مع قطعانه وزوجاته، حضر راحيل الطلق، على مرمى من افراته[113]. وبعد يوم أو يزيد ظهر ابنها أخيراً، فقالت القابلة:

---

(112) يوسف، يعني بالعبرية: يزيد.

(113) افراتة: تعني المثمرة، وهي بيت لحم اليوم.

«تشجعي، فقد جاءك ولد آخر!» وكان عند خروج نفسها، لأنها ماتت عند الولادة، أنها دعت اسمه ابن أوني. وأما أبوه فدعاه بنيامين، ويعني «ابن يدي اليمنى».

وكان لكل من أبناء إسرائيل الاثني عشر أولاء، باستثناء يوسف، شقيقة توأم، تزوجوا بهن فيما بعد. أما بنيامين، فكانت له ثنتان. ثم انجبت ليئة ابنة، بلا توأم ذكر، اسمتها دينة.

• • •

يقدم سفر التكوين اشتقاقات على طريقة اشتقاقات العامة، لأسماء الاثني عشر ولداً من أبناء إسرائيل، إلا أن بعضها فقط يبدو معقولاً. فراوبين الذي يعني «انظر إنه ولد!» وبالحرف الواحد: «رَ، ابن» لا يمكن أن يؤول على النحو الآتي: «رآه بأونيـي» (رأى تعاستي). ومع أن (دان) اشتق على نحو صحيح من الجذر (دان) ويعني (قضى)، ومع أن كلمات راحيل «الله قضى لي!» (داناني ايلوهيم) وهي تماثل العبارة الأكدية «شماش إيديناني» (عسى أن يقضي لي شمش)، ولها ما يماثلها في الأسماء الآمورية والقتبانية، فإن (دان) كان بالأصل لقباً لحامي القبيلة. أما (دينة) فهي مؤنث (دان).

اما الافرائيميون فقد جاء اسمهم القبلي «الصقع الخصب» من سلسلة التلال المروية جيداً التي احتلوها في حدود 1230 ق.م. عند غزو فلسطين. وأما «بنيامين» (ابن يدي اليمين، أو ابن الجنوب) فيعني أن هذه القبيلة استوطنت منطقة افرايم الجنوبية، ومع ذلك فإن «بن ـــ أوني»، الاسم الأصلي، يوحي بـ «ابن أون»، المدينة المصرية المذكورة في سفر التكوين (41: 45) مسقط رأس أبـي زوجة يوسف، التي ربما رحل منها بنيامين مع القبيلتين اللتين تنتسبان إلى راحيل وعشيرة اللاويين الكهنوتية. أما ابنا زلفة، جاد وأشير، فيحملان اسم إلهين كنعانيين ـــ آراميين. كان جاد إله السعد الطالع، وهو معنى اسمه بالعبرية، والآرامية، والسورية، والعربية، وقد امتدت عبادته حتى تدمر، وفينيقيا، وكل الجزيرة العربية. وأما (باجاد!) صرخة ليئة المزعومة عند مولد جاد فيمكن فهمها ببساطة على انها تعني «حظاً سعيداً!» وأما (أشير) فهو (أشير) الآموري، الصيغة المذكرة لأشيرة، اسم إلهة الخصب ذات النفوذ الواسع، والمعروفة أيضاً بالأسماء التالية: أثيرات، واشيرات، وأشيرتو، واشراتو.

وقد يعني «يسّاكر» «رجل ساكار»، و (ساكار) أو (سوكار) هو إله مصري في ممفيس.

والتسلسل التقليدي لمواليد الآباء يأتي في سياق الأقدمية لاتحاد ليئة ــ راحيل: الذي سمي فيما بعد «إسرائيل»، مع أن «إسرائيل» بالمعنى الضيق للكلمة كانت في البداية تشتمل على قبائل راحيل فقط.

و (ليئة) التي تعني (بقرة وحشية)، و (راحيل) وتعني (شاة)، هما إسمان لألاهتين. كما أن البقرة الوحشية هي تسمية أخرى لإلاهة القمر الكنعانية، أما الإلاهة ــ الشاة، أم الإله ــ الكبش، فكان رعاة جاسان يعبدونها. ويبدو أن أبناء ليئة الستة كانوا آراميين، من الاتحاد الإبراهيمي المبكر، الذين لم يستوطنوا مصر، لكن أبناء عم راحيل اتحدوا معهم بعد عودتهم من جاسان تحت يشوع. أما «أبناء» زلفة فلا شك أنهم كانوا بطوناً من ليئة؛ مثلما كان «أبناء» بلغة من راحيل.

على أن بنيامين لا يمكن اعتباره آرامياً، رغم أنه ابن راحيل: فقبيلته كانت متميزة، اشتهرت بدقة استعمالها المقلاع في الحروب، وبضراوتها. ومنها تحدر أول ملك لإسرائيل. وكانت القبائل الإسرائيلية الأخرى تستعمل القوس. كما أن استعمال داود للمقلاع ضد جوليات، وصلته القوية ببلاط شاؤول، يشيران إلى أنه من سلالة بنيامينية. ويذكر أن من بين من اشتهروا باستعمال المقلاع في حروب العالم القديم كان الآخيون الإغريق (أي الفلستينيون)، والأخمينيون... ومن المعروف أن المقلاع وصل بريطانيا، على سبيل المثال، في حدود ٥٠٠ ق.م.

ثم إن حصة بنيامين من الطعام بنسبة خمسة أضعاف ما يناله كل من أخوته الآخرين (سفر التكوين 43: 34)، ربما تشير إلى وجود المزارات الكنعانية المهمة في منطقة بنيامين، هي: بيت إيل، أريحا، الرامة، قلقيلية، مزباح [؟]، أورشليم، جبع، جبعة، جبعون. وكانت جبعون مدينة من أصل آخي (فلستيني)، وكان تصرُّفُ سفرائها عند مثولهم أمام يشوع (سفر يشوع 9: 3 وما تلاها) إغريقياً تماماً. وكثيراً ما يخلط بين أسماء جبع، وجبعة، وجبعون. كما أن أصل البنياميين بات موضع جدل بسبب وجود شعب إلى الشمال من فلسطين يدعى بينه ــ يامينة Bené-Jamina كان رئيسه يحمل اسم داويدوم، لعله أصل (داود). لقد ورد ذكر هؤلاء القوم في القرن الثامن عشر ق.م. في وثائق ماري المدينة السورية على الفرات، كقبيلة متوحشة ومتعطشة للدماء، التي تذكرنا بمواصفات بنيامين في سفر التكوين (49: 27). أما موت راحيل فيشير إلى توقف القرابين التي كانت تقدم إلى الإلاهة ــ الشاة في تأريخ سابق، بعد أن تبنى «أبناؤها» الثلاثة عبادة (أشيرة) السائدة في المنطقة.

ثم إن وجود توأم شقيقة لكل من أبناء يعقوب، تزوجوا منهن فيما بعد، باستثناء يوسف، يشير إلى اتفاق وسط في أيام القضاة بين المؤسسات الأبوية والأمومية، وإلى عبادة مشتركة لآلهة ذكور وإناث.

اما نبات اللفّاح [اليبروح]، فبجذوره المتشعبة على غرار شوكة الطعام، ولون قشرته الأسود، ومن الداخل أبيض وطري، وطوله الذي يبلغ زهاء القدم، يكاد يشبه انساناً بساقين؛ ويوجد أحياناً جذر جانبـي قصير يكاد يكون بمثابة الأعضاء التناسلية. وساقه شعري، وزهوره كأسية الشكل، ولونه أرجواني صارخ، وثمره الذي ينضج في موسم حصاد الحنطة أصفر، وحلو، وسائغ المذاق. وما يزال الفلسطينيون العرب يعتقدون أنه يصلح علاجاً للعقم. أما لفّاح الخريف فقد وصل إلى فلسطين في زمن متأخر. وجاء في مستهل احد ألواح رأس الشمرا الأوغاريتية (القرن الخامس عشر أو الرابع عشر ق.م.) عن عبادة الخصب: «ازرع اللفّاح في التربة...» أما الكلمة الأوغاريتية المقابلة للفاح فهي (د د ي م)، ولا تختلف إلا قليلاً في اللفظ عن الصيغة العبرية لها في الكتاب المقدس (دُو دوئيم). وكان يدعى (يبروحيم) عند الآراميين، لأنه كان يطرد العفاريت[114]؛ ويدعى (سعادين) عند العرب، لأنه «يُسعد» الصحة[115]؛ ودودايم عند العبريين، لأنه يمنح الحب[116].

والاعتقاد بأن اللفّاح يطلق صرخة عند انتزاع جذره من التربة، كان سائداً حتى أيام الملكة اليزابيث. قال شكسبير في (روميو وجولييت):

وصراخ كلفّاح مقتلع من التربة
حين يسمعه البشر الفانون، يجن جنونهم.

وقد أشار بلينيوس[117] في كتابه (التأريخ الطبيعي) إلى الأخطار المترتبة على اقتلاع هذا النبات بغير مهارة، ونصح مجتنيه بأن يولوا وجوههم صوب

---

(114) يقابله الفعل العربـي (برح).

(115) لم نجد في قاموس المنجد ــ وهو الوحيد تحت متناول يدنا في الوقت الحاضر ــ سوى السَعْدان؛ وهو نبت له شوك، من افضل ما ترعاه الإبل. وفيه يضرب المثل «مرعى ولا كالسعدان».

(116) إن مادة «دد» ومنها «داود» تفيد معنى الحب في اللغات السامية؛ ومنها ايضاً جاءت كلمة (بغداد): بغ‌دد.

(117) بليتيوس (23 ــ 79م) عالم روماني، صاحب موسوعة (التاريـخ الطبيعي)، يعرف بالأرشد ــ قاموس المورد.

الغرب، واقفين عكس اتجاه الريح، ويرسموا ثلاث دوائر حوله. ووصف عصير اللفاح المستخلص من الجذر أو الساق أو الثمر، كمادة مخدرة ثمينة، يمكن استعمالها عند أجراء العمليات. وقد جرب هذه الوصفة إيزودوروس، وسيرابيون، وأطباء قدماء آخرون. واللفاح عند شكسبير من بين «أشربة الشرق المخدرة». ومزاياه الملطفة للآلام تعطى تفسيراً للاعتقاد بأنه كان علاجاً للعقم، ذلك أن التوتر العضلي اللاإرادي عند المرأة قد يُفسد عملية الجماع. ولم يعرف بالضبط فيما إذا كانت راحيل قد أكلت الجذر المبشور أم الفاكهة: سفر إيساكر يرجح الفاكهة.

على هامش النص

ولأسمي (ليئة)، و (راحيل) بُعد ديني واجتماعي: فليئة هي البقرة الوحشية، وتقابلها بالعربية (ألاة) وزن عصاة، وراحيل هي الأنثى من أولاد الضأن، وتقابلها بالعربية (الرخل، والرخلة)، وقد كانت البقرة والشاة والمعزى تقدس عند اقوام الشرق الأوسط وغربي آسيا وحوض بحر إيجة. كما كانت (رمات — ننسون)، أم جلجامش، إلاهة وبقرة وحشية على حد سواء. وكان أنكيدو يخاطب صديقه جلجامش بهذه الكلمات: «ولدتك امك ننسونا، البقرة الوحشية المقدسة».

وإذا أضفنا إلى (ليئة) و (راحيل) اسم أبيهما (لابان)، وهي كلمة تفيد معنى اللبن، اتضحت لنا الجذور الرعوية والبدوية لهذه الأسماء، وكذلك انتماؤها الآرامي، فلقد كان الآراميون في تلك الحقبة من الزمن — في أيام الآموريين — قبائل بدوية.

عودة يعقوب إلى أرض كنعان

كانت ولادة يوسف في نهاية السنوات السبع التي خدمها أبوه من أجل راحيل؛ وفي اليوم نفسه أرسلت رفقة وصيفتها دبورة تحث يعقوب على العودة إلى أهله. فقال يعقوب للابان: «اصرفني لأعود إلى مكاني وأرضي.» إلا أن لابان ألح عليه بالبقاء واعداً إياه بأن يعطيه أية أجرة، معقولة، يطلبها. فقال يعقوب: «أنت تعلم خدمتي التي خدمتك، وكيف صارت مواشيك معي، لأن ما كان لك قبلي قليل فقد اتسع إلى كثير، وباركك الرب في أثري. والآن متى أعمل انا أيضاً لبيتي؟».

قال لابان: «عين لي أجرتك فأعطيك».

أجابه يعقوب: «سأرعى غنمك سنة أخرى، وأختار لنفسي كل شاة رقطاء، وكل معزى بلقاء ورقطاء».

وافق لابان على ذلك. وعزل في ذلك اليوم التيوس المخططة والبلقاء، وكل العناز الرقطاء والبلقاء. كل ما فيه بياض، وكل أسود بين الخرفان. ودفعها إلى أيدي بنيه. وجعل مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب.

فأخذ يعقوب لنفسه قضباناً خضراً من شجر الحور واللوز والدلب، وقشر فيها خطوطاً بيضاً، واوقف القضبان التي قشرها في الأجران في مساقي الماء حيث كانت الغنم تجيء لتشرب. ووضع يعقوب القضبان أمام الشياه والعنزات النشيطة فقط. فصارت الضعيفة للابان، والقوية ليعقوب. وازدادت ثروة يعقوب، فكان له غنم كثير، وجوارٍ، وعبيد، وجمال، وحمير. (سفر التكوين 30: 25 ــ 43).

فسمع يعقوب كلام بني لابان قائلين: «أخذ يعقوب كل ما كان لأبينا». ونظر يعقوب وجه لابان، وإذا هو ليس معه كأمس وأول من أمس. وقال الرب ليعقوب: «أرجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك، فأكون معك» فأرسل يعقوب في طلب راحيل وليئة وقال لهما: «أنتما تعلمان اني بكل قوتي خدمت أباكما. وأما أبوكما فغدر بـي، وغيّر أجرتي عشر مرات. لكن الله لم يسمح له أن يصنع بـي شراً. إن قال الرقط تكون أجرتك، ولدت كل الغنم رقطاً. وإن قال المخططة

تكون لك ولدت كل الغنم مخططة. وقد تراءى لي الرب في الحلم، وقال لي عد إلى بيتك.».

أجابت راحيل وليئة: «ألنا أيضاً نصيب وميراث في بيت أبينا؟ ألم يعاملنا أبونا لابـان كأجنبيتين بعد أن صرنا عندك. ولكن الغنى الذي سلبه الله من أبينا سيكون لنا ولأولادنا. والآن كل ما قال الله أفعل!».

وبينا كان لابان يجزّ غنمه، قام يعقوب وحمل أولاده ونساءه على الجمال، وساق مواشيه وجميع مقتناه، عبر الفرات، نحو أرض كنعان، دون أن يودع لابان.

ولم يسمع لابان بخبره إلا في اليوم الثالث. فأخذ اخوته معه وسعى وراءه مسيرة سبعة أيام. وأدركه في جبل جلعاد. وقال لابان ليعقوب: «ماذا فعلت وقد خدعت قلبـي، وسقت بناتي كسبايا السيف. لماذا هربت خفيـة وخدعتني ولم تخبرني، حتى أشيعك بالفرح والأغاني بالدف والعود؛ ولم تدعني أقبّل بنيَّ وبناتي! في قدرتي أن أصنع بكم شراً، ولكن إله ابيكم كلمني البارحة قائلاً احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر. والآن أنت ذاهب لأنك اشتقت إلى بيت أبيك. ولكن لماذا سرقت آلهتي؟».

فأجاب يعقوب: «رحلت بلا إشعار لأنني قلت لعلك تُبقي ابنتيك معك. أما ترافيمك [آلهتك]، فلن يعيش سارقها. قدّام اخوتنا انظر ماذا معي، وخذه لنفسك.» ولم يكن يعقوب يعلم أن راحيل سرقتها.

فدخل لابان خباء يعقوب، ثم خباء ليئة، وخباء الجاريتين بلهة وزلفة، فلم يعثر على شيء. وعندما دخل خباء راحيل، قالت له: «لا يغتظ سيدي إني لا أستطيع أن أقوم أمامك لأن عليّ عادة النساء.» ففتش ولم يجد الأصنام. كانت راحيل قد وضعت الأصنام في حداجة الجمل وجلست عليها.

اغتاظ يعقوب وخاصم لابان وقال له: «ماذا وجدت يا سيدي؟ ضعه ها هنا قدام اخوتي واخوتك، فلينصفوا بيننا الاثنين. الآن عشرين سنة أنا معك. هل أسقطت(118) نعاجك وعنازك؟ هل نحرت وأكلت كباشك؟ ثم أولست أنا من كان يتحمل عاقبة اعتداء الوحوش على غنمك؟ كنت في النهار يأكلني الحر، وفي الليل الجليد؛ وطار النوم من عيني. خدمتك أربع عشرة سنة بابنتيك، وست

---

(118) بمعنى اجهضت.

سنين بغنمك. وقد غيّرت أجرتي عشر مرات. ولولا رعاية الله لكنت الآن قد صرفتني فارغاً!».

فقال لابان: «البنات بناتي، والبنون بنيَّ، والغنم غنمي، وكل ما أنت ترى فهو لي. كيف يطاوعني قلبي أن أسيء إلى منِ هم من لحمي ودمي! هلم نقطع عهداً بيننا».

وافق يعقوب، وأخذ حجراً وأوقفه عموداً، وأقام أخوة لابان رجمة من الحجارة بينه وبين يعقوب في موضع يدعوه الآراميون «يَجَرْ سَهْدُثا»، ودعاه يعقوب «جلعيد». وقال لابان: «هذه الرُجمة هي شاهدة بيني وبينك اليوم». ولذلك دُعي اسمها جلعيد، والمصفاة، لأن لابان قال «ليراقب الرب إله جدي ناحور، وجدك إبراهيم، أخيه، بيني وبينك حينما نتوارى بعضنا عن بعض! إنك لا تذّل بناتي، ولا تأخذ نساء على بناتي. والله شاهد بيني وبينك. ولتكن هذه الرجمة، وليكن هذا العمود، علامة حدود بين مملكتك ومملكتي؛ ولن يجتاز أي منا هذه الحدود بالسيف!»

وحلف يعقوب وذبح ذبيحة في الجبل، وأكل رجاله ورجال لابان سوية في سلام. ثم بكر لابان في الصباح وقبل بنيه وبناته وباركهم ومضى. ولم يخرق الآراميون ولا الإسرائيليون هذا العهد، إلى أن حطم الملك داود وبعثر الأحجار، بعد أن أغضبه هداد أزر ملك آرام، واستولى على مملكة هداد أزر.

وقد سرقت راحيل صنم لابان ليس من أجل أن تجعله عاجزاً عن كشف هروب يعقوب فحسب، بل لكي تنظف بيت أبيها منه ايضاً. ومع هذا فإن لعنة يعقوب على السارق المجهول حلت عليها فماتت عند الولادة؛ ذلك أن راحيل كذبت في قولها للابان بأن عليها عادة النساء. كما قيل ايضاً أن لابان عاد إلى فدان ـــ أرام بعد جزّ غنمه، فوجد بئر المدينة الذي ظل ممتلئاً حتى الحافة مذ سقت راحيل يعقوب منه، فارغاً لا قطرة فيه، وهي علامة على هرب يعقوب.

• • •

تذكرنا قصة يعقوب ولابان ببطلين إغريقيين أسطوريين، هما أوتوليكوس اللص الشهير، وغريمه في الغش سيزيف الكورنثي. لقد منـح هيرمس، إله اللصوص والرعاة والعرافين، أوتوليكوس القدرة على تغيير الماشية المسروقة، البيضاء إلى سوداء، وذوات القرون إلى عديمة القرون، والعكس بالعكس. فلاحظ سيزيف أن قطعانه يتناقص عددها، بينما يزداد عدد قطعان جاره أوتوليكوس. فعمد إلى وسم حوافر قطيعه باسمه. ولما قام أوتوليكوس بسرقته كالعادة، مضى

سيزيف وعدد من أقاربه في أثر قطيعه إلى مرعى أوتوليكوس. ولدى وصولهم، كلف أقاربه بمواجهته بالأمر، في حين هرع هو إلى الباب الأمامي، ودخل سراً، وضاجع ابنة أوتوليكوس التي أنجبت له الوغد طائر الصيت أوديسيوس... ويبدو أن كلتا الأسطورتين ترجعان إلى مصدر واحد قديم.

ولابان يمثل آراميـي بلاد ما بين النهرين، ورجمة والعمود دليلان على أن سلطة بلاد ما بين النهرين امتدت ذات يوم حتى جلعيد. ومع هذا ففي الأيام الأولى من الحكم الملكي العبري، لم تكن بلاد ما بين النهرين هي التي هددت إسرائيل من تلك الناحية، بل سوريا، التي كانت تعرف أيضاً بآرام. وفي بعض الأحيان كانت ما بين النهرين تدعى آرام نهارايم، للتمييز بينها وبين سوريا التي تدعى آرام ــ داماشق (أي آرام ــ دمشق). وكان لابـان يمثل آرام ــ داماشق.

وركام الحجارة المكون من خمسة أو ستة أحجار كبيرة توضع فوق بعضها، ما يزال يستعمل في فلسطين[119] والأردن للفصل بين الحقول.

و (جلعيد) تذكرنا بالكلمة العربية (جلعد) وتعني «الصُلب الشديد» التي سميت بها عدة أماكن، مثل جبل جلعاد، وخربة جلعاد، وخربة جلعود.

(119) في النص الأصلي: في إسرائيل.

يعقوب في فنيئيل

عبر يعقوب الأردن، وفي مساء اليوم التالي لاقاه جيش من الملائكة عند مخاضة (يبوق). فقال: «ها هنا معسكران، جيش الله وجيشي!» وسمي اسم المدينة فيما بعد «محنايم».

وأرسل يعقوب رسلاً قدامه إلى عيسو أخيه في جبل سعير، وأمرهم بأن يقولوا لعيسو: «سلام لسيدي عيسو من عبده يعقوب الذي تغرب في فدان ــ أرام عشرين سنة، وقد صار له بقر وحمير وغنم وعبيد وإماء. أرسلت لأخبر سيدي لكي أجد نعمة في عينيك.».

رجع الرسل إلى يعقوب قائلين أتينا إلى أخيك عيسو. وهو أيضاً قادم للقائك، وأربع مئة رجل معه. فخاف يعقوب جداً، وضاق به الأمر. وقسم القوم الذين معه والغنم والبقر والجمال إلى جيشين. وقال إن جاء عيسو إلى الجيش الواحد وضربه، يكون الجيش الباقي ناجياً. وتضرع إلى الله أن يكون في عونه.

وأعد يعقوب هدايا لعيسو: مئتي عنز وعشرين تيساً؛ مئتي نعجة وعشرين كبشاً؛ ثلاثين ناقة مرضعة وأولادها؛ أربعين بقرة وعشرة ثيران؛ عشرين أتاناً وعشرة حمير. وقال لعبيده اجتازوا قدامي، واجعلوا فسحة بين قطيع وقطيع. وأمر كلاً منهم أن يقول لعيسو إذا استنطقه: «هذه القطعان هدية مرسلة لسيدي عيسو من عبده يعقوب، وها هو أيضاً وراءنا، ينشد لطفك.».

نفذ العبيد الوصية، وأحسن عيسو معاملتهم؛ إلا أن يعقوب تخلف عند الضفة الأخرى، بعد أن أرسل زوجاته وبنيه عبر المخاضة. (سفر التكوين 32: 2 ــ 24).

وإذ بقي يعقوب وحده، دهمه رجل لا مرئي، وصارعه حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه. فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال هذا ليعقوب: «أطلقني لأنه طلع الفجر». فقال يعقوب: «لا أطلقك إن لم تباركني». فسأله خصمه: «ما اسمك؟» قال: «يعقوب» فقال: «لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت». وسأله

يعقوب: «أخبرني باسمك». فقال: «لماذا تسأل عن اسمي؟ حسبك أنني باركتك». فقال يعقوب: «لقد نظرت الله وجهاً لوجه، ونجوت!» ولأجل ذلك دعي اسم المكان فنيئيل، وبسبب الجرح في فخذ يعقوب، لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم. (سفر التكوين 32: 25 ــ 33).

يزعم البعض أن الله تنكر بزي راع، أو قاطع طريق، وهو الذي ساعد يعقوب في سوق قطعانه عبر المخاضة، بعد أن فعل يعقوب الشيء نفسه؛ ثم بعد أن عادا ليريا إن كانت هناك بهيمة متخلفة، تصارعا. ويزعم آخرون أن خصم يعقوب لم يكن الله، بل سامائيل، حامي أدوم السماوي، لكي يقضي على يعقوب؛ وإن جيش السماء كان حاضراً لنصرة يعقوب إذا اقتضى الأمر. بيد أن الرب قال: «يعقوب أقوى من أن ينشد عوناً!».

كما يزعم آخرون أن خصم يعقوب كان ميكائيل، وأنه عندما قال: «أطلقني، لأنه قد طلع الفجر» تساءل يعقوب: «فهل أنت لص، أم مقامر، فتخشى الفجر؟» فأجابه ميكائيل: «كلا، إنما ينبغي علينا، نحن الملائكة، أن نسبّح في الفجر بحمد الرب». وحين رأى الرب يعقوب يضلع في مشيه قال لميكائيل: «ماذا صنعت بابني البكر؟» فأجاب ميكائيل: «لقد خمعت فخذه إكراماً لك». فقال الله: «حسن إذن، ستكون حامياً لإسرائيل وأبنائه حتى يوم الدينونة! لأن أمير الملائكة ينبغي أن يحرس أمير البشر؛ النار تحرس النار، والرأس يحرس الرأس».

• • •

تقع «محنايم» التي يحمل اسمها معنيين، على ضفتي مخاضة (يبوق)، على بعد ستة أميال إلى الشرق من الأردن، وأصبحت واحدة من عواصم سليمان الاثني عشرة.

إن التضارب الكبير في الروايات المدراشية عن هذه المصارعة بين يعقوب و «الرجل» الذي خاطبه فيما بعد على أنه الرب تثير الدهشة. ذلك أن الله، الواقع وراء نطاق أي تصور بشري، في الديانة اليهودية المتأخرة، لا يمكن أن يحط من قدره بمصارعته مع إنسان، ثم يطلب منه أن يتركه وشأنه. وفي كافة الأحوال، إذا كان يكن ليعقوب حباً عظيماً، وأذا كان يعقوب يمحضه مثل هذا الحب، ففيم مصارعتهما؟ وإذا كان الخصم ملاكاً، فهل كان الأولى به أن يكون جبريل أم ميكائيل أم سامائيل؟ ومع هذا، إن القول بأن بوسع الرجل الورع أن يتصارع مع الله في الصلاة، ويجبره على أن يمنحه البركة، كان مقبولاً في

اللاهوتيات؛ فقد استعملت راحيل المصارعة مجازاً عندما فازت من الله بابنها المتبنى «نفتالي».

وفي البحث عن قرينة تأريخيه لهذه الأسطورة، يتعين علينا أن نطرح أسئلة كالآتي: بأية مناسبة يتصارع رئيس قبيلة؟ وبأية مناسبة يغير اسمه؟ وماذا كانت طبيعة جرح يعقوب؟ ماذا كان مغزاها السحري؟ وما هي علاقتها بتحريم أكل عرق النسا؟ ولماذا دُست هذه الحادثة في أسطورة الاتحاد الذي تم بين يعقوب وعيسو؟ وأذا كان من المتفق عليه تأريخياً أن «إسرائيل» كانت تضم في البداية قبائل (راحيل) فقط، فأي دور تلعبه راحيل هنا؟

أما الإجابة عن هذه الأسئلة فلعلها كالآتي: يغير رئيس القبيلة اسمه إما عندما يقترف جريمة قتل، ومن ثم يهرب من بلده فتتبناه قبيلة أخرى، وهو ما لم يحصل ليعقوب، أو عندما يرتقي العرش، أو يحتل بلداً جديداً. ويبدو أن الأخير كان السبب في تغيير اسم إبراهيم. كما أن عبور يعقوب مخاضة يبوق يدل على تحول خطير في مركزه: من خادم أجير عند خاله لابان، إلى شيخ مستقل.

ويقول المعجميون العرب أن طبيعة العرج الذي ينجم عن جرح في عصب الفخذ تجعله يمشي على أصابع قدمه. ومثل هذه الحالة يتعرض لها المصارعون، وكان أول من أشار إليها هاربوكريتيس. ثم أن الإزاحة التي تحصل في رأس عظم الفخذ تشد وتر الفخذ وتسبب أوجاعاً في العضلة، فيضطر من تُلِمّ به مثل هذه الحالة أن يتخلع في مشيه، رافعاً العقب دائماً إلى الأعلى، كالذي حصل للإله هيفاستوس في إلياذة هوميروس. ويعتقد العرب أن الاحتكاك بالجن تنجم عنه حالة مماثلة في المشي: لعلها تذكرنا بالرقص الأحجل الذي يمارسه من ينذرون أنفسهم للدين ممن يعتقدون بأن روحاً إلهية تتلبسهم، مثل انبياء بعل على جبل الكرمل. ولعل بيت حوقلة (حجلة) قرب أريحا سمي كذلك لهذا السبب، لأن (حجل) في العربية تعني (يعرج) أو يثب على قدم واحدة. وقد سمى جيروم ويوسفوس بيت حوقلة «محل رقص الطوق». وكان أهالي صور يمارسون رقص الحجلة تكريماً لهرقل ملك أرض، ومن هنا فقد ترجع أسطورة مصارعة يعقوب وعرجه إلى ضرب من الرقص الأحجل احتفالاً بدخوله أرض كنعان بعد مصارعته مع خصم.

- وهناك بطل إسرائيلي آخر تصارع مع الله، هو موسى، كما جاء في سفر الخروج، وذلك بعد طرده وهربه من مصر والتجائه إلى المديانيين (في المنطقة الواقعة بين مصر وفلسطين والحجاز) الذين يرى بعضهم أنهم من بقايا الهكسوس، في حين يعتقد آخرون أنهم في الأصل قبيلة من المعينيين.

وقد كانت عظام الفخذ مقدسة عند الآلهة في اليونان وفلسطين (أي عند الفلستينيين)، وكانت تعتبر من حصة الملك على مائدة الطعام عند العبريين (سفر صموئيل الأول 9: 24).

أما اشتقاق كلمة (إسرائيل) على نحو ما جاء في سفر التكوين (32: 29) فهو من اشتقاقات العامة التي تفتقر إلى الدقة. وهناك التباس نحوي بصدد المقطع (إيل)، فالبعض يعتبره فاعلاً، في حين يراه آخرون مفعولاً به. والأصح أن يقال «إيل يجاهد» بدلاً من «يجاهد مع إيل»، وبالتالي فإن إسرائيل تعني «إيل يجاهد ضد أعدائي».

المصالحة بين يعقوب وعيسو

نظر يعقوب، وإذا عيسو مقبل ومعه أربع مئة رجل. فوزع الأولاد على فريقين: زلفة وبلهة وأولادهما كانوا في الفريق المتقدم؛ وراحيل وليئة وأولادهما في الفريق المتأخر. أما هو فاجتاز قدامهم وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه. هرع عيسو للقائه، وعانقه، ووقع على عنقه وقبله، وبكيا. ثم رفع عينيه وأبصر النساء والأولاد، وسأله عنهم. فقال: «الأولاد أنعم الله بهم على عبدك. وهؤلاء النسوة أمهاتهم». وتقدم الجميع، وسجدوا أمام عيسو، الواحد بعد الآخر. فقال عيسو: «وما تلك القطعان يا أخي، أحق أنها هدية لي منك؟» قال يعقوب: «إن وجدت نعمة في عينيك، تأخذ هديتي من يدي، لأني رأيت وجهك كما يُرى وجه الله، فرضيتَ عليَّ. خذ بركتي التي أتي بها إليك، لأن الله قد أنعم عليَّ ولي كل شيء». وألح عليه، فأخذها، وقال ليعقوب: «لنرحل ونذهب إلى مدينتي في سعير». إلا أن يعقوب أجابه: «سيدي عالم أنني لا أقدر على المسير بسرعة. ليذهب سيدي قدام عبده، وأنا أستاق على مهلي في أثر الأملاك التي قدامي، وفي أثر الأولاد، حتى أجيء إلى سيدي، في سعير».

قال عيسو: «سأترك إذن بعض القوم ليكونوا في حراستك» أجابه يعقوب: «ولكن لماذا تكلف نفسك يا سيدي!».

ورجع عيسو ذلك اليوم إلى سعير. أما يعقوب فقد ارتحل إلى سُكُّوت، وبنى لنفسه بيتاً وصنع لمواشيه مظلات.

يزعم البعض أن رسالة يعقوب إلى عيسو كانت على النحو الآتي: «هكذا يقول عبدك يعقوب: أرجو أن لا يظن سيدي أن المباركة المسروقة جعلتني في وضع أحسد عليه! فلقد خدعني لابان المرة تلو الأخرى في العشرين عاماً التي كنت في خدمته. ومع هذا فقد أنعم الله أخيراً على عبدك بالثيران، والحمير، والغنم، والعبيد، والإماء. وها أنذا الآن ذاهب إلى أرض كنعان، ناشداً العفو من مولاي وأنا أروي له هذه الأخبار الصادقة».

ويقال أن عيسو أجاب الرسل بازدراء، قائلاً: «لقد أخبرني أبناء لابان بجحود سيدكم؛ فقد سرق قطعانه بالنصب والاحتيال، ثم هرب منه خفية،

مختطفاً ابنتَيْ خالي ليئة وراحيل وكأنهما سبيتا حرب. ويومذاك كظمت غيظي؛ أما الآن فسأجرّد له جيشاً لأؤدبه على ما يستحق».

ويزعم آخرون أن الله وبخ يعقوب لأنه خاطب عيسو بقوله «مولاي» ولنعته نفسه بكلمة «عبدك». وقال له: «لقد أسأت إلى قدسيتي بتشبيهك عيسو بـي!» فأجابه يعقوب: «سيد الكون، اغفر لي زلتي! التماساً للسلام تملقت الشرير، لئلا يقتلني ورعيتي» فقال الله: «إذن، بحياتك، سأؤكد ما تقول: من هذه الساعة، سيكون إسرائيل عبداً لأدوم في هذه الدنيا، لكنه سيكون سيده في الآخرة. ولأنك خاطبت عيسو بيا مولاي ثماني مرات، سأجعل ثمانية ملوك يحكمون في أدوم قبل أن ينهض إسرائيل من كبوته!» وهذا ما حدث. فملوك أدوم الثمانية كانوا: بالع بن بعور؛ يوباب بن زراح؛ حوشام؛ هداد بن بداد؛ سملة؛ شاؤول؛ بعل حانان بن عكبو؛ هدار.

وقد تنبأ يعقوب بالنبوءة الآتية: «سيضطهد أدوم إسرائيل عدة قرون؛ وبعد ذلك ستنهض الشعوب كلها، مستردة منه الأرض تلو الأرض، والمدينة تلو المدينة، ولن يجد أدوم نفسه إلا وقد ألقي به في بيت جبرين، هناك سيجد مسيح إسرائيل بانتظاره. وسيهرب أدوم إلى بُصرى ويتضرع باكياً: «ألم تجعل بُصرى ملاذاً للناس، يا سيدي؟» إلا أن الله سيمسك أدوم من لُمته ويقول له: «على الآخذ بالثأر أن يقتل هذا القاتل!» وعند ذاك سيذبحه إيليا، ويلطخ ملابس الله بدم أدوم». (عن مدراش أبكير).

• • •

يقف سفر التكوين باستمرار، إلى جانب عيسو، على حساب يعقوب: ليس فقط وفق المعايير الأخلاقيـة المعاصرة، بل وفق التقاليد الفلسطينية القديمة أيضاً. فعيسو يحجم عن الانتقام وقتل الأخ، ويطيع والديه على الدوام، ويعبد رب إسحاق، وينتقل من مهنة الصياد المتلاف إلى ريفي يرفض هدية من القطعان مقابل سرقة مباركته. وفضلاً عن ذلك، بدلاً من فسخ حق البكورية الذي باعه مجبراً عندما واجه الموت جوعاً، أخلى بسلام المراعي الكنعانية ليعقوب، ويسمي الجبان الذليل «أخاً»، ويبكي من الفرح لعودته، ورغم أن أفعال يعقوب تجلل صاحبها بالخزي والعار، إلا أنه غفرها له عن طيب خاطر. وبعد هذا يعود إلى مدينته ليعد له استقبالاً ملكياً في سعير، وهي دعوة رفضها يعقوب بإصرار.

وهناك اعتقاد راسخ عند اليهود أن أسوأ يوم في تاريخ إسرائيل لم يكن عندما أخضع سنحاريب القبائل الشمالية إلى الأسر، ولا عندما دمر نبوخذنصر هيكل سليمان؛ بل عندما ترجم سبعون كاتباً الكتاب المقدس إلى اليونانية بأمر

من بطليموس الثاني (285 ــ 246 ق.م.) فما كان ينبغي، كما يرون، لتلك النصوص التي تتطرق إلى ذكر الأعمال الشريرة التي اقترفها أجدادهم المبشرون بعقاب الله للمرتدين عن الطريق القويم، أن يفشىٰ سرها لأعداء إسرائيل. ولا بد أن أسطورة يعقوب ــ عيسو أحرجت يهود الشتات أكثر من غيرهم، لأن يعقوب كان رمز إسرائيل المجسد، وهم ورثته في سقطاته وحسناته. كما لم يكن بوسع التعليقات المدراشية على رواية سفر التكوين ــ التي عمدت إلى تشويه سمعة عيسو وإيجاد المعاذير ليعقوب ــ تغيير نص الترجمة السبعونية للتوراة.

ولكن مرة أخرى يمكن إثارة السؤال المحير الآتي: كيف رضي الإسرائيليون أن يشّهروا بجدهم الأعلى لصالح عدوهم القومي؟ إن الجواب الوحيد المقبول على هذا السؤال يمكن أن يكون في الآتي، وهو أن هذه الأسطورة إنما نشأت في أدوم، ثم نقلها إلى أورشليم الكالبيون والقنزيون الذين اندمجوا في زمن مبكر في مملكة يهودا. وكان يهودا إبناً لليئة، وهو، تقليدياً، مناوىء لبنيامين ــ القبيلة الراحيلية التي قضى على سلالتها الملكية، وابتلع أرضها ــ وللقبائل الراحيلية الأربع الأخرى، أفرايم، ومنسّىٰ، وجاد، ونفتالي، التي شكلت العصب القوي للملكة الشمالية. ويعترف سفر التكوين بحقد ليئة على راحيل، وبالقول الذي يذهب إلى أن «إسرائيل» تأسست بالأصل من القبائل الراحيلية، التي عقدت معها قبائل ليئة اتحاداً قلقاً، سيشجع الأرستقراطية الأدومية في يهودا ــ كانت حبرون ومكفيلة بيد كالب ــ على تمجيد جدهم عيسو على حساب إسرائيل. وفضلاً عن ذلك، في الوقت الذي تم فيه تدوين سفر التكوين، كانت مملكة يهودا، الجنوبية، قد فقدت مجدها الحربي على نحو مؤقت؛ واعتبرت مقدرة يعقوب على الانحناء دون الانكسار، بلجوئه إلى الحيلة بدل القوة، وبعدم تمسكه بأي شرعة سوى شريعة موسى، منتهى الحكمة(120).

والنبوءة عن كارثة أدوم في بُصرى، يراد بها روما. وقد استعيرت هذه النبوءة من سفر أشعياء (الإصحاح الثالث والستين) الذي يقول في مطلعه: «من ذا الآتي من أدوم بثياب حمر من بُصرة؟» ومن سفر أرميا (49: 13) متنبئاً لبصرى بالخراب الأبدي. على أن «بُصرى» أشعياء كانت إما بُصرى في حوران، أو البصرة على الخليج العربي، وليس «بصرى الصغيرة» الأدومية؛ أما «بصربى» أرميا فكانت باصر، وهي مدينة لاويّة غزاها موآب، يذكرها سفر التثنية (4: 43) كملاذ.

(120) لا ندري لماذا ذكر المؤلفان هنا شريعة موسى، مع ان يعقوب عاش في زمن سابق لموسى. لعل تفسير ذلك هو ان التوراة كتبت بعد موسى.

اغتصاب دينة

بعد أن أنجبت ليئة ستة أولاد ذكور، حبلت للمرة السابعة. وإكراماً لشقيقتها راحيل تضرعت إلى الرب قائلة: «مولاي، هبني هذه المرة بنتاً، لئلا تتملك الغيرة أختي راحيل هذه المرة أيضاً!» عند ذاك غيّر الرب الجنين الذي في بطن ليئة من ذكر إلى أنثى، وقال لها: «لأنك أظهرت عاطفة لأختك، سأهبها ولداً». وهكذا ولدت ليئة، دينة؛ وولدت راحيل يوسف.

وإذْ خشي يعقوب من أن يستغل عيسو حق الخؤولة فيطالب بالزواج من دينة، أخفاها في صندوق بعد اجتماع الشمل في محنايم. إلا أن الله وبخ يعقوب قائلاً: «لأنك عاملت أخاك عيسو بقسوة، فإن دينة ستـزف إلى أيوب العزي، الغريب! وفضلاً عن ذلك، لأنك رفضت ابناً مختوناً من أبناء إبراهيم، ستسلم عذريتها لكنعاني غير مختون؛ ولأنك حرمتها من الزواج الشرعي، فستؤخذ بصورة غير شرعية!».

كانت دينة حيية وخدوماً، لم تخرج من خيمة ليئة بغير إذن. ولكن حدث ذات يوم، بينا كان يعقوب يرعى قطعانه قرب جبل أفرايم، أن جاء أمير يدعى شكيم، الابن البكر لحمور الحُوي، ببنات ليرقصن ويضربن على الدفوف قرب مخيم الإسرائيليين. فوقفت دينة تتفرج. فتعلقت بها نفسه، وأغراها بدخول منزله في مدينة شكيم، واضطجع معها. وسمع يعقوب أنه نجّس ابنته دينة، إلا أنه انتظر حتى عودة أبنائه من الحقل. وغضب الرجال، واغتاظوا جداً لأنه صنع قباحة في إسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب. لكنهم كتموا غضبهم عندما قدم حمور ليطلب يد دينة لابنه شكيم، قائلاً: «تعالوا، يا سادتي، ساكونوا واتجروا معنا! شكيم ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم. اعطوه إياها زوجة وسأدفع لكم الذي تقولون؛ وسيسعدني أن تتصاهر عائلتانا الملكيتان.».

فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر وقالوا: «لا نستطيع أن نعطي أختنا لرجل أغلف من الحُويين؛ غير أننا بهذا نواتيكم: إن ختنتم ذكوركم، نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم، ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً.»

تشاور حمور مع رؤساء شكيم الذين وافقوا على أن يختن كل ذكر منهم

فوراً. ولكن في اليوم الثالث، وقد كان أهل شكيم يعانون من ألم الختان، أخذ إبنا يعقوب، شمعون ولاوي، وهما أخوا دينة الشقيقان سيفيهما وأتيا على المدينة، وقتلا حمور وابنه شكيم، وكل ذكر في المدينة بحد السيف، وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا الغنم والبقر والحمير وكل ما في المدينة وما في الحقل، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم. فغضب يعقوب وقال لشمعون ولاوي: لقد كرّهتماني عند سكان الأرض الحُويين والفرزيين والأموريين، وأنا نفر قليل، فيجتمعون عليَّ ويضربونني فأبيد أنا وبيتي.» فقال شمعون ولاوي: «وهل نسمح لأختنا بأن تعامل كزانية؟»

ولما وصل إلى أسماع الأموريين، حلفاء حمور، صليل المعركة عن بعد، هرعوا إلى شكيم وأوصدوا خلفهم أبواب المدينة، لئلا يلتحق أبناء يعقوب الآخرون بشمعون ولاوي. إلا أن يهودا تسلق الجدار، ورمى بنفسه على الأعداء، وصرع عدداً كبيراً منهم. وحطم رأوبين وإيسّاكر وجاد والبقية البوابة، واقتحموا المدينة، واعملوا بأهلها القتل يميناً وشمالا. وقضوا على كل الرجال، فضلاً عن ثلاثمئة زوجة كن يلقين بالحجارة والآجر من على السطوح. وسال الدم أنهاراً في الطرقات. وحين وصل المدينة أمداد من الأموريين والفرزيين، حمل يعقوب سيفه وقوسه وتصدى لهم في باب السور، وقال: «أيصير أن يقع أبنائي في أيدي هؤلاء الأغراب؟» وانقض على العدو، ومزق شملهم، مثلما تحصد الحاصدة الحبوب. وسرعان ما انتهى كل شيء. وتقاسم أبناء يعقوب الغنائم، بما في ذلك الرجال المستعبدون والأطفال؛ وخمس وثمانون عذراء، إحداهن تدعى بونة، تزوج بها شمعون.

وحبلت دينة من شكيم، وولدت منه ابنة بعد موته. وأراد اخوتها أن يقتلوا الطفلة، كما يقضي العرف، لئلا يقول الكنعانيون: «أن بنات إسرائيل مجللات بالعار!» إلا أن يعقوب منعهم من ذلك، ووضع في عنق حفيدته قرصاً فضياً نقشت عليه الكلمات الآتية: «موقوفة لله!» واضجعها «تحت أجمة» شوك، ولأجل ذلك سميت (أسنات). وفي تلك الليلة، تنكر ميكائيل بهيئة نسر، وحمل أسنات إلى (أون) في مصر، وهناك وضعها جنب مذبح للرب. ثم تبنى الكاهن فوطي فارع أسنات لأن زوجته كانت عاقراً.

ولما أنقذ يوسف مصر من المجاعة وأصلح البلاد، بعد ذلك بعدة سنوات، ألقت النسوة عليه عطايا الشكر. وكانت بينهن أسنات، التي لم تكن لديها هدية

سوى قرصها، فرمته إلى يوسف. ولما تعرّف على النقش، أيقن أنها ابنة أخته، فتزوجها.

• • •

لقد نُهبت شكيم، مثل طروادة، انتقاماً لاختطاف أميرة من قبل ابن ملك. ويبدو أن كلا اليونانيين والعبريين استعاروا، بصورة مستقلة، هذه الفكرة من ملحمة (كارت) الأوغاريتية [الكنعانية]، التي يأمر فيها الإله إيل الأمير كارت بمحاصرة (أودوم) التي لاذت بها زوجته الشرعية (حورية) مع حبيبها، رغم أن ملك أودوم أبدى استعداده بشرف للتعويض عن هذه الخسارة. وفي كلتا الحالتين أحيطت الحقائق التأريخية بهالة رومانسية: فحرب طروادة خيض غمارها على ما يبدو من أجل السيطرة على تجارة البحر الأسود؛ ودمرت شكيم بعد نزاع محلي بين الإسرائيليين من أتباع يشوع وحلفائهم الحُويين.

ويقال أن دينة تختلف عن بقية أخواتها ـــ اللائي ولدن جميعاً توائم لأبناء يعقوب ـــ باستثنائها هي التي ولدت بمفردها. ولا بد أن يعني هذا أن قبيلتها كانت مستقلة ضمن اتحاد قبائل ليئة، ولا تمارس حكماً باترياركياً، بل أمومياً أو شبه أمومي. وما يزال النظامان الباترياركي والأمومي متعايشين في أماكن من أفريقيا الوسطى، كما كان الحال في اليونان القديمة: حيث كانت رئيسة كهنة هيرا في أرغوس تحضر اجتماعات الاتحاد الأمفكتيوني الذي قوامه اثنتا عشرة قبيلة، إنما يقتضيها الحال أن تصطنع لحية، لأن بقية الممثلين كلهم رجال.

واغتصاب شكيم لدينة يوحي بأن قبيلته الصغيرة تم غزوها على يد آموريـي شكيم، بعد غزو يشوع لكنعان بأمد قصير، وأن حليفتيها قبيلتي شمعون ولاوي، انتقمتا لها بقتل المعتدين. ثم تزوجت دينة بشمعون ـــ بمعنى أن القبيلتين اتحدتا على نحو مؤقت؛ ولكن عندما خسر شمعون أراضيه (سفر التكوين 49:5 ـــ 7)، والتحقت فلول القبيلة المتبقية بيهودا كفخذ منها (سفر يشوع 19: 1 ـــ 9)، الأمر الذي يفسر لماذا استُثني شمعون من مباركة موسى في سفر التثنية (الإصحاح الثالث والثلاثين)، فقدت دينة شخصيتها المستقلة. ثم أننا علمنا عن طريق أحد الكتب المدراشية أن أسنات ابنة دينة من شكيم (التي اعتبرت في سفر التكوين نفس أسنات ابنة رئيس كهنة أون، وهي التفاتة بارعة) تزوجت يوسف. وبمعنى آخر، أن قبيلة أفرايم استرجعت أراضيها السابقة، وهو حدث رواه يعقوب في سفر التكون (الإصحاح الأربعين) بصورة تنطوي على

مفارقة تأريخية، لما بارك أفرايم، وأعطاه «كتفاً آخر فوق اخوتك، مما غنمته من الأموريين بسيفي ورمحي.» والكتف بالعبرية «شكيم»، وقد عهد يعقوب بسيادة إسرائيل لأفرايم، لأن شكيم [نابلس] ظلت مركزاً سياسياً لإسرائيل حتى أيام داود. وكان الكتف حصة ملكية في اليونان: عندما نفىٰ كريون أوديب من طيبة وضع أمامه فخذ، لا كتفَ ذبيحة، إشارةً لخلعه.

والإشارة في سفر التكوين إلى أن سقوط دينة كان بسبب زيارتها بنات الأرض ــ بمعنى أنها شاركت الكنعانيات عربدتهن ــ تخفي واقع أن معظم البنات الإسرائيليات كن يمارسن هذا الشيء في تلك الأيام المبكرة، وتومىء بالتالي إلى المقولة المناقبيــة اليهودية المعروفة: «أيتها الأمهات، أكرهن بناتكن على ملازمة البيت!»

ولم يألُ المعلقون المدراشيون جهداً في إبراز عضلات شمعون ولاوي في ارتكاب المجزرة بحق أناس عزل، ليس ذلك فحسب، بل أنهم حاربوا ببسالة اناساً يفوقونهم بالعدد عشرة أضعاف.

ثم أن ختان الشكيميين أمر محير، لأن كل الفلسطينيــين، باستثنــاء الفلستينيين، كانوا، كما يقول هيرودوتس، يختنون؛ ولعل الشكيميين، الذين جرت تسميتهم هنا بالحُويين، كانوا آخيين مهاجرين حديثاً. فعـادة الختان انتشرت شرقاً، من مصر، التي يؤكد عراقتها هناك استعمال مباضع من حجر الصوان (سفر الخروج 4: 25)(121).

وأما أن دينة تزوجت أيوباً بعد أن تصالح مع الله، فلا تستند إلى نـص في الكتاب المقدس. إلا أنهما لما كانا قد عانيا كثيراً دون ذنب ارتكباه؛ وبما أن الإصحاحات الأخيرة في سفر أيوب لا تذكر شيئاً عن هوية المرأة التي ولدت له سبعة أولاد وثلاث بنات تعويضاً عن الذين قضت عليهم عاصفة في الإصحاح الأول، فإن هذا الزواج قد يكون معقولاً.

وكانت أسينات ابنة دينة محض اختلاق مدراشي. أما أسينات زوجة يوسف فاسمها مصري أصيل، إنما لا علاقة له بأجمة الشوك (بالعبرية سنيه sneh).

(121) يقصد المؤلفان ان الختان كان معروفاً في مصر منذ العصر الحجري.

رأوبين وبلهة

عندما نصب يعقوب خيمته وراء مجدل عِدْر في يهودا، بلغه نبأ إغواء ابنه رأوبين بلهة جارية راحيل، وأم أشير ونفتالي، أخويه غير الشقيقين.

وبعد مضي عدة سنوات على هذا الحادث، خاطب يعقوب، وهو على فراش الموت، كلاً من الآباء الإثني عشر [أي أبنائه] على انفراد، وقال لرأوبين: «أنت بكري وأول برهان على رجولتي؛ فائر أنت كالماء؛ ولأنك دنست مضجعي، فلن تسود اخوتك!».

ويزعم البعض أن رأوبين كان ينتقم للحيف الذي تعرضت له [أمه] ليئة؛ فبعد موت راحيل، وضع يعقوب سرير بلهة لصق سريره. فغضب رأوبين، وقال: «حَسْبُ أمي أنها عانت من الذل في أيام راحيل. أما أن يستمر هذا، فهو كثير!» وأزاح السرير ووضع سرير ليئة مكانه؛ ثم، لأن عمله هذا مرّ بسلام، اغتصب بلهة لكي لا يقربها يعقوب ثانية.

على أن رأوبين قدّم، حين كان يلفظ أنفاسه على فراش الموت، رواية مختلفة عن هذه الحادثة. بعد أن شاهد بلهة تستحم في جدول متطرف، لم يغمض له جفن إلا بعد أن قضى وطره معها. ولقد واتته الفرصة ذات مساء عندما كانت مستلقية سكرى وعارية في الخيمة. ورغم أن بلهة لم تتذكر شيئاً عن هذه الحادثة، إلا أن الله كان شاهداً على فعلة رأوبين، فعاقبه بمرض عضال في أعضائه التناسلية دام سبعة أشهر. ثم اعترف بخطيئته ليعقوب، وكفّر عن ذلك سبع سنوات، امتنع في أثنائهاعن الخمر، واللحم، ولذائذ الطعام، والمرح.

وكان ينبغي أن يرث رأوبين مباركة ابيه، والكهانة وملك إسرائيل، بوصفه الابن البكر؛ غير أن المباركة منحت ليوسف بسبب خطيئته [أي راوبين]؛ ومنحت الكهانة للاوي، والملوكية ليهودا. ويبرر يعقوب نفسه امام رأوبين قائلاً: «لقد خدمت لابان من أجل راحيل، لا من أجل أمك ليئة. والحرث والبزر الذي مارسته مع ليئة، كان ينبغي أن يكون مع راحيل، ولهذا كان يجب أن يكون يوسف بكر ابنائي. إن حق البكورية والحالة هذه يعود له كما تقتضي العدالة».

ويزعم البعض أن رأوبين أغوى زلفة، أيضاً.

• • •

لم يلحق بلهة عار أكبر مما لحق ثامار عندما أغواها أمنون (سفر صموئيل الثاني: 13)؛ أو بتشبع عندما أغواها داود (صموئيل الثاني: 11؛ 12)؛ أو دينة عندما أغواها شكيم. إن الأساطير العبرية تنظر إلى المرأة كحقل ينبغي حرثه وبذره من قبل أبطال يتمتعون بسجايا شبيهة بسجايا الآلهة. والوصايا التي تقضي بالحظر الجنسي في شريعة موسى موجهة للرجال فقط؛ ومع أن إثبات الزنا يدين المرأة وعشيقها بالموت رجماً على حد سواء، فالمرأة تعاقب رغم أنها شريك لاإرادي في الخطيئة ــ مثلها مثل الحيوان المسكين الذي يمارس الرجل معه الجنس (سفر اللاويين 20: 10 ــ 18). على أن فـريسيـي القرن الأول، رغم تشهير كتاب العهد الجديد بهم (يوحنا: 8)، لم يرجموا عشيقين قاما بعمل الزنا: ذلك أن المرأة كان مسموحاً لها ادعاء الجهل بالقانون، ولأن القانون لا يمكن تنفيذه بحق من غرر بها وحده، فكلاهما ينجوان من العقاب. ويبدو أن المسيح لم ينقذ الزانية من القضاة الفريسيين أولاء، بل من قبضة القضاة السامريين الذين كانوا يطبقون الشريعة الموسوية حرفياً.

ويمكن فهم الإطار التأريخي لهذه الأسطورة في كون قبيلة رأوبين، التي قيل أنها احتلت الجانب الشرقي من الأردن، مقابل يهودا، لم تترك أثراً: لقد اختفت مبكراً من التأريخ الإسرائيلي، ولم يبق لها ذكر في النصوص الموآبية. ومع هذا فالمعنى واضح: كرئيس اسمي لقبائل ليئة الثمانية، أغوى الشيخ رأوبين قبائل دان ونفتالي الفرعية وحال دون انضمامها في اتحاد راحيل. وكان اجتماع ممثلي القبائل يعقد في مقاطعة يهودا، اقوى قبائل ليئة، وأما عِذْر فتقع على مقربة من بيت لحم.

ويتهجى يوسفوس وآخرون رأوبين، رأوبيل، ولعل هـذه هي الصيغة الأسبق. ومباركة موسى (سفر الخروج 33: 6) تنم عن أمل في عدم انقراض قبيلة رأوبين، رغم قلة أفرادها. وفي أيام السبـي، تم انتماء اثنين من أبنائه أو قبيلته، وهما حصرون وكرمي، إلى قبيلة يهودا، وانتسبا إليه (سفر الأيام الأول 4: 1؛ 5: 3).

ولأن العـلاقة الحـرام بين رأوبـين وبلهـة لم يتمخض عنهـا أولاد، كما هو الحال مع بنتي لوط، وثامار، فإن هذه الأسطورة تؤكد على موقف رافض اكثر منها على انتساب قبلي: وبالفعل، إن ما فعله ملك مغتصب، مثل أبشالوم،

هو أن ينام على رؤوس الأشهاد، مع حريم سلفه (سفر صموئيل الثاني 16: 20 وما بعدها)، وأية حركة طموح تصب في هذا المنحى كانت توصم بالخيانة العظمى، مثلما وُصم أبنير عندما نام مع رصفة محظية شاؤول السابقة (سفر صموئيل الثاني 3: 7 وما بعدها)، أو كما التمس أدونيا من [أخيه] سليمان أن يعطيه أبيشج [زوجة أبيهما كليهما] (سفر الملوك الأول 12: 13 وما بعدها). فمن المرجح إذن أن تعكس هذه الأسطورة ثورة قبائل ليئة، تحت حكم داود في بيت لحم، ضد سيدهم الراحيلي شاؤول البنياميني؛ وكان داود يعوّل على مؤازرة رأوبين وجاد، اللذين ضمنا جانب قبيلتي أشير ونفتالي اللتين تنتسبان إلى بلهة. وكانت قوة داود السياسية الرئيسية، في الحقيقة، تكمن عبر الأردن، في جلعيد، التي لجأ إليها أثناء ثورة أبشالوم [ابنه] (سفر صموئيل الثاني 17: 24).

يهودا وثامار

افترق يهودا عن اخوته الأحد عشر ومال إلى رجل يدعى (حيرة) من عدُلام. وهناك تعرف بابنة رجل كنعاني اسمه شوع، وتزوجها، فولدت له ثلاثة أولاد في مدينة كزيب، هم عِير، وأونان، وشيلة. وعندما كبر عِير زوّجه يهودا أبوه بامرأة اسمها ثامار، وهي كنعانية أيضاً. لكن عيراً كان شريراً في عين الرب، فأماته. فقال يهودا لأونان ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها، وأقم نسلاً لأخيك. وهو عمل خير فرضه موسى فيما بعد فيما عرف بالشريعة اللاوية. وإذْ أيقن أونان أن النسل لن يكون باسمه، فقد «حرث دون أن يبزر»: أي أنه كان يعتلي ثامار، لكنه ينسحب عنها قبل القذف، وهي خطيئة يعاقب عليها الرب بالموت. فقال يهودا لثامار كنّته: «اقعدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني ويتزوجك.». ومع هذا، راح يهودا يؤجل العرس سنة بعد أخرى، خوفاً من أن يلقى شيلة مصير أخويه.

ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهودا، ولأجل أن يعزي نفسه، صعد إلى جزاز غنمه هو وحيرة صاحبه الكنعاني قرب تمنة. فقيل لثامار هو ذا حموك صاعد إلى تمنة ليجزّ غنمه. فخلعت عنها ثياب ترملها، وتغطت ببرقع، وتلففت، وجلست في مدخل عينايم، التي على طريق تمنة. فنظر يهوذا وحسبها زانية، لأنها كانت قد غطت وجهها، فقال لها:

— هل أدخل عليك؟

أجابت بصوت متغير: — ماذا تعطيني؟

— هل يكفيك جدْيٌ معزى من الغنم؟

— هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟

— ما الرهن الذي أعطيك؟

— خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك.

فأعطاها، ودخل عليها. فحبلت منه. ثم قامت ومضت، وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها.

وأرسل يهودا جدي معزى بيد صاحبه حيرة ليأخذ الرهن من يد المرأة، فلم يجدها. فسأل أهل مكانها قائلاً: «أين الزانية التي كانت في عينايم على الطريق؟» فقالوا: «لم تكن هنا زانية.».

بعد ثلاثة أشهر أُخبر يهودا بأن ثامار كنته قد زنت. وها هي حبلى أيضاً من الزنا. فقال: «أخرجوها فتُحرق»، وذلك على عادة تلك الأيام. أما هي فلما أُخرجت، أرسلت الرهن إلى حميها قائلة: «أنا حبلى من الرجل الذي تعود له هذه الأشياء.» ثم قالت: «إذا كان عليّ أن أموت، فليمت معي الإسرائيلي الذي أخطأت معه.».

ولما تعرّف يهودا على أشيائه تنازل عن دعواه. وكان في بطنها توأمان. وكان في ولادتها أن أحدهما أخرج يداً، فربطت القابلة خيطاً قرمزياً قائلة هذا خرج أولاً. ولكن حين رد يده، إذا أخوه قد خرج. فقالت: «لماذا اقتحمت؟» فدعي اسمه فارص[122]؛ وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز، فدعي اسمه زارح.

وكسائر الأمهات الإسرائيليات النبيلات، كانت ثامار تتمتع بملكة التنبؤ. وقد تنبأت بأن المسيح سيجيء من نسلها؛ وقد دفعتها هذه البصيرة إلى إطاعة القانون الأموري القديم الذي ينبغي بموجبه على كل فتاة أن تقضي سبعة أيام، قبل الزواج، خارج أسوار المدينة، تعرض جسدها بضاعة للغرباء.

• • •

يرى البعض أن العظة الأولى من الإصحاح الثاني عشر من سفر هوشع[123]: «ولم يزل يهودا شارداً عن الله وعن القدس الأمين». تعني أنه فصل نفسه عن اخوته، ومارس طقوساً دينية كنعانية، التي تضمنت عبادة «القديشيم». و «القديشيم» هم الكالبيون، أو «كهنة الكلاب»: وهم بغايا ذكور يرتدون ملابس النساء، كانوا يمارسون هذه المهنة حتى أيام مملكة يهودا الأخيرة (سفر الملوك الأول 15: 12؛ 22: 47؛ سفر الملوك الثاني 23: 7)، في أحياء مخصصة لهم على جبل صهيون نفسه. وقبول انتماء (كالب) إلى قبيلة يهودا يؤكد هذه الحقيقة، وهو يتفق مع استمراء يهودا «للقديشا» أو البغي المقدسة.

---

(122) فارص هو بيريز Perez.

(123) في النسخة العربية من التوراة وجدنا النص وارداً في آخر آية من آيات الإصحاح الحادي عشر.

إن هذه الأسطورة القديمة مقترنة بمنطقة صغيرة شمالي غرب حبرون (الخليل)، حيث ما تزال اسماء المكان باقية حتى يومنا. فأدولام مقر أحد الملوك الكنعانيين الذي طرده يشوع، هو خربة الماء على بعد أحد عشر ميلاً شمال غربـي حبرون؛ وكزيب، أو أكزيب، أو كزيبا (سفر الأيام 4: 22) هي عين الكزبة في وادي السنط؛ وتمنة التي تقع بين بيت لحم وبيت نطيف، هي خربة تبنة.

إن الحكم على ثامار بالموت حرقاً يسبق المرحلة التي دون فيها سفر التثنية الذي يقضي في إصحاحه الثاني والعشرين (العظتين 23، 24) على الزوجـة أو المرأة المخطوبة التي تمارس الزنى بالرجم بالحجارة؛ أما الحرق، في شريعة موسى، فقد خُصت به بنات الكهنة الخاطئات (سفر اللاويين 21: 9). ومع هذا فإن وصمة العار لم تلحق الرجال الذين يضاجعون البغايا، في تأريخ مملكة يهودا المبكر، ما دمن غير تابعات لزوج، أو أب، أو بغايا مقدسات؛ كما لم يكن هناك تمييز واضح بين مومس عادية و «القديشة»، أي البغي المقدسة.

وهناك إشارة إلى أن يهوذا كان يظن أن ثامار كانت مسحورة مثل سارة ابنة رعوئيل التي قُتل أزواجها الستة، الواحد بعد الآخر، على نحو غامض، ليلة الزفاف، على يد شبح غيور. ولقد جازفت ثامار كثيراً في لعب دور بغي، لأن الشريعة لا تتساهل معها بوصفها مخطوبة، لكنها قُدست على الصعيد الشعبـي واعتبرت بمنزلة راحيل وليئة «اللتين بنتا إسرائيل» (سفر راعوث 4: 12) [في النسخة العربية من التوراة، 4: 11] لأنها عالجت الأمر بدهاء وأنجبت أطفالاً من الرجل الذي أنكرهم عن غير حق. وأصبحت هذه المرأة الكنعانية، مثل راعوث الموآبية، ورحاب بغي أريحا المقدسة (يشوع، الإصحاح الثاني)، من خلال (فارص) جدة لداود، ومن ثم المسيح المنتظر (انظر إنجيل متى 1: 3 ــ 6).

وتعني ثامار «نخلة»، وقد كان النخل مقدساً عند إلاهة الحب والولادة إيزيس، المعروفة أيضاً باسم عشتار، أو اللات بين العرب. وكان العرب يعبدون نخلة نجران، ويكسونها بالملابس والزينة النسائية. وتقابل اللات الآن بـ (ليتو) Leto أو لاتـونـا Latona. وقـد ولد أبـولو الديلوسي Apollo of Delos، ابن اللات، والإله النبطي دوسارس تحت نخلة. وفي القصة الأصلية كانت ثامار بغياً مقدسة لا علاقة لها بيهودا.

موت إسحاق، وليئة، وعيسو

عاش يعقوب وعيسو الثمانية عشر عاماً التالية في وئام، حتى موت أبيهما إسحاق ولحده في مغارة مكفيلة. وعند ذاك أخبر عيسو أبناءه بخبر صفقة البكورية والمباركة المسروقة، كما يزعم البعض؛ ومع هذا كبح جماح غضبهم قائلاً: «لقد استحلفنا أبونا إسحاق بأن نحيا بسلام مع بعضنا الآخر.»

إلا أنهم قالوا: «كان ذلك صحيحاً ما دام حياً، أما الآن فلنحشد حلفاء لنا من آرام، وفلسطيا، وموآب، وعمّون، وتسترجع من يعقوب الأرض التي تعود لنا!».

لكن أليفاز انشق عنهم، لأنه كان قويم الخلق. وقاد عيسو جيشاً جراراً ضد يعقوب في حبرون، إلا أنه وجد أفراد العائلة في مسوح الحداد حزناً على موت ليئة. واستاء يعقوب من نقض عيسو العهد، إلا أن هذا الأخير قال له: «لقد طالما كرهتني وخدعتني! ولن تقوم بيننا رابطة الأخوة إلا حين يشد الأسد والثور على نير واحد أمام المحراث؛ وحين يبيّض الغراب كاللقلق؛ وحين يغير الخنزير شعره وينمو مكانه صوف.».

وبتحريض من يهوذا شد يعقوب على قوسه وسدد رمية إلى صدر عيسو. ثم حُمل ليلفظ أنفاسه في أدورايم على جبل سعير. وقتل يعقوب حليف عيسو أيضاً، أدورام الأدومي. وفي الواقع، كادت الهزيمة أن تلحق بجيش يعقوب، لو لم يُثر الرب عاصفة غبار أعمت جيش العدو، فتمكن الإسرائيليون من القضاء عليهم بيسر. ولم ينج منهم سوى عدد قليل، تمكنوا من الهرب إلى (معالة عقرابيم)، حيث تعرضوا لهزيمة أخرى. وفرض عليهم يعقوب جزية كبيرة، ودفن عيسو في أدورايم.

• • •

إن أدورام الأدومي اسم غير توراتي؛ اسْتعير من أدورايم، وهي مدينة كنعانية ورد ذكرها في رسائل تل العمارنة بصيغة «أدُوري»، وأعاد بناءها رحُبعام (سفر الأيام الثاني 9:11)، على تلتين، ومن هنا جاء اسمها بصيغة التثنية. ثم احتلها الأدوميون بعد اجتياح نبوخذ نصر لأورشليم، إلا أنها استعيدت وهوّدها

بالإكراه يوحنا هيركانوس (135 ــ 104 ق.م.) وتعني معلة عقربيم (مرتقى العقربين)، وتقع إلى الجنوب الغربي من البحر الميت، على الحدود بين [مملكة] يهودا وأدوم. وقد حشرت هذه الحروب الحشمونية هنا لتملأ فراغاً في سياق هذه الأسطورة.

يوسف في الجب

عندما بلغ يوسف السابعة عشرة من عمره، التحق بإخوته أبناء بلهة وزلفة ليرعى الغنم. ثم ما لبث أن عاد إلى حبرون بعد شهر واحد فقط، غير قادر على تحمل الرياح الشرقية اللاهبة؛ لكنه أخبر أباه يعقوب أن إخوته غير الأشقاء لم يحسنوا معاملته. فاقتنع يعقوب بما قاله يوسف لأنه يحبه ويؤثره على بقية أبناء راحيل، فقد كان أكثرهم شبهاً به في المظهر والمخبر. وكان يوسف مزهواً بنفسه، يكحّل عينيه، ويسرّح شعره كالنساء، ويمشي الخيلاء، ويرتدي قميصاً ملوناً صنعه له يعقوب. وكان إخوته يسخرون منه ويجاهرونه البغضاء متى آنسوا غفلة من أبيهم. وكان يوسف يشكوهم عند أبيه.

وكان جاد أكفأ راع بين إخوته، يتفرغ للحراسة الليلية في معظم الأحيان، وحين يجرح ذئب إحدى نعاجه، كان يمسكها من قائمتيها الخلفيتين ويضرب رأسها على صخر. وشاهده يوسف ذات مرة يخلص نعجة جريحة من براثن دب ويضع حداً لألمها، ثم تغدى الإخوة من لحمها؛ إلا أن يوسف اتهمهم بأنهم كانوا يأكلون، خفيةً، أسمن الكباش. ورداً على تقريع يعقوب، أعلن جاد بأن عينيه لن تقعا على يوسف بعد هذا.

ثم أرسل يوسف ثانية ليرعى الغنم، هذه المرة مع إخوته أبناء ليئة، فلم يبق أكثر من أسبوع، ثم عاد أدراجه إلى البيت، وشكى إلى أبيه بأنهم كانوا يغازلون الفتيات الكنعانيات، ويعاملون إخوتهم غير الأشقاء معاملة العبيد. ثم إن يوسف حلم حلماً وأخبر إخوته، فازدادوا بغضاً له. قال لهم: «إسمعوا هذا الحلم الذي حلمت. كنا نحزم حزماً في الحقل، وإذا حزمتي قامت وانتصبت، في حين تحلقت حزمكم حول حزمتي وسجدت لها.» فقال له إخوته: «ألعلّك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً؟».

ودون أن يرف له جفن روى لهم حلماً آخر. قال: «إني قد حلمت أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي.» وقصه على يعقوب أيضاً، فانتهره أبوه وقال له: «ما هذا الحلم الذي حلمت. هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟».

وذات يوم مضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم [نابلس]، فأرسله يعقوب في إثرهم ليتفقدهم. وفي شكيم وجده رجل ضالاً في حقل، فسأله عن حاجته، فأخبره بأن إخوته ارتحلوا إلى دوثان على مسافة يوم سيراً على القدمين. وحين وقع بصر إخوته عليه من بعيد، قال شمعون وجاد: «ها هو ذا صاحب الأحلام قادم. فلنقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونضع بذلك حداً لأحلامه.» إلا أن رأوبين اعترض قائلاً: «لا تسفكوا دماً. اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يداً.»، ثم إنهم جردوا يوسف من قميصه الملون ورموه في الجب عارياً. وكانت البئر مأوى للأفاعي والعقارب.

ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً على مرمى بضعة أقواس من الجب. ورفعوا عيونهم وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعيد، وجمالهم محملة بالأفاويه والطيب إلى مصر. فقال يهوذا لإخوته: «ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه. تعالوا نبيعه للإسماعيليين» إلا أنهم أجابوه قائلين: «ليس الآن! ليبق ثلاثة أيام بين الحيات والعقارب، درساً له على سلاطة لسانه.».

في غضون ذلك ترامى صراخه من داخل الجب إلى أسماع رجال مديانيين تجار. فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوه للإسماعيليين بعشرين من الفضة. ومضوا به إلى مصر. وفي تلك الليلة عض رأوبين إصبع الندم، فرجع إلى البئر، وإذا يوسف ليس فيها. ورجع إلى إخوته ليخبرهم بذلك. فاقترح يسّاكر أن يذبحوا تيساً، وغمسوا القميص في الدم، وأحضروه إلى أبيهم. حمل نفتالي القميص إلى أبيه في اليوم العاشر من تشرين، وقال له: «عثرنا على هذا القميص في دوثان. لعله قميص ابنك.» فقال يعقوب: «واحسرتاه، وحش رديء افترس يوسف افتراساً!» ومزق ثيابه، ووضع مسحاً على حقويه، وناح على ابنه أياماً كثيرة. ولما قام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه، أبى أن يتعزى وقال: «إذهبوا وعودوا بجسد يوسف بلا إبطاء! وأمسكوا بأول وحش تقع أبصاركم عليه، وجيئوا به إلي حياً لأنتقم منه! لا بد أن يسهل الله لكم مهمتكم.».

ثم وافوه بذئب، وأخبروه بأنهم لم يعثروا على جثة يوسف. فهدر يعقوب بوجه الذئب قائلاً: «أيها الوحش الحقير، الا تخشى الله وتخشاني؟» فألهمه الله القدرة على النطق، ثم قال هذا الحيوان: «بحياة خالقنا، وحياتك، يا سيدي: أنا بريء! قبل اثني عشر يوماً افتقدت دغفلي الصغير[124]، فهرعت إلى دوثان بحثاً

---

(124) الدغفل ولد الذئب.

عنه. وها أنا ذا توجه لي تهمة الافتراس باطلاً. إفعل بـي ما تشاء يا سيدي، لكني أقسم لك بالله الحي القيوم أن عيني لم تقع على ابنك، ولم أذق طعم لحم بشري في عمري!».

فدهش يعقوب وأطلق سراح الذئب، وعاد إلى حزنه على يوسف.

• • •

لا شك أن هذه حكاية شعبية، على غـرار حكايـات ألف ليلة وليلة، أو الحكايات التي اقتبسها أبوليوس عن (الحمار الذهبـي)، أو تلك التي جمعها بيرو والأخوان غريم، وكلها تجمع بين التسلية الشعبية والموعظة العامة، لكنها لا تستند إلى أساس تأريخي. ومع هذا تحولت إلى أسطورة بعد أن أضيفت إليها أسماء أماكن معينة، مثل حبرون، ودوثان، وجلعيد، وانتحـال أسماء الأسباط أبطال القصة. وهذه القصة تصلح كمقدمة لأسطورة أخرى أطول منها تشرح سبب وجود العبريين في مصر في زمن الهكسوس، وظهور شخصية متنفذة بينهم، بمركز نائب ملك، ثم عودتهم أخيراً إلى أرض كنعان، حيث أسسوا اتحاداً قبلياً هناك.

ولقد زعم أن يوسف كان شبيهاً بأبيه إلى حد بعيد، وكان أثيراً لديه، لأن «إسرائيل» الأصلية كانت تتألف من سبطين فقط هما سبط يوسف وحلفائهم البنياميبنين. وكانت حكايات يوسف الملفقة عن قبيلتي بلهة وزلفة، والحقد الغريب الذي يكنه له شمعون، وجاد، ودان؛ وإحجام رأوبين ويهوذا عن إراقة دمه، تبريراً للغزو الذي قام به هؤلاء العبريون المتمصرون لأرض كنعان، تحت لواء يشوع.

ودوثان التي ترد ضمن قائمة المدن الكنعانية الخاضعة للفرعون المصري تحوتميس الثالث في القرن السادس عشر ق.م. والتي وردت في سفر الملوك الثاني (13:6 ــ 14) كمدينة مسوّرة، كانت مشيدة على تل (حالياً تل دوثان) على بعد ثلاثة عشر ميلاً شمالي شكيم (بلاطة ــ نابلس)، تشرف على طريق القوافل بين دمشق ــ جلعيد ــ مصر. ولما كانت دوثان تشغل موقعاً استراتيجياً في الطريق الشمالي الرئيسي المؤدي إلى بلاد أفرايم المرتفعة، فقد عقدت القبائل العبرية التي كانت تحتل جزءاً كبيراً من ارض كنعان، مؤتمراً مهماً فيها، لتتخذ قراراً بين أن تستعين بأبناء عمومتها من الإسرائيليين أو تستنجد بقوة مصرية ضدهم. ولا يُخفي الراوي عداوته ليوسف كدخيل ومثير قلاقل. والمقطع الوارد في سفر التكوين عن أن المديانيين هم الذين باعوا يوسف إلى أبناء إسماعيل، إنما

هو محاولة للتوفيق بين روايتين عن بيع يوسف، إحداهما وثيقة أفرايمية كتبت قبل دمار المملكة الشمالية (721 ق.م.)، والأخرى تعود إلى مملكة يهودا، ألفت بعد ذلك. وحسب الرواية الأفرايمية، إن إخوة يوسف باعوه إلى الإسماعيليين. وفي النص الافرايمي يشار إلى رأوبين كمدافع عن يوسف، أما في النص اليهوداني فيذكر يهودا. بيد أن سفر التكوين كتب عندما أصبحت أورشليم المركز الجديد لإسرائيل، وبعد أن اتحد رأوبين مع يهودا؛ ومن هنا فكلا الأخوين يظهران بمظهر حسن. وبعكس ذلك، يناط الدور التآمري الإجرامي بقبائل شمعون، وجاد، ودان، المحرومة من الأرض.

كما أن جمال يوسف، ومحاولة اغتياله، ونجاته من الجب بعد ثلاثة أيام، وتوفيره الخبز لعالم من الجياع [كما سنرى فيما بعد]، إن ذلك كله، يذكرنا بأسطورة تموز؛ يعزز ذلك، التضحية بالعنز في يوم الكفّارة، الذي يفسره كتبة المدراش كذكرى تكفيرية للعنز الذي نحره إخوة يوسف ليلطخوا قميص يوسف بالدم.

ومما يجدر ذكره أن «قطعاً نقدية من فضة» لم تكن قد سُكّت قبل القرن السابع ق.م.

يـــوسف وزليخـــا

أخذ المديانيون يوسف إلى مصر، وباعوه لفوطيفار خصي الفرعون ورئيس الشرط، الذي وكّل يوسف على بيته، وترك كل ما كان له في يده.

وكان فوطيفار متزوجاً بامرأة تدعى زليخة. لكن زوجته هذه لم تلتزم بالرابطة الزوجية: فالمرأة ترغب في إنجاب الأطفال [وزوجها خصي]. فحاولت إغراء يوسف، إلا أنه لم يستجب لها، رغم جمالها الآسر، قائلاً لها: «لقد ألحقني سيدي، زوجك، بخدمة البيت، ولم يُمسك عني شيئاً غيرك، لأنك امرأته. فكيف أسرق وأصنع هذا الشر العظيم، وأخطىء إلى الله.»

فقالت له: «ليست هناك سرقة في الأمر، ما دمت غير قادرة على مضاجعة زوجي، ولا هو معي.» ولاحظ يوسف أنها وضعت حجاباً على الصنم الموضوع على ركن في الجدار، فقال لها: «حسناً فعلت؛ إنما لا أحد يستطيع أن يحجب عيني الله الذي يرى كل شيء.».

وتردت صحتها، فقالت لها وصيفات البلاط: «مم تشكين؟ إن صحتك ليست على ما يرام.».

قالت زليخة: «سأريكم السبب.»

وأولمت وليمة، وطلبت من يوسف أن يشرف عليها. فلم ترفع السيدات عيونهن عنه، عندما كن يقشّرن الفاكهة. وجرحن أيديهن.

حتى إذا ترك يوسف الصالة، قالت زليخة: «انظرن إلى الدم على الفاكهة! إذا كنتن قد جرحتن أصابعكن في فترة قصيرة من العذاب كهذه، فهل تلمنني على عذابـي الذي أعاني منه كل يوم؟»

وتوددت زليخة ليوسف بالكلام والأعطيات، وأخذت ترتدي أجمل ملابسها، وتقتنص كل سانحة لتعرية صدرها وفخذيها. وقدمت له شراب المحبة أملاً في إغوائه؛ بيد أن الله كان ينبهه دائماً إلى الكأس أو الصخر الذي يتعين عليه تجنبه. وإذْ طفح الكيل، لجأت للوعيد.

ــ ستتعرض لعذاب عظيم!

ويجيبها يوسف: ــ سيكون الله في عون المعذَّبين.

ــ سأميتك جوعاً!

ــ الله يطعم الجوعى.

ــ سألقي بك في غيابة السجن.

ــ الله يطلق سراح السجين.

ــ سأمرغ وجهك بالتراب.

ــ الله يقيل العثرات.

ــ سأقوّر عينيك!

ــ الله يعيد النور إلى عين البصير.

ثم قالت لها وصيفات البلاط: «سينهار صموده عندما تختلين به. إنه رجل كالآخرين، ولا يمكن أن يصمد أمام جمالك.»

وأخذت بنصيحتهن. تسللت فجر اليوم التالي إلى غرفة نوم يوسف وألقت بنفسها عليه. لكنه حين أفاق، تخلص منها، وتركها مستلقية على فراشه. فتضرعت إليه قائلة: «ألم تكشف لك امرأة جميلة عن حبها؟ ما معنى كل هذا العناد؟ وفيم خوفك من سيدك؟ ما دام الفرعون على قيد الحياة، فلن يطالك أذى! كن لطيفاً إذن، وداوِ علتي! أيطاوعك قلبك أن أموت كمداً في حبك!».

واحتفل الناس بفيضان النيل: ضربوا على الدفوف والمعازف، ورقصوا؛ وشارك أهل بيت فوطيفار في هذه المناسبة، عدا زليخة التي اصطنعت المرض؛ ويوسف الذي تشاغل بأعماله؛ وبعض البوابين. وحين شمل البيت سكون، دلفت زليخة إلى غرفة يوسف، وأمسكته من ثوبه ومزقته، وقالت: «ها نحن وحيدان أخيراً، يا حبيبي! تمتع بي بلا خشية.» فهرب يوسف وهو عار. ولما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى الخارج، نادت أهل بيتها، وقالت لهم: «انظروا، قد جاء سيدكم إلينا بعبراني ليداعبنا! دخل إليّ ليضطجع معي، فصرخت بصوت عظيم. وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت، أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب.»

وكلمت فوطيفار بمثل هذا الكلام، فحمي غضبه، ووضع يوسف في السجن الذي يزج فيه أسرى الملك.

ويزعم البعض أن فوطيفار نفسه تعلق بيوسف وتملكته الغيرة من زليخة.

وعندما رفعت القضية إلى محكمة كهنوتية، استمع رئيس القضاة إلى

الطرفين، ثم طلب قميص يوسف. فرفعه إلى أعلى، ثم قال: «إذا كان هذا العبد قد همَّ بها، كما تدعي زليخة، وولى هارباً عندما صرخت مستغيثة؛ وإذا كانت قد قدّت قميصه ليكون بيّنة عليه، فالشق سيكون من خلف [من دبر]. وعلى العكس، إذا كانت قد مزقته من أمام، كما يدعي هو، من أجل أن تثير شهوته، فالشق سيكون من أمام [من قُبُل] ».

ولاحظ القضاة جميعاً أن الشق كان من أمام؛ ولكن يوسف، مع هذا، أعيد إلى السجن، وكتب عليه أن يقضي عشر سنوات أخر فيه، لئلا يلحق العار اسم زليخة. على أنهم أوصوا كبير السجانين بأن لا يقسو معه، كما يفعل مع بقية النزلاء.

• • •

هذه القصة تشبه الأساطير اليونانية عن بياديس وفريكسوس، وانتيا وبيلليروفون، وفيدرا وهيبوليتوس. بيد أن عدم استجابة الرجل لإغراء المرأة في كل من هذه الأساطير الثلاث متأتٍ من الخوف من غشيان المحارم. ومهد قصة بياديس وفريكسوس هو قادميا من أعمال بويوتيا، وهي بالأصل أسطورة كنعانية مستوردة. أما القصتان الأخريان فقد جاءتا من خليج كورنث، حيث كان التأثير السامي الغربي قوياً. وهناك روايات أخرى مماثلة وجدت في تيسالي وتينيدوس، اللتين كانتا تُقرّان بعبادة الملك الفينيقي (ملك أرض). بيد أن أقدم نص مكتوب عن هذه الأسطورة يمكن الوقوف عليه في (قصة الأخوين) المصرية، التي استعيرت منها أساطير إبراهيم وسارة والفرعون، وإبراهيم وسارة وأبي ملك، وإسحاق ورفقة وأبي ملك، كما مرّ بنا سابقاً.

وقد بقي اسم زوجة فوطيفار مغفلاً، إلى أن ورد تحت اسم زليخة في (سفر هياشار)؛ كما سميت باسم «امرأة موف» في سفر يوسف.

ويذكرنا التوسع المدراشي لهذه القصة عما ورد في سفر التكوين(125) برواية أوفيد Ovid عن معاناة فيدرا في هيروييدس. ولم تحكم المحكمة بإدانة زليخة، لأن من حقها أن تنجب، ولو كانت قد أفلحت في أن تحبل بتوأمين من يوسف، لكان من المحتمل أن تقدس مثل تامار، غير ان الله آلى ان تلد امرأة مصرية أخرى أولاداً ليوسف.

(125) لا يرد في التوراة ذكر لقصة وصيفات البلاط والفاكهة التي كن يزلن قشورها بالسكين.

يوسف في السجن

شمل الرب يوسف بعنايته الإلهية في السجن الملكي، فعينه رئيسُ بيت السجن معاوناً له. وحدث بعد هذه الأمور أن ساقي ملك مصر وخبازه أذنبا إلى سيدهما فسخط عليهما فرعون ووضعهما في الحبس، في المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه. ولم يعرف سبب سجنهما، إلا أن البعض يزعم أن الفرعون وجد ذبابة في كأسه، وقطعاً من الشب في رغيف خبز. وزعم آخرون أنهما كُبسا في محاولة لاغتصاب ابنة الفرعون.

وذات ليلة حلم كل منهما حلماً كدّرهما، ثم قالا ليوسف: «واأسفاه، يا سيدنا، ليس بيننا عرّاف يفسر لنا أحلامنا!» فقال لهما يوسف: «أولست عبداً لله، أستطيع أن أفسر لكما مثل هذه الأحلام.»

فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف، وقال: «كنت في حلمي، وإذا كرْمة أمامي. وفي الكرمة ثلاثة أغصان. وهي إذْ أفرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيدها عنباً. وكانت كأس فرعون في يدي. فأخذت العنب وعصرته بيسراي، وأعطيته الكأس ليشرب.»

قال له يوسف في الحال: «الثلاثة الأغصان هي ثلاثة أيام، في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك. فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت تسقيه. وعندما تخرج من السجن أرجو أن تتذكرني، وتذكرني لفرعون. أنا من سلالة نبيلة، وقد اختطفني الإسماعيليون من أرض أجدادي، وباعوني في سوق النخاسة، ودخلت السجن بتهمة ملفقة.»

فوعده رئيس السقاة، قائلاً: «لن أنسىٰ قضيتك.»

ولما رأى رئيس الخبازين قدرة يوسف على تفسير الأحلام، روى حلمه قائلاً: «كنت أنا أيضاً في حلمي، وإذا ثلاث سلال خبز على رأسي؛ وفي السلة العليا كانت كل أصناف الفطائر لمائدة فرعون. وعلى حين فجأة انقضت عليها الطيور تأكل منها.» فقال لـه يوسف: «الثلاث سلال هي ثلاثة أيام. في ثلاثة أيام أيضاً يرفع الفرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة، وتأكل الطيور لحمك.»

وحدث في اليوم الثالث أن الفرعون احتفل بيوم ميلاده، وصنع وليمة لجميع رجاله، وردّ رئيس السقاة إلى سقيه؛ وأما رئيس الخبازين فعلقه. ولكن رئيس السقاة نسي يوسف.

وبعد ثلاثة أشهر زارت زليخة يوسف، وقالت له: «كن عشيقي، وسأخرجك من السجن على الفور.»

إلا أن يوسف أجابها: «لقد أقسمت أمام الله بألّا أكون عشيقاً لك!» فهددته بأنها ستعذبه بأغلال أثقل، إلا أنه لم يرضخ لها. ويقال إن الله إنما أخّر يوسف سنتين أخريين، لأنه طلب من رئيس السقاة، وليس منه، أن يسعى لإطلاق سراحه.

• • •

إن حب زليخة ليوسف إضافة يهودانية. وفي الرواية الافرايمية الأقدم ترد ذكر فوطيفار سيد يوسف رئيساً لبيت السجن، الذي وضع رئيس السقاة ورئيس الخبازين تحت إشراف يوسف. وكان يوسف سجّاناً.

بعض المعلقين المدراشيين اعتبروا تفسير يوسف للحلمين مبسطاً، وطرحوا تفسيراً آخر أرفع مستوى: الكرْمة ترمز إلى العالم؛ وأغصانها الثلاثة هم إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب؛ أزهارها زوجات هؤلاء الآباء؛ وعناقيدها الرجال الصالحون في الأجيال اللاحقة. أو أن الكرمة ترمز لإسرائيل؛ الأغصان الثلاثة هي الأعياد الرئيسية الثلاثة؛ براعمها ترمز لتزايد نسل إسرائيل؛ وإزهارها يرمز لانعتاقها من عبوديتها؛ وأما عناقيدها فترمز للخروج الذي سيجعل جيش فرعون الماضي في إثرهم يترنح من أثر السكر.

يوسف نائباً للملك

حدث بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً: أنه بينا كان واقفاً عند شاطيء النهر، وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم، ترتع في روضة. ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر، قبيحة المنظر، عجاف اللحم. فوقفت بجانب البقرات الأولى والتهمتها، ولم تُبق حتى على القرون والحوافر. فأفاق فرعون مذعوراً. ثم أخذته سنة من النوم ثانية، وحلم هذه المرة، فرأى سبع سنابل طالعة في ساق واحدة سمينة وحسنة. ثم هو ذا سبع سنابل أخرى هزيلة ومفلوحة بالريح الشرقية. وابتلعت السنابل الهزيلة السبع السمينة الممتلئة.

عند انبلاج الفجر أرسل الفرعون في طلب عرّافيه، وروى لهم ما شاهده في حلميه، فقالوا: «البقرات السبع السمان تعني أنك ستنجب سبع بنات حسان؛ أما العجاف فتعني أنهن لن يلبثن أن يلفظن أنفاسهن لعلّة ما. وأما السنابل السبع الخضر فتعني أنك ستغزو سبع أمم؛ وأما اليابسات فتعني أن هذه الأمم ستتمرد فيما بعد.» إلا أن فرعون لم يقتنع بهذين التفسيرين.

وتذكر ميرود رئيس السقاة يوسف. ولم يكن ميرود ناكراً لجميل يوسف: كانت قضية يوسف تشغل باله، وقد عقد منديلاً من أجل أن يتذكره؛ إلا أنه كان ينسى من أجل ماذا عقده عندما يكون في حضرة الفرعون. ويبدو أن الرب إنما أجّل الأمر إلى أوانه. فأخبر ميرود الفرعون الآن أن يوسف لا يخطيء في تفسير الأحلام، والتمسه أن يطلق سراحه. فأرسل الفرعون في طلب يوسف، الذي جيء به بعد أن حلقوه وألبسوه ملابس جيدة.

قال له الفرعون: — سمعت أنك تفسر الأحلام.

اجابه يوسف: — لست أنا، بل الله الحي الذي ينطق من خلالي! لسوف يريح بال الفرعون.

وروى الفرعون حلميه، وأردف قائلاً إن البقرات العجاف لم تشبع بعد التهامها البقرات السمان.

فقال يوسف: ــ حلم فرعون واحد، وهو من صنع الله، البقرات السبع السمان، والسنابل السبع الحسنة، هي سبع سنين. والبقرات السبع العجاف، والسنابل السبع الفارغة، هي سبع سنين أيضاً. هو ذا سبع سنين قادمة شِبعاً عظيماً في كل أرض مصر؛ ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً، فينسىٰ الناس كل الشبع في أرض مصر، وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من الله. والآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر، يوكله ناظراً على الأرض، ويأخذ خُمس غَلّة أرض مصر في سبع سني الشبع. فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة، ويخزنونه تحت يد فرعون طعاماً في المدن، فيكون ذخيرة لسبع سني الجوع التي تكون في أرض مصر، فلا تنقرض الأرض بالجوع.

حسن الكلام في عيني الفرعون، وفي عيون حاشيته؛ فقال فرعون لهم: «هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله.» ثم قال ليوسف: «بعدما علمك الله كل هذا، فلن ننظر أبعد من ذلك. أنت تكون وكيلي، وستكون أوامرك التي تصدرها للناس أوامري، ولن أحتفظ بشيء لي سوى مقامي الذي هو أعظم منك.» ثم قال ليوسف: «انظر. قد جعلتك على كل أرض مصر.» وخلع خاتمه من يده وجعله في يد يوسف. وألبسه ثياب بوصٍ ووضع طوق ذهب في عنقه. وأركبه في مركبته الثانية، وسجد له الناس، ولقبه «صفنات يفنيح»، وتعني «من خلاله ينطق الرب» وقال له: «بدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر.» وحكم يوسف كل أرض مصر، رغم أنه كان ما يزال في الثلاثين من عمره. واشترى عمال يوسف القمح الفائض وخزنوه في أهراء الدولة.

وزوّجه فرعون أسينات ابنة فوطي فارع، كاهن أون، فولدت له ابنين، سمىٰ الأول منسّىٰ، قائلاً «لأن الله إنساني كل تعبي ومنفاي!»؛ ودعا الثاني افرايم، قائلاً «لأن الله جعلني مثمراً في أرض مذلتي»[(126)].

ويزعم البعض أن أسينات كانت ابنة أخته دينة، وقد جاءت سفاحاً، وتبناها زليخة وفوطيفار الذي اعتبروه هو فوطي فارع. ويزعمون أن أسينات اتهمت زليخة أمام فوطيفار بأنها كذبت؛ ثم زوجها فوطيفار ليوسف، اعترافاً منه بأنه لم يرتكب إثماً.

---

(126) جذر (فـري) في اللغات السامية يعني الثمر، كذلك هو في العبرية والسريانية والأكدية؛ ومنه فاريّا، القرية اللبنانية ــ الدكتور انيس فريحة: ملاحم واساطير من أوغاريت، ص 34.

وينفي آخرون التطابق بين فوطيفار وفوطي فارع؛ وبين أسينات وابنة دينة، ويزعمون أن الابن البكر لفرعون كان منافساً ليوسف في حب أسينات.

• • •

يبدو أن الأساس التأريخي لهذه الأسطورة كان صعود جنرال من أصل سامي يدعى يانهامو Yanhamu في عهد الفرعونين امنحوتب الثالث، وامنحوتب الرابع، من السلالة الثامنة عشرة؛ وقد ورد ذلك في رسائل تل العمارنة، وتعيينه مشرفاً على صوامع ياريموتا (أو «يرموت» ــ انظر سفر يشوع 11:12)، وعلى المصالح المصرية في فلسطين. ولم يكن هذا أول فلسطيني يتقلد زمام منصب رفيع في حكم الفراعنة: كان حامل سلاح تحوتمس الثالث، المدعو ميري ــ رع، وأخوه الكاهن أوسر ــ مين، آموريين؛ وفيما بعد، كان الناطق بلسان حال الفرعون ميرنبتاح، ويدعى بن متانا، كنعانياً. وكان لياناهامو Yanahamu هذا زميل ذو مركز رفيع اسمه دُودُو Dudu، وبالعبرية Dodo، أو Dodai، وهو اسم ورد في سفر صموئيل الثاني (9:23، 24؛ وسفر القضاة 1:10، إلخ) ولعله هو ذاته عبري.

وفي سفر التكوين أن الفرعون ألبس يوسف «ثياب بوص»، وهو لا ينم عن تكريم، وينبغي أن يكون المقصود بها القميص الملكي أو الشنديت Shendit.

لم يكن من المستغرب ترقية وزير إلى نائب فرعون. فلقد مثّل بتاح حوتب (حوالي 2500 ق.م.) المعروف بـ «الفرعون الثاني» سيده الغائب في أوقات غيابه، مستعملاً كل الألقاب الملكية، والختم العظيم. ومع أن وظيفة «مدير الصوامع» تختلف عن مركز نائب الملك، إلا أنها بسبب أهميتها كانت توضع تحت إشراف أمراء القصر. وقد أكد بتاح حوتب في «حِكَمه» على أهمية ملء الصوامع لأيام المجاعة. وقد ورد ذكر مجاعة كهذه في نقوش بني حسن على قبر امينة، أمير إقطاعي من الامبراطورية الوسطى. لقد اتخذ أمينة تدابير كهذه تحسباً للطوارئ، وقيل إنه لم يخصم من حصص الفلاحين عندما أنتجت الأرض محصولاً وفيراً من الحنطة والشعير بعد موسم فيضان جيد. وأشار أحد نبلاء الهكسوس من السلالة السابعة عشرة، يدعى بابا، إلى ذكر مجاعة دامت عدة سنوات. ويعتبرها بعض المؤرخين نفس مجاعة يوسف، بيد أن تفاصيل القصة في سفر التكوين تعكس تأريخاً أقدم أو أحدث من مرحلة الهكسوس.

وزواج وكيل الملك بابنة كاهن من عَبَدة الشمس، وتقبُّل الفرعون لدين

يوسف التوحيدي، يشيران إلى أنه كان امنحوتب الرابع، المصلح الديني الجريء الذي عبد أتين Aten، قرص الشمس، فقط، ثم غيّر اسمه إلى أخناتون Akhenaten، وبنى عاصمة جديدة في العمارنة.

أما اسم أسينات فلعل المقصود به انهيساتن Anhesaten، وهي ابنة أخناتون. كما أن رئيس كهنة أخناتون كان يدعي ميري ـ رع Meri-Re؛ ولعل ذكر فوطي فارع بدلاً منه، إنما كان بسبب الشبه بينه وبين اسم فوطيفار، سيد يوسف الأصلي.

المجاعة

انتهت سنوات الخير السبع، وتلتها سنوات الجوع السبع. وبعد نضوب مخازن الحنطة الأهلية، فتح يوسف الأهراء الملكية، وباع الحنطة للناس. كان قد خزن القمح والحبوب في مدن المحافظات، وخلطها بالتراب المجلوب من الحقول التي زرعت فيها، إتقاء التدوّد والتعفن. أما المصريون فلم يتخذوا مثل هذه التدابير الوقائية، ولهذا تعفنت مخازنهم.

وعمت المجاعة البلدان الأخرى، فاستطاع يوسف أن يجني مالاً وفيراً من الاتجار مع العرب، والكنعانيين، والسوريين، وغيرهم. وقال لموظفيه: «باسم الفرعون ووكيله! على كل أجنبي يرغب في شراء القمح أن يأتي بنفسه، وإذا ظهر أنه ابتاعه لغرض الاتجار، لا الاستهلاك الشخصي، يحكم عليه بالموت. ولا يحق لأي أن يعطىٰ أكثر من كيس، أو يمتنع عن توقيع اسمه واسم أبيه وجده، عند البيع.» وطلب منهم أن يقدموا له قائمة يومية بأسماء المشترين. كان على يقين بأن إخوته لن يلبثوا أن يهرعوا لشراء القمح.

وبعد أن خوت جيوب المصريين من النقود، أذن لهم يوسف بشراء الحبوب بالمقايضة، مقابل الماشية. فانتقلت القطعان إلى حوزة الفرعون. ثم باعوا يوسف أراضيهم، واخيراً أنفسهم، لقاء الحبوب. وهكذا أصبح الفرعون المالك الوحيد لمصر، وصار يتحكم بالناس، فينقلهم من مدينة إلى أخرى، كالعبيد. ولم يسلم من هذا المصير سوى الكهنة الذين كانت لهم حصة من الفرعون.

وفي السنة الثالثة وزع يوسف بذور القمح على الفلاحين، على أن يدفعوا للفرعون خُمس محصولها مدى العمر. وما يزال هذا القانون سارياً.

فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر أمر بنيه أن ينزلوا إلى هناك ويشتروا ما يستطيعون شراءه. نزل عشرة من أخوة يوسف، وأما بنيامين فلم يرسله يعقوب لأنه قال لعلّه تصيبه أذيّة. وأوصى أبناءه قائلاً: «عندما تحصلون إلى مصر، لا تخبروا أحداً إلا عند اقتضاء الضرورة بأنكم ذاهبون لشراء الحبوب. إتّضعوا، وتخلوا عن عبيدكم، واحذروا عين الحسود! وادخلوا مدينة الفرعون من ابوابها الخلفية، وحاذروا أن تدخلوا في نقاش مع الآخرين.».

وعند وصولهم قرأ يوسف أسماءهم فأرسل في طلبهم. وألقي القبض عليهم في دار للبغاء لأنهم كانوا يبحثون عن أخيهم الضائع، فيه، عند النخاسين. وسجدوا ليوسف بوجوههم إلى الأرض. فتنكر وتكلم معهم بجفاء، وقال لهم: «من أين جئتم، وما حاجتكم؟» فقالوا من أرض كنعان لنشتري طعاماً. فهدر فيهم قائلاً: «جواسيس أنتم».

فقالوا بتضرع: «لا، يا سيدنا، لسنا جواسيس، بل أناساً أبرياء شرفاء، جئنا لنشتري طعاماً.».

قال يوسف: «لو كنتم أبرياء، لما دخلتم أبواب المدينة متفرقين. ولو كنتم شرفاء لما أمضيتم وقتاً طويلاً في بيوت الدعارة.».

أجاب يهودا قائلاً: «لقد دخلنا من ابواب مختلفة التزاماً بنصيحة أبينا. وفي بيوت الدعارة كنا نبحث عن بضاعة مفقودة.».

إلا أن يوسف أصر قائلاً: «ما أنتم إلا عصبة من الجنود، أرسلكم أعداء الفرعون لتتجسسوا على تحصينات مصر.».

أجابه يهودا: «أؤكد لسموكم اننا جميعاً بنو رجل واحد يقيم في أرض كنعان. كنا اثني عشر، ثم مات واحد منا، وبقي الأصغر في البيت.».

قال يوسف: «لقد دخلتم المدينة كخليع يتلصص على عري زوجة رجل آخر».

ونظر كأس الاستنباء الفضي، ثم قال: «وها أنا ذا أرى في هذه الكأس أن اثنين منكم قد قتلا أبناء مدينة محصنة؛ وإنكم، جميعاً، بعتم قريباً لكم لتجار جوّالة. بحياة فرعون، لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا! أرسلوا منكم واحداً ليجيء بأخيكم، وأنتم تُحبسون، لأكون على بينة من قصتكم».

قال بعضهم لبعض باللغة العبرية: حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذي استرحمنا ولم نصغ له. لذلك جاءت علينا هذه الضيقة. فأجابهم رأوبين قائلاً: «ألم أكلمكم قائلاً لا تأثموا بالولد، وأنتم لم تسمعوا. فهو ذا دمه يطلب». ولم يعلموا أن يوسف كان يفهم كلامهم. فتحول عنهم وبكى. ثم رجع إليهم، وأخذ منهم شمعون وقيّده أمام عيونهم. وأمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وتُرد فضة كل واحد منهم إلى عِدْله، وأن يعطوا زاداً في الطريق.

ولما فتح أحدهم عدله ليطعم حماره عليقاً في نزل في الطريق، رأى فضته وإذا هي في عدله. فركض إلى أخوته وقال لهم: «انظروا ماذا سيحل بنا» فطارت قلوبهم وارتعدوا. ثم لما جاءوا إلى يعقوب أبيهم في أرض كنعان وأخبروه بكل ما أصابهم، قال لهم: «لقد أعدمتموني ابنين. يوسف مفقود. وشمعون مفقود. وها أنتم تأخذون بنيامين. صار كل هذا عليّ.».

وكلم راوبين أبـاه قائلاً: «اقتل ابنيَّ إن لم أجيء به إليك. سلّمه بيدي وأنا أرده إليك.».

قال يعقوب: «لا ينزل ابني معكم، لأن أخاه قد مات وهو وحده باق. فإن أصابته أذية في الطريق التي تذهبون فيها تُنزلون شيبتي بحزن إلى الهاوية.».

●●●

إنّ أمر يوسف بأن يدفع المصريون للفرعـون خُمس محصولهم من الحبوب، يضفي مصداقية للأسطورة بهذا الشأن، فما يزال هذا القانون سارياً حتى يومنا هذا بين المزارعين المستأجرين والإقطاعيين في العديد من بلدان الشرق الأوسط. ولعل الغزاة الهكسوس أدخلوه إلى مصر قبل حكم أمنحوتب الرابع بقرنين أو ثلاثة. ولم يُستثنَ من هذا القانون سوى الكهنة(127).

ومن بين الرتوش المدراشية التي أضيفت ألى هذه الأسطورة، إصرار يوسف على أن يُختن جميع المصريين الذين باعوا أنفسهم؛ مع أن الختان كان تقليداً مصرياً قديماً. أما خلطة التراب بالحنطة، فقد كان تدبيراً وقائياً بارعاً، ويذكرنا بما كان يفعله طحانو القرون الوسطى عند غش الطحين. وطبقاً لكتاب مدراشي آخر، حتى يوسف ربح وفيراً، باسم فرعون، لصالح عائلته؛ وقد بررها الله فيما بعد في سفر الخروج (22:3): «بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين».

وقد قيل أن الإخوة ذهبوا إلى دار للبغاء ظناً منهم بأن فتى وسيماً كيوسف لا بد أن يكون قد بيع إلى مبغى للواطة.

(127) في اليونان القديمة «كان الفلاح يعتبر نفسه سعيداً إذا ما سمحوا له بالبقاء في قطعة الارض بصفة مستأجر، وبالعيش من سدس منتوج كدحه، إذْ يتعين عليه ان يقدم الخمسة اسداس الباقية إلى المالك الجديد كبدل إيجار» ـ انجلس، أصل العائلة، ص 145.

وذكر بلينيوس أن كؤوس الاستنباء الفضية كانت تستعمل في عبادة أنوبيس، الذي يقابله هيرمس في اليونان. ويبدو أن صورة الإله كانت محفورة في داخل الكأس. وكان المستنبيء (قارىء الغيب) يملأها ماء، ويضع فيها أشياء صغيرة، ليرى أي أثر تترك التموجات على وجه الإله. ويزعم التلموديون أن كؤوساً كهذه فيها أرواح حارسة.

على هامش النص

إن حلم فرعون عن البقرات السبع السمان التي تبتلعها سبع عجاف، وكذلك السنابل، وتفسير يوسف له بأن البلد ينعم بسبع سنوات خصبة تتلوها سبع سنوات تعمها المجاعة، إن هذا الحلم انعكاس رمزي للأحوال الطبيعية في أرض كنعان التي كانت وما تزال تتعاقب فيها سنوات الخصب والجفاف بين فترة وأخرى (وقد اتخذت هنا الرقم سبعة لأنه مقدس عند الساميين).

في قصة الصراع بين الإلهين الكنعانيين (بعل)، و (موت)، يمثل (بعل) الحياة والخصب والنظام، بينما يمثل (موت) الجفاف والقحط والموت. ويتكرر هذا الصراع كل **سبع سنوات**، وهو انعكاس لدورتي الخصب والجفاف في أرض كنعان. تحدثنا هذه الأسطورة بأن بعلاً يرسل بيد غلاميه (جفنة) و (حقل) رسالة إلى (موت) يستعطفه فيها ويعترف له فيها بقوته ومكانته. إلا أن (موت) يفوقه دهاء، فيدعوه لحضور وليمة في عالمه السفلي «فتأكل مع أخوتي خبزاً، وتشرب مع أهل عشيرتي خمراً». ومعروف أن كل من يُصب من طعام العالم السفلي يصبح في عداد الأموات. ويجد البعل نفسه مرغماً على قبول الدعوة. ثم يختفي في العالم السفلي، أي يموت. فيحزن عليه إيل، كبير الآلهة، وتحزن عليه اخته عناة:

ثم أنها نحرت سبعين
رئماً ذبيحة (أو تقدمة) عن الظافر
البعل. ثم نحرت سبعين ثوراً
ذبيحة عن الظافر البعل
ثم ذبحت سبعين خروفاً
ذبيحة عن الظافر البعل
ثم نحرت سبعين أيّلاً
ذبيحة عن الظافر البعل
ثم نحرت سبعين وعلاً

ذبيحة عن الظافر البعل
ثم نحرت سبعين حماراً وحشياً
ذبيحة عن الظافر البعل[128].

ذلك لأنه سيلبث في الحفرة، أي العالم السفلي، **سبع سنوات** «فيجف الزيتون، [ويقل] نتاج الأرض، وثمر الأشجار.» وإذْ تفتقده عناة، تروح تبحث عن (موت) لتنتقم منه لأخيها البعل. فتمزقه بمدية، وتبعثر أشلاءه بمذراة. ثم ترى رؤيا وكأن السماء تمطر زيتاً، والأودية تسيل عسلاً. عندها أدركت أن البعل حي.

ولكن بعد ذلك يعود (موت) إلى الظهور، ويتحدى البعل من جديد:
الأيام [استحالت] إلى أشهر، والأشهر
إلى سنوات وسنوات، وفي السنة
السابعة وإذ (بموت) ابن الآلهة [يظهر]
للظافر البعل.

ويسقط بعل من جديد في مستنقع الوحل (رمز العالم السفلي) فيحل سبات الموت من جديد، وتفسد الأرض وتحترق الحقول. وهذا أيضاً يدوم سبع سنوات. ثم لا يفتأ البعل أن يعود من جديد.

لقد عانى العبريون، مثل الكنعانيين، من دورات الجفاف هذه، وكانوا منذ أيام إبراهيم يلجأون إلى مصر عندما تدفعهم الحاجة إلى الحبوب. فترسخت هذه الظاهرة في ضميرهم ووجدت طريقها إلى تراثهم الديني.

لكن يبدو أن جذور قصة الجفاف والسنوات السبع العجاف، والغلال، ترجع إلى أصل سومري واكدي أيضاً. جاء في ملحمة جلجامش:
ففتح «آنو» فاه وأجاب عشتار الجليلة وقال: ـــ
«لو فعلت ما تريدينه مني وزودتك بالثور السماوي
لحلت في أرض «أوروك» سبع سنين عجاف
فهل جمعت غلالاً لهذه السنين العجاف
وهل هيأت العلف للماشية؟»
فتحت عشتار فاها وأجابت أباها «آنو» قائلة: ـــ
لقد جمعت «ببيادر» الحبوب للناس

(128) ملاحم وأساطير من اوغاريت، ص 171 ـــ 172.

وخزنت العلف للماشية
فلو حلّت سبع سنين عجاف
فقد خزنت غلالاً وعلفاً
تكفي الناس والحيوان...[128a]

وجاء في ملحمة جلجامش أيضاً ما يشبه حلم يوسف عن الشمس والقمر والكواكب التي رآها ساجدة له. فقد روى جلجامش لأمه «ننسون» حلمه قائلاً:

رأيت أني أسير مختالاً بين الأبطال
فظهرت كواكب السماء
وقد سقط أحدها إليّ وكأنه شهاب السماء «آنو»[128b]

(128a) طه باقر:
ملحمة جلجامش، ص 113. الطبعة الرابعة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، سنة 1980.

(128b) المصدر السابق، ص 86.

عودة الأخوة

حدث لما فرغوا من أكل القمح الذي جاءوا به من مصر أن أباهم قال لهم: «ارجعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام.» فقال يهودا: «إن نائب الفرعون قد أشهد علينا قائلاً لا ترون وجهي بدون أن يكون أخوكم بنيامين معكم. إن كنت ترسل أخانا معنا، ننزل ونشتري لك طعاماً، وإلا متنا جوعاً.».

قال يعقوب: «ولكن لماذا كنتم أغبياء فقلتم للرجل بأن لكم أخاً صغيراً؟» فأجابوه قائلين: «إن الرجل قد سأل عنا وعن عشيرتنا، قائلاً هل أبوكم حي بعد؟ هل لكم أخ؟ ولم نعلم أنه سيشترط عودتنا بأخينا.».

وقال يهودا: «أرسل الغلام معي، وأنا أضمنه، وإن لم أعد به إلى البيت، أكن مذنباً إليك كل الأيام. لأننا لو لم نتوانَ لكنا ذهبنا إلى مصر وعدنا مرتين، وجئنا بالطعام. ولكان شمعون حراً الآن.».

وأخيراً قال يعقوب: «إن كان هكذا، فافعلوا هذا. خذوا من أفخر جَنَى الأرض في أوعيتكم، واحملوا للرجل هدية، قليلاً من البلسان، وقليلاً من العسل، وكثيراء، ولاذناً، وفستقاً، ولوزاً. وخذوا فضة مضاعفة في أيديكم. والفضة المردودة في عدولكم ردوها إليه. لعله كان سهواً. وخذوا أخاكم بنيامين، وقوموا ارجعوا إلى الرجل. والله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل. وإذا كتب لي أن أفقد ولديّ، فتلك هي إرادته.».

ونزلوا إلى مصر، ووقفوا أمام يوسف. فلما رأى يوسف بنيامين معهم، قال للذي على بيته: «ادخل الرجال إلى البيت، واذبح ذبيحة، وهيىء وليمة، لأن الرجال سيشاركونني الطعام.».

فتقدموا إلى القيّم على بيت يوسف وأخبروه بشأن الفضة التي وجدوها في عدولهم. فقال لهم: «سلام لكم، لا تخافوا. إلهكم وإله أبيكم أعطاكم كنزاً في عدالكم. فضتكم وصلت إليّ.» ثم أخرج إليهم شمعون. وأدخل الرجل الرجال إلى بيت يوسف، وقدم لهم ماء ليغسلوا أرجلهم، وعليقاً لحميرهم. ولما جاء يوسف

إلى البيت قدموا له الهدايا وسجدوا له إلى الأرض. فسألهم عن سلامتهم وقال: «أسالم أبوكم الشيخ؟».

أجابه يهودا بخشوع: «عبدك سالم، وهو حي بعد.».

رفع يوسف عينيه ونظر إلى بنيامين، ثم قال: «أهذا أخوكم الصغير؟ الله ينعم عليك يا ابني.» ولم يقوَ على حبس دموعه، فانسحب وبكى في المخدع. ثم غسل وجهه وخرج، وتجلّد، وطلب أن يقدم الطعام؛ وأكل وحده، كما يليق به المقام. ولما كان المصريون ينظرون إلى الرعاة نظرتهم إلى مربـي الخنازير، فقد عزل المستخدمون طعامهم عن طعام الأخوة. وجلسوا بحسب أعمارهم، وبهتوا للمعاملة الحسنة. وقدم لهم العبيد أطايب الطعام من مائدة يوسف؛ لكنهم لم يدركوا لماذا كانت حصة بنيامين خمسة أضعاف كل منهم. وكان الساقي يملأ كؤوسهم كلما فرغت، حتى سكروا جميعاً، بدون استثناء يوسف.

ثم أمر يوسف القيم على بيته بأن يملأ عدول إخوته حبوباً حسبما يطيقون حمله، ويضع فضة كل واحد في عدله، ويضع كأس الاستنباء الفضي في عدل بنيامين. ففعل بحسب كلام يوسف. ولما أضاء الصبح انصرف الرجال هم وحميرهم. ثم قال يوسف لقيّم بيته: «خذ عربة، واتبع أولئك العبريين، وقل لهم لماذا جازيتم شراً عوضاً عن خير؟ وسرقتم كأسي الذي أتفاءل فيه؟».

وأدركهم، وقال لهم هذا الكلام. فدهشوا وقالوا له: «كيف يتكلم سيدنا مثل هذا الكلام. أولم نُعد له الفضة التي وجدناها في عدولنا؟ فكيف نسرق من بيت سيدك فضة أو ذهباً؟ فتش أوعيتنا، فإن وجدت شيئاً عندنا، خذنا عبيداً!».

قال القيم: «لا آخذ غير السارق.».

ولما أنزلوا العدول عن حميرهم، تظاهر بأنه يفتش الأكياس، إلى أن وجد كأس يوسف في عدل بنيامين. فضربوا بنيامين بلا شفقة وقالوا: «خذ هذا النشّال الخسيس! لقد أخزيتنا أكثر من أمك راحيل عندما سرقت صنم لابان.» ومزقوا ثيابهم حزناً، ثم وضعوا أحمالهم على ظهور دوابهم، وعادوا إلى قصر يوسف.

ووقعوا أمامه على الأرض، فقال لهم: «ما هذا الفعل الذي فعلتم؟ ألم تعلموا أن رجلاً مثلي يقرأ الحاضر والماضي والمستقبل حتى بدون كأسي الفضية؟».

أجابه يهودا: «ماذا نقول لسيدي. ماذا نتكلم وبماذا نتبرر؟ الله قد وجد إثم عبيدك الذي اقترفناه في الماضي. خذنا كلنا عبيداً لك، مع من وجد الطاس في يده.».

ونفض يوسف طرف عباءته الأرجواني، وقال: «حاشا لي أن أفعل هذا. الرجل الذي وُجد الطاس في يده، يكون لي عبداً. وأما أنتم فاصعدوا بسلام إلى أبيكم.».

فأجابه يهودا جزعاً: «وماذا سنقول لأبينا التاعس؟».

قال يوسف: «قولوا له أن الحبل قد تبع الدلو في البئر.».

وتضرع يهوذا إلى يوسف بأن يصغي إليه، وروى لـه القصة بأكملها، ثم تبرع بأن يحل هو محل بنيامين، قائلاً: «كيف أصعد إلى أبـي والغلام ليس معي؟».

ولم يستطع يوسف أن يضبط نفسه أمام جميع الواقفين عنده، وأطلق صوته بالبكاء. وسأل إخوته بالعبرية: «أحي أبـي بعد؟» فلم يستطع إخوته أن يجيبوه، لأنهم ارتاعوا منه، ظناً منهم بأنه مجنون.

ثم طلب منهم أن يقتربوا منه، فتقدموا منه هلعين. وقال لهم: «أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر. والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأن الله نفسه أوحى لكم بما فعلتم. وقد بقي من الجوع سنتان في مصر. وخمس سنوات أخرى لا تكون فيها فلاحة ولا حصاد. وقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض. أسرعوا واصعدوا إلى أبـي، وقولوا له إن يوسف حي يرزق! تضرعوا له بأن يأتي عاجلاً، فتسكن في أرض جاسان وتكون قريباً مني أنت وبنوك وبنو بنيك، وغنمك، وبقرك، وكل مالك. وهو ذا عيونكم ترى وعينا أخي بنيامين إن فمي هو الذي يكلمكم. فافعلوا ما أقول!».

بعد ذلك وقع على عنق أخيه بنيامين، وتبادل الجميع العناق والقبل.

• • •

هذه قصة تأريخية، إلا انها تتحدث عن رعاة عبريين معينين، أقاموا شمالي ـــ شرقي الدلتا، وأطلقوا على مدنهم أسماء مصرية، مثل سكّوت، وبعل صفون، ومجدول. وكانت جاسان الواقعة بين فرع النيل وبحيرة تمساح، حياً يقع، في أيام يوسف، بعيداً عن فيضان النيل لا تصلح منزرعاً، بل مرعىً جيداً.

وبعد عدة أجيال، مدّ رمسيس الثاني الماء إلى جاسان من قناة احتفرها، وبنى المدن باليد العاملة العبرية (انظر سفر الخروج 1: 11). ويبدو أن رمسيس الثاني هو الفرعون الذي لم يكن يعرف يوسف، كما جاء في سفر الخروج (1: 8)، وثار موسى ضده.

ونفضُ طرف العباءة بما معناه «أنني أنفض يدي من هذه!» ما تزال حركة متبعة في الشرق الأوسط. أما رسالة يوسف الملغزة إلى أبيه «إن الحبل قد تبع الدلو في البئر» فتعني: «تلك هي عاقبة أبنائك الذين أنزلوني في البئر الجافة في دوثان.».

يعقوب في مصر

لما سمع فرعون بوصول اخوة يوسف، قال له: «إذا جاء أبوك يعقوب بعائلته، فسيلقى مني استقبالاً ملكياً. هيــىء العربات للنساء والأطفال؛ ولما كنت قد وضعت كل ثروة مصر تحت تصرفك، قل له بأن يترك ما ثقل حمله.».

وأعطى يوسف كلاً من أخوته بدلة جميلة، عدا بنيامين الذي نال خمساً، وثلاثمئة قطعة فضية. وأرسل لأبيه عشرة حمير محملة بخيرات من مصر، وعشر أُتن حاملة حنطة وخبزاً وطعاماً لأبيه لأجل الطريق. ثم صرف اخوته، وقال لهم: «لا تتغاضبوا في الطريق!».

وبينا كان الإخوة يتفكرون كيف يزفّون الأنباء السعيدة لأبيهم، استقبلتهم قرب حبرون سارح ابنة أشير، وهي فتاة تحسن العزف. فأعطوها قيثـارة مصرية، وقالوا لها: «اذهبــي حالاً إلى جدك، واعزفي على هذه الآلة، وغني له هذه الكلمات:

يوسف، حي، حي
ما زال يحمل رأسه على كتفيه
تاج على أرض مصر
إنه حي، حي
لو علمت.

وفعلت سارح ما قيل لها. غنت هذه الكلمات على مسمع يعقوب، المرة تلو الأخرى، حتى نفذت إلى أعماقه. وسرعان ما أدرك يعقوب الحقيقة. فبارك سارح وقال لها: «لقد أنعشت روحي، يا بنتي. عسى أن لا يزعجك شبح الموت! هلمي، وغني لي أغنيتك ثانية. إنها أحلى من العسل على مسمعي.».

ووصل الإخوة بملابسهم الملكية، وهتفوا قائلين: «يوسف حي، حي! إنه نائب الملك في مصر!» وعندما وقع بصر يعقوب على العربات والحمير المحملة انتعشت روحه، وقال: «كفى. يوسف ابني حي. سأذهب وأراه قبل أن أموت.» ونفض عنه رماد الحداد، واغتسل، وشذب لحيته، وارتدى اللباس الملكي الذي

جيء به إليه، وأولم وليمة لثلاثة أيام دعا فيها كل ملوك كنعان؛ بعد ذلك شد رحاله إلى مصر مع غنمه وثيرانه، وممتلكاته، وسبعين من أفراد بيته، عدا الزوجات والخدم.

وفي بئر سبع ذبح ذبائح، فكلم الله إسرائيل في رؤىء الليل، وقال: «يعقوب، يعقوب، لا تخف من النزول إلى مصر! لأني أجعلك أمة عظيمة هناك. أنا أنزل معك إلى مصر، وأنا أصعدك أيضاً. ويغمض يوسف عينيك.». (سفر التكوين 46: 1 ــ 4).

وبعد أن زف يهوذا الذي سبقهم خبر قدومهم ليوسف، شد مركبته، وتوجه إلى جاسان. ولما التقى بأبيه عانق أحدهما الآخر وبكيا. وقال يعقوب: «سأموت الآن قرير العين بعد أن رأيت وجهك ثانية!».

ثم قال يوسف لإخوته «سأصعد وأخبر فرعون بقدومكم. فإذا سألكم الفرعون وقال ما صناعتكم؟ قولوا أهل مواشٍ منذ صبانا إلى الآن، لكي تسكنوا هنا في جاسان، لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين.».

وأخذ من جملة إخوته خمسة رجال وقدمهم لفرعون الذي عينهم رؤساء مواشٍ على التي له في تلك المنطقة؛ ثم أدخل يوسف يعقوب وقدمه لفرعون. فقال فرعون ليعقوب: «كم هي أيام سني حياتك؟» قال يعقوب: «أيام سني غربتي مئة وثلاثون سنة. قليلة ورديئة كانت أيام سني حياتي، قياساً بأيام سني آبائي.» وبارك فرعون ثم عاد إلى جاسان. إلا أن الله أنحى عليه باللائمة قائلاً: «يعقوب، لقد أنقذتك من عيسو ولابان؛ وأنقذت يوسف من الحفرة وجعلته نائب الملك في مصر؛ وأنقذت عائلتك بتمامها من غائلة الجوع! ومع هذا تتظلم قائلاً أن أيام سني حياتك قليلة ورديئة! لنكران الجميل هذا سأنقصها اثنتين وثلاثين سنة!».

وبأمر فرعون أسكن يوسف أباه في حي رمسيس، وأعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد. ثم عاش يعقوب سبعة عشر عاماً أخرى، وهي أقل من العمر الذي أنعم الله به على أبيه إسحاق.

• • •

إن الإضافات المدراشية على هذه القصة التي تعكس انتفاضتي إسرائيل البطوليتين ضد السلطة الرومانية، تظهر إخوة يوسف أبطالاً في استعدادهم للقتال عندما ألقي القبض على بنيامين، وإجهازهم على جيش فرعون عن بكرة أبيه. ويهوذا يطحن قضبان الحديد بأسنانه، ويطلق صيحة مخيفة تجهض على

أثرها جميع النساء اللائي سمعنها، وتميل أعناق حرس فرعون وتبقى على حالها هكذا، ولعلها صورة مستعارة من الرسوم المصرية التي تظهر فيها الوجوه جانبية في حين تبقى الأجساد في وضع أمامي. كما أنه يحرق العربة التي أهداها إياه فرعون، لأنها مزينة بصور الأصنام.

موت يعقوب

لما قربت أيام إسرائيل دعا ابنه يوسف إلى جاسان، وقال له: «أحلف لي بأنك لن تدفنني بين المصريين، بل في مغارة مكفيلة في حبرون.».

فقال يوسف: «هل أنا عبد فتطلب مني قسماً؟».

«كلا، ضع يدك تحت فخذي، واحلف لي!».

«من غير اللائق أن يلمس ابن ختان أبيه. ومع هذا فإني أقسم بالله الحي بأنك ستدفن في حبرون.».

وأخذ يوسف ابنيه أفرايم ومنسّىٰ إلى سرير يعقوب. فتحامل إسرائيل على نفسه وجلس على السرير، وقال ليوسف: «الله القادر على كل شيء ظهر لي في لوز في أرض كنعان، وباركني، وقال لي: ها أنا اجعلك مثمراً وأكثّرك وأجعلك جمهوراً من الأمم، وأعطي نسلك هذه الأرض من بعدك ملكاً أبدياً. والآن ابناك المولودان لك في أرض مصر قبلما أتيت إليك، أفرايم ومنسّىٰ، كراوبين وشمعون، يكونان لي. وأما أولادك الذين تلد بعدهما فيكونون لك. وأنا حين جئت من فدان — أرام ماتت عندي راحيل في أرض كنعان في الطريق إذ بقيت مسافة من الأرض حتى أفراتة.» وساءه أن جسده سيسجىٰ جنب ليئة، وليس جنب أثيرته راحيل.

ورأى إسرائيل ابني يوسف، أفرايم ومنسّى، فقال: «من هذان؟» قال يوسف: «هما ابناي اللذان أعطاني الله في مصر.».

«قدمهما إليّ لأباركهما.».

وقربهما يوسف إليه، فقال يعقوب: «لم أكن أظن أن أرى وجهك، وهو ذا الله قد أراني نسلك أيضاً.».

وأخذ يوسف أفرايم عن يسار يعقوب، ومنسّىٰ عن يمينه. فمد يعقوب يمينه ووضعها على رأس أفرايم، ويساره على رأس منسّىٰ، وقال: الله الذي أمامه أبواي إبراهيم وإسحاق. الله الذي رعاني منذ وجودي إلى هذا اليوم. الملاك الذي

خلصني من كل شيء. يبارك الغلامين اللذين أعتبرهما ابنيَّ، مثلما بارك أبويَّ، إبراهيم وإسحاق. وليتضاعف نسلهما في الأرض!».

وقال يعوب ليوسف: «وها أنا أموت، ولكن الله سيكون معكم ويردكم إلى أرض آبائكم. وأنا قد وهبت لك سهماً واحداً فوق إخوتك اخذته من يد الأموريين بسيفي وقوسي.».

ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام. ومع هذا فقد وبخ رأوبين لأنه اضطجع مع بلهة امرأة أبيه، وحرمه من حق البكورية، وانحىٰ بالملامة على شمعون ولاوي على المجزرة التي ارتكباها في شكيم، ولعنهما بدلاً من مباركتهما. ومدح يهوذا مشبهاً إياه «بجرو أسد»، مبشراً إياه بصولجان الملكية، وبوفرة الخمر واللبن. أما زبولون فقد وعده بأنه سيكون قبيلة من تجار وبحارة. وشبّه يسّاكر بحمار جسيم رابض بين الحظائر؛ ودان يكون حية على الطريق أفعواناً على السبيل، يلسع عقبـي الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء؛ وشبّه نفتالي بأيّلة مُسيّبة؛ وبنيامين بذئب جائع. أما جاد فيزحمه جيش، لكنه يزحم مؤخره. وأشير خبزه سمين. وخص يوسف ببركته الأساسية، مشبهاً إياه بعجل قوي يقف عند نبع ماء، يقوى على السهام والمقاليع. وسيقضي الله على أعداء يوسف، ويباركه ببركات السماء، وبركات الينابيع، وبركات الثديين والرحم. ولم يكشف يعقوب عن كل آفاق المستقبل، لأن الله أنساه بقية وعده. وأعاد ما قاله ليوسف: أن يدفن في مغارة مكفيلة إلى جانب إبراهيم، وسارة، وإسحاق، ورفقة، وزوجته ليئة.

وأمر يوسف أن يحنط جسد ابيه، فاستغرق ذلك اربعين يوماً؛ وأصدر أمراً بإقامة الحداد عليه في عموم مصر مدة سبعين يوماً. واستأذن الفرعون بزيارة أرض كنعان للحد أبيه. وصعد يوسف على رأس قافلة من أهله، وجميع شيوخ مصر (ممثلين عن كل مدينة)، تحت حراسة عسكرية مهيبة.

ودخلوا أرض كنعان، عن طريق جلعيد إلى بيدر أطاد، وناحوا هناك نوحاً عظيماً سبعة أيام. فلما رأى أهل البلاد، الكنعانيون، المناحة، قالوا «هذه مناحة ثقيلة للمصريين!» ولذلك دُعي المكان (آبل مصرايم). وحمله بنوه إلى مغارة مكفيلة في حبرون، وتفجعوا عليه سبعة أيام أخر، ثم عادوا عبر الحدود.

ويزعم البعض أن عيسو، شقيق يعقوب، كان ما يزال على قيد الحياة، وأنه هو وافراد عائلته الأدوميين ساروا مع يوسف إلى أرض كنعان. وفي حبرون قطعوا الطريق على مكفيلة، وقال عيسو: «لن أدع يعقوب يُلْحَد في هذه المغارة،

لأنها تعود لي حسب الشريعة!» ونشب قتال بين الطرفين، ثم أطاح حوشيم بن دان برأس عيسو. ولاذ الأدوميون بالفرار، حاملين معهم جثة عيسو إلى جبل سعير، أما الرأس فقد تركوه ليدفن هناك.

ولما رأى إخوة يوسف أن أباهم قد مات، قالوا لعل يوسف ينتقم منا، فأنفذوا إليه خبراً مفاده «أبوك أوصى قبل وفاته قائلاً: هكذا تقولون ليوسف، آه أصفح عن ذنب إخوتك وخطيتهم».

فأرسل يوسف في طلبهم إلى القصر. ولدى وصولهم، قالوا له: «نحن عبيدك!» إلا أنه أجابهم: «لا تخافوا! رغم أنكم أردتم بـي شراً، إلا أن الله قصد به خيراً، لينقذ نفوساً كثيرة. وسأبقى على العهد، أعيلكم وأولادكم!».

• • •

تعطي مباركة يعقوب مصداقية ميثولوجية للمستقبل السياسي لأفرايم ومنسّىٰ. فسوف تكون بمثابة قبيلة أصلية منحدرة عن يوسف، مؤلفة من عدة عشائر، ستؤلف، بعد احتلال أرض كنعان تحت لواء يشوع، اتحاداً مع قبائل ليئة، وبلهة، وزلفة، المستوطنة سلفـاً، وتتمتع جميعاً بمركز متساو مع حلفائها الجدد، وسيتبنون العشائر التابعة ـــ أي عشائر أبناء يوسف الذين لم يرد ذكر أسماء لهم في الأسطورة ـــ كأبناء بحد ذاتهم. أما منسّـىٰ الذي اعتبر متقدماً على أفرايم، فقد عاد ليصبح بالمرتبة الثانية بعده. ومثل هذا التغير في تراتب القبائل ما زال متبعاً بين القبائل الصحراوية العربية.

وما يزال الآباء اليهود الملتزمون يلهجون بمباركة يعقوب الأخيرة لحفيديه، عشية كل سبت، يلمسون رؤوس أبنائهم ويقولون: «ليبارككم الله كما بارك أفرايم ومنسّىٰ!».

وترمز مسيرة يوسف بالجنازة إلى جلعيد برفقة حرس مسلّحين إلى أنه كان يؤكد على مطالب إسرائيل بأرض كنعان؛ وهي فكرة استثمرها كتبة المدراش المتأخرون لتكريس يوسف فاتحاً جديداً للبلاد حتى الفرات. أما أن (بيدر عطاد) ـــ وعطاد يعني شوك الجمل ـــ يقع عبر الأردن، فهي إضافة خاطئة متأخرة على سفر التكوين، لعل المقصود بها «نهر»، وبالذات «مخاضة مصر» على نحو ما ورد في سفر التكوين (15: 8)، التي تمثل الحدود بين مصر وأرض كنعان. بمعنى آخر، إن أتباع يوسف أعلنوا الحداد في قرية كنعانية عبر الحدود. أما (آبل مصرايم) فتعني «المروج المصرية». وأما إيبل فتعني «حداد»، وهي كلمة أخرى.

وكانت مغارة مكفيلة مخفية وراء جامع عربـي لعدة قرون، ولم يكن يؤذن للمسيحيين واليهود بدخولها، وبقيت محتوياتها سراً مقدساً. وقد ذكر بنيامين التطيلي الذي زار مكفيلة سنة 1163 ميلادية أن الأضرحة الستة كان في داخلها مغارة ثالثة أعمق. وهي مبنية بأجود أصناف الرخام، كما يقول يوسفوس.

على هامش النص

يقول روبرت غريفز في كتابه (الإلاهة البيضاء): هناك خبر في التلمود عن طائفة من اليهود المنشقين يطلق عليهم أتباع ملكي صدق، يترددون على حبرون (الخليل) لعبادة جسد (أم روح؟) آدم المدفون في مغارة مكفيلة. لئن صح أن اتباع ملكي صدق أولاء كانوا يعبدون آدم، فلا بد أنهم كانوا يماهون بين ملكية ملكي صدق وشخصية آدم حقيقي. إذ يبدو أن آدم «ويعني الأحمر» كان وسيط الوحي الأصلي لمكفيلة؛ ومن المرجح أن كالب إنما شاور ظله وليس ظل إبراهيم، إلا إذا كان آدم وإبراهيم اسمين لشخص واحد. لقد أشار الياس لفيتا، المفسر العبري في القرن الخامس عشر إلى أن الترافيم (الأصنام) التي سرقتها راحيل من أبيها لابان كانت رؤوساً محنطة، وأن رأس آدم كان من بينها. إذا صح زعمه هذا، فإن رواية سفر التكوين يمكن تفسيرها على أنها تعني انتزاع البنياميين أتباع شاؤول معبد حبرون (الخليل) من الكالبيين.

وكانت كالب قبيلة أدومية، الامر الذي يمكن أن يربط بين أدوم وآدم: انهما كلمة واحدة: «أحمر». ولكن، إذا كان آدم أدومياً بحق، فبوسعنا أن نتصور أن رأس عيسو، جد الأدوميين، دُفن أيضاً في حبرون؛ وهذا ما جاء ذكره في التلمود (الإلاهة البيضاء، ص 160 ــ 161).

موت يوسف

أقام يوسف في مصر، هو وبيت أبيه. وعاش مئة وعشرين سنة، ورأى لأفرايم أولاد الجيل الثالث. وقبل أن يموت قال لإخوته: «أنا أموت، لكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحاق ويعقوب.» وحنطوه ووضع في تابوت حجري في مصر على ضفة نهر صبور. ثم أعلن الحداد في مصر سبعين يوماً.

وما لبثت المنية أن اخترمت حياة الفرعون. وحكم خَلَفُه بلا نائب، وحين رأى أن الإسرائيليين يتكاثرون أسرع من المصريين، قال: «يا له من شعب خطر! إذا غزيت مصر من الشرق، أخشىٰ أن يغتنموا الفرصة ويكونوا في عون الأعداء.» فاستعبد المصريون بني إسرائيل بمن فيهم أبناء يوسف، وجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم، وأجبروهم على بناء مدنيتي فيثوم ورعمسيس بالسخرة. ودامت عبوديتهم عدة أجيال، إلى أن انتفض موسى وخرج بإسرائيل من مصر إلى الأرض الموعودة، حاملاً معه عظام يوسف، تنفيذاً لوصية جده الأعلى لاوي، ودفنها في شكيم.

• • •

نهر صبور هو مخاضة مصر(حالياً وادي العريش). أي أن تابوت يوسف الحجري وضع في أقرب مكان من الحدود الكنعانية.

ويفهم من أساطير سفر التكوين أن ديانة إسرائيل المبكرة كانت توفق بين عبادة السلف وعبادة إله الحرب والخصب عند القبائل الآرامية، التي لا تختلف كثيراً عن عبادة المؤآبيين والعمونيين. وكانت سلطته [أي إسرائيل] نافذة فقط في المنطقة التي يحتلها شعبه. وهكذا، فإن نعمان السوري استورد مؤخراً حملي بغل من التراب الأفرايمي لكي يعبد إله إسرائيل في دمشق (سفر الملوك الثاني 5: 17). ولم يرد ذكر لأية إلاهة، وفي فصول أسطورة يوسف، تم التعبير عنه [الله] بالفكرة التوحيدية الأخناتونية عن إله عالمي كلي القدرة.

وكان المعزون حين يصلون أرض الدفن يخلعون أحذيتهم (سفر حزقيال 24: 17)، قبل زيارة الأضرحة المقدسة. وأرواح الموتى لا تهجع، بل يُعتقد أنها

كانت تمتلك القدرة في التأثير على الآخرين. ويمكن استشارتها عن طريق العرافة (انظر سفر صموئيل الأول 28: 8 ــ 19). وكانت تدعى «العرافة»، لأنها كانت تعرف فعال ومصائر خلفها. ومن هنا فإن راحيل تبكي في القبر على أبنائها المحونين (سفر أرميا 31: 15). وكان الموتى بمثابة آلهة العالم السفلي، أو إيلوهيم (سفر صموئيل الأول 28: 13 ــ 20).

وما لم يُلْحد الميت بين أسلافه، فسيطرد إلى ركن مجهول من الشيول (العالم السفلي)، ويحرم من المباركة الدينية. وكان العالم السفلي يعتبر خارج نطاق اهتمام الله (مزامير 88: 5 ــ 6؛ أشعياء 38: 18). وينبغي أن يبقى الجسم سليماً وكاملاً، ذلك أن الروح تحمل إلى الأبد علامات الموت، أكانت آثار سيف (حزقيال 32: 23)، أو حزناً، مثلما خشي يعقوب أن ينزلوا «شيبته بحزن إلى الهاوية» (سفر التكوين 42: 38).

ولم ترد الإشارة إلى بسط نفوذ الله على العالم السفلي أيضاً إلا في حدود القرن الخامس ق.م. (سفر أيوب 26: 6؛ المزامير 139: 8؛ الأمثال 15: 11)؛ كما لم يرد ذكر نشور الروح إلا بعد ذلك التأريخ بقرن. وهكذا أصبحت شيول (العالم السفلي) بمثابة مطهر تنتظر فيه الأرواح الحكم الأخير. وما يزال اليهود السلفيون والكاثوليك يعتقدون بذلك.

• • •

عند هذا الحد ينتهي كتاب (الأساطير العبرية) لروبرت غريفز ورافائيل باتاي، إيماناً من المؤلفين بأن ما يلي هذه المرحلة إنما يرقى إلى أنصاف أو أشباه الأساطير، كما هو الحال مع «حرب أبناء النور وأبناء الظلام» الواردة في (أوراق البحر الميت) المكتشفة في الأردن.

بيد أننا نرى أن ما يلي ذلك ينطوي أيضاً على الكثير من المظاهر الأسطورية والفانتازية والحوادث والأفعال التي تتعارض والنواميس الطبيعية. وسنحاول، في الصفحات التالية، التطرق إلى بعض هذه الجوانب، مقتصرين على ذكر أخبار «المعجزات» و «الرؤى»، والأحلام، انسجاماً مع روح الكتاب.

مــــوسى

جاء في التوراة أن جميع النفوس الخارجين من صلب يعقوب الذين جاءوا إلى مصر كانوا سبعين نفساً. ثم توالدوا ونموا وامتلأت الأرض منهم. ولما رأى ملك مصر أن خطر العبريين قد تعاظم جراء تكاثرهم، فكر في حيلة لوضع حد لهذا التكاثر. «وكلم ملك مصر قابلتي العبرانيات اللتين اسم إحداها فُوعة. وقال: حينما تولّدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي، إن كان ابناً فاقتلاه، وإن كان بنتاً فتحيا» (سفر الخـروج 1: 15 ـــ 16). لكن القابلتين لم تنفذا أمر الملك، بدعوى أن النساء العبرانيات قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة. «ثم أمر فرعون جميع شعبه، قائلاً: كل ابنٍ يولد تطرحونه في النهر؛ لكن كل بنت تستحيونها.».

وتزوج رجل من بيت لاوي[129] امرأة لاوية، فحبلت وولدت ابناً. وفي الإصحاح السادس من سفر الخروج أن هذا الرجل يدعى (عِمرام)، وزوجته تدعى (يوكابَد)، وهي عمته بالأصل: «وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى.» (سفر الخروج 16: 19 ـــ 20) وبعد أن ولد موسى، خبأته أمه ثلاثة أشهر، ثم أخذت له سفطاً من البردي وطلته بالزفت، ووضعت الولد فيه وتركته بين الحلفاء على حافة النهر. ووقفت اخته من بعيد ترقبه. فنزلت ابنة الفرعون إلى النهر لتغتسل، مع جارياتها، وحين رأت السفط بين الحلفاء أرسلت جاريتها لتأتي به إليها. ولما فتحته رأت الولد يبكي. فرقّت له رغم أنها علمت أنه من أولاد العبرانيين. وتطوعت اخته بأن تدعو لها مرضعة من العبرانيات، فوافقت ابنة الفرعون. ولما كبر الولد جاءت به مرضعته إلى ابنة الفرعون، فصار لها ابناً، ودعت اسمه موسى، وقالت أني انتشلته من الماء.

وبعد أن شب موسى عن الطوق، هرب إلى أرض مديان، لأنه انتصر لواحد من بني قومه العبرانيين، كان مصري يضربه، فقتل المصري وخلصه منه.

وفي التوراة إشارة إلى أن موسى كان «ثقيل الفم واللسان» (خـروج 4: 10). وقد استند إليها كل من أنكر يهودية أو عبرية موسى وقال بمصريته،

(129) لاوي هو احد ابناء يعقوب.

مثل سيغموند فرويد. وفي حوار بين الله وموسى، وعده الله بأن يكون معه ومع هارون أخيه، قائلاً: «وأنا أكون مع فمك، ومع فمه؛ وأنت تكون له إلهاً. وتأخذ في يدك هذه العصا التي تصنع بها الآيات.» (خروج 4: 15 ــ 17) وهناك آيات صريحة في التوراة ينعت فيها موسى بأنه إله، مثل: «فقال الرب لموسى انظر. أنا جعلتك إلهاً لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيك» (خروج 7: 1). ولعل ذلك على غرار ملوك وسادة ذلك الزمن الذين كانوا يجمعون الصفتين الإلهية والبشرية.

ثم عاد موسى إلى مصر بعد أن مات جميع القوم الذين كانوا يطلبونه، حاملاً معه عصا الله. وقال الله لموسى: اذهب إلى فرعون وقف للقائه على حافة النهر، وخذ العصا بيدك، وقل له: «الرب إله العبرانيين أرسلني إليك قائلاً اطلق شعبي ليعبدوني في البرية... ها أنا أضرب بالعصا التي في يدي على الماء الذي في النهر، فيتحول دماً. ويموت السمك الذي في النهر وينتن النهر.» واستحال ماء النهر دماً، ومات السمك. إلا أن فرعون أبى أن يستجيب لموسى وهارون.

وتتكرر القصة ثانية، ولكن النهر يفيض هذه المرة ضفادع، فتزحف إلى اليابسة وتغطي أرض مصر. فيدعو فرعون موسى وهارون أن يصليا إلى الرب ليرفع الضفادع عنه وعن شعبه. لكن قلب فرعون لا يفتأ أن يغلظ مرة أخرى، بعد انحسار أسراب الضفادع.

ثم قال الرب لموسى: «قل لهارون مد عصاك واضرب تراب الأرض ليصير بعوضاً في جميع أرض مصر. ففعلا كذلك. فصار البعوض على الناس وعلى البهائم. كل تراب الأرض صار بعوضاً في جميع أرض مصر. وفعل كذلك العرّافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا. وقال العرافون لفرعون هذا إصبع الله. لكن قلب فرعون اشتد ولم يستجب لموسى وهارون. وبعد ذلك أرسل موسى على فرعون وعبيده وشعبه الذباب، من دون الأرض التي يقيم فيها الإسرائيليون.

ثم يرجوه فرعون بأن يصلي لربه لرفع الذباب، فيبتعد الذباب عن فرعون وعبيده وشعبه. لكن قلبه لا تفتأ أن يقسو من جديد. وتتكرر الحكاية، هذه المرة، مع الجراد، الذي يغطي أرض مصر، وتظلم الدنيا بأسرابه، ويأتي على كل أخضر. وحين يطلب فرعون منِ موسى وهارون التماس الرب إلههما بأن يصفح عن خطيئته، يرد الرب ريحاً غربية شديدة جداً تحمل الجراد وتطرحه إلى بحر سُوف. لكن الرب يشدد قلب فرعون من جديد.

«ثم قال الرب لموسى مُدَّ يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر،

حتى يلمس الظلام. فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه ولا قام من مكانه ثلاثة أيام. ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم.» (سفر الخروج 10: 21 ــ 23).

ويختلف موسى وفرعون بشأن قطعان الغنم والبقر التي يملكها العبرانيون: ففرعون لا يأذن بأخذها معهم عند خروجهم من مصر. لكن الرب يقرر بعد ذلك أن يضرب ضربته الأخيرة ليجبر فرعون مصر على الإذعان لخروج العبرانيين. قال الرب: «إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر. فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التي خلف الرحى، وكل بكر بهيمة...» ويكون جميع بني إسرائيل بمنجى من هذه المحنة. «لكي تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل». وطلب من الإسرائيليين أن يذبح كل جمهور منهم شاة، ويأخذوا من دمائها ويعلّموا بها بيوتهم، ليعبر الله عن بيوتهم حين يمر في أرض مصر. وفي نصف الليل ضرب الرب كل بكر في أرض مصر، من بكر فرعون، إلى بكر الأسير الذي في السجن، إلى بكر البهيمة. وكان صراخ عظيم في مصر. ودعا الله موسى وهارون ليلاً، وقال: « قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل جميعاً.» فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر، ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم. ورحلوا بعد أن سلبوا المصريين.

«وكان الرب يسير أمامهم، نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم. لكي يمشوا نهاراً وليلاً. لم يبرح عمود السحاب نهاراً، وعمود النار ليلاً، من أمام الشعب» (خروج 13: 20 ــ 22).

«فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب، تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب. فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا. فشد مركبته وأخذ قومه معه. وأخذ ست مئة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر، وجنوداً مركبية على جميعها. وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بني إسرائيل؛ وبنو إسرائيل خارجون بيد رفيعة. فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم.

«فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم. ففزعوا جداً، وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب، وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر، أخذتنا لنموت في البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ أليس هذا الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كُف عنا فنخدم المصريين؛ لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية. فقال موسى: لا تخافوا؛ قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم. فإنه كما رأيتم المصريين اليوم،

لا تعودون ترونهم أيضاً إلى الأبد. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون». (سفر الخروج 14: 10 ــ 14).

وأمر الرب موسى أن يرفع عصاه ويمد يده على البحر ليشقه. ودخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة. وشدد الرب قلوب المصريين ليتبعوهم. وينتقل عمود السحاب من أمام الإسرائيليين إلى ورائهم ليكون بين عسكرهم وعسكر المصريين. وأوغل الإسرائيليون في وسط البحر على اليابسة بعد أن انشق الماء عنها وصار سوراً لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون، جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه. وجاء في مدراش ميخليتا أن الرب اتخذ هنا هيئة فرس أغرت خيول المصريين المستثارة، واستدرجتها إلى البحر، مثل الإلاهة اليونانية ديميتر التي كان لها رأس مهرة، حين أغرقت عربة الملك بيلوبس Pelops في نهر الفيوس بعد أن استدرجت خيولها أيضاً. ولعل هذه الرواية المدراشية مستوحاة أيضاً من نشيد الإنشاد: «لقد شبهتك يا حبيبتي بفرس في مركبات فرعون» (1: 9).

وفي هزيع الصبح أشرف الرب على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب، وأزعج عسكر المصريين، وخلع عجلات مركباتهم، فساقوها بصعوبة. وحين أدرك المصريون أن الرب يحارب إلى جانب الإسرائيليين همّوا بأن يلوذوا بالهرب، إلا أن الرب أوعز لموسى بأن يمد يده على البحر ليرجع الماء على المصريين، فغمرهم هم ومركباتهم، وأتى عليهم أجمعين. أما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم.

حينئذ ترنم موسى وبنو إسرائيل بهذه التسبيحة للرب: «... الرب قوتي ونشيدي. الرب رجل الحرب... مركبات فرعون وجيشه ألقاهما في البحر... نفخت بريحك فغطاهم البحر... من مثلك بين الآلهة يا رب... صانعاً عجائب. تمد يمينك فتبتلعهم الأرض... يسمع الشعوب فيرتعدون. تأخذ الرعدة سكان فلسطين. حينئذ يندهش أمراء أدوم؛ أقوياء موآب تأخذهم الرجفة؛ يذوب جميع سكان كنعان... بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر. حتى يعبر شعبك يا رب. حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته تجيء بهم وتغرسهم في جبل ميراثك...».

ثم ارتحل موسى بإسرائيل من البحر الأحمر إلى البرية. ساروا ثلاثة أيام ولم يجدوا ماء. ونزلوا في (مارّة)، ولم يقدروا أن يشربوا من مائها لأنه مُرّ. لذلك دعي اسمها مارّة. فتذمر الشعب على موسى، فأراه الرب شجرة، طرحها موسى في الماء فصار عذباً. وفي (إيليم) وجدوا اثنتي عشرة عين ماء وسبعين نخلة، بالتمام

والكمال. ومن إيليم ارتحلوا إلى برية سين التي تقع بين إيليم وسيناء. وعصف بهم الحنين هنا إلى قدور اللحم والخبز، فأعلنوا عن تذمرهم مرة أخرى. وقال الرب لموسى «ها أنا أمطر لكم خبزاً من السماء، فيخرج الشعب ويلتقطون حاجة اليوم بيومها».

وفي الصباح كان سقيط الندى حول بني إسرائيل. ولما ارتفع سقيط الندى، إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور، كالجليد على الأرض. كان ذلك هو المنّ الذي منَّ به الله على بني إسرائيل[130]. واقتاتوا على هذا المن أربعين عاماً.

كانوا يرتحلون ويقيمون بإيعاز من الرب. وكلما أناخوا ظللتهم سحابة، وفي الليل منظر ناري ينير لهم الخيمة. وإذا تمادت السحابة على (الخيمة) أياماً، لبد بنو إسرائيل في مكانهم لا يريمون.

وفي السنة الثانية ارتفعت السحابة عن مسكن الشهادة، فارتحل بنو إسرائيل من برية سيناء، وحلّوا في فاران عندما توقفت السحابة هناك. ثم واصلوا مسيرتهم بعد أن تحركت السحابة من جديد. واشتد بهم الحنين مرة أخرى إلى اللحم والسمك والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم. لقد عافت أنفسهم المنّ يأكلونه ليل نهار. «كان الشعب يطوفون ليلتقطوه، ثم يطحنونه بالرحى، أو يدقونه بالهاون، ويطبخونه في القدور. وكان طعمه كطعم قطائف بزيت» (سفر العدد 11: 8). وعندما نقل موسى للرب شهية شعبه للحم، وعده ربه بأن سيوفر لهم لحماً يأكلونه شهراً من الزمان، حتى يخرج من مناخيرهم ويمجوه. لكن موسى عجب كيف يمكن تدبير قطعان من الغنم والبقر لست مئة ألف نسمة. «أم يُجمع لهم كل سمك البحر ليكفيهم؟».

عند ذاك خرجت ريح من عند الرب، وساقت طيور السلوى من البحر وألقتها حواليهم مكدسة زهاء ذراعين فوق وجه الأرض، على مدى دائرة نصف قطرها مسيرة يوم: (في التوراة: «فخرجت ريح من قبل الرب، وساقت سلوى من البحر، وألقتها على المحلة نحو مسيرة يوم من هنا، ومسيرة يوم من هناك، حوالي المحلة، ونحو ذراعين فوق وجه الأرض») (سفر العدد 11: 31). وظل الشعب يجمع السلوى طوال يومين. لكن الرب لم ينس انهيارهم وتهافتهم، فضرب فيهم

(130) المنّ: مادة تنعقد على بعض الأشجار، كالطرفاء وغيرها، وتجف جفاف الصمغ، وطعمها يميل إلى حلاوة؛ وهي سهلة الهضم.

ضربته القوية ولحم السلوى ما يزال بين أسنانهم. فهلك منهم نفر كبير، ودُعي اسم ذلك الموضع قَبَروت هتَّأوة، لأنهم دفنوا فيه القوم الذين ضعفت نفوسهم أمام الطعام.

ثم كلم الرب موسى قائلًا: «أرسل رجالًا ليتجسسوا أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل؛ رجلًا واحداً لكل سبط من آبائه ترسلون»، أي اثني عشر جاسوساً. وطلب منهم موسى أن يتبينوا طبيعة الأرض، أجيدة أم ردية؛ والمدن، أمخيمات أم حصون؛ والشعب، أقوي أم ضعيف؟ فصعد الجواسيس إلى الجنوب، وأشرفوا على حبرون (الخليل) التي كان يسكنها بنو عناق. ومن هناك قطعوا غصن كرم بعنقود واحد من العنب، حملوه مع شيء من الرمان والتين. فدعي ذلك الموضع وادي أشكول، بسبب العنقود الذي قطعه بنو إسرائيل من هناك. وعادوا إلى موسى بعد أربعين يوماً. وأخبروه بأن الأرض التي أرسلهم ليتحروا عنها تفيض لبناً وعسلاً، وهذا ثمرها. «غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز، والمدن حصينة عظيمة جداً. وأيضاً قد رأينا بني عناق هناك. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب، والحثيون، واليبوسيون، والأموريون، ساكنون في الجبل، والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن... وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة. وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة. فكنا في أعيننا كالجراد، وهكذا كنا في أعينهم» (سفر العدد 13: 28 ـــ 33).

وكان ما كان من بكاء شعب موسى وخوفهم من مناجزة هذه الأقوام. «وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل، وقال لهما كل الجماعة: ليتنا متنا في أرض مصر، أو ليتنا متنا في هذا القفر» فسقط موسى وهارون على وجهيهما. إلا أن يشوع بن نون، وكالب بن يَفُنَّة اللذين كانا من بين من تجسسوا أرض كنعان، مزقا ثيابهما احتجاجاً على جبن بني إسرائيل، وخاطبا الشعب قائلين: «لا تتمردوا على الرب، ولا تخافوا من شعب الأرض، لأنهم خبزنا. وقد زال عنهم ظلهم، والرب معنا. لا تخافوهم.» (العدد 14: 2 ـــ 9).

لكن الشعب طالب بأن يرجما بالحجارة. إلا أن الرب قال لموسى: «حتى متى يهينني هذا الشعب. وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم. إني أضربهم بالوباء وأبيدهم.» إلا أن موسى راح يناقش الرب بما مفاده أن المصريين حين يسمعون بذلك سيشمتون ويقولون لسكان هذه الأرض الذين سمعوا بأن الرب آزر هذا الشعب ونصره، وظهر لهم عيناً لعين، ووقفت سحابته عليهم، وسار أمامهم بعمود سحاب نهاراً، وبعمود نار ليلاً،

ستقول الشعوب: «لأن الرب لم يقدر أن يُدخل هذا الشعب إلى الأرض التي حلف لهم، قتلهم في القفر.» ثم أردف موسى مخاطباً الرب في قوله: «الرب طويل الروح، كثير الإحسان، يغير الذنب والسيئة، لكنه لا يبرىء، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء، إلى الجيل الثالث والرابع. اصفح عن ذنب هذا الشعب...» فقال الرب: «قد صفحت حسب قولك... وأما عبدي كالب فمن أجل أنه كانت معه روح أخرى، وقد اتبعني تماماً، أُدخله إلى الأرض التي ذهب إليها، وزرعه يرثها» (سفر العدد 14: 1 ــ 25).

لكن الرب قضى بأن يتيه بنو إسرائيل أربعين سنة، على عدد الأيام التي تجسسوا فيها، قصاصاً لهم على ترددهم وجبنهم، لأنهم خالفوا كلمته في دخول أرض كنعان، كما تقول التوراة. ومات جيل الجبناء، بمن فيهم الجواسيس، باستثناء يشوع بن نون وكالب بن يفنّة.

ومع هذا، فإن فئة من بني إسرائيل ــ قورح وداثان وأبيرام وأتباعهم ــ أبت أيضاً أن تأتمر بأوامر موسى وهارون، فانشقت الأرض التي تحتهم، وفتحت فاها وابتلعتهم هم وبيوتهم وأموالهم وكل ما كان معهم. وكل إسرائيل الذي كانوا حولهم هربوا من صوتهم.

ثم إن جماعة من بني إسرائيل تذمرت من جديد على موسى وهارون، لانهما تسببا في قتل هذا الشعب. فكلم الرب موسى قائلاً: «اطلعا من وسط هذه الجماعة فإني أفنيهم بلحظة.» فمات من الوباء أربعة عشر ألفاً وسبع مئة.

وكلم الرب موسى أن يأخذ من بني إسرائيل عصا من كل رئيس من رؤسائهم، حسب بيوت آبائهم، أي اثنتي عشرة عصا، ويكتب اسم كل واحد على عصاه، ويكتب اسم هارون على عصا لاوي (لأن موسى وهارون من سلالة لاوي). ووضعت العصي في خيمة الاجتماع. «فالرجل الذي اختارُه تفرخ عصاه، فأسكّن عني تذمرات بني إسرائيل التي يتذمرونها عليكما.» (سفر العدد 17: 5).

ووضع موسى العصي في خيمة الشهادة. وفي الغد وجد عصا هارون قد برعمت وازهرت زهراً، وأنضجت لوزاً. فكان ذلك دليلاً على تزكية هارون وموسى من لدن الرب، ليكف بنو إسرائيل عن تذمرهم. بيد أن بني إسرائيل لم يلبثوا أن رفعوا شكواهم من جديد. فقد حل العطش بهم وبمواشيهم، فخاصموا موسى وكلموه قائلين: «لماذا أتيتما بجماعة الرب إلى هذه البرية، لكي نموت فيها نحن ومواشينا؟» فتقدم موسى وهارون نحو باب خيمة الاجتماع، وسقطا على

وجهيهما. وكلم الرب موسى قائلاً: «خذ العصا واجمع الجماعة، أنت وهارون أخوك، وكلما الصخرة أمام أعينهم أن تعطي ماءها؛ فتخرج لهم ماء من الصخرة.» ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين، فتفجر ماء غزير، شربت منه الجماعة هي ومواشيها.

وفي جبل هور مات هارون، وحل محله ابنه العازار. ولما سمع الكنعاني ملك عراد، الساكن في الجنوب، أن الإسرائيليين قادمون باتجاه أرضه، حاربهم وسبى منهم الكثير. فدار الإسرائيليون بأرض أدوم، وضاقت نفسهم، وتذمروا من جديد من موسى، وخاطبوه وخاطبوا الله قائلين: «لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية، لأنه لا خبز ولا ماء؛ وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف.» فأرسل الرب على الشعب الحيّات السامة، فلدغت الشعب، ومات منهم قوم كثير.

وبعد أن اعتذروا لموسى، صلى للرب ليرفع عنهم الحيات، فقال الرب لموسى: «إصنعْ لك حية محرقة، وضعها على راية، فكل من لُدغ ونظر إليها يحيا.» فصنع موسى حية من نحاس، ووضعها على الراية، فكان من لدغت حية إنساناً، ونظر إلى حية النحاس يحيا.

وارتحل بنو إسرائيل، ونزلوا في عربات موآب من عبر أردن أريحا. وكان (بالاق بن صفور) ملكاً للموآبيين في ذلك الزمان. فأرسل إلى (بلعام بن يعور) من يخبره بأن يقف معه بوجه بني إسرائيل. فقال بلعام للرسل: «بيتوا هنا الليلة فأرد عليكم جواباً كما يكلمني الرب.» فأتى الله إلى بلعام وقال: «من هم هؤلاء الرجال الذين عندك؟» قال بلعام لله: «بالاق بن صفور ملك موآب قد أرسل إليّ يقول: هو ذا الشعب الخارج قد غشى وجه الأرض. تعال الآن العن لي إياه، ولعلي أقدر أن أحاربه وأطرده». فقال الله لبلعام: «لا تذهب معهم، ولا تلعن الشعب لأنه مبارك.» إلا أن بالاق بن صفور عاد فطلب من بلعام مؤازرته. وحين استشار بلعام الرب في هذا الأمر، قال له الله: «إن أتى الرجال ليدعوك، فقم اذهب معهم. إنما تعمل الأمر الذي أكلمك به فقط.» فشد بلعام على أتانه صباحاً وانطلق إلى رؤساء موآب.

فحمي غضب الله، ووقف ملاك الرب في طريق بلعام الذي كان ممتطياً أتانه، وغلاماه معه. وحين أبصرت الأتان ملاك الرب واقفاً في الطريق، وسيفه مسلول في يده، حادت عن الطريق، وتابعت سيرها في الحقل. فضرب بلعام الأتان ليردها إلى الطريق، إلا أن ملاك الرب وقف في خندق للكروم له حائط من هنا وحائط من هناك. ولما أبصرت الأتان ملاك الرب زحمت الحائط، وضغطت بلعام

به، فضربها أيضاً. ثم اجتاز ملاك الرب أيضـاً، ووقف في مكان ضيق حيث لا سبيل للمضي يميناً أو شمالاً. فلما أبصرت الأتان ملاك الرب ربضت تحت بلعام. إلا أن سيدها غضب عليها وضربها بالقضيب. ففتح الرب فم الأتان، وقالت لبلعام.: «ألست أنا أتانك التي ركبتَ عليها منذ وجودك إلى هذا اليوم. هل تعودت أن أفعل بك هكذا؟» فقال: «لا.».

ويبدو أن الأتان، وحدها، كانت تبصر ملاك الرب، حتى الآن، وبلعام المسكين لم يحظ بهذا الامتياز. ثم كشف الرب عن عيني بلعام، فأبصر ملاك الرب واقفاً في الطريق وسيفه مسلول بيده؛ فخرّ ساجـداً على وجهه. فقال له الملاك: «اذهب مع الرجال، وإنما تتكلم بالكلام الذي أكلمك به فقط.» فانطلق بلعام مع رؤساء بالاق إلى مدينة موآب، وهناك مثل أمام بالاق. وذهبا إلى قرية حصوت، ثم إلى مرتفعات بعل، فرأى من هناك أقصى الشعب. لكنه لم يلعن شعب إسرائيل. فأخذه بالاق إلى مكان آخر، وهناك أيضاً كلم الرب بلعام بما هو في صالح إسرائيل: «هو ذا شعب يقوم كلبوة، ويرتفع كأسد. لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى» (سفر العدد 23: 24). ثم أخذه بالاق إلى مكان آخر، عسى أن يلعن شعب إسرائيل؛ وهنا أيضاً نطق وحي الله في سمع بلعام، وقال عن إسرائيل: «الله أخرجه من مصر. له مثل سرعة الرئم. يأكل أمماً مضايقيه، ويقضم عظامهم، ويحطم سهامه... مبارك مباركك، ولاعنك ملعون» (سفر العدد 24: 8 ـــ 9). فاشتعل غضب بالاق وطرد بلعام.

ثم أوحى الرب لبلعام بأنه سيبرز كوكب من يعقوب، ويقوم قضيب من إسرائيل، فيحطم طرفي موآب، ويجعل أدوماً وسعيراً ميراثاً، ويشد من أزر إسرائيل، فيتسلط على الآخرين، ويهلك الشارد والوارد. ونطق الوحي بمثل ذلك في حق عماليق، والقينيين.

ولما أقام بنو إسرائيل في شطيم، ابتدأوا يزنون مع بنات موآب، فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن، فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن. وتعلق بنو إسرائيل بالإله بعل في (فغور) المديانية. فكلم الرب موسى قائلاً: «ضايقوا المديانيين واضربوهم، والحقوهم بقومك.» فاختير من ألوف إسرائيل ألف من كل سبط، أي اثنا عشر ألفاً. فتجندوا على مديان، كما أمر الرب، وقتلوا كل ذكر، ملوكاً ومواطنين، بمن فيهم بلعام بن يعور صاحب الأتان الناطقة. وأمر موسى وكلاء الجيش قائلاً: «والآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها.» (سفر العدد 31: 17). وكلم الرب موسى قائلاً: «احصِ

النهب المسبي من الناس والبهائم... ونصِّف النهب بين الذين باشروا القتال، الخارجين إلى الحرب، وكل الجماعة. وارفع زكوة للرب، من رجال الحرب الخارجين إلى القتال واحدة. نفساً من كل خمس مئة من الناس، والبقر، والحمير، والغنم.» (عدد 31: 26 ــ 28).

وقال الرب لموسى أيضاً: «اوصِ بني إسرائيل، وقل لهم: إنكم داخلون إلى أرض كنعان. هذه هي الأرض التي تقع لكم نصيباً. أرض كنعان بتخومها.» (عدد 34: 1 ــ 2). فأمر موسى بني إسرائيل قائلاً هذه هي الأرض التي تقتسمونها بالقرعة. (عدد 34: 13).

وجاء في سفر التثنية: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً، فحاصرها. وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف؛ وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك؛ وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبق منها نسمة ما. بل تحرّمها تحريماً: الحثيين، والأموريين، والكنعانيين، والفرزيين، والحويين، واليبوسيين، كما أمرك الرب إلهك، لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم، فتخطئوا إلى الرب إلهكم»(سفر التثنية 20: 10 ــ 18).

وجاء أيضاً: «إذا خرجت لمحاربة أعدائك، ودفعهم الرب إلهك إلى يدك، وسبيت منهم سبياً، ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة، والتصقت بها، واتخذتها لك زوجة، فحين تُدخلها إلى بيتك، تحلق رأسها وتقلّم أظفارها، وتنزع ثياب سبيتها عنها، وتقعد في بيتك، وتبكي أباها وأمها شهراً من الزمان، ثم بعد ذلك تدخل عليها، وتتزوج بها، فتكون لك زوجة.» (تثنية 21: 10 ــ 13).

• • •

يرى البعض أن اسم موسى، وبالعبرية (موشيه)، يرجع إلى جذر (مش) الوارد في أكثر اللغات السامية بمعنى (غسل)، و (نظف). وفي العربية: مسَّ الشيء: مسحه. ومشّ يده: مسحها بشيء لإزالة دسمها. ومشّ الشيء: نقعه في الماء حتى يذوب. ويرى آخرون أن أصل الكلمة مصري: mesu أو mes، ومعناها: ابن، أو ولد.

وقصة انتشال موسى من النهر لها ما يوازيها في التراث الأسطوري للعديد من الشعوب. ولعل أقدمها حكاية سرجون الأكدي (2340 ــ 2284 ق.م.). جاء في نص ورد على لسان سرجون نفسه: «إن أمي كانت كاهنة. ولم أعرف أبي، وكان متجولاً، وأصلي من مدينة الزعفرانية على الفرات. وحملت بي أمي ووضعتني سراً، فأخفتني في سلة من الحلفاء مقيّرة وغطتها، ورمتني في الماء الذي لم يغرقني، وحملني الماء إلى (أكي) ساقي الماء، فانتشلني (أكي)، ورباني، واتخذني ولداً، وعينني بستانياً عنده. وبينما كنت أعمل بستانياً أحبتني عشتار، وتوليت الملوكية»(131).

كما أن ساربيدون البطل الأسطوري الإغريقي، واسمه يعني (صاحب السفينة الخشبية) كان يظهر في العام الجديد كطفل يطفو في سفينته. وعثر على بيرسيوس Perseus، وأنيوس Anius في زورق أيضاً.

ويتحدث روبرت غريفز في كتابه (الميثولوجيا الإغريقية) عن الرعاة الذين يخدمون أو يقدمون ولاء الطاعة للأطفال الأمراء الأسطوريين أو أنصاف الأسطوريين، مثل هيبوثوس Hippothous، وبلياس Pelias، وأمفيون Amphion، وإيجستوس Aegisthus، وروملوس، وكورش، وموسى، الذين كانوا يُتركون على جبل أو في قارب على الماء. ومن المحتمل أن أوديب Oedipus (القدم المتورمة)، كان بالأصل Oedipais (ابن البحر الفائض، أي المنتفخ)، وهو نفس المعنى الذي أُعطي لاسم البطل الويلزي المماثل ديلان Dylan؛ كما أن جرح قدم أوديب بمسمار يجيء في نهاية قصته، لا بدايتها، كما هو الحال في أسطورة طالس Talus(132).

وما تزال شخصية موسى يكتنفها الغموض من الناحية التاريخية. ويُظن أن قصة الخروج جرت أحداثها في أيام الفرعون رعمسيس الثاني (حكم في الفترة 1304 ــ 1237 ق.م.). ولم يعرف على وجه الدقة إن كان العبريون قد هربوا من مصر، أو أُذن لهم بمغادرتها. أما البحيرة التي أدركهم المصريون عندها، فهي بحيرة ينمو فيها البردي، وتدعى بحر القصب، وليس البحر الأحمر، كما جاء في التوراة. وما تزال قصة موت موسى ودفنه غير معروفة على نحو أكيد. ويعتقد المؤرخ الألماني مارتن نوت Martin Noth أن بداية الغزو العبري لأرض كنعان لم يقم بها شخص واحد، بل اضطلعت بها مجموعتان مختلفتان، وأنّ

---

(131) طه باقر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، الطبعة الثانية، بيروت 1970، ص 360.

(132) روبرت غريفز، ج 2، ص 13، الطبعة الانكليزية.

موسى شخصية غامضة من أصل موآبـي. على أن لأولبرايت Albright رأياًوسطاً حول قصة الخروج. فهو يعتقد أن جوهر القصة التوراتية التي يغطيها سفر الخروج (1: 8) وسفر التثنية (34: 12) مقبول من الناحية التأريخية، وهذا يشمل المرحلة منذ مولد موسى، حتى وفاته، أي قبل أخبار يشوع، التي سنأتي على ذكرها. (ينظر في هذا الموسوعة البريطانية، تحت اسم موسى).

على أننا نرى أن الحديث عن اجتراح المعجزات، بهذا الإلحاح، وبهذه الكثرة، إنما يؤكد شيئاً أساسياً، هو أن السحر كان لـمّا يزل له تأثيره البعيد في حياة الناس يومذاك؛ وهو امتداد لدور السحر في المجتمعات البشرية البدائية، يوم كان للساحر منزلة مقدسة في قبيلته. فمنذ أواخر العصر الحجري القديم كان الساحر يقوم بأعمال سحرية قبل اصطياد الطريـدة، عن طريق المـوسيقى والرقص حول صورة تشبه الطريدة. وكانت قوة تأثيره مستمدة من قدرته على التنكر والخداع. وكان الساحر بممارسته افعالاً غريبة يعتقد أنه يجسد فكرة خارجية لها مفعول خارق. وظل العرّافون والسحرة مصدر تأثير ميتافيزيقي على البشر في المجتمعات البدائية والمتخلفة.

وانسجاماً مع الذهنية المتخلفة السائدة يومذاك، التي تعزو الظواهر الطبيعية إلى قوى غامضة أو خارقة، بسبب جهل القوانين التي تحكمها، فقد نسبت التوراة مختلف الظواهر الطبيعية، كتزايد عدد الذباب، أو البعوض، او الضفادع، وانتشار أسراب الجراد، إلى موسى، لكي يقنع الفرعون بالسماح لبني إسرائيل في الخروج من مصر. ورغم ذلك كله، فإن الفرعون كان يرفض الاقتناع بكل هذه الآيات، لغير ما سبب واضح، مع أن «المعجزات» كانت تترى عليه الواحدة تلو الأخرى. وحَسْبُ هذا أن يكون مطعناً لمصداقية تلك الأحداث وتعاقبها في أمد قصير، على نحو ما جاء في التوراة.

أما قصة الظلام الدامس الذي عم كل أرض مصر ثلاثة أيام، حتى أن الأخ لم يكن بمقدوره أن يبصر أخاه، ولا قـام أحد من مكـانه، بـاستثناء بني إسرائيل الذين كان لهم نور في مساكنهم، فهي من الحكايات التي ترقى إلى الخرافة، أو أنها تستند إلى حدث واقعي جنح فيه الخيال كثيراً. فالظلام الذي يسود منطقة ما، في النهار، يكون إما ناجماً عن كسوف شمسي، وهذا لا يستغرق وقتاً طويلاً، أو هبوب عواصف صحراوية تحمل غباراً أحمر، أو عن تجمع أدخنة عند انفجار بركان. وهاتان الحالتان الأخيرتان قد يدوم أمدهما أياماً. ولعل حادث الظلام الدامس الذي دام ثلاثة أيام في مصر يذكرنا بالانفجار البركاني

الهائل الذي حدث في جزيرة سانتورين في بحر إيجة قبل حوالي 3400 عام، اي بين 1500 ــ 1450 ق.م.؛ وقد سبقت الإشارة إليه في موضع آخر من هذا الكتاب.

وأما قصة أتان بلعام الناطقة فلها ما يوازيها في التراث الأسطوري اليوناني. تقول الأسطورة أن دايونيسوس كان يشرب بغير اعتدال، فاعتلّت صحته: وشد رحاله إلى دودونا ليستشير وسيط الوحي هناك بهذا الشأن. وفي طريقه اعترضه مستنقع، فامتطى حماراً. ومكافأة للحمار وهبه القدرة على النطق.

وفي واقع الحال ان الديانة اليهودية جاءت امتداداً للديانة الوثنية الكنعانية التي توّجت إيل (الآله ـ الثور) كبيراً للآلهة. وفكرة كبير الآلهة كانت خطوة أولى نحو الديانة التوحيدية ؛ وقد أوجدها الأكديون لأول مرة في التاريخ عندما جعلوا من (آنو) ثم (مردوك) كبيراً لآلهتهم ، وهي إنعكاس للنظام الامبراطور الذي يخضع فيه ملوك الدول المفتوحة للامبراطور . وقصة العجل الذهبي الذي صنعه هارون أخو موسى لبني اسرائيل بعد ان طلبوا منه ان يصنع لهم « آلهة تسير أمامهم » ، تؤكد حقيقتين ، أولاهما ان عائلة موسى كانت وثنية تعبد العجل ، وثانيهما ان هذا العجل لم يكن سوى عجل البعل الذي وُلد له من العجلة بعد أن جامعها كما جاء في الأساطير الكنعانية . واتفاق اسم موسى مع اسم العجل الذي ولد لبعل يأتي دليلاً على ذلك . فعجل بعل يدعى (موث) أو (موس) ويلفظ موشيه moshe كما يقترح سايروس غوردون ، وهو نفس اسم موسى . أما لماذا ينبغي ان ينصرف الذهن إلى ان أصل اسم موسى من كلمة موشيه هذه الكنعانية ، بدلاً من اللاحقة المصرية mose ـ التي ترد في صيغ مركبة ـ مثل تحوتمس ، ورعموس ، واحمس ، الخ . فهو ان اسم موسى غير مركب مثل اسم عجل بعل ، كما يقول سايروس غوردون في كتابه (اوغاريت وكريت المينوية ، ص 23 ، طبعة نيويورك ، عام 1966) .

يشوع بن نون

اجتمع موسى بأبناء إسرائيل، وقال لهم إنه لا يستطيع الخروج والدخول بعد، وأن الرب قال له لا تعبر هذا الأردن. الرب هو الذي سيعبر قدّامه، وهو الذي سيبيد هذه الأمم ليرثهم. وسينتدب لهذه المهمة يشوع بن نون. وصعد موسى إلى جبل (نبو)، الذي قبالة أريحا، فأراه الرب جميع الأرض، وقال له: «هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك، ولكنك إلى هناك لا تعبر.» ومات موسى في أرض موآب، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. ثم كلم الرب يشوع بن نون خادم موسى، قائلاً: «الآن قم أعبر هذا الأردن، أنت وكل هذا الشعب، إلى الأرض التي أنا معطيها لهم، أي لبني إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته... من البرية ولبنان هذا، إلى النهر الكبير، نهر الفرات: جميع أرض الحثيين، وإلى البحر الكبير، نحو مغرب الشمس، يكون تخمكم. ولا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك... لا أهملك، ولا أتركك. تشدد، وتشجع... لأن الرب، إلهك، معك حيثما تذهب» (سفر يشوع 1: 1 ــ 9).

أرسل يشوع بن نون جاسوسين إلى أريحا. فدخلا بيت زانية تدعى راحاب، واضطجعا هناك. وعندما علم ملك أريحا بخبرهما، أرسل إلى راحاب بأن تُخرج الجاسوسين، إلا أنها خبأتهما. اعترفت بأنهما نزلا عندها، إلا أنهما خرجا في الظلام، ولا علم لها بهما. ثم نصحت الجاسوسين بأن يختبئا في الجبل. فتسللا من عندها بعد أن وعداها بأن لا يتعرض جيش إسرائيل بعائلتها.

وكلم الرب يشوع بأن ينتخب الشعب اثني عشر قائداً، رجلاً واحداً من كل سبط، ويحمل كل منهم حجراً على كتفه، حسب عدد القبائل الإسرائيلية. ووضع يشوع اثني عشر حجراً في وسط الأردن تحت موقف أرجل الكهنة حاملي تابوت العهد. وتزعم التوراة أنها كانت ما تزال موجودة في الأردن. وحين عبر الكهنة وشعب إسرائيل نهر الأردن يبس ماء النهر حول هذه الحجارة، وعبروا جميعاً دون أن يبتلوا بالماء، بقدرة الرب. وبعد العبور أوعز الرب ليشوع بأن يصنع سكاكين من صوّان (حجر صلب) ليختتن به بني إسرائيل. وهي عملية

مقتبسة من المصريين الذين كانوا يختنون ذكورهم بسكاكين من صوّان. وسبب ذلك أن الجيل الجديد من بني إسرائيل، بعد الخروج من مصر، لم يُتَح له الختان في برية سيناء.

وعند مشارف أريحا رأى يشوع رجلاً واقفاً قبالته وسيفه مسلول بيده. ولما سأله يشوع إن كان معهم أم عليهم، أجابه قائلاً: «أنا رئيس جند الرب». فخر يشوع على وجهه، وسجد، وقال له: «بماذا يكلم سيدي عبده؟» فقال رئيس جند الرب ليشوع: «اخلع نعلك من رجلك، لأن المكان الذي أنت واقف عليه مقدس». ففعل يشوع كذلك.

وكانت أريحا موصدة بوجه بني إسرائيل، محصنة بسور. فاجترح الرب خطة لتدميرها: يدور جميع رجال الحرب حول المدينة مرة واحدة. هكذا يفعلون ستة أيام. ويحمل سبعة كهنة أبواق الهتاف السبعة أمام تابوت العهد. وفي اليوم السابع يدورون حول المدينة سبع مرات، وينفخ الكهنة بأبواقهم؛ وفي أثناء ذلك يهتف جميع الشعب هتافاً واحداً عظيماً، فيتهاوى سور المدينة في مكانه. وإذْ انهدّ السور تحت تأثير هتاف الشعب ونفيخ الأبواق، اقتحم الشعب المدينة وغزوها. وأعملوا السيف بكل من في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، باستثناء الزانية راحاب التي أخفت الجاسوسين، وعائلتها. ثم أحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، عدا الذهب والفضة وآنية النحاس والحديد التي جُعلت في خزانة الرب. وحلف يشوع قائلاً: «ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة، أريحا.» وكان الرب مع يشوع. وكان خبره في جميع الأرض. (سفر يشوع: الإصحاح السادس).

ولما بلغ أدوني صادق ملك أورشليم أن يشوع استباح أريحا وعاي، وأن سكان جبعون صالحوا بني إسرائيل تملكه الفزع، لأن جبعون مدينة عظيمة، وكل رجالها جبابرة. فاجتمع بملوك الآموريين لمحاربة أهل جبعون الذين استنجدوا بيشوع. فأتى إليهم يشوع بغتة، وأربك الرب صفوفهم أمام إسرائيل، وضربهم ضربة عظيمة في جبعون. وبينما كان الأموريون هاربين من أمام إسرائيل رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء، فماتوا. والذين ماتوا بحجارة السماء هم أكثر من الذين قتلوا بسيوف بني إسرائيل. (سفر يشوع، الإصحاح العاشر).

وهنا كلم يشوع الرب، وقال أمام عيون إسرائيل: «يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي أيّلون.» فدامت الشمس، ووقف القمر، حتى انتقم الشعب من أعدائه (يشوع 10: 12 ــ 13). وفي سفر ياشر: «فوقفت الشمس في

كبد السماء، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل. ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده... لأن الرب حارب عن إسرائيل.» (يشوع 10: 13 ــ 14).

• • •

لنتصور أن سكان مدينة جبعون، شيوخاً، ونساءً، وأطفالاً، وشباباً، كانوا قد تنفسوا الصعداء عندما جنحت الشمس للمغيب، أملاً في أن يوفروا من أعمارهم بضع ساعات قبل أن تبطش بهم يد يشوع «المقدسة»، فإذا بالشمس تحرن في السماء بإيعاز من الغازي، وتقف في مكانها لا تريم، طوال الليل، ليتسنى للغازي أن يجهز على من تبقى من سكانها الذين لم يقترفوا ذنباً سوى أنهم وُلدوا في هذه المدينة.

وينبغي أن لا ننسى أن مجترحي هذه المعجزة كانوا يجهلون أن الأرض هي التي يجب أن تتوقف، لا الشمس، لأن شروق الشمس ومغيبها، وتعاقب الليل والنهار، إنما هو ناجم عن حركة الأرض حول نفسها، أي حول محورها، كما تقول مبادىء علم الفلك. وإذا علمنا أن سرعة دوران الأرض حول محورها ألف ميل في الساعة، لأدركنا أي دمار سيحل بالبشر وعمرانهم نتيجة توقف الأرض عن الدوران، إذا ما تلقت إيعازاً من أمثال يشوع.

ولكن من هو يشوع؟ الاسم بالعبرية هو يهو شوع، ويعني (يهوة المنقذ). ليس هناك مصدر تأريخي يؤكد وجود شخص يحمل مثل هذا الاسم. كما أن الفترة التي تغطيها أحداث يشوع دامت في الواقع بين 1500و1200 ق.م. وهي فترة طويلة لا ينهض بها أنسي واحد. وهناك من يعتقد أن يشوع لا يمثل شخصاً بعينه، بل عشيرة من قبيلة اللاويين المحبة للقتال. وفي الموسوعة البريطانية أن الحوادث الخارقة التي تعزى ليشوع في النصر الذي أحرزه الإسرائيليون عند احتلال أريحا، وحادثة إيقاف الشمس الخارقة للقوانين الطبيعية ترقى إلى أصول ميثولوجية سامية.

القضـــاة

بعد موت يشوع تولى يهوذا قياد بني إسرائيل. «وأخذ يهوذا غـزة وتخومها، وأشقلون وتخومها، وعقرون وتخومها. وكان الرب مع يهوذا، فملك الجبل» لكنه لم يتمكن من طرد سكان الوادي «لأن لهم مركبات حديد.» (سفر القضاة 1: 18 ــ 19).

ولم يعرف الجيل الذي جاء بعد يشوع، الرب، ولا النعمة التي أنعم بها عليهم، فعبدوا البعليم (جمع بعل). تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت. فحمي غضب الرب على إسرائيل، ودفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعوهم بـأيدي أعدائهم. وأقام الرب قضاة، ليخلصوهم من أيدي ناهبيهم. لكنهم لم يصغوا لقضاتهم، بل زنوا وراء آلهة أخرى، وسجدوا لها.

وكان بنو إسرائيل قد استقرّ بهم المقام بين الكنعانيين والحثيين والآموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. وتزاوجوا معهم، وعبـدوا آلهتهم. وفي عهد القضاة الذي امتد بين (1200 ــ 1020 ق.م.) ظهر بعض القـادة حكموا مجموعات من القبائل، اشتهر من بينهم جدعون، ويفتاح، ودبـورة النبية، وشمشون. وقد اقترنت سيرة بعض القضاة بالخرافة، والبعـض الآخر بالدهاء. فقد عرف عن جدعون أنه قسم جيشه عند محاربة المديانيين إلى ثلاث فرق، ووزع على جنده أبواقاً وجراراً، يحمل كل منهم بوقاً بيد، وجرة بيده الأخرى. ووضع في الجرار الفارغة مصابيح. ثم نفخوا في الأبواق، وكسروا الجرار التي بأيديهم، وصرخوا صرخة واحدة، وهجموا على المديانيين؛ فولوا هاربين.

شمشــون

نأتي مرة أخرى على بطل تلده امرأة عاقر. كان رجل من عشيرة الدانيين اسمه منوح، وامرأته عاقر. فتراءى ملاك الرب للمرأة وبشّرها بأنها ستحبل بولد «ولا يعلو موسى رأسَه، لأن الصبـي يكون نذيراً لله من البطن، وهو يبدأ يخلص إسرائيل من يد الفلسطينيين.» (قضاة 13: 5). ودُعي الولد شمشون، وهو اسم مشتق من (الشمس).

وعندما شب شمشون عن الطوق، تزوج امرأة فلستينية من بلدة (تمنة)، علق بها. «ولم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب، لأنه كان يطلب علّة على الفلسطينيين. وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلطين على إسرائيل.» (سفر القضاة 14: 4).

نزل شمشون بصحبة أبيه وأمه إلى كروم تمنة، وإذا بأسد يزمجر للقائه. فحلّ على شمشون روح الرب، وشق الأسد كشق الجدي بيده العزلاء، دون أن يخبر أباه وأمه بذلك (مع أنهما نزلا معه!) وزار المرأة، فحسنت في عينيـه. ولما رجع بعد أيام ليأخذها، مال لكي يرى رمّة الأسد، وإذا دَبْرٌ من النحل في جوف الأسد، مع عسل. فجنى منه على كفيه، وواصل سيره نحو أبيه وأمه، وهو يأكل. وأعطاهما، دون أن يخبرهما أنه اشتار العسل من جوف الأسد.

وبحضور ثلاثين من الفتيان الفلستينيين ــ في ولائم زواجه ــ طرح شمشون عليهم أحجيته مع الأسد، قائلاً: «إذا حللتموها في سبعة أيام الوليمة، وأصبتموها، أعطيكم ثلاثين قميصاً، وثلاثين حلة ثياب. وإن لم تقدروا أن تحلوها لي، تعطوني انتم ثلاثين قميصاً، وثلاثين حلة ثياب.» وكانت الأحجية: «من الآكل خرج أكل، ومن الجافي خرجت حلاوة.» وإذْ عجزوا عن حلها، رجوا زوجته في اليوم السابع أن تتملقه ليحل لها الأحجية وتخبرهم بها. ففعلت ذلك. وجاء الفتيان قبل انتهاء اليوم السابع، وقالوا له: «أي شيء أحلى من العسل، وما أجفى من الأسد؟» فقـال لهم: «لو لم تحرثـوا على عِجْلتي، لما وجدتم أحجيتي!» وحل روح الرب، فنزل إلى أشقلون ــ مدينة الفلستينيين ــ وقتل

منهم ثلاثين رجلاً، وأخذ سلبهم، وأعطى الثياب لمن حل الأحجية. وحمي غضبه، وانتقل إلى بيت أبيه، فصارت امرأته لصاحبه الذي كان يصاحبه.

لكنه في يوم من أيام الحصاد افتقدها. وحين قصد أباها بشأنها، قال له هذا: «إنك قد كرهتها فأعطيتها لصاحبك.» وأبدى استعداده لأن يعطيه اختها. إلا أن شمشون استشاط غضباً، وذهب إلى الحقول، وأمسك ثلاث مئة ابن آوى، وشدها ذنباً إلى ذنب، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط، ثم أضرم المشاعل وأطلق أبناء آوى بين زروع الفلستينيين، فأحرقها، وضربهم ساقاً على فخذ، ضرباً عظيماً.

فصعد الفلستينيون إلى حي الإسرائيليين في طلب شمشون. واضطر الإسرائيليون أن يكبلوا شمشون بحبل ويسلموه للفلستينيين، بالاتفاق معه. أوثقوه بحبلين جديدين، وأصعدوه إلى حيث خصومه. ولما اقترب منه الفلستينيون، حل عليه روح الرب، وصار الحبلان اللذان على ذراعية ككتان أحرق بالنار، فانحل الوثاق عن يديه. ووجد جلد حمار طرياً، فضرب به ألف رجل، وأرداهم قتلى.

ثم عطش عطشاً شديداً (فليس مزحة أن يصرع فرد أعزل، إلا من جلد حمار طري، ألف رجل!) ودعى الرب وقال: «إنك قد جعلت بيد عبدك هذا الخلاص العظيم، والآن أموت من العطش، وأسقط بيد الغُلْف [غير المختونين]» فشق الله الأرض، وتفجرت ماءً شرب منه، ورجعت روحه إليه.

ثم أحب شمشون امرأة فلستينية أخرى اسمها دليلة (كان قلبه لا يعلق إلا بالفلستينيات.) فطلب منها اقطاب قومها أن تتملقه لتعرف مكمن قوته. وبعد أن خدعها أكثر من مرة، استجاب أخيراً لرجائها، بعد أن تاقت نفسه للموت، قائلاً لها: «لم يعل موسى رأسي، لأني نذير الله من بطن أمي. فإن حُلقت تفارقني قوتي وأضعف، وأصير كأحد الناس.» ولما رات دليلة أنه أخبرها بالحقيقة دعت أقطاب الفلستينيين، وقالت لهم: «اصعدوا هذه المرة، فإنه قد كشف لي كل قلبه.» فصعد إليه الفلستينيون، وأنامته على ركبتيها، ودعت رجلاً، وحلقت خصل رأسه السبع، ففارقته قوته. وقالت له: «الفلستينيون عليك يا شمشون.» فانتبه من نومه. إلا أن قواه الخارقة قد خانته هذه المرة. وقلع الفلستينيون عينيه، ونزلوا به إلى غزة، موثقاً بسلاسل من نحاس.

إلا أن شعر رأسه بدأ ينبت من جديد في السجن. وأما أقطاب الفلستينيين فقد اجتمعوا ليحتفلوا بهذه المناسبة، وطلبوا شمشون ليلعب لهم. وأوقفوه بين

الأعمدة. فقال شمشون للغلام الماسك بيده: «دعني ألمس الأعمدة التي يقوم عليها البيت لاستند إليها.» وكان البيت يغص بالرجال والنساء، بينهم جميع أقطاب الفلستينيين، وعلى سطحه زهاء ثلاثة آلاف رجل وامرأة ليتسلوا بألعاب شمشون. فدعا شمشون الرب أن ينتقم نقمة واحدة عن عينيه من الفلستينيين. وقبض على العمودين المتوسطين بيمينه ويساره، وقال: «لتمت نفسي مع الفلستينيين.» وانحنى بقوة، فتهاوي البيت على الأقطاب وكل الشعب. فكان الموتى الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته. (سفر القضاة: الإصحاح الثالث عشر ـــ الإصحاح السادس عشر).

• • •

يبدو أن حكاية النحل في جثة الأسد مستوحاة من أيقونة قديمة، تظهر فيها امرأة عارية تتعابث مع أسد، وهناك نحلة تحوم فوق جثة أسد آخر. المرأة العارية ترمز لإلاهة الأسود اليونانية (سيرينة)، أو (هيباتو) الحثية، أو (عناة) الكنعانية، أو (هيرا). ورفيقها هو الملك المقدس، الذي كتب عليه أن يموت في منتصف الصيف في موسم برج الأسد، مع داود أيضاً، كما أنها تتواتر في الأساطير اليونانية، مع هرقل، وفيليوس، وسيزيكوس(133).

كما أن حكاية الشعر تذكرنا بمينوس ملك جزيرة كريت الذي كان أول ملك تمكن من السيطرة على البحر المتوسط، وتنظيفه من القراصنة. وعندما اغتال الأثينيون ابنه أندروغيوس، قرر الانتقام له. فأغار على (نيسا) التي كان يحكمها نيسوس المصري. وكان لنيسوس ابنة تدعى سكيلا. وكان ثمة برج في المدينة بناه أبولو، وفي قاعدته يوجد حجر موسيقي، عندما يرمى حصى عليه من فوق، تنبعث عنه موسيقى كعزف القيثارة، لأن أبولو كان قد وضع قيثارته ذات مرة هناك عندما كان يبني البرج. وكانت سكيلا تزجي معظم وقتها في أعلى البرج، تجترح الألحان بالحصى. وإلى هناك كانت تذهب عندما اندلعت الحرب بين مينوس وأبيها، لتراقب القتال.

وإذْ طال حصار نيسا، تسنّى لسكيلا أن تعرف أسماء كل المقاتلين الكريتيين. ووقعت في حب مينوس، بعد أن أغرمت بجماله وجمال ملابسه، وجواده الأبيض. وذات ليلة زحفت سكيلا إلى غرفة أبيها، وقطعت خصلة شعره الشهيرة التي يتوقف عليها عرشه وحياته؛ وأخذت منه مفاتيح بوابة المدينة،

---

(133) روبرت غريفز: الميثولوجيا اليونانية، ج 1، ص 280.

وفتحتها، ثم تسللت منها، متجهة شطر خيمة مينوس، وقدمت له خصلة الشعر مقابل حبه. فقال لها مينوس: «لتكن صفقة!» وفي الليلة نفسها، دخل المدينة وغزاها، ونام مع سكيلا، إلا أنه لم يأخذها معه إلى كريت، لأنه لم يتحمل جريمة قتل الأب. فمضت سكيلا في أثر سفينته سباحة، وتشبثت بكوثل السفينة. إلا أن روح أبيها نيسوس انقضت عليها بهيئة نسر بحري، فأفلتت سكيلا يديها من مؤخرة السفينة، رعباً، وغرقت. ثم طافت روحها كطائر[134].

وتتكرر هذ الأسطورة التي ترقى إلى أيام نهب مدينة كنوسوس عاصمة كريت سابقاً في 1400 ق.م. في قصة بتيريلاوس وكاماثو، وشمشون ودليلة في فلسطيا، وكوروي وبلاثنات وكوتشولين في إيرلندة، وليولو وبلوديويد في ويلز. وكلها تحوم حول موضوع الشعر. وهي ترمز إلى المنافسة بين الملك المقدس وخليفته لصالح إلاهة القمر التي تقص في منتصف الصيف شعر الملك وتخونه. وتكمن قوة الملك في شعره، لأنه يمثل الشمس، وخصلة الشعـر الطويلة بمثابة أشعة الشمس. وفي حالة شمشون، تقص دليلة شعره قبل مناداة الفلستينيين. أما بلاثنات الإيرلندية فتشد شعر كوروي بقائمة سرير قبل استدعاء حبيبها كوتشولين ليصرعه. وأما بلوديويد فتشد شعر ليولو في جذع شجرة قبل استدعاء غرنو[135].

ونقطة الضعف هذه، المتمثلة في الشعر هنا، تذكر بآخيل الذي كانت نقطة ضعفه في كعبه، وهي البقعة التي أمسكته منها امه عندما غطسته في نهر الجحيم ليكون بمأمن من الجراح.

ويشير روبرت غريفز ــ في كتابه الإلاهة البيضاء ــ إلى أن شمشون كان إله ــ شمس فلسطينياً انتُحل وحُشر في التراث الاسطوري الديني اليهودي في عهد القضاة، مستنداً بذلك إلى كونه أبـاعدي الزواج (exogamic)[135A]، وبالتالي ينتمي إلى مجتمع امومي، لأن زوجته دليلة ــ الفلستينية ــ بقيت مع قبيلتها بعد الزواج، في حين يتعين على الزوجة التي تنتمي إلى مجتمع ابوي، كالمجتمع اليهودي في ذلك العهد، الالتحاق بقبيلة زوجها[135B].

(134) المصدر السابق، ج 1، ص 308 ــ 309.
(135) المصدر السابق، ج 1، ص 308 و 310.
(135A) وهو نظام الزواج الذي يحتم على الرجل ان يتزوج امرأة من غير قبيلته.
(135B) الإلاهة البيضاء، ص 315.

داود

انتهى عهد القضاة بصموئيل النبـي الذي مسح شاؤول بالزيت ليكون ملكاً على إسرائيل. وعرف عن شاؤول أنه كان قاسياً شديد البأس غليظ القلب. إلا أن التوراة تظهر صموئيل النبـي أشد صرامة منه وقسوة في معـاملة الخصوم. فهو الذي نقل إلى شاؤول كلام الرب بضرب العماليق لأنهم وقفوا بوجه إسرائيل عند قدومهم من مصر، وأن لا يُبقي على نفس منهم، رجالاً ونساء وأطفالاً ورضعاً، وكل ما يملكون من ماشية. فضرب شاؤول العماليق عن بكرة أبيهم، ولم يستثن منهم سوى أجاج ملكهم، وخيار ماشيتهم. ولأنه استثنىٰ الملك وخيار الماشية، غضب عليه الرب الذي قضى بإبادتهم جميعاً، هم وماشيتهم، لأنهم حُرّموا جميعاً. وندم ـــ الرب ـــ لأنه جعل شاؤول ملكاً عليهم. وطلب صموئيل النبـي أن يقدم إليه أجاجاً ملك العماليق، فقطعه بالسيف تنفيذاً لإرادة الرب، كما جاء في التوراة (سفر صموئيل، الإصحاح الخامس عشر).

ثم وقع اختيار الرب على داود الراعي من أهل بيتلحم، وكان بعد صبياً. وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن منظر. وأوعز الرب لصموئيل بأن يمسحه بالزيت ليكون ملكاً على إسرائيل، ويحل روح الرب فيه. وفي الوقت نفسه رفع الرب روحه من عند شاؤول، وحل محله روح رديء. وسيكون غضب الرب هذا مبرراً لهزيمته النكراء أمام جيش الفلستينيين، ومصرعه هو وابنه يوناثان.

وفي معركة مع الفلستينيين، واجه فيها الخصمان أحدهما الآخر على جبل بينهما واد، خرج من صفوف الفلستينيين مبارز يدعى جوليات، أو جالوت (كما يسمى في المصادر العربية)، طوله ست أذرع وشبر، كما جاء في التوراة، وعلى رأسه خوذة من نحاس؛ وكان لابساً درعاً حرشفياً وزنه خمسة آلاف شاقل نحاس، وعلى رجليه جرموقا نحاس، وبين كتفيه مزراق نحاس. وقناة رمحه كنول النساجين. وسنان رمحه ست مئة شاقل حديد. وكان يرافقه حامل الترس. وقف متحدياً بني إسرائيل، بأن يختاروا من بين صفوفهم أقوى رجل لينازله، فإن تمكن منه يصير الفلستينيون عبيـداً لهم، وإن قهره جوليات يصير الإسرائيليون عبيداً للفلستينيين. وكان جوليات يتقدم بعرضه هذا صباحاً ومساءً أربعين يوماً، دون أن يجرؤ أحد من صفوف أعدائه على الإقدام لمناجزته. وبينا كان داود

الصبـي يحمل طعاماً لإخوته في جيش شاؤول، سمع جوليات الفلستيني يكرر تحديه لبني إسرائيل، وسمع بني قومه يقولون أن جميع رجال إسرائيل هربوا منه ولم يجدوا الجرأة على مبارزته، وأن الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنى جزيلاً ويعطيه ابنته. فمثل داود أمام شاؤول وقال له: «عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني.» قال له شاؤول: «لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام، وهو رجل حرب منذ صباه.» فأجابه داود: «كان عبدك يرعى لأبيه غنماً، فجاء أسد مع دب، وأخذ شاة من القطيع. فخرجت وراءه وقتلته، وأنقذتها من فيه. ولما قام عليّ أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته. قتل عبدك الأسد والدب جميعاً. وهذا الفلسطيني الأغلف يكون كواحد منهما، لأنه قد عيّر صفوف الله الحي.» وأضاف داود: «الرب الذي أنقذني من يد الأسد ويد الدب هو ينقذني من يد هذا الفلسطيني.» فقال شاؤول لداود: «اذهب، وليكن الرب معك.».

وفي رواية مدراشية مقتبسة عن كتاب مدراشي حول سفر المزامير أُلّف في فلسطين في القرن العاشر أو الحادي عشر بعد المسيح، أن داود عندما كان صبياً، ساق غنم أبيه يرعاها في ما توهمه جبلاً، في حين كان ريماً هائلاً نائماً. ولما استيقظ الريم من نومه ونهض على قوائمه، أمسك داود بقرنه الأيمن الذي بلغ السماء. فتضرع داود إلى الرب قائلاً: «أنقذني يا رب العالمين، وسأبني لك معبـداً عرضه مئة ذراع، مثل قرني هذا الريم.» فأشفق الرب عليه، وأرسل أسـداً، ملك الوحوش، خرّ الريم أمامه على قوائمه. وإذْ استبد الهلع بداود، هو الآخر، أرسل الرب غزالاً ليمضي الأسد في أثره. وبذلك استطاع داود أن ينزل من على كتف الريم، وينجو بجلده.

وفي نزال داود مع جوليات خلع الخوذة والدرع والسيف الذي قلده إياه شاؤول، وفضّل مبارزته بعصاه ومقلاع مع خمسة أحجار ملس التقطها من الوادي، ووضعها في جرابه. ولما وقع بصر جوليات عليه ازدراه لأنه كان غلاماً وأشقر جميل المنظر، وقال له: «ألعلي أنا كلب حتى أنك تأتي إليّ بعصيّ... تعال إليّ فأعطي لحمك لطيور السماء ووحوش البرية.» فقال له داود: «أنت تأتي إليّ بسيف ورمح وأنا آتي إليك باسم رب الجنود، إله صفوف إسرائيل.» ومد داود يده إلى جرابه وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع، وضرب جوليات في جبهته، فارتز الحجر في جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض. فضرب داود الفلستيني وصرعه، ووقف عليه، وأخذ سيفه، واخترطه من غمده، وقتله، وحزّ به رأسه. ولما رأى الفلستينيون أن جبارهم قد مات لاذوا بالفرار.

وخرجت النساء الإسرائيليات من جميع المدن بالغناء والرقص للقاء الملك

شاؤول بالدفوف والمثلثات، وقلن: «ضرب شاؤول ألوفه، وداود ربواته»[136] فغضب شاؤول لهذا الكلام. لكن إيماناً منه بأن الرب مع داود، عرض عليه أن يزوجه إحدى بناته؛ وأوعز لخدمه بأن يخبروا داود بأن الملك لا يطلب منه مهراً سوى مئة غلفة من الفلستينيين. فحسن الكلام في عيني داود. ولم تكتمل الأيام حتى قام داود وذهب هو ورجاله، وقتل من الفلستينيين مئتي رجل وأتى داود بغلفهم إلى الملك. فأعطاه شاؤول ابنته ميكال امرأة[137].

لكن داود لم يأمن جانب شاؤول، لأن هذا الأخير كان حقوداً وغريب الأطوار، فهرب إلى الفلستينيين، خوفاً من بطشه،ولجأ هو ورجاله إلى أخيش بن معوك ملك مدينة جت الفلستينية.

واجتمع الفلستينيون على شاؤول، فخاف وتملكه الهلع. وسأل الرب فلم يجبه، لا بالأحلام، ولا بالأوريم، ولا بالأنبياء (وكان صموئيل النبي قد وافته المنية). فأمر شاؤول عبيده أن يبحثوا له عن امرأةٍ صاحبة جان. ولما جاءوا له بها، تنكر ولبس ثياباً أخرى، وطلب منها أن تمارس العرافة مع الجان وترفع له من يريد. فقالت: «من أُصعد لك؟» قال: «أصعدي لي صموئيل.» فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ووجهت كلامها لشاؤول، قائلة: «لماذا خدعتني وأنت شاؤول؟» فقال لها: «لا تخافي. فماذا رأيت؟» قالت المرأة لشاؤول: «رأيت آلهة يصعدون من الأرض.» قال لها: «ما هي صورته؟» قالت: «رجل شيخ صاعد، وهو مغطى بجبة.» فعلم شاؤول أنه صموئيل، فخرّ على وجهه إلى الأرض وسجد. وقال صموئيل لشاؤول: «لماذا أقلقتني بإصعادك إياي؟» قال شاؤول: «قد ضاق بي جداً. الفلسطينيون يحاربونني، والرب فارقني... فدعوتك لكي تعلمني ماذا أصنع.» قال صموئيل: «لماذا تسألني والرب قد فارقك وصار عدوك».

وشد الفلستينيون وراء شاؤول وبنيه. ومات شاؤول، وقطعوا رأسه. وأعلن أبنير، ابنُ رئيس جيش شاؤول، أشبوشت بن شاؤول ملكاً. فملك هذا سنتين، ثم قتله داود بعد معارك طويلة بين العائلتين، وصار الأخير ملكاً على

(136) الربوة: الجماعة العظيمة، نحو عشرة آلاف.

(137) قرأت في مجلة نسائية حديثة ان من بين العادات القديمة ــ المندثرة ــ في الحبشة أن يحصل الخاطب على عضو الذكورة لرجل آخر كشرط لعقد القران. وكان نصيب الضحية الموت على الأغلب. وبعد ان ينجز جريمته خارج البيت، يفتتح زواجه بجلد عروسه حتى الإدماء لتظل مطيعة له.

الإسرائيليين. وفي عهده تم القضاء على الفلستينيين كما مر بنا في مقدمة هذا الكتاب.

وقرأت لألكساندر شايبر، الحبر المجري، في كتابه (مقالات عن الفولكلور والأدب المقارن اليهوديين) الصادر في المجر عام 1985 ما يلي: «في القصة التي تتطرق إلى تفوق آدم على الشيطان في تسمية الحيوانات، يقع بصر آدم على داود (وكان الله قد أخبر آدم بأن عمر داود لن يكون مديداً)، فيتبرع آدم من عمره الذي يناهز الألف عام، إلى داود بسبعين منها. ويرسل الله ملائكته إلى الأرض ليكونوا شهوداً على هذه الصفقة: «كونوا شهودي! اشهدوا بأن آدم سيمنح داود بن يسّي سبعين عاماً.» ثم قضى الله بأن يكون هناك ميثاق مكتوب يقرّ فيه آدم بهذه الصفقة. لقد فعل الرب ذلك لأنه أراد أن يجعل من هذه الصفقة نموذجاً يحتذى لمن يعير أخاه مالاً، أي أن يدون عهد ويصادق عليه شهود» (ص 106 ـــ 107).

إيليــا

في عهد آخاب ملك إسرائيل في السامرة ظهر إيليا النبـي (نحو 880 ـ 850 ق.م.) الذي «كانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً، وبخبز ولحم مساءً (سفر الملوك الأول 17: 6). وأوعز له الرب بأن يذهب إلى أرملة في صيدا لتعوله، اسمها صرفة. فذهب إليها، وقال لها: «هاتي لي قليل ماء فأشرب... وهاتي لي كسرة خبز في يدك.» فقالت له: «ليست عندي كعكة، ولكن ملء كف من الدقيق في الكوّار، وقليل من الزيت في الكوز. ها أنذا أقش عودين لآتي وأعمله لي ولابني لنأكله ثم نموت.» فقال لها إيليا: «لا تخافي. ادخلي واعملي كقولك، ولكن اعملي لي منها كعكة صغيرة أولاً، واخرجي بها إليّ، ثم اعملي لك ولابنك أخيراً. لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل: أن كُوّار الدقيق لا يفرغ، وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذي فيه يعطي الرب مطراً على وجه الأرض.» فذهبت وفعلت حسب قول إيليا. ولم يفرغ كوّار الدقيق، ولم ينضب الزيت في الكوز.

ولما رأى آخاب إيليا قال له: «أأنت هو مكدر إسرائيل؟» فأجابه إيليا قائلاً: «لم أكدّر إسرائيل، بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب، وبسيرك وراء البعليم»، يقصد الأصنام. وطلب إيليا من آخاب أن يجمع الإسرائيليين إلى جبل الكرمل. وأنبياء البعل، وعددهم 450، وانبياء السواري وعددهم 400، وهم الذين يأكلون على مائدة إيزابيل الفينيقية، زوجة آخاب ملك إسرائيل الذي نسي كلام الرب وشايع زوجته. وبعد حضور شعب إسرائيل، طلب إيليا النبـي أن يؤتى بثورين، ويختاروا أحدهما، ويقطعوه، ثم يضعوه على الحطب، دون أن يضرموا النار في الحطب. ويضع هو، إيليا، الثور الآخر على حطب لم تضرم فيه النار أيضاً. «ثم تدعون باسم آلهتكم، وأنا أدعو باسم الرب. والإله الذي يجيب بنار فهو الله.» فقبل الشعب هذا الرهان. ودعوا باسم البعل من الصباح حتى الظهر، قائلين يا بعل أجبنا. فلم يكن صوت ولا مجيب. وعند الظهر سخر بهم إيليا، وقال لهم: «ادعوا بصوت عال، لأنه إله؛ لعله مستغرق أو في خلوة، أو في سفر، أو لعلـه نائم فينتبه!» فصرخوا بصوت عال، وتقطعوا بالسيوف والرماح، حتى سال منهم الدم. ثم إن إيليا رمم مذبح الرب المتهدم، وأخذ اثني عشر حجراً بعدد أسباط بني يعقوب، وبنى مذبحاً باسم الرب، ثم رتب الحطب، وقطع

الثور، ووضعه على الحطب. ثم قال ثنّوا، فثنوا. وقال ثلثوا، فثلثوا. ولدى دعاء إيليا سقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب، ولحست المياه. عند ذاك خرّ جميع الشعب على وجوههم؛ فقال لهم إيليا: «امسكوا أنبياء البعل، ولا يفلت واحد منهم.» فأمسكوهم، فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون، وذبحهم هناك. (سفر الملوك الأول، الإصحاحان السابع عشر والثامن عشر).

فغضبت إيزابيل وأرسلت في طلب إيليا، إلا أنه هرب إلى بئر سبع في مملكة يهوذا، ونام تحت شجرة. وإذا ملاك مسّه، وقال له «قم، وكل.» فتطلع، وإذا كعكة وكوز ماء عند رأسه. فأكل وشرب، ثم عاد فاضطجع. وعاد ملاك الرب ثانية فمسّه، وقال: «قم، وكل، لأن المسافة كثيرة عليك.» فقام، وأكل، وشرب. وسار بتلك الأكلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة، إلى جبل حوريب (جبل سيناء)، ودخل هناك المغارة وبات فيها.

وجاءه كلام الرب يقول: «ما لك ها هنا يا إيليا... اخرج وقف على الجبل أمام الرب.» وإذا بالرب عابر، وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال، وكسرت الصخور أمام الرب؛ ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة؛ ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار؛ ولم يكن الرب في النار. ثم قال له الرب: «اذهب إلى برية دمشق، وامسح حزائيل ملكاً على آرام؛ وامسح ياهو بن نمشي ملكاً على إسرائيل؛ وامسح اليشع بن شافاط نبياً عوضاً عنك.» وبعد أن التقى إيليا بأليشع، صار الأخير يخدمه.

وعصى موآب على إسرائيل بعد وفاة آخاب. ثم أن أخزيا الملك صار يعبد بعل زبوب إله الفلستينيين في عقرون. فثارت ثائرة النبـي إيليا. وعندما مرض الملك أرسل رسلاً ليسألوا بعل زبوب إن كان الملك سيبرأ من مرضه. فجاء ملاك الرب لإيليا النبـي وقال له أن يخبر رسل الملك بأنه سيموت، لأنه نسي الرب العلي، وعبد بعل زبوب. فأرسل الملك لإيليا، وكان جالساً على رأس جبل، خمسين رجلاً يرئسهم مندوب عنه. وقال له رئيسهم: «يا رجل الله، الملك يقول انزل.» اجابه إيليا: «إن كنتُ انا رجل الله، فلتنزل نار من السماء، وتـأكلك أنت والخمسين الذين لك.» فنزلت نار من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له. ومرة أخرى يرسل الملك خمسين مع رئيس لهم، فتأكلهم نار الرب... ثم يموت الملك، حسب كلام الرب الذي تكلم به إيليا.

ثم ذهب إيليا وتابعه اليشع إلى بيت إيل. فخرج بنو الأنبياء الذين في بيت إيل، إلى اليشع، وقالوا له: «أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك؟»

فال: «نعم، أعلم، فاصمتوا.» ثم قال له إيليا: «يا أليشع، امكث هنا لأن الرب أرسلني إلى أريحا.» لكن اليشع لم يتركه، بل ذهب معه إلى أريحا. ومن أريحا ذهب إيليا واليشع إلى الأردن. وذهب خمسون من بني الأنبياء ووقفوا قبالتهما عن بعد. ووقف كلاهما بجانب الأردن. وأخذ إيليا رداءه، ولفّه، وضرب الماء، فانفلق إلى هنا وهناك، فعبرا كلاهما في اليبس. وبينا كان إيليا واليشع يسيران ويتكلمان، إذا مركبة من نار، وخيل من نار، فصلت بينهما، فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء.

• • •

العربة النارية التي تجرها خيل من نار صورة مستقاة من التراث الأسطوري البابلي والإغريقي وسواهما. فالشمس عند البابليين واليونانيين كانت تصور كإله يركب عربته التي تجرها خيول عبر السماء من الشرق إلى الغرب. وكذلك كان بعض الآلهة أيضاً لهم عرباتهم التي تقلهم من مكان إلى آخر في السماء. كان شماش إله الشمس يستقل عربته كل يوم ليقطع رحلته من الشرق إلى الغرب. تقول الأسطورة البابلية أن الرجال العقارب حراس (جبل الشرق) كانوا يفتحون فجر كل يوم باباً عظيماً ذا مصاريع في خاصرة الجبل، ليخرج منها شماش إله الشمس في سياق مسيرته اليومية. فتشع من كاهليه الأشعة الساطعة، ويتقدم هو حاملاً بيده شيئاً كالمنشار، لعله سلاح، أو مفتاح للبوابة الشرقية. وبخطوات وئيدة يتسلق الجبل، ويلتحق بسائقه بونينه Bunene الذي يسرج العربة ليستقلها إله الشمس. ويبدأ شماش بتسلق السماء وسط هالة من أشعة الضوء. وعند حلول المساء يسوق شماش عربته نحو (جبل الغرب) العظيم. فتشرع بوابة على مصراعيها، ويدخل إلى أعماق الأرض، وبذلك تختفي الشمس. وفي أثناء الليل يواصل شماش رحلته تحت الأرض إلى أن يصل (جبل الشرق) عند الفجر.

وشماش إله شجاع، يهزم الليل، ويولي الشتاء أدباره من أمامه. وهو إلى ذلك إله العدل. فمرتكبو الجرائم ترتعد فرائصهم هلعاً من ضيائه المتألق الذي يطارد العتمة لأنها تتستر على الجريمة. إنه يكسر قرن من يقترف أعمالاً شريرة. والويل لمن يحاول الهرب منه. فهو يرى كل شيء، ويطال كل من يقترف إثماً. ولأجل هذا لقب «بقاضي السماء والأرض»، و «قاضي الأنوناكي»، و «سيد القضاء». وهيكله في بابل كان يدعى «منزل قاضي العالم». وكان لشماش دور آخر، مثل أبولو الإغريقي، الذي كان هو الآخر إله الشمس، هو الرجم بالغيب(138).

(138) New Larousse Encyclopedia of Mythology, p. 57 — 58.

وكانت هيليوس Helius (الشمس)، في الأساطير الإغريقية، أخت القمر (سيلينه)، والفجر (إيوس). في الصباح يوقظها صوت الديك الذي تقدسه، ويتطلع إليها الفجر بلهفة، فتسوق عربتها التي تجرها أربعة خيول، كل يوم عبر السماء، من قصر مهيب في الشرق الأقصى، عند مشارف كولخس (مدينة على الساحل الشرقي من البحر الأسود، وكانت يومذاك آخر الدنيا عند اليونانيين)، إلى قصر آخـر مهيب في الغرب الأقصى، حيث ترعى خيولها في جزر المقدسين. ثم تبحر عائدة إلى مهدها عبر البحر المحيط الذي يجري حول العالم، ناقلة عربتها وفريقها على سفينة ـ معدّية ذهبية من صنع هيفاستوس، وتستسلم لسلطان الكرى طوال الليل في حجرة مريحة.

وعند الإيرانيين القدماء الذين استفادوا من علم التنجيم الكلداني، كان هافرة ـ خشايته Havre-Khshaete إله الشمس الساطعة، وله عربته وجياده السريعة.

أليشع

عندما رأى أليشع إيليا يرتفع إلى السماء بمركبة النار السماوية، مزق عنه ملابسه، وارتدى جلباب إيليا الذي سقط عنه. وضرب الماء مرة وثانية، وقال «أين هو الرب إله إيليا؟» فانفلق الماء إلى هنا وهناك، وعبر أليشع. وإذْ رآه بنو الأنبياء من سكنة أريحا قالوا قد استقرت روح إيليا على أليشع. فجاءوا للقائه، وسجدوا له إلى الأرض.

وشكا رجال المدينة لأليشع لأن الماء ردية والأرض مجدبة. فقال: «إيتوني بصحن جديد، وضعوا فيه ملحاً.» فأتوه به. فخرج إلى نبع الماء، وطرح فيه الملح، فأبرأ الرب المياه، لا يكون فيها موت ولا جدب.

ثم صعد ألى بيت إيل، فإذا صبيان صغار راحوا يسخرون منه، ويرددون: «اصعد يا أقرع. اصعد يا أقرع» فالتفت إلى ورائه ولعنهم بـاسم يالرب. فخرجت دبتان من الوعر، وافترستا منهم اثنين وأربعين ولداً! وذهب من هناك إلى جبل الكرمل، ثم رجع إلى السامرة.

وعند موت آخاب ملك إسرائيل عصى ملك موآب على ملك إسرائيل الجديد يهورام بعد أن كان يدفع له الجزية، مئة ألف خروف، ومئة ألف كبش بصوفها، كما جاء في سفر الملوك الثاني (الإصحاح الثالث). فتحالف يهورام ملك السامرة مع يهوشافاط ملك يهودا مع ملك أدوم وساروا بجيش موحد من طريق برية أدوم لتأديب ملك موآب. وبعد أن قطعوا مسيرة سبعة أيام، توقفوا في أرض لا ماء فيها للجيش والبهائم. وإذْ تذكر يهوشافاط أن في هذه الأرض نبياً للرب، هو أليشع الذي كان يصب ماء على يدي إيليا، نزلوا إليه ورجوه أن يكلم الرب ليستنزل لهم ماء. فطلب أليشع أن يأتوه بضارب على آلة العود؛ فأتوه بعوّاد. ولما ضرب العواد على العود، كانت عليه يد الرب. فقال «هكذا قال الرب. لا ترون ريحاً ولا ترون مطراً؛ وهذا الوادي يمتلىء ماء، فتشربون، أنتم وماشيتكم وبهائمكم. وذلك يسير في عين الرب، فيدفع موآب إلى أيديكم، فتضربون كل مدينة محصنة، وكل مدينة مختارة، وتقطعون كل شجرة طيبة، وتطمّون جميع عيون الماء، وتُفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة.».

وفي الصباح، عند إصعاد التقدمة، إذا مياه آتية عن طريق أدوم، فامتلأت الأرض... وهزمت الجيوش الموآبين، وفعل الغزاة ما أوصاهم به النبي أليشع: دمروا الحقول، وطمّوا جميع عيون الماء، وقطعوا كل شجرة طيبة... وإذْ رأى ملك موآب الدمار الذي حل بجيشه وأرضه، أخذ ابنه البكر الذي كان يملك عوضاً عنه، وأصعده مُحرقة عند السور، فكان غيظ عظيم على إسرائيل. وانصرفوا عنه راجعين إلى أرضهم. (سفر الملوك الثاني، الإصحاحان الثاني والثالث).

واستصرخت امرأةُ أليشعَ قائلة إن زوجها قد مات، وأتى المرابي ليأخذ ولديها عبدين له. فسألها أليشع: «أخبريني، ماذا لديك في البيت؟» وأخبرته بأنها لا تملك إلا دهنة زيت قليلة، فنصحها بأن تستعير أوعية فارغة من جميع جيرانها، قدر ما تستطيع. «ثم ادخلي، واغلقي الباب على نفسك وعلى بنيك، وصبّي في جميع هذه الأوعية وما امتلأ انقليه.» ففعلت المرأة، وإذا الأوعية تمتلىء كلها زيتاً، باعته ووفت بذلك دينها، وعاشت مما فضل منه. (سفر الملوك الثاني 4:1 ــ 7).

واحيا أليشع طفلاً بعد أن مات. وأبرأ مرضى بداء البرص. وأطعم شعباً بعشرين رغيفاً فقط.

وحارب ملك آرام إسرائيل. وكمن في مكان لم يعلم به الإسرائيليون. فأرسل أليشع النبي إلى ملك إسرائيل يحذره من العبور إلى الموضع الذي ربض فيه الآراميون. لكن ملك إسرائيل أرسل جيشاً إلى ذلك الموضع ليفاجىء ملك آرام الذي وجف قلبه متسائلاً كيف نمىٰ خبر كمينهم إلى الإسرائيليين، فأجابه عبيده قائلين: «إن أليشع النبي هو الذي يخبر ملك إسرائيل بالأمور التي تتكلم بها في مخدع مضطجعك». فقال: «إذهبوا وانظروا أين هو، فأرسل وآخذه.» فقيل له إنه في دوثان. فأرسل إلى هناك خيلاً ومركبات وجيشاً ثقيلاً، وجاؤوا ليلاً وأحاطوا بالمدينة. فقال غلام أليشع: «آه، يا سيدي، كيف نعمل؟» فصلى أليشع، وقال: «يا رب افتح عينيه»، ففتح الرب عيني الغلام، فأبصر، وإذا الجبل مملوء خيلاً ومركبات نار حول أليشع. ولما نزل جيش الآراميين إلى أليشع، صلى هذا ثانية، وخاطب ربه قائلاً: «اضرب هؤلاء الأمم بالعمىٰ.» فضربهم الرب بالعمى استجابة لدعاء أليشع. فقال أليشع لهم: «ليست هذه هي الطريق، ولا هذه هي المدينة. إتبعوني، فأسير بكم إلى الرجل الذي تفتشون عليه.» فسار بهم إلى السامرة. ولما دخلوا السامرة، قال أليشع: «يا رب

إفتح أعين هؤلاء فيبصروا.» ففتح الرب أعينهم، وإذا هم في وسط السامرة. فقال ملك إسرائيل لأليشع لما رآهم: «هل أضرب، هل أضرب، يا أبـي؟» فقال: «لا تضربْ. تضربُ الذين سبيتَهم بسيفك وبقوسك. ضع خبزاً وماء أمامهم، فيأكلوا ويشربوا، ثم ينطلقوا إلى سيدهم.» فأولم لهم وليمة عظيمة، وأكلوا وشربوا، ثم أطلقهم، فانطلقوا إلى سيدهم. ولم تعد جيوش آرام تدخل أرض إسرائيل. (سفر الملوك الثاني 8:6 ــ 23).

حــزقيـــال

يُعتبر حزقيال أحد أنبياء إسرائيل الأربعة الكبار. مارس النبوة بين 593 و 571 ق.م. وشهد سقوط أورشليم على يد نبوخذ نصر، وكان من بين المسبيين. وعاش عند نهر الخابور في أعالي الفرات، وهي أرض تابعة للكلدانيين. وأحاديث حزقيال يغلب عليها الخيال الجامح والفانتازيا والهلوسة:

انفتحت السماوات عند نهر خابور، فرأى حزقيال رؤى الله، في السنة الخامسة للسبـي البابلي. ونظر وإذا ريح عاصفة هبت من الشمال: سحابة عظيمة ونار متواصلة، وحولها لمعان، ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع. ومن وسطها شبه أربعة حيوانات. هذه الحيوانات تبدو أشبه بالإنسان. لكل واحد منها أربعة أوجه، وأربعة أجنحة. وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل، وتبرق كالنحاس المصقول.وتحت الأجنحة أيدٍ كأيدي الإنسان، على جوانبها الأربعة. كل جناح يسير إلى جهة وجهه. أما شبه وجوهها، فوجه إنسان، ووجه أسد، لليمين، لأربعتها؛ ووجه ثور من الشمال لأربعتها؛ ووجه نسر لأربعتها. أما شبه الحيوانات فمنظرها كجمر نار متقدة، كمصابيح. ومن النار كان يخرج برق. والحيوانات راكضة، وراجعة، كمنظر البرق.

نظر إلى الحيوانات، فإذ بكُرة واحدة على الأرض بجانبها. ويبدو أن البكر تستحيل بكرات تشبه الزبرجد، كأنها بكرة وسط بكرة. لما سارت تحركت على جوانبها الأربعة. أما أطرها فعالية ومخيفة، وملآنة عيوناً حواليها. فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها. وإذا ارتفعت الحيوانات عن الأرض، ارتفعت البكرات. لأن روح الحيوانات كانت في البكرات. وعلى رؤوس الحيوانات شبه قبب كمنظر البلور الهائل. ولما سارت سمع حزقيال صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة، وكصوت جيش. وفوق المقبب شبه عرش كحجر العقيق الأزرق. وعلى شبه العرش شبهٌ كمنظر إنسان. ومن حوله رأى حزقيال مثل منظر النحاس اللامع، كمنظر نار، من حقويه إلى فوق، وإلى تحت. ومن حول النار كمنظر قوس قزح. وكان هذا منظر شبه مجد الرب. لما رآه حزقيال خرّ على وجهه وسمع صوت متكلم يقول له: «يا ابن آدم أنا مرسلك إلى بني إسرائيل، إلى أمة متمردة، قد تمردت عليّ.».

ونظر حزقيال، فإذا يد ممدودة إليه، وإذ بدرْجٍ سِفْرٍ فيها، نشر أمامه، فكان مكتوباً من داخل ومن قفاه، فيه مراثٍ ونحيب وويل. وقال له الصوت: «يا ابن آدم، كُلْ هذا الدرج، واذهب كلم بيت إسرائيل.» ففتح فمه، وأكل الدرج. فصار في فمه كالعسل حلاوة.

ثم حمله روح، فسمع خلفه صوت رعد، وصوت أجنحة الحيوانات المتلاصقة ببعضها، وصوت البكرات. ونزل عند المسبيين في تل ابيب، الساكنين عند نهر خابور.

وفي السنة السادسة، وقعت يد الرب على حزقيال. فنظر، وإذا شبهٌ كمنظر نار، مد شبه يد، وأخذ بناصية رأسه، ورفعه بين الأرض والسماء، وأتى به في رؤى الله إلى أورشليم. أي أنه أسرى به إلى القدس. وهناك رأى حزقيال رجاسات بني إسرائيل، وشاهد نسوة يبكين على تموز. فقال له شبه النار: «أرأيت هذا يا ابن آدم؟ سترى رجاسات أعظم.».

وصرخ في سمعه بصوت عالٍ قائلاً: «قرّب وكلاء المدينة مع أسلحتهم المهلكة.» فإذا ستة رجال مقبلين، وكل منهم بيده عدته الساحقة، بينهم رجل على جانبه دواة كاتب. وقال الرب لصاحب الدواة: «أعبر في وسط... أورشليم، وسِمْ سمة على جباه الرجال الذين يئنون ويتنهدون على كل الرجاسات المصنوعة في وسطها.» وقال للآخرين: «اضربوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء. اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسان عليه السمة.».

ثم حمله روح وجاء به في الرؤيا إلى أرض الكلدانيين، إلى المسبيين. فصعدت عنه الرؤيا التي رآها، وكلم المسبيين بكل كلام الرب الذي أراه إياه. (سفر حزقيال: من الإصحاح الأول حتى نهاية الحادي عشر).

وفيما بعد سيرى يوحنا اللاهوتي، أو يوحنا الحبيب (توفي حوالي سنة 100 م)، وهو من رسل المسيح الاثني عشر، والإنجيليين الأربعة، سيرى رؤيا يقول فيها: بعد هذا نظرت، وإذا باب مفتوح في السماء، والصوت الأول الذي سمعته كبوق يتكلم معي قائلاً إصعد إلى هنا... وإذا عرش موضوع في السماء، وعلى العرش جالسٌ. وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق. وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد. وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً. ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخاً جالسين متسربلين بثياب بيض، وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب. ومن العرش يخرج بروق ورعود

وأصوات. وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة، هي سبعة أرواح الله. وقدام العرش بحر زجاج شبه البلور. وفي وسط العرش، وحول العرش اربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء. والحيوان الأول شبه أسد؛ والحيوان الثاني شبه عجل؛ والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان؛ والحيوان الرابع شبه نسر طائر. والأربعة الحيوانات، لكل واحد منها ستة أجنحة حولها، ومن داخل مملوءة عيوناً؛ ولا تزال نهاراً وليلاً قائلة: قدوس، قدوس، قدوس، الرب الإله القادر على كل شيء، الذي كان، والكائن، والذي يأتي...» إلخ. (رؤيا يوحنا اللاهوتي، الإصحاح الرابع).

• • •

ويقول روبرت غريفز في كتابه (الإلاهة البيضاء): إن الكروب في رؤيا حزقيال حيوان ذو مغزى تقويمي. فأجزاؤه الأربعة تمثل السنوات أو الفصول الأربعة العبرية الجديدة:الاسد للدلالة على الربيع؛والنسر على الصيف؛ والإنسان على الخريف الذي يمثل بداية السنة العبرية الجديدة؛ والثور على الشتاء، وهو موسم الحراثة، والحراثة تقترن بهذه الدابة. ويقترن الكروب بالعَجَلة النارية، وهي عجلة السنة الشمسية. كما ان كل كروب هو بمثابة عجلة في عربة الله هذه. ولون هؤلاء الكروبيم هو الكهرمان (الأصفر الضارب إلى حمرة). إنهم أشبه بكهنة أبولو إله الشمس الذي كان الكهرمان لونه المقدس. ثم إن كل عَجَلة تنتهي بساق عجل. وكان العجل الذهبي الحيوان المقدس عند العبريين يوم خرجوا من مصر، كما يقول الملك يربعام. وقد كان هذا العجل إله دايونيسوس. وقد أحرج هذا التماهي بين يهوة وأبولو، الفريسيين، رغم أنهم لم يجرؤوا على إنكار رؤيا حزقيال.

ثم يروي روبرت غريفز الطرفة الآتية: كان الحاخام يوحانان بن صدقاي وتلميذه أليعازر بن أراك ماضيين لطيتهما ذات يوم، الأول على ظهر حماره، والثاني يسير في إثره راجلاً. قال الحاخام أليعازر: «سيدي، حدثني عن المركبة» فلم يستجب له الرابي يوحانان. إلا أن أليعازر الحف عليه السؤال قائلاً: «الا يحق لي أن أعيد على سمعك ما علمتنيه؟» فوافقه الرابي يوحانان على قوله، ثم ترجل عن دابته وتدثر جيداً بعباءته وجلس على حجر تحت شجرة زيتون، وقال إنه من غير اللائق أن يبقى ممتطياً الدابة في حين شرع تلميذه بمناقشة أمر جليل كهذا تحت سمع وبصر الملائكة. وهنا اندلعت نار من السماء وأحاطت بهما وبالحقل من حولهما. وتجمع الملائكة يصغون إلى حديثهما متهافتين كتهافت الناس في أعياد الزفاف. وتعالى غناء من أشجار البُطم: «سبحوا بحمد الرب،

أيها الجن والعفاريت، والأشجار المثمرة، وأشجار الأرز، سبحوا بحمد الرب!» ثم تناهى صوت ملاك من ناحية النار يقول: «إنه من العربة!» وهنا نهض الحبر يوحانان وقبّل أليعازر من رأسه، وقال: «حمداً لله رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب، الذي وهب أبانا إبراهيم ولداً حكيماً يعرف كيف يتحدث عن عظمة أبينا في السماء» (الإلاهة البيضاء، طبعة فابر وفابر الإنكليزية، ص 411 ــ 413).

دانيـــال

من المسببين أيضاً، وحسب التقليد المسيحي، أحد الأنبياء الأربعة الكبار كُتب سفر دانيال في التوراة بين 167 و 164 ق. م. وقد دُوّن بلغتين، القسم الأول (1:1 ــ 4:2) والإصحاحات الأخيرة (8 ــ 12) بالعبرية؛ أما الباقي فبالآرامية. ويبدو أن كاتب هذا السفر، المجهول، اقتبس مادته من مصادر أوغاريتية وفينيقية تتحدث عن شخص أسطوري عرف بتقواه وحكمته. ويعتبر سفر دانيال أقدم أسفار الرؤيا. وسوف نرى أن معلوماته عن نفي اليهود تعوزها الدقة إلى حد كبير. فتأريخ سقوط أورشليم غير صحيح. وفي هذا السفر اعتبر بلشاصر ابناً لنبوخذ نصر، وآخرَ ملوك بابل، في حين هو ابن نبونيدوس، ولم يكن في واقع الحال ملكاً، رغم أنه كان ذا نفوذ كبير. وهناك خلط بين داريوس الميدي، وداريوس الأول ملك فارس. والأصح، في كافة الأحوال، هو أن كورش احتل بابل وليس داريوس: (انظر الموسوعة البريطانية تحت اسم دانيال، طبعة 1984).

في السنة الثانية من ملك نبوخذ نصر حلم هذا الملك أحلاماً انزعجت روحه منها، وجفاه النوم. فأمر الملك بأن يستدعى المجوس والسحرة والعرافون والكلدانيون ليخبروه بأحلامه. فتكلم الكلدانيون بالآرامية، وقالوا لنبوخذ نصر: «إخبر عبيدك بالحلم فنبين تعبيره.» إلا أن الملك أراد أن ينبئوه هم بفحوى الحلم وتفسيره، وإلا مزقهم إرباً إرباً، وجعل بيوتهم مزابل. وإن عرفوا ما هو حلمه، واستطاعوا أن يفسروه، نالوا منه الهدايا والاكرام. فقال الكلدانيون: «ليس على الأرض إنسان يستطيع أن يعرف ما هو حلم الملك قبل أن يسمعه من الملك. والأمر الذي يطلبه الملك عسير، لا يعرفه غير الآلهة.».

غضب الملك واغتاظ، وأمر بإبادة كل حكماء بابل. فنفذ الأمر، وقتل العديد من الحكماء. وطُلب دانيال وأصحابه ليُقتلوا. إلا أن دانيال طلب من الملك أن يعطيه مهلة ليخبره بأمر حلمه. ومضى إلى بيته يسأل الرب ليكشف له هذا السر. وكشف لدانيال السر في رؤيا الليل. ودخل إلى أريوخ رئيس شرطة نبوخذ نصر، وقال له: «كُفَّ عن إبادة حكماء بابل. ادخلني إلى قدّام الملك، فأبين للملك الحلم.».

ولما مثل دانيال بين يدي الملك نبوخذ نصر، قال له: «السر الذي طلبه الملك، لا تقدر الحكماء، ولا السحرة، ولا المجوس، ولا المنجمون، على أن يبينوه للملك. لكن يوجد إله في السماوات، كاشف الأسرار، وقد عرّف الملك نبوخذ نصر ما يكون في الأيام الأخيرة. حلمك ورؤيا رأسك على فراشك هو هذا... أنت أيها الملك كنت تنظر، وإذا بتمثال عظيم. هذا التمثال العظيم، البهي جداً، وقف قبالتك؛ ومنظره هائل. رأس هذا التمثال من ذهب جيد؛ صدره وذراعاه من فضة؛ بطنه وفخذاه من نحاس؛ ساقاه من حديد؛ قدماه بعضهما من حديد، والبعض الآخر من خزف. كنتَ تنظر إلى أن قُطع حجر بغير يدين؛ فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف، فسحقهما. فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً، وصارت كعصافة البيدر في الصيف؛ فحملتها الريح، فلم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً، وملأ الأرض كلها. هذا هو الحلم.

«وأما تفسيره فكالآتي: أنت أيها الملك، ملك الملوك، لأن إله السماوات أعطاك مملكة، واقتداراً، وسلطاناً، وفخراً... سلطك الله على البشر جميعاً، ووحوش البر، وطيور السماء. أنت هذا الرأس من ذهب. وبعدك تقوم مملكة أصغر منك، ومملكة ثالثة أخرى من نحاس. وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد. وإن بعض القدمين من حديد، والبعض خزف، يعني أن المملكة منقسمة... وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبداً، وملكها لا يُترك لشعب آخر، وتسحق وتفني كل هذه الممالك؛ وهي تثبت إلى الأبد. لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب...».

فخرّ نبوخذ نصر على وجهه وسجد لدانيال، وأمر بأن يقدموا له تقدمة وروائح سرور. وأعطاه عطايا كثيرة، وسلّطه على كل ولاية بابل، وجعله رئيس الشرطة. فطلب دانيال من الملك أن يولي أصحابه شدرخ، وميشخ، وعبدنغو، على أعمال ولاية بابل. أما دانيال فكان في باب الملك.

(لا شك أن شخص دانيال، وصحبه، وقصة الحلم، والوظائف التي تقلدوها، من نسج الخيال. أما ممالك الذهب، والفضة، والنحاس، إلخ، فتذكرنا بحكاية العصور الخمسة اليونانية، لتي ورد ذكرّها في موضع متقدم من هذا الكتاب.)

ثم إن نبوخذ نصر صنع تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً وعرضه ست

أذرع (!) ونصبه في ولاية بابل. وأمر بحضور المرازبة ورؤساء الشرطة والولاة والقضاة والخَزَنة والفقهاء والمفتين لتدشين التمثال. ولدى حضورهم نادى منادٍ يقول: «عندما تسمعون صوت القرن والناي والعود والرباب والسنطير والمزمار وكل أنواع العزف أن تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب الذي نصبه نبوخذ نصر. ومن لا يخر ويسجد، ففي تلك الساعة يُلقى في أتون نار متقدة.» فخرت كل الشعوب والأمم والألسنة، وسجدت للتمثال. واشتكى رجال كلدانيون على اليهود عند نبوخذ نصر. أخبروه بأن اليهود الذين وكلهم على أعمال ولاية بابل: شدرخ، وميشخ، وعبْدنغو، أصحاب دانيال، لم يرعوا له حرمة، لأنهم لا يعبدون آلهته، ولتمثال الذهب لا يسجدون.

عند ذاك أمر نبوخذ نصر، بغضب وغيظ، بإحضار هؤلاء الرجال الثلاثة. وعندما جيء بهم، قال لهم الملك: «إن كنتم على استعداد للسجود أمام التمثال نبرىء ساحتكم، وإلا فستُلقون في وسط أتون النار المتقدة. ومن هو الإله الذي ينقذكم من يدي؟» فأجابه شدرخ، وميشخ، وعبْدنغو: «يا نبوخذ نصر. لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر. هو ذا يوجد إلهنا الذي نعبده، يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة، وأن ينقذنا من يدك أيها الملك. وإلا فليكن معلوماً لك أيها الملك، أننا لا نعبد آلهتك، ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته!».

استشاط نبوخذ نصر غضباً، وتغير منظر وجهه عليهم. وأمر بأن يُحمىٰ الأتون سبعة أضعاف أكثر من المعتاد. وأمر جبابرة القوة في جيشه بأن يوثقوا هؤلاء الرجال الثلاثة، ويلقوهم في أتون النار المتقدة. فقتل لهيب النار الجبابرة الذين رفعوا شدرخ، وميشخ، وعبدنغو. وأما هؤلاء الرجال الثلاثة، فقد سقطوا في وسط أتون النار. فقال الملك نبوخذ نصر لمشيريه: «ألم نلق ثلاثة رجال موثقين في وسط النار؟» قالوا: «صحيح، أيها الملك.» قال: «ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار، وما بهم ضرر؛ ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة.» ثم اقترب نبوخذ نصر إلى باب الأتون، وقال: «يا شدرخ، وميشخ، وعبدنغو، يا عبيدالله العلي، اخرجوا وتعالوا.» فخرج هؤلاء، ورآهم الملك وحاشيته، وكأن النار لم تمسهم. وإذ ذاك قال نبوخذ نصر: «تبارك إله شدرخ وميشخ وعبدنغو، الذي أرسل ملاكه وانقذ عبيده الذين اتكلوا عليه، وغيروا كلمة الملك، واسلموا أجسادهم لكيلا يعبدوا أو يسجدوا لإله غير إلههم.»

وتذهب مخيلة كاتب سفر دانيال أبعد من ذلك، فتجعل نبوخذ نصر يؤمن بإله دانيال الذي يطلق عليه اسماً أكدياً، هو بلطشاصر، ويقلده منصب كبير

المجوس. ويقص له نبوخذ نصر حلماً آخر. قال الملك لبلطشاصر الذي هو دانيال: «إني كنت أرى، فإذا بشجرة في وسط الأرض وطولها عظيم. فكبرت الشجرة وقويت، فبلغ علوها إلى السماء، ومنظرها إلى أقصى الأرض... وإذا بساهر وقدوس نزلا من السماء، فصرخ بشدة، وقال هكذا: اقطعوا الشجرة، واقضبوا أغصانها، وانثروا أوراقها، وابذروا ثمرها، ليهرب الحيوان من تحتها، والطيور من أغصانها. ولكن اتركوا ساق أصلها في الأرض، وبقيد من حديد ونحاس في عشب الحقل...» وطلب من بلطشاصر الذي هو دانيال أن يفسر له حلمه هذا.

قال له دانيال ما مفاده أن الشجرة العظيمة الجميلة إنما هي الملك نبوخذ نصر، تعبير عن سلطانه إلى أقصى الأرض. والقول بقطع الشجرة أنهم يطردون الملك من بين الناس، ويكون سكناه مع حيوان البر، وطعامه العشب، كالثيران، إلى أن تمضي سبعة أزمنة، ويعود إلى سلطانه.

وتحققت النبوءة، كما يقول سفر دانيال. طُرد نبوخذ نصر من بين الناس، وأكل العشب كالثيران، وابتل جسمه بندى السماء، حتى طال شعره مثل النسور، وأظفاره مثل الطيور. وعند انتهاء الأيام، رفع نبوخذ نصر عينيه إلى السماء، فرجع إليه عقله، وبارك العليّ، وسبّح بحمده. وعاد إلى مملكته ومجده وبهائه، مؤمناً بإله دانيال!

وفي الإصحاح الخامس من سفر دانيال أن بلشاصر الملك ابن نبوخذ نصر (وقد مرّ بنا أن هذا الرجل ما كان ملكاً، ولا ابن نبوخذ نصر، بل ابن نبونيدس الملك) بينا كان جالساً في مأدبة أعدّها لعظمائه الألف، وشرب خمراً قدّام هؤلاء العظماء الألف، طلب أن تحضر آنية الذهب والفضة التي أخرجها نبوخذ نصر «أبوه» من الهيكل الذي في أورشليم، ليشرب بها عظماؤه وزوجاته وسراريه.

في تلك الساعة ظهرت أصابع يد إنسان، وكتبت بإزاء النبراس (وهو المصباح، والكلمة سريانية) على مكلّس حائط قصر الملك، والملك ينظر طرف اليد الكاتبة بمزيد من الفزع والجزع والهلع، وقد انحلت خرز حقويه، واصطكت ركبتاه. فصرخ بشدة، وأمر بإدخال السحرة الكلدانيين والمنجمين ليقرأوا هذه الكتابة العجيبة، ويفسروها. إلا أن أحداً لم يستطع فك رموز هذه الكتابة. وعاد الفزع إلى الملك. ثم إن الملكة إذْ تناهى إليها الخبر دخلت بيت الوليمة، وقالت له: أيها الملك عش إلى الأبد. لا تفزعك أفكارك، ولا تتغير هيئتك. يوجد في مملكتك

رجل فيه روح الآلهة القدوسين. هذا الرجل هو دانيال الذي كان يفسر لأبيك أحلامه.».

حينئذ أدخل دانيال إلى قدام الملك، وقرأ له الكتابة على هذا النحو: «مَنا مَنا تَقَيْلُ وفَرْسِين». وأما تفسيرها فهو، منا: «أحصى الله ملكوتك وأنهاه»، تقيل: «وُزنتَ بالموازين فوُجِدتَ ناقصاً» فَرْسِ: «قُسمتْ مملكتك وأعطيتْ لمادي وفارس.».

عند ذاك أمر بلشاصر أن يلبسوا دانيال الأرجوان، وقلادة من ذهب في عنقه، وينادوا عليه أن يكون متسلطاً ثالثاً في المملكة. وفي تلك الليلة قُتل بلشاصر ملكُ الكلدانيين، واستولى على المملكة داريوس المادي (سفر دانيال 5 ــ 6). وهي معلومات تاريخية غير صحيحة؛ فالمعروف أن نبوخذ نصر البابلي حكم بين 605 ــ 562 ق.م. وبعد مماته خلفه ملوك ضعفاء، إلى أن سقطت بابل على يد كورش الملك الفارسي الاخميني.

وجاء في سفر دانيال أن داريوس عيّن دانيال أحد ثلاثة وزراء في المملكة. وإذْ فاق دانيال الوزراء والمرازبة بعلمه وكفاءته، فكر الملك في أن يوليه على المملكة كلها. إلا أن هذا أحفظ منافسيه عليه، ففكروا في الإيقاع بدانيال. اجتمعوا فيما بينهم واتفقوا على أن يمتنع كل مواطن عن طلب الشفاعة من إله أو إنسان لمدة ثلاثين يوماً. وحظي هذا النهي بموافقة الملك.

ثم شوهد دانيال من كوى بيته المفتوحة، جاثياً على ركبتيه يصلي لله، كما كان يفعل من قبل. فأخبر الملك بذلك. قيل له إن دانيال يتحدى أمر الملك بسجوده لإلهه قبل نفاد المدة التي اشترعها الملك. واغتاظ الملك، لكن قلبه لم يطاوعه أن يقسو على دانيال، فانتظر حتى غروب الشمس. ومرة أخرى اجتمع خصوم دانيال وقالوا للملك: «إعلم أيها الملك أن شريعة مادي وفارس هي أن كل نهي أو أمر يضعه الملك لا يتغير.» حينئذ أمر الملك بإحضار دانيال، وطرحه في جب الأسود. وأتى بحجر ووضع على فتحة الجب؛ وقال لدانيال: «إن إلهك الذي تعبده دائماً ينجيك.».

ومضى الملك إلى قصره، وبات صائماً، ولم يطلب إحضار سراريه، وطار عنه النوم، حتى إذا حان الفجر، ذهب مسرعاً إلى جب الأسود. ونادى دانيال بصوت أسيف، قائلاً: «يا دانيال، عبدالله الحي، هل إلهك الذي تعبده قدر على أن ينجيك من الأسود؟» فتكلم دانيال قائلاً: «يا أيها الملك، عش إلى الأبد. إلهي

ارسل ملاكه وسد أفواه الأسود، فلم تضرني، لأنني وُجدتُ بريئاً قدامه وقدامك أيضاً.» حينئذ فرح الملك، وأمر بإخراجه من الجب. ثم أوعز بإحضار الرجال الذين اشتكوا على دانيال، وطرحوا في جب الأسود، هم وأولادهم ونساؤهم. (سفر دانيال: الإصحاح السادس).

يـونـــان (يـــونس)

جاء قول الرب إلى يونان بن أمتّاي، قائلًا: «قم إذهب إلى نينوى، المدينة العظيمة، وناد عليها، لأنه قد صعد شرّهم امامي.» إلا أن يونس آثر الهرب إلى ترشيش (من أعمال إسبانيا على اغلب الظن)، لأنه لا طاقة له على وعظ الناس وزج نفسه في همومهم ومشاكلهم. هرب من وجه الرب إلى يافا، أول الأمر، اما اين كان في البدء فغير معلوم. نزل إلى يافا ووجد سفينة في صدر الإبحار إلى ترشيش. دفع الأجرة ونزل فيها.

ارسل الرب ريحاً شديدة، فحدث نوء عظيم في البحر، حتى كادت السفينة أن تنحطم. فخاف الملاحون وطرحوا الأمتعة إلى البحر ليخففوا عنهم. أما يونان فقد نزل إلى عنبرها واستسلم هناك لسلطان الكرى، غير عابــىء بما يجري. إلا أن رئيس النوتية جاء إليه وقال له: «ما لك نائماً. قم اصرخ إلى إلهك عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك.» ثم إنهم اتفقوا على أن يلقوا القرعة ليعرفوا سبب هذه البلية. فوقعت القرعة على يونان. وطلبوا منه أن يخبرهم عن سبب هذه المصيبة، ومن هو، ومن أي أرض اتى. فقال لهم إنه عبراني، وقد لجأ إلى البحر هرباً من وجه الله الذي صنع البحر والبر. فهلع الرجال هلعاً عظيماً، وقالوا له: «لماذا فعلت هذا؟» ثم رموه في البحر، الذي ما لبث أن هدات أمواجه. وأما يونان فقد أعدّ له الرب حوتاً عظيماً ابتلعه واستضافه في جوفه ثلاثة أيام.

وصلى يونان إلى الرب من جوف الحوت، فاستجيب دعاؤه. وامر الرب الحوت، فقذف يونان إلى البر. وهنا قال الرب ليونان ثانية: «قم إذهب إلى نينوى، المدينة العظيمة، وناد لها المناداة التي أنا مكلمك إياها.» فرضخ يونان لأمر الرب. ووصل نينوى بعد مسيرة ثلاثة أيام. وفي نينوى آمن اهلها بالله، هم ومليكهم الذي قام عن كرسيه وخلع رداءه، وتغطى بمسح، وجلس على الرماد. «فلما رأى الله اعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة، ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه.».

وعند ذاك اغتم يونان غماً شديداً، وصلى إلى الرب، وقال له: «آه يا رب، اليس هذا كلامي إذْ كنت بعد في ارضي. لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش،

لأني علمت أنك إله رؤوف ورحيم، بطيء الغضب، وكثير الرحمة، ونادم على الشر. فالآن يا رب، خذ نفسي مني لأن موتي خير من حياتي.» فقال الرب: «هل اغتظت بالصواب؟».

وخرج يونان من المدينة، وجلس شرقي المدينة، وصنع لنفسه هناك مظلة، وجلس تحتها في الظل حتى يرى ماذا يحدث في المدينة. فأعدّ الرب يقطينة، ارتفعت فوق يونان لتكون ظلاً على رأسه، لكي يخلصه من غمه. ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحاً عظيماً.

ثم أعدّ الله دودة عند طلوع الفجر في الغد، فضربت اليقطينة، فيبست. وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعدّ ريحاً شرقية حارة، فضربت الشمس على رأس يونان، فذبل، فطلب لنفسه الموت، وقال: موتي خير من حياتي.

فقال الله ليونان: «هل اغتظت بالصواب من أجل اليقطينة؟» فقال: «اغتظت بالصواب حتى الموت.» فقال الرب: «أنت أشفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها، ولا ربيتها، التي بنت ليلة كانت، وبنت ليلة هلكت. أفلا أشفق أنا على نينوى، المدينة العظيمة، التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم، وبهائم كثيرة؟ (سفر يونان).

• • •

إن بقاء يونس في جوف الحوت ثلاثة أيام يذكرنا باختفاء هرقل في جوف تيامت (أو تعامت) ثلاثة أيام أيضاً، قبل أن يشق طريقه إلى الخارج. وكلتا القصتين مستعارتان من صورة (أيقونة) كانت شائعة في سوريا وآسيا الصغرى، يظهر فيها مردوخ منتصراً على تيامت، إلاهة المياه المالحة. وكذلك كان ملك بابل، ممثل مردوخ، يغيب عدداً من الأيام، في كل عام، ليقاتل في أثنائها تيامت[139]. كما أن هناك زهرية اتروسكية يظهر فيها ملك اسمه جاسون يُحتضر بين فكي مارد. وجاسون هذا كان ربان سفينة الارغونوتيين التي أبحرت إلى مدينة كولخس على الساحل الشرقي من البحر الأسود، بحثاً عن الجزة الذهبية للخروف الذي طار على ظهره فريكسوس، في الأسطورة الإغريقية[140]. والظاهر أن حادثة يونس والحوت استعيرت من مثل هذه الصور.

ويعتبر سفر يونان ـــ في التوراة ـــ السفر الخامس من بين أسفار الأنبياء

(139) روبرت غريفز: الميثولوجيا الإغريقية، ج 2، ص 174.
(140) المصدر السابق، ج 1، ص 365.

الاثني عشر الثانويين؛ وهو فريد من نوعه بين كتب الأنبياء، لأن البطل هو الداعية الوحيد من بين أنبياء إسرائيل الذي يعظ قوماً من غير اليهود، وهم سكان نينوى الآشوريون. وقد انتقاه مؤلف مجهول كمثال لنبي ضيق الصدر، عنود، ليظهر عبثية العداء اليهودي للآخرين بلا تمييز، وهو موقف ربما كان خاتمة السياسات السلفية التي دعا لها ناحوم وعزرا في النصف الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، كما تقول الموسوعة البريطانية (تحت اسم يونان).

ويُعتقد أن مؤلف هذه الحكاية كان أحد المنفيين في بابل، وقد استعاد ذكرى الآشوريين المكروهين ليبشرهم النبي برسالة إسرائيل. والقصة ركيكة ومرتبكة في معلوماتها الجغرافية. فهناك يافا، وترشيش التي يظن أنها قادش الإسبانية، ونينوى. ولم تذكر القصة أين كان يونس في بادىء الأمر. والمسافة بين نينوى ويافا ليست قصيرة فتقطع بثلاثة أيام، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الماشي يقطع خمسة كيلومترات بالمعدل في الساعة الواحدة. وتبدو ركة القصة في أجلى مظاهرها في الحديث عن اليقطينة التي يفترض أن الرب غرسها لكي تُظل يونس وتلقنه درساً — مع أنه كان جالساً تحت مظلة! وبعد أن ذبلت اليقطينة، ذبل يونس من حر الشمس، مع أنه جالس تحت المظلة!

ويُظن أن القصة كتبت بين 500 و 350 ق. م. ، أو ربما في حدود 250 ق.م.

ولا أدري إن كانت هناك صلة بين اسم (يونان) أو (يونس) و (أونس) Oannes الكائن الأسطوري السومري الذي يرتبط اسمه بالطوفان، وبالسمكة. يحدثنا هارولد بيك Harold Peak في كتابه (الطوفان) عن (أونس) هذا، قائلاً: «ويحكي لنا بيروسوس عن أسطورة حول كائن هولة غريب، يدعى أونس، نصفه سمكة ونصفه الآخر إنسان، خرج من البحر، وجاء بالمعرفة لسكان ما بين النهرين. ولعل هذا الاسم، أونس، تهجية أخرى لـ (أيا) Ea إله البحر عند السومريين. على أنه يبدو، على أية حال، إنه من المحتمل أن تكون هذه القصة، في بعض جوانبها، أسطورة ترمز لقدوم السومريين، بحضارتهم المتقدمة، إلى رأس الخليج. أما متى وصلوا فغير معلوم بالضبط.»(141).

وقصة (يونان) أو (يونس) ترتبط بمدينة (نينوى)، وبالنون (وهي السمكة أو الحوت في اللغات السامية). وهذه الكلمات، جميعاً، أي يونان، أو يونس،

(141) Harold Peak: The Flood, London. Kegan Paul, Trench and co. ltd. 1930.

ونينوى، ونون، وكذلك أونس السومري، متشابهة في لفظها. وإذا علمنا «أن اسم نينوى Ninua نفسها سومري، وهو الاسم نفسه الذي كانت تسمى به إحدى مدن دولة لجش في بلاد سومر، أي مدينة (نينا) Nina التي تعرف بقاياها باسم (سُرغل) في منطقة لجش»[142]، أقول إذا علمنا ذلك، فهل يحق لنا أن نذهب إلى القول بأن اسم يونس أو يونان ما هو إلا (أونس) السومري؟

وبهذه المناسبة، إن الكلمة التي تدل على السفينة باللغة العبرية يقال لها (انيه)؛ وبالأوغاريتية الكنعانية (أ ن ي). أما كلمة (أنايا) anaja الأكدية، وتعني (سفينة)، فقد جاء في قاموس شيكاغو للآشوريات أنها سامية غربية، أي مستعارة من الكنعانية والعبرية والآرامية. وفي العربية هناك كلمة (إناء) أي (وعاء). والإناء يطلق على السفينة أيضاً في العديد من اللغات، مثل كلمة vessel الإنكليزية التي تعني: إناء؛ مركب؛ طائرة؛ وعاء دموي. والإناء بالأكدية أونوتو unutu. ويقال في العربية أيضاً: «إن الماء، يأنه انّاً: صبه. وفي كلام الأوائل: ان ماء، ثم اغله، أي صبه ثم أغله.» (قاموس تاج العروس).

والسفينة باللاتينية navis، وبالسنسكريتية nauh و navam، وباليونانية naus، وبالأرمنية القديمة nau، وبلغة ويلز noe (إناء مسطح، معجانة)، وبالفارسية: ناو، وبالاسكندنافية القديمة nor. وهذه جميعاً متحدرة من مادة naws الهندية الأوروبية. ومن كلمة navalis اللاتينية اشتقت الكلمة الإنكليزية navy (أسطول). كما أن الملاح أو (النوتي) باللاتينية يقال له nauta، و navita. وهناك الفعل nato (يسبح، يعوم). والملاح أو النوتي باليونانية هو navtees. والملاح بالعربية هو (النوتي) أيضاً، وبالعبرية (نوط). والملاحة بالعبرية: نوطوت. وقد أشار الجوهري في صحاحه إلى أن لفظة (النوتي) العربية من كلام أهل الشام، أي انها مستعارة من اللاتينية. وقال غيره إنها معربة. ويبدو أن المادتين، السامية والهندية الأوروبية، من أصل مشترك، وهي قريبة من لفظة (نون)، أي السمكة.

---

(142) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٢٨٢.

صدر عن دار اللام

Iraqi Politics 1921 – 1941
The Interaction Between
Domestic Politics and Foreign Policy
Dr. Ahmad A. Shikara

سيصدر عن دار اللام

شهادة سياسية ١٩٠٨ ـ ١٩٣٠
حسين جميل

العراق : نشأة الدولة ١٩٠٨ ـ ١٩٢١
د . غسان العطية

The Interaction of Sufism and Shi'ism
To the rise of the Safawids

Dr. Kamil M. El-Sheibi

هذا الكتاب هو تنويعات على كتاب «الاساطير العبرية» لروبرت غريفز ورافائيل باتاي، الصادر في بريطانيا. ان ندرة المصادر العربية في مجال المعتقدات القديمة والتوراة تجعل من مساهمة علي الشوك عملاً رائداً، لا في ميدان المعتقدات القديمة فحسب، بل كذلك في أسلوب إعداد الكتاب حيث اعتمد على مؤلف صدر باللغة الانكليزية، يعتبر واحداً من أبرز المصادر في موضوعه. وقد تجاوز علي الشوك النص المقتبس بدراسات وإضافات من حيث الموضوع والمرحلة الزمنية ليجعل من الكتاب محصلة فكرية جديدة.

إن كثيراً من المعتقدات الاسرائيلية لها جذور سومرية وبابلية وكنعانية وإن الحدود بين الأساطير حسب المفهوم المتعارف عليه وبين المعتقدات الدينية اليهودية ستبدو واهية، وبالأخص إذا أدركنا أن معظم هذه المعتقدات نشأ من أساطير سابقة.

والكتاب، وإن ركز على التوراة، إلا أنه يطرح ضمناً مسألة الميثولوجيا وعلاقتها بالمعتقدات الدينية عموماً.

علي الشوك: ولد في بغداد عام ١٩٢٩. انهى دراسة الرياضيات في جامعة بيركلي ــ كاليفورنيا عام ١٩٥٢. مارس التدريس وأسهم في تحرير مجلة «المثقف» العراقية (١٩٥٨ ــ ١٩٦٣). من مؤلفاته: الدادائية بين الأمس واليوم، بيروت ١٩٧٠. وكتاب الأطروحة الفنطازية، بغداد ١٩٧١. وكتاب الموسيقى الالكترونية، بغداد ١٩٧٨. ويقيم المؤلف حاليا في بودابست، هنغاريا.

LAAM Ltd.
1 Cambridge Gate, Regent's Park,
London NW1 4JN, England

ISBN 1 870326 016